

2020
6.1.2020

إيكا كورنياوان

الجمال جرح

ترجمة

أحمد شافعي

رواية

الجمال جرح

رواية

إيكا كورنياوان

ترجمة

أحمد شافعي



الجمال جرح

*

Cantik Itu Luka © by Eka Kurniawan, 2002
By Agreement with Pontas Literary & Film Agency.

الجمال جرح
رواية
الطبعة الأولى: ٢٠١٨
رقم الإيداع: ٢٣٢٣٣ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي: ٣-٠٥٦-٨٠٣-٩٧٧-٩٧٨
الغلاف: حاتم سليمان

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ ـ دجلة ـ المعادي ـ القاهرة.
تليفون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ ـ ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com
موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com



فهرسه أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية
كورنياوان، إيكا
الجمال جرح : رواية/ إيكا كورنياوان، ترجمة : أحمد شافعي. ـ ط١. –
القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٨
٦٣٢ ص، ٢٠ سم
تدمك: ٣-٥٦٠-٨٠٣ – ٩٧٧ – ٩٧٨
١ – رواية
أ- شافعي، أحمد (مترجمًا)
ب- العنوان
رقم الإيداع: ٢٣٢٣٣
الطبعة الأولى ٢٠١٨



عن ترجمة آني تاكر إلى الإنجليزية

مقدمة غير ضرورية

هاليموندا، شأن ماكوندو في **مئة عام من العزلة**، بلدة خيالية، جعلها الروائي الإندونيسي إيكا كورنياوان Eka Kurniawan بلدة ساحلية، وجعل منها مسرحًا عرض عليه تاريخ إندونيسيا المعاصر، وما شهدته من حوادث كبيرة على مدار عقود طويلة من القرن العشرين.

وربما لا تكون الإشارة إلى ماكوندو إشارة مفتعلة. فالكاتب يستهل هذه الرواية-كما سترون عما قريب- بامرأة تقوم من قبرها بعد أكثر من عشرين عامًا، وقد طال شعرها خلال سنوات موتها، وهذه الصورة في تقديري مسجَّلة في الرواية الحديثة باسم جابرييل جارثيا ماركيز، ولا أحسب أن كورنياوان أراد منها إلا أن تكون إيماءة احترام إلى المعلم الكولومبي الكبير الذي تكاد هذه الرواية تعترف بدينها له في كل موضع، بقدر ما تدين لإندونيسيا، بتاريخها الحديث وأساطيرها وثقافتها. ولا أعرف هل افتتاني أنا بمئة عام العزلة هو الذي جعلني أرصد على مدار الرواية بعض التماثلات مع شخصياتها، أم أن الكاتب

واقع بالمثل في أسر تلك الرائعة. ففيها علاوة على المرأة التي تقوم من قبرها، مناضل شيوعي يقضي شطرًا مما بعد نضاله يحيك ألبسة البحر لتباع للسائحين "بدلًا من أسماك الكولونيل أورليانو"، وفيها البلطجي المنيع على الرصاص والنصال "يذكّرنا بخوسيه"، وفيها جميلة بريئة بلمسة بلاهة "تذكّرنا بريميديوس"، وفيها أسرة واحدة تتناسل، فلا يتوزع نسلها "كما عند ماركيز" بل يبقى محدود العدد، منذورًا هو الآخر بلعنة، لا تتمثل في طفل بذيل خنزير نظل مع الرواية وأجيالها إلى أن نقابله، بل هي لعنة أخرى توضع بين أيدينا في فصل الرواية الأول.

وعلى أي حال، لست وحدي من يقول بهذا في ما يبدو، فويكيبيديا تذكر في تعريفها للكاتب أن "استعمال الواقعية السحرية في الكتاب قد أدى إلى مقارنات بجابرييل جارثيا ماركيز"، فلعلّي كنت لأعثر ـإن عنيت بالبحث أكثر مما عنيتـ على بعض من تلك المقارنات، ولعلّي كنت لأصادف المزيد من التماثلات بين الروايتين وقد أشار غيري إليها.

***

عبر ثلاثة أجيال من أسرة واحدة، يحكي إيكا كورنياوان عشرات الحكايات، مخلصًا لكل حكاية منها، كأنما هي هدفه الوحيد من الرواية كلها، ثم ينصرف إلى حكاية أخرى، حتى ليوشك كل فصل في هذه الرواية ـأو عدد غير هين من فصولهاـ أن يكون في ذاته قصة طويلة مشبعة إشباع رواية.

في حوار مع نيويوركر الأمريكية قال الكاتب إنه كان يطمح إلى كتابة رواية أشباح، أو رواية إثارة، فهو على المستوى الشخصي مغرم بقراءة هذا النوع من الروايات، لكن الرواية أرغمته على مسارها الخاص، وانتقت مكوناتها المناسبة فصعب على النقاد في بلده أن يصنفوها، إذ لم تبد لهم تاريخية، أو واقعية، أو عبثية، ولم يتسن لهم أن يحددوا أهي خفيفة هزلية أم جادة، فسكتوا عنها فور صدورها في عام ٢٠٠٢ ولعلهم اعتبروها كما قال الكاتب ـفي ما نقلت عنه نيويوركرـ "رواية فاشلة".

ولكن تلك "الرواية الفاشلة" ترجمت إلى الإنجليزية بعد سنوات، فاختارتها مجلات كومنويلث ومجلة بوسطن جلوب وبابليشرز ويكلي وكيركوس رفيو وهاربر بازار وصحيفتا فايننشال تايمز ونيويورك تايمز من أفضل الكتب الصادرة سنة ٢٠١٥، علاوة على اختيار بعض الجهات والمواقع لها أفضل رواية للعام نفسه، وحصولها على ما يعرف بجائزة القراء العالمية سنة ٢٠١٦.

***

تشير ويكيبيديا إلى أن إيكا كورنياوان يصر على أن "الجمال جرح" ليست رواية تاريخية أو رواية عن تاريخ إندونيسيا. ومع أنني لست مُلمًا بشيء من تاريخ إندونيسيا ـإلا ما استخلصته من هذه الرواية وما هو بقليلـ فإنني أستطيع أن أقول إن هذا الإصرار يخطئ موضعه. فالرواية بالفعل تصلح مدخلًا جيدًا إلى معرفة تاريخ إندونيسيا، أو إلى معرفة

إندونيسيا نفسها. فالقارئ يقف من خلالها على محطات أساسية ومآسٍ كبرى عاشها ذلك البلد على مدار ثلاثة أرباع القرن. غير أنني أشهد أنني استطعت أن أستمتع بقراءة هذه الرواية كاملة بدون أن أعيق قراءتي بالبحث في جوجول عن اسم هذا العلم أو ذاك، أو التثبت من هذه الواقعة التاريخية أو تلك. بل مضيت أقرأ الرواية كما تقرأ الروايات، مصدّقًا ما تقوله، متواطئًا على القبول بكل عنصر يسهم في حكي الحكاية: هذه هاليموندا، وهاليموندا بلدة صغيرة احتلها الهولنديون وأعملوا فيها كل فظائع المستعمرين، فلمَّا قامت الحرب العالمية الثانية، حلّ اليابانيون فيها محلّ الهولنديين، وثار من أبنائها من ثاروا، وخاضوا حرب عصابات، وحرَّروا بلدهم من مستعمريه ومستعمري إندونيسيا، وأعلنت الجمهورية، وتعرَّض الشيوعيون في هاليموندا -كما في شتى أرجاء إندونيسيا- لمجزرة دموية. لم أكن بحاجة إلى التثبت من صحة تلك الوقائع أو مطابقتها للتاريخ كما يكتب خارج عالم هاليموندا.

ومع ذلك، فقد ألزمت نفسي وأنا أعد هذه الترجمة للنشر، بأن أضيف هوامش بين الحين والآخر، ومقدمة أراها غير ضرورية، لكنني أردت منها أن أستعرض سياق الرواية التاريخي، الذي قد يحتاج قارئ ما من يوفره له:

- ١٦٧٠-١٩٠٠ ألحق الاستعماريون الهولنديون كامل الأراضي الإندونيسية تحت سلطتهم وأطلقوا عليها اسم جزر الهند الشرقية الهولندية.

- ١٩٤٢ اليابان تغزو جزر الهند الشرقية الهولندية.
- ١٩٤٥ اليابان تساعد زعيم حركة الاستقلال سوكارنو على الرجوع من منفاه الداخلي ليعلن الاستقلال. وتهزم اليابان في الحرب، وتنسحب قواتها من إندونيسيا. وتبدأ هولندا محاولة استعادة سيطرتها على إندونيسيا.
- ١٩٤٩ هولندا تعترف باستقلال إندونيسيا بعد أربع سنوات من حرب العصابات.
- ١٩٦٥ انقلاب فاشل، تتبعه مجازر لمئات آلاف الشيوعيين في حملة تطهير بشعة.
- ١٩٧٥ تحصل تيمور الشرقية على استقلالها من البرتغال.
- ١٩٧٦ إندونيسيا تغزو تيمور الشرقية محاولة ضمها إلى أراضيها.

ذلك غاية ما أردت إثباته في المقدمة عونًا للقارئ على قراءة رواية يسيرة القراءة سلسة ممتعة بل ومعينة على المعرفة ومحرضة عليها. غير أنني انتهيت إلى كتابة كل هذه السطور التي لا يسعني في نهايتها إلا أن أعتذر لكم مسبقًا عن أي خطأ قد أكون وقعت فيه أو تسبَّبت فيه، أو أي خلل قد يكون غاب عن عيني برغم أقصى ما استطعت من الحرص.

أحمد شافعي

القاهرة - ٢٠١٧

ما إن انتهى من تنظيف سلاحه، واتخذ من قلنسوة بسيطة خوذة مكتملة، وأطلق اسمًا على حصانه وقرَّر لنفسه اسمًا أيضًا، حتى أدرك أنه لا يعوزه غير شيء واحد، هو أن يعثر لنفسه على سيدة يغرم بها، فما الفارس الجوّال بغير حبيبة إلا شجرة عاطلة من الورق والثمر، بل هو جسم لا روح فيه.

ميجيل دي ثرفانتس - من دون كيخوتة

١

في عصر عطلة أسبوعية من مارس، وبعد موتها بإحدى وعشرين سنة، نهضت ديوي آيو من قبرها. أفاق صبيٌّ راعٍ من نومه تحت شجيرة فرانجيباني فبال في سرواله القصير وصرخ، وارتاعت خرافه الأربعة ومضت تجري بين شواهد القبور الحجرية والخشبية كأنما اندفع بينها نمِر. بدأ كل شيء بجلبة صادرة عن قبر قديم لا يحمل شاهده كتابة ويكسوه العشب حتى ارتفاع الركبة، لكن الجميع كانوا يعلمون أنه قبر ديوي آيو التي توفيت عن اثنتين وخمسين سنة ثم قامت بعد موتها بإحدى وعشرين سنة، فلم يعد أحد يعرف منذ تلك اللحظة وما بعدها كيف يحسب عمرها.

جاء الناس من الحي المجاور ليشاهدوا القبر بعدما أخبرهم الصبي الراعي بما جرى. رافعين ذيول ملابسهم، حاملين أطفالهم، ممسكين بمكانسهم، وملطَّخين بوحل الحقول، تجمّعوا وراء شجيرات الكرز وشجر الجاتروفا وفي بساتين الموز المجاورة. ولم يتجاسر أحد على الاقتراب، بل أنصتوا إلى الضجة الصادرة عن ذلك القبر القديم كما لو كانوا متحلقين حول بائع الأدوية إذ ينادي على بضاعته في السوق

صباحَ كلّ اثنين، كانوا إجمالًا مستمتعين بالمشهد المرعب، غافلين عن الفزع الذي كان من المؤكد أن يستولي على أيٍّ منهم لو شاهده وحده. بل إنهم كانوا يتوقعون أن يشهدوا معجزة ما، لا أن يحضروا مجرد جلبة تصدر عن قبر قديم، وذلك لأن ساكنة تلك البقعة من الأرض كانت في حياتها عاهرة لليابانيين في أثناء الحرب، وكم قال الشيخ الكياي[1] إن من يتلوّثوا في حياتهم بالآثام يعانوا لا محالة من عذاب القبر. فلا بد أن تلك الجلبة هي قرع سوط يهوي به الملاك عليها، ولكن سرعان ما استولى عليهم الضجر، وودّوا لو تحدث أعجوبة صغيرة أخرى.

فلمّا وقعت الأعجوبة، وقعت على أغرب نحو ممكن. اهتزّ القبر وتصدَّع، وانفجرت الأرض كأنما في جوفها قنبلة، أو كأنه زلزال صغير أو عاصفة تُبَعْثِر العشب وشواهد القبور طائرة في الهواء، ومن وراء التراب المنهمر كأنه ستار وقفت امرأة عجوز، تنظر في غضب وشراسة، وهي لم تزل ملفوفة في كفنها وكأنها لم تُوارَ التراب إلا في الليلة السابقة. جُنَّ جنون الناس وسارعوا يهربون في فوضى دونها فوضى الخراف، وأصداء صرخاتهم المتداخلة ترتد من التلال البعيدة. رمت امرأة صغيرها وسط الشجيرات ووطئ أبوه غصن موز، وغاص رجلان في مصرف، وآخرون فقدوا الوعي على قارعة الطريق، وبقي آخرون يجرون لخمسة عشر كيلومترا بدون أن يتوقفوا.

☆ جميع هوامش الرواية خاصة بالترجمة العربية لا وجود لها في الترجمة الإنجليزية

1 Kyai في اللغة الجاوية هو العالم بالإسلام، ويوضّح السياق لاحقا أنه إمام المسجد

أمام ذلك كله، سعلت ديوي آيو وتنحنحت، مذهولة من وجودها في المقابر. كانت قد حلّت أعلى عقدتين في كفنها ثم شرعت تحلُّ أدنى اثنتين منها لتحرِّر قدميها فيمكنها السير. كان شعرها قد طال بصورة سحرية، فلمّا هزته انطلق من لفافته القطنية وإذا به يرفرف في نسيم الأصيل ويكنس الأرض لامعًا لمعة طحالب سوداء في قاع نهر. ومع أن جلدها تغضّن، بقي وجهها أبيض مشعًّا، وعيناها مليئتين بالحياة في محجريهما إذ تشخص إلى الناظرين إليها من مخابئهم وسط الآكام، فسارع نصفهم يجرون وغاب النصف عن الوعي. فغمغمت ـ بدون أن توجِّه كلامها لأحد ـ شاكية من مانت ضمائرهم فدفنوها حية.

فكّرتْ أول ما فكّرتْ في ابنتها الصغيرة، التي لم تعد صغيرة بالطبع. كانت ديوي آيو قبل إحدى وعشرين سنة قد ماتت طوال اثني عشر يومًا بعدما أنجبت تلك الطفلة الدميمة التي بلغت من الدمامة أن القابلة التي أولدتها لم تدر هل ما بين يديها طفل أم ربما كومة خراء، خاصة وأن الطفل والخراء الاثنين يخرجان من فتحتين لا يفصل بينهما إلا سنتيمتران. ولم تصدّق القابلة أنه كائن بشري لا خراء إلا حينما تلوّى الطفل أخيرًا بين يديها وابتسم فقالت للأم الراقدة في وهن بعرض السرير بلا رغبة بادية في النظر إلى خلفتها إنها ولدت الطفل، وإن صحته جيدة، وإنه يبدو ودودًا.

سألت ديوي آيو "بنت، صح؟"

قالت القابلة "نعم، مثل الثلاث السابقات".

قالت ديوي آيو بضيق بالغ "أربع بنات، كلهنّ جميلَات. عليَّ أن أفتح ماخوري المستقلّ. قولي لي: إلى أي مدى هي جميلة؟"

بدأت الطفلة الملفوفة في قماطها بإحكام تتلوّى بين ذراعي القابلة وتبكي. وكانت امرأة تدخل وتخرج مزيلة من الغرفة ما تلوَّث من القماش بالدم والمشيمة، ولوهلة لم تدر القابلة بماذا تجيب، فلم يكن من الممكن أن تصف بالجمال طفلة حسبتها لوهلة كومة خراء أسود. قالت محاولة تجاهل السؤال "أنت كبرتِ ولا أظن أنك ستقدرين على الرضاعة".

"عندك حق. استهلكتني البنات الثلاثِ السابقات".

"ومئات الرجال".

"مائة واثنان وسبعون رجلًا. أكبرهم كان في التسعين، وأصغرهم كان في الثانية عشرة لم يمض على ختانه إلا أسبوع واحد".

عاودت الطفلة البكاء. فقالت القابلة إن عليها أن تعثر للصغيرة على مرضعة. فإن لم تعثر على امرأة فحليب بقرة، أو كلبة، أو ربما حليب فأرة. قالت ديوي آيو نعم اذهبي. وقالت القابلة وهي تنظر في وجه الطفلة العابس "تعالي يا قليلة الحظ". لم تكن تستطيع أن تصفها، ولكن خطر لها أنها تشبه مسخًا لعينًا من الجحيم. فجسم الطفلة كله هباب أسود كأنما احترقت حية، وشكلها غريب لا يشبه أي شيء معروف. فهي مثلًا لم تكن واثقة من أنف الطفلة أهو أنف أم هو مثلما يبدو لعينيها سلك كهربائي معقوف لا علاقة له بأي أنف رأته في

حياتها. وفم الطفلة ذكّرها بخطم الخنزير وأذناها بيدي القدرة. كانت على يقين أنه ما من كائن على وجه الأرض أقبح من هذه الصغيرة اللعينة، فلو أنها الربُّ لقتلتها على الفور وما سمحت لها أن تعيش في عالم سوف ينتهكها بلا رحمة.

عادت القابلة تقول "مسكينة"، ومضت تبحث لها عمَّن ترضعها.

قالت ديوي آيو "نعم مسكينة" وتقلّبت في فراشها. "فعلت كل ما في وسعي لأقتلك. لم يكن يبقى إلا أن أبلع قنبلة وأفجّرها في بطني. أيتها الصغيرة المسكينة، حالك حال الآثمين الملاعين، لا يموتون بسهولة".

في البداية حاولت القابلة أن تخفي وجه الطفلة عن الجارات اللاتي توافدن، لكنها قالت إنها بحاجة إلى من ترضع الطفلة، فتدافعن راغبات في رؤيتها، فاللاتي كن يعرفن ديوي آيو كنّ يبتهجن كثيرًا برؤية بناتها الجميلَات. لم تقو القابلة على أن تنهرهن إذ انقضضن يزحن عن وجه الطفلة غطاءه، فما كدن يرينها حتى صرخن من هول ما لم يرين مثله من قبل، وابتسمت القابلة وذكّرتهن أنها فعلت كل ما في وسعها لكي لا تريهن هذا الوجه الجهنمي.

بعد تلك الانفجارة سارعت القابلة بتركهنّ واقفات لوهلة وقد ارتسمت على وجوههنّ سيماء البلهاء حينما تُمحى ذاكراتهم فجأة.

قالت أول من تخلصت من فقدان الذاكرة المباغت ذلك "لا بد من قتلها".

"سبق أن حاولت" كذلك قالت ديوي آيو وقد خرجت غير مرتدية إلا ثوبًا منزليًا متجعّدًا وربطت حول خصرها قماشة، وتبعثر شعرها فكأنه شعر شخص خارج يترنح من مصارعة ثيران.

نظر الناس إليها مشفقين.

سألت ديوي آيو "جميلة، صح؟"

"هممم، نعم".

"ما من لعنة أبشع من إنجاب أنثى جميلة في عالم رجاله فاحشون فحش الكلاب في الحر".

لم تردّ أيٌّ منهن، بقين ينظرن إليها في تعاطف، مدركات أنهنّ يكذبن. مضت روسينا الفتاة الجبلية الخرساء التي تعمل في خدمة ديوي آيو منذ سنين مصطحبة سيدتها إلى الحمام وقد ملأت حوضه بالماء الدافئ. غطست ديوي آيو في الصابون الكبريتي المعطر وحضرت الفتاة الخرساء فغسلت شعرها بزيت الصبار. بدا أن الخرساء فقط هي التي لا تبالي بشيء من ذلك، برغم أنها علمت ولا شك بأمر الصغيرة الدميمة، فلم يكن أحد بصحبة القابلة في أثناء عملها غير روسينا. دعكت ظهر سيدتها بالحجر، وأحاطتها بالمنشفة، وبدأت ترتّب الحمام قبل أن تنهض ديوي آيو.

حاولت إحدى الجارات أن تلطّف الجو فقالت لديوي آيو "عليك أن تسمّيها باسم حسن".

قالت ديوي "صحيح. اسمها جمال".

فقالت الجارات "يااه" في عجب وحاولن في حرج إثناءها عن ذلك.

"ما رأيك في إصابة؟"

"أو جرح؟"

"بحق الله، لا تسمِّيها بهذا الاسم".

"ليكن، اسمها جمال".

تابعن يائسات ديوي آيو وهي ترجع إلى غرفتها لترتدي ثيابها، ولم تملك إحداهن إلا النظر إلى الأخريات في حزن وهي تتخيل صغيرة في منتصف وجهها سلك كهرباء محروق تحمل اسم جمال. أي عار وأي فضيحة.

كان صحيحًا أن ديوي آيو حاولت قتل الطفلة حينما علمت أنها، سواء أعاشت نصف قرن كاملًا بالفعل أم لم تعشه، قد حملت من جديد. وكحالها مع بناتها السابقات لم تكن تعلم الأب، لكنها خلافًا للأخريات لم تجد في نفسها أدنى رغبة في أن يعيش الطفل، فتناولت خمس حبات باراسيتامول فائق القوة سبق أن اشترته من طبيب القرية وابتلعتها مع نصف لتر من الصودا فكان من شأن ذلك أن يتسبَّب في موتها هي نفسها ثم تبيّن أنه غير كاف لقتل ذلك الجنين. فكّرت في وسيلة أخرى فاستدعت قابلة غرست عصا خشبية صغيرة في جوفها لقتل الجنين، وبقيت تنزف طوال يومين وليلتين، وارتدت العصا

الصغيرة شظايا منثورة، وبقي الجنين ينمو. وجرَّبت ستَّ طرق أخرى لتغلب ذلك الجنين، فلم تكن منها جميعًا أي جدوى، فاستسلمت في نهاية المطاف وقالت:

"يبدو أن هذه الطفلة بنت معارك حقيقية، وواضح أنها سوف تهزم أمها في هذه المعركة".

تركت بطنها يكبر ويكبر، وشاركت في **سلامياتان**[2] في الشهر السابع، وتركت الجنين يولد، وإن رفضت النظر إليه. كانت قد أنجبت قبل هذه ثلاث بنات، جميعهنّ بديعات الجمال كأن الواحدة منهن بيت في ثلاثية شعرية. ضجرت من ولادة جميلَات تراهنّ كالمانيكانات في واجهات المحلات فلم ترغب في النظر إلى صغرى بناتها موقنة أنها لا تختلف عن شقيقاتها الكبريات. وبالطبع كانت مخطئة، فلم تكن قد عرفت بعد كم هي مقززة ابنتها تلك. وحتى حينما بدأت الجارات يتهامسن في الخفاء بأن الصغيرة أشبه بنتاج عشوائي لتزاوج قردة وضفدعة وسحلية متلصصة، لم تتصور أنهنّ يتكلمنَ عن طفلتها هي. بل حين قلن إن كلاب الغابة البريةَ نبحت في الليلة السابقة وإن البوم طار داخلًا البيوت لم تتشاءم من أي من ذلك.

بعدما انتهت من ارتداء ثيابها، عادت تستلقي، وقد حلَّ عليها الذهول بغتة من وجع الرحلة كلها، رحلة إنجاب البنات الأربع،

---

2 slametan : احتفال تقليدي في جاوة قد يقام بأي مناسبة، كالميلاد أو الزواج أو الموت أو الانتقال إلى بيت جديد، ومن ثم يتغير مزاجه بحسب مناسبة إقامته.

وعيشها لأكثر من نصف قرن. واغتمَّت حينما خطر لها أن الطفلة إن كانت قد رفضت الموت، فلعل أمها هي التي ينبغي الآن أن ترحل فلا تراها وهي تكبر وتصير شابة. نهضت ومضت تترنّح حتى الطرقة ناظرة إلى الجارات وكنّ لم يزلن متحلقات منهمكات في نمائمهنّ على الطفلة. جاءت روسينا من الحمام فوقفت بجوار ديوي آيو مستشعرة أن سيدتها ستأمرها بشيء.

قالت ديوي آيو "اشتري لي كفنًا، لقد منحت بالفعل أربع بنات لهذا العالم اللعين، وآن الأوان لأن تقام جنازتي".

صرخت النسوة وفغرن أفواههنّ في وجوههنّ البلهاء الشاخصة إلى ديوي آيو. فلو أن إنجاب طفلة دميمة كهذه خطيئة، فالتخلي عنها بهذه الطريقة خطيئة أفدح. لكنهنّ لم يجهرن بذلك على الفور، بل حاولن أن يقلن لها إن الموت بهذه الطريقة حماقة، وإن من الناس من عاشوا أكثر من مائة عام، وإن ديوي آيو لا تزال صغيرة على الموت.

قالت في هدوء حازم "إن عشت إلى المائة سأنجب ثماني طفلات، وهذا أكثر مما ينبغي".

ذهبت روسينا فاشترت الكفن قماشًا قطنيًا أبيض نظيفًا لبسته ديوي آيو على الفور وإن لم يكن ذلك كافيًا ليجعلها تموت على الفور. وهكذا، بينما كانت القابلة تجوب الحي بحثًا عن مرضعة (ولم يُجدِ بحثها فسقت الطفلة في النهاية ماء رز مسلوق)، كانت ديوي آيو تستلقي في

هدوء على سريرها ملفوفة في الكفن، منتظرة بصبر عجيب مجيء ملاك الموت ليحملها إلى البعيد.

ولما مضى وقت على ماء الرز المسلوق وبدأت روسينا ترضع الطفلة لبنا بقريًا (يباع في المتجر باسم لبن الدب)، كانت ديوي آيو لا تزال في السرير، مانعة إحضار الطفلة المسماة جمال إلى غرفتها. لكن حكاية الطفلة الدميمة وأمها الملفوفة في الكفن سرت بسرعة الطاعون، آتية بالناس لا من أهالي الأحياء القريبة فقط، بل ومن أقصى قرى المقاطعة ليروا ما بدا وكأنه ميلاد نبي، مقارنين عواء الكلاب البرية بالنجم الذي رآه المجوس ليلة ميلاد يسوع ومقارنين الأم الملفوفة في الكفن بمريم المنهكة، وما أبعده من تشبيه.

بسيماء بنت صغيرة تُربِّت على نمر وليد في حديقة الحيوان كان الزوار يقفون بجانب الطفلة الدميمة لالتقاط الصور، بعدما يكونون قد فعلوا مثل ذلك مع ديوي آيو التي بقيت طريحة الفراش في سلامها الغامض غير منزعجة مطلقًا من الضجة العاتية. جاء أصحاب الأمراض المستعصية راجين لمسة من الطفلة، فسارعت روسينا إلى منع ذلك خشية أن تنتقل كل الجراثيم إلى الطفلة، لكنها في المقابل أعدت دلاء من مياه استحمام جمال. وجاء آخرون يتسوّلون نصيبًا من الحظ لمائدة القمار أو فكرة لامعة يربحون من ورائها في أعمالهم. ومن أجل ذلك كله أعدت روسينا -التي تحولت بين عشية وضحاها إلى راعية الطفلة- صناديق تبرعات سرعان ما كانت تمتلئ بروبيات الزائرين. كانت الخرساء تتوقع

احتمال وفاة ديوي آيو حقًا في نهاية المطاف فقرّرت أن تدخر من هذه الفرصة النادرة بعض المال فلا تحمل همّ لبن الدب لاحقًا أو همّ مستقبلهما في البيت وحدهما بما أنه ليس من المنتظر مطلقًا أن تظهر فيه أخوات جمال.

ولكن كل ذلك انتهى بمجرد أن جاءت الشرطة ومعها الشيخ الكياي الذي اعتبر الأمر كله هرطقة، وبدأ ينفث أوامره في وجه ديوي آيو كي تكفّ عن سلوكها المشين، مطالبا إياها أن تخلع عنها الكفن.

فهزأت به ديوي آيو وقالت "لاحظ أن من تطلب منها خلع ثيابها عاهرة، لذلك يستحسن أن يكون معك ثمن ذلك".

سارع الشيخ الكياي يدعو لها بالرحمة ثم مضى عنها فلم يرجع مرة أخرى.

ومرة أخرى لم يبق غير الخرساء روسينا التي لم تنزعج قط من جنون ديوي آيو في أي شكل جاء، وبات واضحًا تمامًا أنها الوحيدة التي تفهم هذه المرأة حقا. كانت ديوي آيو قد قالت قبل وقت طويل من محاولتها قتل الطفلة في رحمها إنها ضجرت من إنجاب الأطفال فعلمت روسينا أنها حبلى. ولو كانت ديوي آيو قد قالت مثل ذلك لجاراتها اللاتي يغلب نزوعهنّ إلى النميمة نزوع كلاب السكك إلى العواء لكُنَّ تكلّفن الابتسام وقلن ما هذا إلا كلام يقال، وحسبك فقط أن تكفّي عن بيع نفسك فلا تخافي أبدًا أن يحبّلك الرجال. لكن بيني وبينكم: هذا كلام لا يقال لمثل ديوي آيو بل لغيرها من العاهرات، فهي لم تربط قط

بناتها الثلاث (أو الأربع الآن) بلعنة الدعارة، وكانت تقول إنه إذا لم يكن لبناتها آباء، فما ذلك إلا لأنهنّ حقًا بلا آباء، وليس لأنهنّ لا يعلمن من آباؤهنّ، وليس بالقطع لأن أمهنّ لم تقف بجوار عريس أمام شيخ القرية. كانت تؤمن بأنهنّ بنات شياطين.

"لأن الشيطان شأن الإله أو الآلهة" كما كانت تقول "يجب أن يرضي مزاجه، ومثلما أنجبت مريم ابن الرب وأنجبت زوجتا باندو أبناءهما الآلهة[3]، فإن رحمي هو الموضع الذي ينثر الشياطين فيه بذورهم، فألد بنات الشياطين. وقد ضجرت من ذلك يا روسينا".

وكالعادة ابتسمت روسينا. لم تكن تنطق كلامًا، بل غمغمة مفككة، لكنها كانت تبتسم بطلاقة، وتحب الابتسام. وكانت ديوي آيو مغرمة بها بسبب تلك الابتسامة بالذات، وكثيرًا ما كانت تقول لها إنها ابنة فيل، لأن الفيلة مهما استبد بها الغضب تبقى مبتسمة على الدوام، تمامًا كالفيلة التي ترينها حينما يأتي السيرك إلى البلدة في نهاية كل سنة تقريبًا. بلغة الإشارة التي لا يمكن تعلمها في أي مدرسة للصمّ ولا بديل عن تعلمها من روسينا نفسها، قالت الفتاة لديوي آيو إنها لا ينبغي أن تشعر بالضجر فهي لم تنجب حتى عشرين طفلًا بينما أنجبت جنداري مائة من أبناء كوراوا[4]. فضحكت ديوي آيو وعلت قهقهتها. كانت تحب خفة دم روسينا الطفولية وكانت لا تزال تضحك وهي تقول لها إن

---

3 Pandu من شخصيات قصيدة المهابهاراتا الملحمية الهندية

4 Gandari وKurawa من شخصيات المهابهاراتا

جنداري لم تتجنب الأطفال المائة في مائة مخاض، بل وضعت حملها قطعة ضخمة من اللحم تحوّلت بعد ذلك إلى مائة طفل.

بتلك الطريقة المرحة ظلّت روسينا تعمل، تعتني بالطفلة، وتدخل المطبخ مرّتين في اليوم وتغسل كلّ صباح، بينما ديوي آيو مستلقية لا تتحرك، وقد باتت بحقّ أشبه بجثة تنتظر حفّاري قبرها أن يتمُّوا مهمتهم. وكانت بالطبع تشعر بالجوع، فتنهض لتأكل، وتذهب إلى الحمام كلّ صباح وكلّ عصر، لكنها كلّ مرة كانت ترجع فتلفّ نفسها في الكفن وتستلقي بجسم صلب مشدود، واضعة يديها على بطنها، مغمضة، ملتوية الشفتين في ابتسامة خافتة. ومن الجيران من حاولوا التجسّس عليها من شباكها المفتوح، فكانت روسينا تحاول المرّة تلو الأخرى أن تنهرهم بدون أن يصادفها النجاح، وتساءل الناس لماذا بدلًا من ذلك كله لا تقتل نفسها؟ أما ديوي آيو فلم تعمد إلى سخريتها المعهودة، بل اكتفت بالصمت، والسكون التام.

وأخيرًا أقبل الموت المنتظر في اليوم الثاني عشر بعد ولادة جمال الدميمة، أو أن ذلك على الأقل ما اعتقده الجميع. ظهرت علامة اقتراب الموت في صباح ذلك اليوم حينما أمرت ديوي آيو روسينا بأن لا يكتب اسمها على شاهدة قبرها بل يكتب فقط "أنجبتُ أربع بنات ومتّ". وكان لروسينا سمع ممتاز، وقدرة على القراءة والكتابة، فدوَّنت تلك الرسالة كاملة، لكن إمام المسجد المشرف على مراسم الدفن رفض الأمر على الفور وقد رأى أن هذا الطلب المجنون يزيد الموقف كله إثمًا، وقرَّر من تلقاء نفسه ألا يكتب على شاهدة قبر المرأة أي شيء.

كانت إحدى جارات ديوي آيو تتلصّص عليها من الشباك في عصر ذلك اليوم فعثرت عليها نائمة في السكينة التي لا تحل على أحد إلا في أواخر أيامه. ولكن شيئًا آخر كان في الغرفة: رائحة معقّم في الهواء. كانت روسينا قد اشترته من الفرن ونثرته ديوي آيو على نفسها هو وبعض المواد الحافظة للجثث التي كان البعض يمزجونها أحيانا مع كرات اللحم. كانت روسينا تترك المرأة التي تملّكتها فكرة الموت تفعل ما يحلو لها، فلو كانت أمرتها بأن تحفر قبرًا وتدفنها فيه حية لفعلت ذلك وأوعزته إلى الطرافة المميّزة لسيدتها، ولكن الأمر لم يكن كذلك مع المتلصّصة الجاهلة. فهذه المرأة قفزت من الشباك لّما رأت أن ديوي آيو شطحت أكثر مما ينبغي.

قالت في امتعاض "اسمعي أيتها القحبة التي نامت مع رجالنا جميعًا، إذا كنت ستموتين موتي لكن لا تحفظي جسدك، فلن تخلو القلوب من الحسد تجاهك ما لم يتعفن جسمك". ومضت تدفع ديوي آيو وتقلّب جسمها بدون أن تستيقظ.

دخلت روسينا وأشارت بأنها لا بد أن تكون قد ماتت.

"العاهرة ماتت؟"

أومأت روسينا.

"ماتت؟" كشفت حينئذٍ عن نفسها الحقيقية، تلك المرأة المنتحبة، إذ بكت كما لو كانت تبكي أمها الراحلة، وقالت بين نهنهاتها "كان الثامن من يناير الماضي أجمل يوم عاشته أسرتنا. يومها عثر رجلي على

نقود تحت الجسر وذهب إلى ماخور ماما كالونج ونام مع هذه العاهرة بالذات، هذه الميتة أمامي الآن. ورجع بعد ذلك، فكان ذلك هو اليوم الوحيد الذي بدا فيه طيّبًا مع الأسرة. حتى إنه لم يضرب أحدًا منا".

حدجتها روسينا بنظرة احتقار كأنما تريد أن تقول إن زوجها لا يمكن أن يلام على ضرب نكدة مثلها، ثم صرفت الباكية بأن طلبت منها أن تذيع خبر وفاة ديوي آيو. لم تكن هناك حاجة إلى كفن، فقد اشترته بالفعل قبل اثني عشر يومًا، ولم تكن بها حاجة إلى غسل فقد اغتسلت بنفسها، بل إنها وضعت على جسمها المواد الحافظة بنفسها. وأشارت روسينا إلى إمام المسجد القريب تريد أن تقول "إنها كانت لتصلّي على نفسها إن استطاعت". فقال الإمام وهو ينظر بكراهية إلى الخرساء إنه لا يجد في نفسه ميلًا إلى أن يصلّي على لحم هذه العاهرة أو حتى أن يدفنها. قالت روسينا (بلغة الإشارة أيضًا) "ما دامت قد ماتت فهي لم تعد عاهرة".

وأخيرًا استسلم الشيخ جاهرو إمام المسجد وأشرف على جنازة ديوي آيو.

حتى موتها، الذي لم يصدق الكثيرون أنه سوف يأتي بهذه السرعة، لم تكن قد رأت الطفلة. قال الناس إنها سعيدة الحظ حقًّا فلا حزن أشد من حزن أمٍّ إن رأت طفلتها ولدت على ذلك القدر من الدمامة. ما كانت لتموت مستريحة، وما كانت لترقد في سلام. روسينا وحدها لم تكن على يقين أن ديوي آيو كانت لتبتئس إن رأت طفلتها، فقد كانت

تعلم أن تلك المرأة لم تكن تمقت في العالم شيئًا بقدر ما تمقت طفلة صغيرة جميلة. كانت لتبتهج أشد البهجة إن علمت كم تختلف صغرى بناتها عن أخواتها الكبريات، لكنها لم تعلم. ولأن تلك الخرساء كانت مطيعة لسيدتها على الدوام فإنها لم ترغمها في أيامها الأخيرة على رؤية الطفلة، برغم أن ديوي آيو في حقيقة الأمر لو كانت علمت مدى دمامة ابنتها فلعلها على الأرجح كانت لتؤجل وفاتها، ولو لبضع سنوات على أقل تقدير.

"كلام فارغ. لحظة الموت من أمر الله" قال الكياي جاهرو.

أشارت روسينا قائلة بعناد ورثته عن سيدتها "لقد ظلّت اثني عشر يومًا ترتّب لموتها ثم ماتت".

بموجب وصيّة الميتة، صارت روسينا وصيّة على الطفلة اللعينة. وهي التي ألزمت نفسها بما لا يلزم فأرسلت برقيات إلى بنات ديوي آيو الثلاث تخبرهنّ فيها بموت أمهنّ وقرب دفنها في المقابر العامة لبوذية الدارما. لم تحضر منهنّ واحدة، ولكن الجنازة أقيمت في اليوم التالي وبحفاوة لم تضاهها حفاوة في البلدة منذ سنوات كثيرة سابقة، ولسنوات كثيرة لاحقة. وذلك لأن جميع من نامت معهم من الرجال تقريبًا جاؤوا يودّعون عاهرتهم بالقبلات الحارة المبثوثة في باقات ياسمين ألقوا بها على طول الطريق الذي مرَّ به نعشها. واحتشدت زوجات أولئك الرجال وعشيقاتهن على طول الطريق ملتصقات وراء ظهور الرجال ناظرات بما بقي في أنفسهنّ من غلّ، وقد علمن علم اليقين أن هؤلاء الرجال

الهائجين قد يتقاتلون على فرصة النوم مع ديوي آيو مرة أخرى، لا يبالون بأنها جثة هامدة.

سارت روسينا وراء النعش الذي حمله أربعة من الجيران. نامت الفتاة سريعًا في حضن روسينا، مستورة وراء طرف طرحتها السوداء. بجوارها سارت امرأة، هي المنتحبة، وقد حملت سلة مليئة ببتلات زهور قطفتها روسينا، ملقية بها في الهواء وبعملات سارع الصغار السائرون تحت النعش يتقاتلون عليها مخاطرين بالوقوع في قناة ري أو بأن تطأهم أقدام المشيِّعين وهم يردِّدون صلواتهم على النبي.

دفنت ديوي آيو في ركن قصي من المقابر وسط آخرين من الأشقياء، فذلك ما سبق أن اتفق عليه الكياي جاهرو وحفَّار القبور. هنالك دفن من قبل لص آثم من أيام الاستعمار، وقاتل ملتاث، وعدد من الشيوعيين، وها هي عاهرة. كان يعتقد أن تلك الأرواح التعيسة تبقى في قبورها عرضة لامتحانات ومحاكمات لا تنتهي، فكان من الحكمة إقصاؤها عن مقابر الأتقياء الراغبين في الرقود بسلام يعمرهم الدود متعفنين في طمأنينة منعَّمين بنكاح حوريات الجنة بدون أدنى إزعاج.

ما كادت الجنازة الحاشدة تنتهي حتى نسي الناس أمر ديوي آيو كله. ومنذ ذلك اليوم، لم يزر أحد قبرها، ولا حتى روسينا وجمال. تركوا أطلالها تحت رحمة عواصف المحيط تكسوها أكوام ورق شجر الفرانجيباني وينمو عليها عشب الفيل البري. ولم يكن لامتناع أحد عن

العناية بقبرها سبب وجيه إلا روسينا التي كثيرًا ما قالت للطفلة الصغيرة الدميمة (بلغة الإشارة التي لم تكن الصغيرة تفهمها بالطبع) "إننا لا نعتني إلا بقبور الموتى".

ربما كان صحيحًا أن لروسينا القدرة حقًا على رؤية الغيب، بملكة بسيطة ورثتها عن أسلافها الحكماء القدامى. كانت قد وصلت إلى المدينة أول ما وصلت قبل خمس سنين برفقة أبيها العامل في مناجم الرمل الجبلية وكان هرمًا يعاني الروماتيزم بينما هي في الرابعة عشرة فقط من العمر. دخلا غرفة ديوي آيو في ماخور ماما كالونج. وفي أول الأمر لم تبد العاهرة أدنى اهتمام بالفتاة الصغيرة أو بأبيها الهرم ذي الأنف الشبيه بمنقار الببغاء والشعر الفضي المتماوج والبشرة المغضنة الداكنة دكنة النحاس، وفوق ذلك كله، بمشيته الحذرة كأن آخر عظمة من عظامه توشك أن تنسحق إن هي مسَّتها ولو مسًّا خفيفًا. عرفته ديوي آيو على الفور فقالت:

"أنت أدمنت أيها العجوز. لقد نمنا معًا قبل ليلتين فقط".

تبسّم الرجل في خجل كأنه مراهق يقابل حبيبته وأومأ قائلًا "أريد أن أموت بين ذراعيك. لا أستطيع أن أدفع لك، ولكنني أعطيك هذه الفتاة الخرساء. هي ابنتي".

نظرت ديوي آيو إلى الفتاة الصغيرة في حيرة من أمرها. وكانت روسينا واقفة بجوار أبيها، هادئة مبتسمة لها في مودة. في ذلك الوقت

كانت في غاية النحول ترتدي فستانًا مطرَّزًا تبدو تائهة فيه، حافية، وشعرها المتماوج معقود برباط مطاطي. كانت بشرتها ملساء شأن أغلب الجبليات ووجهها مدوَّرا بسيطًا، وعيناها ذكيَّتين وأنفها مفلطحًا وشفتاها عريضتين تمنح بهما كلَّ من ينظر إليها تلك البسمة المريحة. لم تدر ديوي آيو فيم تنتفع بفتاة مثلها فنظرت إلى الشيخ وسألته:

"لديَّ ثلاث بنات، فماذا أفعل بهذه الطفلة؟"

قال أبوها "إنها تقرأ وتكتب، وإن كانت لا تنطق". قالت ديوي آيو بضحكة مستفزة "بناتي جميعًا يقرأن ويكتبن، وينطقن". ولكن الرجل كان مستميتًا على النوم معها وعلى الموت بين ذراعيها ومنحها ابنته الخرساء ثمنًا لهذا. قال إن بوسعها أن تفعل بالفتاة ما تشاء. وقال "بوسعك أن تجعلي منها عاهرة وتحصلي على ما تناله من نقود ما بقيت حية. فإذا لم يشأ رجل أن ينام معها، قطِّعيها وبيعي لحمها في السوق".

قالت ديوي آيو "أنا فعلًا لا أعتقد أن هناك من يريد أكل لحمها".

أبى الشيخ أن يستسلم فبدا بعد وهلة عيِّلًا صغيرًا لا يستطيع أن يصبر على حبس بوله أكثر مما صبر. لم يكن الأمر أن ديوي آيو لا تريد أن تعطف على الشيخ وتنعم عليه بسويعات نوم جميلة على سريرها، بل كانت بالفعل حائرة في هذه الصفقة الغريبة فظلَّت لمرَّات تلو مرَّات تجيل بصرها بين الشيخ والخرساء إلى أن طلبت الفتاة أخيرًا ورقة وقلم رصاص وكتبت:

"هيا نامي معه، سيموت في أيِّ لحظة".

فنامت مع الشيخ لا لقبولها بالصفقة بل لقول الفتاة إنه يوشك أن ينتهي. تصارعا في الفراش والخرساء جالسة على مقعد خارج الغرفة وبين يديها ثيابها في كيس صغير كان أبوها حتى لحظة مضت يحمله وينتظر. ثم تبيّن أن ديوي آيو لم تكن بحاجة إلى الكثير من الوقت، بل اعترفت بأنها لم تشعر بالكثير، ليس سوى دغدغة رهيفة في منتصف فرجها. قالت العاهرة "بدا وكأن فراشة تدغدغ سُرَّتي". هاجمها الرجل بضراوة، بغير كلام تقريبًا، كأنه فصيلة من الجنود الهولنديين يتقدّمون مكلّفين بمهمة تدمير، فتحرَّك عفو الخاطر ناسيًا أمر الروماتيزم. وسرعان ما أثمرت عجلته حينما أفلتت منه آهة سريعة وتقلّص جسمه فحسبت ديوي آيو في البداية أنه تقلُّص الرجل إذ يقذف ما في خصيتيه، لولا أن تبيَّن أن الأمر أكبر من ذلك وأن الشيخ ما قذف إذ قذف إلا روحه. مات بين ذراعيها ولم يزل رمحه مبلّلا منتصبًا.

دفنوه بهدوء في ركن المقابر الذي ستدفن فيه ديوي آيو من بعد. وبرغم أن روسينا لم تعتن قط بقبر سيدتها، فقد كانت تتحيّن الفرص دائمًا لزيارة قبر أبيها في نهاية شهر الصوم من كل عام فتجتثُّ العشب وتدعو له موقنة بالإجابة. أخذت ديوي آيو الخرساء إلى بيتها لا ثمنًا لتلك الأمسية الحزينة بل لأن الخرساء صارت بلا أب أو أم أو أهل على الإطلاق. قالت ديوي آيو لنفسها إنها على الأقل ستجد في رفقتها أنسًا في البيت وتفلّي لها شعرها من القمل في عصر كل يوم، وتراعي البيت حينما تكون هي في الماخور.

لم تجد روسينا في البيت أثرًا من الجمال الذي توقعته، بل مجرد بيت بسيط يسيطر عليه الصمت والسكون، جدرانه قشدية اللون لا يبدو أن طلاءها تجدّد منذ سنين، ومراياه متربة وستائره عفنة. حتى المطبخ بدا وكأنما لم يستعمل قط إلا لإعداد كنكة قهوة بين الحين والآخر، ولم يكن في البيت من موضع معتنى به إلا الحمام بحوض الاستحمام الضخم ياباني الطراز، وغرفة نوم سيدة البيت. أثبتت روسينا منذ أيامها الأولى في البيت أنها فتاة جديرة بالبقاء، فبينما كانت ديوي آيو تقضي قيلولتها، طلت روسينا الجدران وكنست الأرض ودعكت زجاج الشبابيك بنشارة أخذتها من الحطاب وغيَّرت الستائر وبدأت ترتب الفناء الذي سرعان ما امتلأ بشتى أنواع الزهور، فلمَّا استيقظت ديوي آيو من قيلولتها عند العصر صادفت للمرة الأولى منذ زمن بعيد شذا الأعشاب والتوابل يفوحٍ من المطبخ، فتناولا العشاء معًا قبل أن تخرج. لم تنزعج روسينا مطلقًا من البيت المتداعي وحاجته إلى كثير من الإصلاحات، بل افتتنت بعيش كلتيهما فقط فيه. وفي ذلك الوقت لم تكن ديوي آيو قد تعلَّمت بعد لغة الإشارة فكتبت روسينا تقول:

"قلت إن لديك ثلاث بنات؟"

قالت ديوي آيو "صحيح. رحلن جميعًا بمجرد أن تعلّمن كيف يخلعن عن رَجلٍ بنطاله".

تذكّرت روسينا على الفور ذلك القول عندما قالت ديوي آيو بعد سنين إنها لا تريد أن تحبل من جديد (برغم أنها كانت حبلى بالفعل) وإنها ضجرت من الإنجاب. كانتا كثيرًا ما تثرثران في العصر جالستين في

طرقة المطبخ تشاهدان الدجاج الذي بدأت روسينا تربِّيه وهو ينبش التراب وكانت ديوي آيو تحكي على طريقة شهرزاد حكايات خلابة أكثرها عن بناتها الجميلات. وهكذا نشأت بينهما صداقة عامرة بالتفاهم، فلمّا حاولت ديوي آيو بشتى الطرق أن تقتل الجنين في بطنها لم تسع روسينا إلى منعها. ولمّا بدأت علامات اليأس تظهر على ديوي آيو، أثبتت روسينا أنها فتاة حكيمة وأشارت على العاهرة:

"ادعي أن تأتي الطفلة دميمة".

فالتفتت ديوي آيو إليها وقالت "مضت سنوات منذ أن كنت مؤمنة بالدعاء"

قالت الفتاة مبتسمة "الأمر يعتمد على من تدعينه. الحقيقة أن هناك آلهة بخيلة".

جرَّبت ديوي آيو الدعاء. فكانت تدعو كلّما خطر لها أن تدعو، في الحمام وفي المطبخ وفي الشارع وحتى إن تذكرت الدعاء وفوق جسمها رجل بدين كانت تقول على الفور أنت يا من تسمع دعائي مهما تكن، إلهًا أم شيطانًا، ملاكًا أم جنيًّا، اجعل طفلتي دميمة. بل بدأت تستحضر في خيالها شتى أنواع القبائح. فتصورت عفريتًا بقرون وأنياب بارزة كخطوم الخنازير، وكم كان يرضيها أن تتخيل الطفلة على تلك الصورة. وفي يوم من الأيام رأت سلكًا كهربائيًا فتخيلته أنفا للطفلة. تخيلت أيضًا أن تكون أذناها كأذني القدرة وفمها كخطم الخنزير وشعرها كالمقشة، ووثبت من الفرح حينما رأت بعض الخراء المقزز فعلًا في المرحاض فتضرّعت إلى من تتضرّع إليه أن تنجب طفلة مثله تمامًا ببشرة

كبشرة السحلية وساقين كسيقان السلحفاة. ومضت ديوي آيو وراء خيالها الذي مضى يزداد كلَّ يوم جموحًا وفي ثنايا ذلك كله كان الجنين يكبر في أحشائها.

وبلغ الأمر ذروته في ليلة اكتمال القمر من الشهر السابع من حملها وكانت تستحم برفقة روسينا في ماء الورد. في هذه الليلة تتمنى الأمهات كيف يكون أبناؤهن الذين في بطونهن فترسم الواحدة منهن وجهه على قشرة جوزة هند، وأكثر الأمهات يرسمن وجه دروبادي أو شينتا أو كونتي أو أجمل شخصية في الوايانج[5]، أما الراغبات في صبي فيرسمن وجه يوديستيرا أو أرجونا أو بريما. ولكن ديوي آيو فعلت ما لم يفعله أحد قبلها في العالم، وما بقيت حتى يوم وفاتها لا تعلم نتيجته، ذلك أنها رسمت بقطعة فحم وجه طفلتها. كانت ترجو أن لا تكون طفلتها كأي شيء رأته من قبل، إلا لو كانت خنزيرة برية أو قردة، فرسمت وجه مسخ مخيف لم تر له مثيلًا من قبل ولن ترى له مثيلًا إلى أن يدفن الناس جسمها.

ولكنها في النهاية رأته، بعد تلك السنوات الإحدى والعشرين، في اليوم الذي قامت فيه مرة أخرى.

---

5 دروبادي Drupadi وكونتي Kunti من أهم الشخصيات النسائية في قصيدة المهابهاراتا الملحمية الهندية، وشينتا Shinta من شخصيات قصيدة الرامايانا الملحمية الهندية، أما الوايانج فنمط من مسرح العرائس. وترد لاحقا اسماء مشاهير الذكور في المهابهاراتا يوديستيرا Yudistira وأرجونا Arjuna وبريما Bima.

في ذلك الوقت كان النهار ينسحب أمام الليل والمطر ينهمر في عواصف تنذر بقرب مجيء موسم بعد موسم. نبحت كلاب الأياك البرية في التلال فطغى نباحها الحاد على صوت المؤذن إذ يدعو الناس إلى صلاة المغرب في المسجد بادي الفشل في دعوته فما كان أحد ليخرج من بيته والمطر على تلك الغزارة عند الغسق ونباح الكلاب البرية بالغ آذانهم، وبالطبع ما كان أحد ليخرج بينما شبحٌ يجوب شوارع القرية في كفنه وقد علا نشيجه.

لم تكن المسافة من المقابر العامة إلى بيتها قصيرة لكن سائقي دراجات الأجرة النارية كانوا يؤثرون أن تتحطم دراجاتهم في الترع ويجرون هم بأسرع ما يستطيعون على أن يقلّوا ديوي آيو. ما كان لمني باص أن يتوقف. حتى أكشاك الطعام والدكاكين على جانبي الطريق آثرت الإغلاق لبقية اليوم، فأغلقت بإحكام أبوابها وشبابيكها. ولم يبق في الشارع أحد، حتى المشرّدونِ والمجانين، لم يبق غير تلك العجوز التي قامت من بين الموتى. لم يكن هناك غير الوطاويط تطير بجموح متخبطة في العاصفة مضطربة في السماء بينما تنشق الستائر فجأة لتكشف عن وجوه شاحبة من فرط الفزع.

كانت ترتعش من البرد، وجائعة أيضًا. وجرَّبت بضع مرات أن تطرق أبواب من توسَّمت أنهم قد يتذكرونها، فآثر من لم يفقد الوعي منهم أن يلزم الصمت. وفرحت فرحًا شديدًا حينما عرفت بيتها من بعيد وكان لا يزال على حاله الذي تركته عليه قبل أن يواريها الناس التراب، فالبراعم مصفوفة على طول السياج، وزهور الأقحوان تبدو

حول محيط البيت مسالمة تحت صبيب المطر وضوء دافئ ينبعث من مصباح الشرفة. كانت تفتقد روسينا بلا حدود وتتمنّى لو أن بانتظارها طبق عشاء. وبدافع من تلك الصورة عجّلت خطواتها كما يفعل الناس في محطات القطارات والأتوبيسات بينما أخذ كفنها ينحلٌ بفعل العاصفة كاشفا جسمها العاري فتسارع يدها لتردّ القماش القطني عليه كما تفعل فتاة بمنشفة بعد الحمام. استوحشت لابنتها، الرابعة، وودّت لو ترى كيف هو شكلها. يبدو صحيحًا ما يقوله الناس، وأن النوم العميق يغيّر القلب، لا سيَّما لو استمر إحدى وعشرين سنة.

كانت فتاة جالسة على مقعد في الشرفة وحدها تحت هالة من النور الخافت، تمامًا حيثما كانت تجلس ديوي آيو وروسينا في عصر كل يوم تتصيّدان القمل من شعر إحداهما الأخرى. كانت جالسة كأنما تنتظر قدوم أحد. حينما رأتها ديوي آيو حسبتها روسينا، لكنها فور أن وقفت أمامها أدركت أنها لا تعرف الفتاة. بل لقد أوشكت أن تصرخ حينما رأت شكلها المريع إذ بدا أنها تعرضت لحروق جسيمة، وأنبأها صوت خبيث في نفسها بأنها لم تعد إلى الأرض بل إنها تتقلب في جنبات الجحيم. غير أن عقلها كان حاضرًا فأدركت بسرعة أن المسخ الدميم لم يكن غير شابة قبيحة، بل إنها امتنّت أن قابلت أخيرًا من لم يجر بمجرد رؤيته عجوزًا ملفوفة في كفن تسير تحت المطر المنهمر. لم تكن قد أدركت بالطبع أن تلك هي ابنتها، ولم تكن قد أدركت بعد أن إحدى وعشرين سنة مضت، وتبديدًا للحيرة جرّبت ديوي آيو أن تلقي على الفتاة السلام وقالت "هذا بيتي. ما اسمك؟"

"جمال".

اندلعت من فم ديوي آيو ضحكة وقحة قبل أن توقف نفسها فجأة وقد فهمت كلَّ شيء. جلست في مقعد، فكانت بينها وبين الفتاة المنضدة بمفرشها الأصفر وفنجان القهوة أمام الفتاة.

قالت ساهمة "شأن بقرة ترى أن عِجْلتها الصغيرة تعلمت الجري من تلقاء نفسها"، وطلبت في أدب بعض القهوة الموجودة على المائدة وشربتها. ثم قالت "أنا أمك"، وقد ملأها الفخر بأن ابنتها جاءت تمامًا على النحو الذي تمنَّته. لو لم يكن المطر ينهمر وهي تتضوّر جوعًا والقمر ساطعًا لودَّت أن تصعد إلى السطح لترقص من فرط الفرح.

لم تنظر الفتاة إليها ولا قالت أي شيء.

سألتها ديوي آيو "ماذا تفعلين هنا في الشرفة في الليل؟"

أخيرًا قالت الفتاة وإن لم تلتفت "أنا في انتظار أميري أن يخلِّصني من هذا الوجه الدميم".

لم تكن تفكر في غير ذلك الأمير الوسيم منذ أن أدركت أن بقية الناس ليسوا في مثل قبحها. حاولت روسينا أن تدخل بها بيوت الجيران وهي بعد رضيعة على ذراعها، فلم يقبل أحد أن يستقبلهما، إذ كان الأطفال يقضون بقية العصر في بكاء والكبار تصيبهم الحمَّى على الفور ويموتون في غضون يومين. رفضوها في كل مكان، ولم يتغيَّر ذلك الحال عندما حان وقت التحاقها بالمدرسة، فلم تقبل أي مدرسة بجمال.

وحاولت روسينا أن تتوسَّل إلى ناظر مدرسة فبدا أكثر اهتمامًا بالشابة الخرساء منه بالصغيرة الدميمة، إذ ما كاد باب مكتبه يغلق عليهم حتى تحرش بها. وفكّرت روسينا الحكيمة أنه لا بد أن تتوافر الوسيلة ما دامت قد توافرت الإرادة، فإن كان عليها أن تفقد عذريتها لتلحق جمال بمدرسة، فلتفعل ذلك عن طيب خاطر. وهكذا وجدت نفسها في ذلك الصباح عارية على المقعد الدوار في مكتب الناظر تمارس معه الحب لثلاث وعشرين دقيقة تحت طنين مروحة السقف، ليتبيَّن برغم ذلك أن جمال لن تقبل في المدرسة أيضًا لأنها إن قبلت في المدرسة فلن يلتحق بها أي من الأطفال الآخرين.

ولم تيأس روسينا، فقرَّرت في نهاية المطاف أن تعلّم جمال بنفسها ولو اقتصر ذلك على الأرقام والحروف. لكن قبل أن تسنح لها فرصة تعليمها أي شيء، بهتت روسينا حين أدركت أن الفتاة تعرف بالفعل كيف تعد صيحات السحالي، وازدادت دهشتها حينما تناولت جمال في عصر أحد الأيام كومة كتب كانت أمها قد تركتها وقرأتها بأعلى صوت لديها بدون أن يعلّمها أحدٌ الحروف. كان ثمة شيء غير مريح في تلك الأحداث المدهشة التي بدأت في الحقيقة قبل سنين حينما اندهشت روسينا إذ وجدت البنت تتكلم بدون أن تعرف من علّمها الكلام. بدأت روسينا تتجسَّس على الطفلة الصغيرة، فلم تر الطفلة تبتعد قط عن سور البيت ولم تر شخصًا يقترب منها، أي أنها لم تقابل أحدًا قط إلا الخادمة الخرساء التي لم تكن تتكلم إلا بيديها. ومع ذلك تعلمت أسماء

كل الأشياء الظاهرة والخفية مما يحوم حول البيت من القطط والسحالي والدجاج والبط.

بعيدًا عن هذه الأعاجيب بقيت الفتاة مجرد بنت صغيرة شقية قبيحة مثيرة للشفقة. كانت روسينا كثيرًا ما تضبطها واقفة وراء ستارة الشباك، متلصِّصة على الناس في الشارع، أو شاخصة إليها إذ تتأهب للخروج لشراء شيء ما كأنما تنتظر أن تُدعَى إلى مرافقتها. وبالطبع كانت روسينا لتفرح إن اصطحبتها ولكن الفتاة الصغيرة نفسها كانت لترفض وتقول "لا، خير لي ألا أذهب، كي لا يفقد الناس شهيتهم لما بقي من حياتهم".

كانت تخرج في مطلع الصباح قبل أن يستيقظ من الناس إلا النشطون من باعة الخضراوات ليذهبوا إلى السوق أو الفلاحين إلى الغيطان، أو صيادي السمك المسارعين إلى بيوتهم سائرين أو متزلقين بدراجاتهم، ولكن هؤلاء جميعًا ما كانوا يرونها في غبشة الفجر. في ذلك الوقت كان يتهيَّأ لها أن تعرف العالم إذ تؤوب الوطاويط إلى أعشاشها وتحطُّ العصافير على براعم شجر اللوز، ويصيح الدجاج، وتتخلّق الفراشات من اليرقات لتجثم على بتلات الخبازي، وتستلقي القطط على فرشها، وتنبعث الروائح من مطابخ الجيران، وتعلو من بعيد أصوات تسخين المحركات، ويأتي من مذياع في مكان ما صوت عظة الصباح، وأهم من ذلك كله أن كوكب الزهرة يكون متوهجًا في الشرق فيكون أكثر ما تنعم به في جلستها على الأرجوحة المتدلية في غصن من شجرة ثمرة النجمة. لم تكن روسينا تعرف أن هذا الكوكب الوهَّاج

شديد السطوع يدعى الزهرة، أما جمال فكانت تعلم هذا تمام العلم، مثلما كانت تعلم جميع أشكال المجموعات النجمية في السماء.

ما كان النهار يطلع حتى تختفي داخل البيت كرأس سلحفاة يحتجب عمن يثيرون ضيقه. فقد كان تلاميذ المدرسة يقفون دائمًا أمام بوابة السور لينظروا إليها، شاخصين إلى باب البيت وشبابيكه في فضول. وكان الكبار قد حكوا لهم حكايات مرعبة عن جمال الشنيعة المقيمة في ذلك البيت لتقطع رؤوسهم إن هم أظهروا أوهى بادرة على العصيان ولتبتلعهم أحياء إن علت أصواتهم بالبكاء، فكانت تلك الحكايات تبثُّ في نفوسهم الرعب وتؤجِّج في الوقت نفسه رغبتهم في مقابلتها ليعرفوا إن كان لذلك الشبح الرهيب وجود حقًا. لكنهم لم يقابلوها قط إذ كانت روسينا تظهر بسرعة لتفرِّق جمعهم بمقشَّة تمسكها بالمقلوب فيفرون وهم يشتمون الخرساء بأعلى أصواتهم. والحقيقة أنه لم يكن الأطفال فقط من يقفون أمام بوابة السياج على أمل أن يروا جمال، فالنساء اللاتي كن يتنقلن بالبيكاك[6] يدرن رؤوسهن أيضًا للحظة، شأن الخارجين إلى أعمالهم والرعاة الماضين بماشيتهم.

ولكن جمال كانت تخرج بالليل حينما يحظر على الأطفال الخروج من بيوتهم وينشغل الآباء بالاعتناء بأبنائهم ولا يبقى بالخارج غير صيادي سمك يسارعون إلى البحر حاملين المجاديف والشباك على ظهورهم. كانت تجلس على مقعد في الشرفة برفقة فنجان قهوة. وحينما تسألها روسينا عما

6 دراجة ثلاثية الإطارات في مقدمتها مقعد له مظلة يجلس إليه الراكب ومن خلفه سائق يدير الدراجة جالسا حيث يجلس أي سائق دراجة.

تفعله في الشرفة وقد تقدم الليل، لا تردّ جمال إلا بما ردّت به على أمها "أنا في انتظار أميري أن يخلّصني من هذا الوجه الدميم".

"مسكينة أيتها الفتاة" قالت أمها في تلك الليلة، ليلة لقائهما الأول. "بل عليكِ أن ترقصي امتنانًا لتلك النعمة. هيا ندخل".

***

ذاقت ديوي آيو مرة أخرى روعة روسينا التي ملأت حوض الاستحمام على الفور بماء دافئ لا ينقصه الصابون الكبريتي وحجر الدعك ونشارة الخشب وورق شجر البيتيل فجعلها كل هذا تظهر منتعشة أمام مائدة العشاء حيث فغرت روسينا وجمال فميهما أمام شهيتها العارمة كأنما تعوِّض سنوات تلو سنوات مضت عليها بغير طعام. أتت على سمكتي تونة بعظامهما وطبق حساء وطبقي رز. وكان حساؤها خفيفًا صافيًا تسبح فيه أعشاش طيور[7]. كانت أسرع في الأكل من كلتا المرأتين الأخريين، وبعدما انتهت من الطعام ظل بطنها يقرقر بلا توقف، وبعدما أطلقت ضرطة هائلة من تلك التي لا يمكن حبسها مسحت فمها بمنشفة وسألت:

"كم مضى عليّ ميتة؟"

قالت جمال "إحدى وعشرون سنة".

---

7 أعشاش تبنيها الطيور من لعابها، فتعتبر ذات قيمة غذائية عالية، وتصاد بمشقة. كما يتبين من إشارة إلى ذلك في الفصل الرابع عشر من هذه الرواية، وتباع بأثمان مرتفعة، وأكثر ما تؤكل في حساء

فقالت في ندم "أنا آسفة، كان ذلك أطول من اللازم، لكن القبر ليس فيه منبِّه".

قالت جمال "لا تنسي أن تأخذي معك واحدًا في المرة القادمة. ولا تنسي الناموسية".

تجاهلت ديوي آيو الكلمات التي قالتها جمال بصوت سوبرانو حاد مستهين وواصلت "لا بد أن قيامي مربك بعد إحدى وعشرين سنة، فحتى طويل الشعر الذي مات على الصليب لم يمت إلا لثلاثة أيام قبل أن يقوم".

قالت جمال "مربك جدًا. في المرة القادمة ابعثي برقية قبل مجيئك".

لم تستطع ديوي آيو لأمر ما أن تتجاهل ذلك الصوت. فبعدما فكرت فيه هنيهة بدأت تستشعر عداوة في نبرة الفتاة. نظرت باتجاه الفتاة فلم تجد على وجهها الدميم غير ابتسامة، كأنما تريد بها فقط أن تذكِّرها بأن تكون أكثر حرصًا في تصرفاتها. نظرت ديوي آيو إلى روسينا تستفهم منها ولكن الخرساء اكتفت هي الأخرى بالابتسام فلم يبد أن ابتسامتها تضمر أي شيء آخر.

"في غمضة عين تصبحين في الأربعين. ولن يمر وقت يذكر حتى تصبحي عجوزًا متغضنة الجلد". وكانت ديوي آيو تضحك ضحكة خافتة وهي تقول ذلك محاولة أن تلطِّف جو العشاء.

قالت روسينا بلغة الإشارة "متغضنة الجلد كالضفدعة".

مازحتها ديوي آيو "كالسحلية"

ونظرت كلتاهما إلى جمال في انتظار أن تقول شيئًا فلم يطل عليهما الانتظار.

قالتها وجيزة مريعة "مثلي".

على مدار أيام انشغلت ديوي آيو بزيارات الأصدقاء القدامى الذين جاؤوا يريدون أن يسمعوا حكاياتها عن عالم الأموات فأمكنها أن تتجاهل وجود مسخ مزعج في بيتها. حتى الشيخ الكياي الذي لم يقبل منذ سنين الإشراف على دفنها إلا على مضض وباشمئزاز عذراء تنظر إلى الديدان جاء لزيارتها بتقوى مريد يزور قديسة وقال لها في إخلاص إن قيامها أشبه بمعجزة وإن من المؤكد أن هذا لا يحدث إلا لمن طهر قلبه.

قالت ديوي آيو باستخفاف "طبعًا أنا طاهرة. فلم يلمسني شخص منذ إحدى وعشرين سنة".

سأل الكياي جاهرو "بماذا يشعر الميت؟"

"في الحقيقة هي مسألة ظريفة جدًا. وهذا هو السبب الذي لا يجعل أحدًا ممن يموتون يختار الرجوع مرة أخرى".

قال الكياي "ولكنك رجعت إلى الحياة".

"رجعت فقط لأخبركم بهذا".

خرج الكياي مشرق الوجه يقول إن هذا جيد جدًا لخطبة الجمعة. لم يستشعر حرجًا من زيارة ديوي آيو (وإن زعق قبل سنين كثيرة بأن زيارة بيت العاهرة خطيئة وإن من يفتح بوابتها فقط يشوى في نار

جهنم) فالمرأة مثلما قالت لم تعد عاهرة بعد إحدى وعشرين سنة لم تمسسها فيها يد، وخير لك أن تصدق أن يدا لن تمسسها مرة أخرى، لا الآن ولا إلى الأبد.

لم يكن أكثر الناس معاناة من كل تلك الجلبة المحيطة برجوع العجوز إلى الحياة إلا جمال التي تحتِّم أن تغلق على نفسها باب غرفتها، ومن حسن الحظ أن الزائرين جميعًا كانوا لا يمكثون غير دقائق معدودة، فسرعان ما كانوا يستشعرون خوفًا رهيبًا آتيًا من وراء باب غرفة جمال الموصد. كانت ريح شر، سوداء دميمة، ذات رائحة تبعث على الدوار، تهب عليهم، منسربة من عقب الباب وثقب مفتاحه، باردة تنفذ برودتها إلى نخاع عظامهم. لم يكن أغلب الناس قد رأوا جمال إلا وهي طفلة صغيرة بين ذراعي القابلة إذ تجوب بها القرية بحثًا عن صدر مرضع. لكن مجرد مرورها في الأذهان كان يكفي لينتصب الشعر في الأقفية وترتعش أجسامهم كلها وهم شاخصون إلى باب المسخ لحظة تصل الريح بالرائحة الكريهة إلى أنوفهم ويضطرب في آذانهم صوت الصمت. إذ ذاك تهرف أفواههم بما لا معنى له، وينسون رغبتهم في الاستماع إلى ما لدى ديوي آيو من أشياء مدهشة، ويسارعون بالقيام مزدردين أنصاف أكواب الشاي المرير ويستأذنون في الرجوع إلى البيوت وثمة يحكون.

وكانوا يقولون لمن يسألهم عن زيارتهم المرعبة "مهما تكن قوة فضولك تجاه ديوي آيو التي قامت من بين الموتى، نصيحتي لك ألا تذهب إلى بيتها".

"لماذا؟"

"لأنك ستخاف حتى الموت".

كفَّ الناس عن الزيارة فبدأت ديوي آيو تلحظ غرائب جمال، بعيدًا عن اعتيادها الجلوس في الشرفة منتظرة الأمير الوسيم مستطلعة قدرها في النجوم. سمعت في منتصف الليل صوت شجار صادرًا من غرفة نوم جمال، فنهضت من سريرها ومضت في العتمة لتقف أمام غرفة الفتاة في وجل، وقد ازدادت حيرة على حيرة بسبب الأصوات الصادرة من غرفة الفتاة الدميمة. وكانت لا تزال واقفة هناك حينما ظهرت روسينا وفي يدها كشّاف سلّطت ضوءه على وجه سيدتها.

همست ديوي آيو لروسينا "أعرف هذه الأصوات من غرف الماخور".

أومأت روسينا موافقة.

قالت ديوي آيو "صوت نكاح" فوافقتها روسينا بإيماءة.

"السؤال هو من الذي تنام معه، أو من هذا الذي يود أن ينام معها؟"

هزّت روسينا رأسها. لم تكن تنام مع أحد. أم كانت تنام مع شخص ولكنك لم تعرفي لأنك لم تري أحدًا.

وقفت ديوي آيو هنالك منبهرة من ثبات الخرساء الذي ذكّرها بجنونها هي ذات يوم حين لم يكن أحد يفهمها غير تلك الفتاة. جلستا سويًا في المطبخ في تلك الليلة قبالة الموقد القديم وقد وضعتا عليه بعض

الماء تنتظران غليانه لإعداد فنجان قهوة. في ضوء لهب الموقد الذي كان يلعق حواف الحطب اليابس المحروق المأخوذ من أغصان كاكاو وسعف نخيل ولحاء جوز هند، أخذتا تثرثران كدأبهما في الماضي.

سألت ديوي آيو "هل تعلمت ذلك منك؟"

سألت روسينا بحركة من شفتيها دون أن تصدر صوتا "تعلمت ماذا؟"

"العادة السرية".

هزت روسينا رأسها. جمال لا تمارس العادة السرية، هي نائمة مع شخص ما ولكنك فقط لا تعرفين من يكون.

"ولم لا؟"

هزت روسينا رأسها "لأنني أيضًا لا أعرفه".

حكت لديوي آيو عن جميع الأعاجيب، وكيف استطاعت جمال وهي طفلة صغيرة أن تتكلم بدون أن يعلمها أي شخص الكلام، بل وكيف بدأت تقرأ وتكتب وهي في السادسة، وكيف أن روسينا باختصار لم تعلمها أي شيء لأن الفتاة كانت تقدر بالفعل على أشياء لا تقدر عليها روسينا أصلًا، كالتطريز في التاسعة، والخياطة في الحادية عشرة، وبالمناسبة، هي قادرة على أن تطبخ لك أي طعام تريدين.

قالت ديوي آيو في حيرة "لا بد أن شخصًا ما علّمها".

تنهدت روسينا "ولكن لا أحد يدخل هذا البيت".

"لا يهمني كيف كان يأتي، أو كيف أتى بدون أن تعلمي أو أعلم. لكن لا بد أنه أتى وعلمها كل شيء، حتى النكاح".

"نعم، صحيح، يأتي ويتناكحان".

"هذا البيت مسكون".

لم تعتقد روسينا قط أن البيت مسكون، ولكن كانت لديوي آيو أسبابها. وعموما تلك مسألة أخرى لم تشأ ديوي آيو أن تكلم روسينا فيها، في ذلك المساء على الأقل. قامت وعادت بسرعة إلى السرير وقد نسيت الماء على النار وفنجان القهوة.

في الأيام التالية، حاولت العجوز أن تتجسّس على الشابة القبيحة لتكتشف تفسيرًا مقنعًا لكل تلك المعجزات لأنها لم تصدق أن يكون شبح هو المسؤول عنها، حتى لو أن شبحًا حقيقيًا مقيم في البيت.

وذات صباح رأت هي وروسينا شيخًا طاعنًا في السن يجلس أمام الموقد المتوهج، يرتعش من البرد في هواء الصباح. بدا كالغوريلا بشعر مطلق في كل اتجاه ملبد معقود بجدائل نباتية صفراء ذابلة. وتأكد شبهه بالغوريلا بوجهه الغائر كأن لم يقرب طعامًا منذ سنين، وبثيابه الداكنة وقد لوّنها الطين والدم المتخثر. بل لقد كان ثمة خنجر يتدلى على فخذه من حزام جلدي. كان يلبس بيادة واسعة كثيرًا على قدميه.

"من أنت؟" سألته ديوي آيو.

قال الشيخ "ناديني بـ شودانتشو. البرد يجمِّدني، دعيني لحظات قرب موقدك".

حاولت روسينا أن تقيّم الرجل. ربما كان في الماضي قائد فصيلة حقًا، ربما كان في كتيبة في هاليموندا وتمرَّد على اليابانيين وهرب إلى الأدغال. ربما علق هناك سنين فلم يدر أن هولندا واليابان رحلتا قبل زمن بعيد وأن لنا الآن جمهوريتنا وعلمنا ونشيدنا الوطني. قدمت له روسينا إفطارًا بنظرة حانية واحترام زائد بعض الشيء.

ولكن ديوي آيو نظرت إليه بشيء من الارتياب، متشككة أن يكون الأمير الذي تنتظره ابنتها كل مساء، أو أن يكون هو الذي علمها النكاح. ولكن الرجل بدا كمن تجاوز السبعين فلا بد أنه عنِّين منذ سنين، وهنالك بدأت أفكار ديوي آيو السيئة تتلاشى. بل إنها دعته لأن يعيش معهن في البيت الذي كانت فيه غرفة خاوية، وبدا أن الرجل لم تعد له صلة من أي نوع بالعالم الخارجي.

وافق شودانتشو الذي كان في حقيقة الأمر في حالة تشوش مؤسفة. كان ذلك يوم ثلاثاء، بعد ثلاثة شهور من قيام ديوي آيو من بين الموتى، وفي ذلك اليوم وجدتا جمال مطروحة على أرض غرفتها في حالة مزرية. حاولت أمها أن تساعدها على القيام بعون من روسينا ووضعها على السرير. وسرعان ما ظهر شودانتشو خلفهما قائلًا:

"انظرا إلى بطنها، إنها حبلى، وغالبًا في الثالث".

نظرت ديوي آيو غير مصدقة إلى ابنتها بنظرة لم تعد مشوًّشة بل غاضبة غضبًا لم تهدئه أي قدرة على التجاهل وسألتها "كيف حبلتِ؟"

قالت جمال "مثلما حبلتِ أنت أربع مرات. خلعت ثيابي ونكحني رجل".

٢

لا بد أن شيئًا غريبًا كان يجري، فقد حدث ذات ليلة أن تزوج الشيخ قسرًا من المراهقة ديوي آيو. كان غارقًا في النوم، يتعالى شخيره، حينما توقفت سيارة كوليبري أمام بيته فجفل واستيقظ من سعال محركها في جنح الليل الحالك. ولم يكن الشيخ ما جيديك قد أفاق تمامًا من هول هذه الصدمة حتى راعته أخرى جاءته كالإعصار على هيئة رجل قوي خرج من السيارة يتدلى على ساقه منجل حاد فركل كلب الشيخ المهجن النائم أمام الباب. عوى الكلب وفزع منتصبًا متأهبًا للقتال فلم ينل من تأهبه ذلك إلا أن أطلق عليه سائق الكوليبري رصاصة من بندقيته أردته صريعًا على الفور، بعدما أفلتت منه نبحة بينما يركل الرجل القوي باب كوخ الشيخ الخشبيّ تاركًا إياه غير مثبَّت إلا بإحدى مفصلاته.

كان الكوخ دامس الظلام، أشبه بمأوى للوطاويط والسحالي منه ببيت لإنسان، بغرفتيه الصغيرتين في ضوء القمر الواهن. في إحداهما جلس الشيخ مضطربًا على طرف فراشه، والأخرى مطبخ بدا موقده خامدًا مليئًا بالرماد. كانت العناكب قد نسجت بيوتها في كل مكان إلا

الطريق الذي يسلكه الشيخ من غرفته إلى المطبخ أو باب الكوخ. تناول الرجل القوي ـوكان يغطي أنفه اتقاء لرائحة بول أشدّ مما في زريبة خنازيرـ حفنة من سعف كان في كومة قرب الموقد وثناها وأوقد أطرافها جاعلًا منها شعلة في يده، فسرعان ما توهجت الغرفة ومضت ظلال من كل شكل وحجم تتمايل فيها وترتعش. أخذت الوطاويط ترفرف، وبقي الشيخ على حاله جالسًا على طرف الفراش ناظرًا إلى الضيف المقتحم في اضطراب لا يهدأ.

المفاجأة التالية: عرض الرجل القوي على الشيخ لوحًا كتب عليه بالطباشير بخط فتاة جميل. لم يكن يجيد القراءة، ومثله الرجل القوي، ولكن الأخير كان يعلم ما كتب على اللوح.

قال "ديوي آيو تريد الزواج بك".

لا بد أن هذه مزحة. كان يعرف وضعه، شيخ عاش بالفعل أكثر من نصف قرن، فحتى الأرامل اللاتي مات أزواجهن في وحل شركة الهند الشرقية الهولندية أو رمي بهم في بوفين ديجول[8] يؤثرن العفة والعمل للآخرة على الزواج بحمال مثله يسحب عربته. كان ليعد نفسه محظوظًا إن هو تذكّر كيف يعول امرأة، بما أنه قد نسي النوم معهنّ بلا أمل في تذكّر. لقد مضت سنوات كثيرة على آخر مرة ذهب فيها إلى الماخور، وسنوات كثيرة أيضًا مضت على آخر مرة فعلها بنفسه، بيده. فقال للرجل القوي بسذاجة ولد قروي:

---

8 Boven-Digoel معتقل هولندي في جزر الهند الشرقية على ضفة نهر ديجول كان مخصصا في ما بين ١٩٢٨ و١٩٤٢ للوطنيين والشيوعيين الإندونيسيين.

"ولكنني لست متأكدًا أنني أقدر أن أتزوجها".

زجر الرجل "ليس مهما أن يكون قضيبك أم قضيب كلب هو الذي يفض بكارتها، هي تريد الزواج بك، فإن لم تفعل يُحلِّك اللورد ستاملر إفطارًا لكلاب الأياك".

سرت في جسمه الرعدة. لقد كان كثير من الهولنديين يربّون كلاب الأياك لصيد الخنازير البرية، ولم يكن كذبًا أنهم إن سخطوا على أحد أبناء البلد جعلوه يواجه الأياك في قتال حتى الموت. وحتى لو صحَّ ذلك، لم يكن الزواج بديبوي آيو بالأمر الهيِّن، وهو بالفعل لا يفهم ما الذي يحمله على الزواج بها، وهو على أي حال قطع على نفسه عهدًا بألا يتزوج على الإطلاق، إخلاصًا لحبه الأبدي لـ ماإيانج، وهي امرأة طارت ذات يوم في السماء واختفت فيها.

تلك المرأة حكاية أخرى، وذلك الحب كان من النوع الذي لا يكتب له من فرط جماله أن يدوم. كان ما جيديك وماإيانج قد كبرا معًا في حي الصيادين، يلتقيان كلَّ يوم ويسبحان في خليج واحد ويقتسمان السمك ولم يحل دون زواجهما على الفور إلا صغر عمريهما، فقد كانا لا يزالان ولدًا وفتاة. وخلافًا للأطفال من عمره، كان ما جيديك يحمل معه أينما ذهب وعاء من البامبو مليئًا بلبن أمه، لسنين بعد تعلمه المشي والبعد عن أمه. وذات يوم غلب الفضول ماإيانج فسألته لماذا وقد بلغ

التاسعة عشرة لا يزال يشرب ذلك اللبن ولا يبالي بأنه فسد منذ زمن بعيد.

قال "لأن أبي ظل يشرب لبن أمي طول الوقت، حتى أصبح شيخًا كبيرًا".

حينئذ فهمت ماإيانج. ووراء أكمة من شجر الموز خلعت قميصها وطلبت منه أن يمصّ حلمتها البديعة المنمنمة. ومع أنه لم ينل منها لبنًا، توقف ما جيديك أخيرًا عن شرب لبن أمه ووقع في غرام تلك الفتاة لما بقي من عمره. وذلك ما كان، إلى أن جاءت ذات ليلة عربة على شكل راقصة سينترين[9]، ما أحلى رؤيتها والحصان يجرّها وما أشد إيلامها أيضًا، ومضت العربة فانتقت ماإيانج. أخذ ما جيديك ـ وكان دائمًا آخر من يعلم أي شيء ـ يجري وراء العربة على الشاطئ، فلما أدرك سائقها وحاذاه صاح في الفتاة الجميلة:

"إلى أين أنت ذاهبة؟"

"إلى بيت لورد هولندي".

"لماذا؟ لا ينبغي أن تكوني خادمة للهولنديين".

قالت الفتاة "لن أكون خادمته بل محظيته. يمكنك أن تطلق عليّ الآن نياي إيانج".

صاح ما جيديك "اللعنة. ولماذا تريدين أن تكوني محظية لأي أحد؟"

---

9 رقصة sintren من الرقصات التراثية ذات الطابع الصوفي في الساحل الشمالي لجزيرة جاوة

"لأنني إن لم أفعل تصبح أمي وأبي إفطارًا للأياك".

"لكن ألا تعلمين أنني أحبك؟"

"أعلم".

كان لا يزال يجري بجوار العربة، باكيًا والفتاة باكية، وليس مطّلعًا على دموعهما إلا سائق العربة الذي حاول أن يهدئ خاطريهما قليلا بقوله:

"ليس على أحدكما أن يمتلك الآخر ليبقى بينكما الحب".

ولم يكن في قوله هذا عزاء بأي حال، فانكفأ ما جيديك على الرمل بجوار الطريق منتحبًا باكيًا هوانه. وأمرت الفتاة السائق فأوقف العربة لتنزل منها وتقف قبالة الشاب. وأمام السائق والحصان ووسط نقيق الضفادع وبوم الليل وبعوضه قطعت الفتاة عهدا على نفسها.

"بعد ست عشرة سنة من الآن سيكون الهولندي قد زهدني. فانتظرني أعلى التل الصخري إن كنت لا تزال تحبني، وإن بقي لك غرض في فضلات هولندي".

وبعد ذلك لم ير أي منهما الآخر أو يسمع به. بل ولم يعرف ما جيديك من يكون ذلك اللورد الهولندي الشهواني الراغب في فتاته اليانعة ذات الخمسة عشر ربيعًا. حلف ما جيديك، وكان في التاسعة عشرة، أنه سيبقى يحبها وإن رجعت إليه في النهاية إربًا ممزقة.

غير أن فقدان امرئ حبيبته ليس بالأمر الهين. أمضى السنين ينتظر ويغلب جنونه المجانين وحماقته الحمقى وحزنه الحزانى النادبين، وحاول أصدقاؤه من الحمالين في الميناء أن يروِّحوا عنه ويحملوه على الزواج بامرأة أخرى، لكنه كان يؤثر إنفاق أجرته ووقته على القمار والرجوع إلى الكوخ سكران يتمايل من نبيذ الأراك. وحينذاك بدأ أصدقاؤه يقنعونه بالتردّد على الماخور راجين أن يخفِّف عنه جسد امرأة أخرى حزنه العارم. وفي ذلك الوقت لم يكن هناك غير بيت دعارة واحد في الجهة الأخرى من الجسر. وكان قد أقيم لخدمة الجنود الهولنديين المقيمين في الثكنات ثم توقَّف أغلبهم عن التردّد عليه إثر انتشار السيفليس مؤثرين اتخاذ محظيات خصوصيات فبدأ عمال الميناء يتردّدون عليه.

قال ما جيديك في عناد "لا فرق بين التردّد على بيت الدعارة والزواج بامرأة أخرى" لكن أصدقاءه جرُّوه جرًّا بعد أسبوع من ذلك سكران شبه غائب عن الوعي فأنفق في بيت الدعارة أجرة يوم لقاء سرير وبدينة فرجها في اتساع جحر الفأر، وأسرته المفاتن فحدَّث نفسه بأن "نكاح عاهرة ليس خيانة لأن العواهر ينلن أجورهن مالًا لا غرامًا".

وصار بعد ذلك زبونًا مخلصًا لبيت الدعارة في الناحية الأخرى من الجسر ينام مع نسائه وهو يهمس باسم ماإيانج. وكان يفعل ذلك في كل عطلة أسبوعية تقريبًا مع جماعة من أصدقائه ظلوا مقربين إليه دائمًا. كان كلٌّ منهم إذا ما توافرت له النقود ينام مع عاهرته، لكنهم أحيانًا كانوا يعمدون إلى التوفير فيشترك الخمسة منهم في عاهرة. وظل حالهم على هذا سنين إلى أن تزوجوا واحدًا تلو الآخر. وشقَّ ذلك على ما

جيديك، فلم يعد لدى أصحابه وقت للذهاب إلى بيت الدعارة، وقد صار لكلٍّ منهم زوجة ينام معها لقاء الحب لا لقاء المال، وكان ذهابه وحده إلى بيت الدعارة أدعى ما في الدنيا إلى الغم. فصار ما جيديك كلما استبدت به الوحشة يستمني، ثم سرعان ما صار ذلك محبطا بصورة لا تحتمل، فكان يجد نفسه مرغما على التسلل وحيدا في حلكة الليل إلى بيت الدعارة من جديد ليرجع إلى البيت قبل رجوع الصيادين من البحر.

وبعد فترة أصبح شخصًا غريبًا، إن لم يكن نافرًا من الناس، فقد كانت تُسمع بين الحين والآخر ضجة في حظيرة أحد الجيران، ويتبيَّن أن بقرة تتعرض للاغتصاب، أو حتى دجاجة تنكح حتى تبقر أحشاؤها، وأن مغتصبها هو ما جيديك. وكان يحدث أحيانًا أن يلكم صبيًا راعيًا ويأخذ أحد خرافه فينكحه في وسط الغيط، وحدث مرة أن جرى في غيط أرز وراء عجوز تحمل سلة من ورق البطاطا فظلت تصيح في فزع لمرأى رجل شهواني فاقد السيطرة على نفسه تمامًا. بدأ الجميع ينأون عنه، وتوقف عن الاغتسال، وتوقف عن تناول الأرز بل عن تناول أي شيء إلا خراءه هو والخراء الذي ينقب عنه في بساتين الموز. وانشغل أصدقاؤه وأهله عليه انشغالًا كبيرًا فاستدعوا الدوكون «الساحر» من بلد بعيد، وهو معالج روحاني اشتهر بقدرته على مداواة شتَّى أنواع العلل. بعباءة بيضاء ولحية متطاولة نظر الرجل إليه نظرة حواري حكيم. فحص الرجل ما جيديك في حظيرة ماعز كان قد حبس فيها مقيَّدًا منذ تسعة

شهور لم يعش فيها إلا على الغائط المتاح في القفص، وفي هدوء قال الدوكون للناظرين:

"لا دواء لهذا المجنون إلا الحب".

وكان ذلك طلبًا صعبًا، فلم يكن بوسع أحد إرجاع ماإيانج إليه، فاستسلموا وتركوا ما جيديك في قيوده لانتظاره الطويل.

قالت أمه في ضيق "لقد تواعدا على الانتظار ستة عشر عامًا ولكن من المؤكد أنه سوف يتعفّن قبل أن يحين ذلك اليوم". كانت هي التي قرَّرت تقييده بعدما ذبحت سادس دجاجة عثرت عليها تتلوّى في ألم وأحشاؤها طالعة من استها.

لكنه لم يتعفّن، بل بدا أن صحته تتحسَّن، وأن خدَّيه يتورَّدان، بمرور الأيام، واقتراب الموعد الذي كان في انتظاره. كان التلاميذ يتجمعون قرب حظيرة الماعز بعد الظهر وهم راجعون إلى بيوتهم ليتركوا ماشيتهم، فيمزحون هنالك قليلًا بينما يعلمهم ما جيديك كيف يداعبون أعضاءهم ويدعكونها مستعملين بصاقهم فنهى معلمو المدرسة التلاميذ عن الاقتراب منه. لكن لا بد أن التلاميذ جرَّبوا ما علَّمهم إياه، إذ تسلّل بعضهم إلى حظيرة الماعز سرًا في جنح الظلام وهمسوا لما جيديك بأنهم اكتشفوا طريقة جديدة للتبول إحساسها أروع كثيرًا من إحساس التبول المعهود.

"وسيكون الأمر أجمل كثيرًا لو جربتموه في أعضاء البنات الصغيرات".

ولما عثر مزارع في عصر أحد الأيام على طفلين في التاسعة من العمر يتناكحان وراء أكمة بندان، أحاط أهل القرية حظيرة الماعز بالألواح فلم يبق لما جيديك في محبسه من يتكلم معه، وبالطبع لم يبق يبدِّد ظلمة الحظيرة من نور على الإطلاق.

ولكن هذا العقاب لم يحطِّم روحه، فبينما كان جسمه مقيدًا في ذلك القفص المعتم، صار فمه ينشد أغنيات داعرة كانت تجعل وجه الكياي يحمرّ وتجعل الناس يتقلبون في أسرَّتهم ليلًا وهم يرتعشون من فرط بؤسهم. ولكن هذا الانتقام لم يستمر إلا لأربعة أسابيع، وفي اللحظة التي قرَّر فيها أهل القرية أن يخرسوه فيحشروا في فمه جوزة هند صغيرة، وقعت معجزة في اللحظة الأخيرة. ففي صباح ذلك اليوم لم ينشد أغنيات داعرة، بل النقيض تمامًا، مضى يغني مواويل غرام أجرت الدمع من عيون الناس. ومن أقصى الحي إلى أقصاه توقَّف الناس عن أعمالهم، ذاهلين كأنما ينتظرون نزول حوريات من السماء، إلى أن فهم أحدهم ما يجري: كان ذلك آخر أيام انتظار ما جيديك الطويل. كان ذلك يوم لقائه بحبيبته أعلى التل الصخري.

سارع كل من يعرفونه إلى حظيرة الماعز ينزعون من حولها الألواح، فلما أضاءتها أشعة الشمس، وجدوا الرجل لا يزال مقيدا في الحظيرة المنتنة كأنها جحر جرذ، ووجدوه لا يزال يغني. فكوا قيوده واصطحبوه إلى حوض فحمموه جميعًا كأنه وليد جديد أو شيخ فاضت روحه. وعطروا جسمه بالعطور، من زيت الورد إلى الخزامى، وألبسوه ثيابًا جديدة تبعث الدفء منها سترة وبنطال تخلص منهما هولندي

فجعلوه أشبه بجثمان مسيحي يوشك أن يطرح في تابوت. ولما انتهى ذلك كله قال أحد أصحابه القدامى في دهشة "صرت وسيمًا للغاية، أخشى الآن أن تقع زوجتي في غرامك".

قال ما جيديك متباهيًا "سيحدث هذا طبعًا. فحتى الخراف والتماسيح تقع في غرامي".

وكان صحيحًا ما قاله الدونكون، شفاه الحب من مرضه، والحب يشفي كل الأمرَاض. وتخلص الجميع من قلقهم عليه، ونسي الجميع سلوكه المشين في الماضي. فوقفت حتى البنات عن قرب غير خائفات أن يمد عليهن يده، وحيَّاه الأتقياء في مودة غير خائفين أن يملأ بالفحش آذانهم. وأقامت أمه حفلًا صغيرًا ابتهاجًا بشفائه المفاجئ على قمع من أرز التومبنجان الأصفر ودجاجة ذبحت كما ينبغي أن يذبح الدجاج بدون أحشاء بارزة من استها ودعي الكياي ليبارك الحفل بالصلوات والأدعية. وكان ذلك صباحًا بهيًا في حي الصيادين، في أحد أركان هاليموندا القصية الغارقة في الضباب، صباحًا سوف تبقى ذاكرة الناس تستدعيه طوال سنين كلما حكى الشيوخ لأحفادهم حكايات هوى حبيبين بقيا على مدى أجيال حكاية غرام صادق لا يزول.

ولكن في نهاية المطاف، انتهى انتظار السنوات الست عشرة إلى مأساة. فما كادت الشمس تلسع الأبدان، حتى ظهر من يمرقون في العربات وعلى صهوات الخيول مطاردين محظية تجري باتجاه التل الصخري، هي ماإيانج ولا شك. وعلى حمار استعاره ما جيديك مضى

يطارد الهولنديين وحبيبته وأهل الحي وراءه في رتل طويل كأنه ذيل ثعبان عملاق. ولما وصلوا جميعًا إلى الوادى توقف الهولنديون وزعق ما جيديك باسم حبيبته المرة تلو المرة.

بدت ماإيانج شديدة الصغر فوق التل الصخري الذي ما كان للعربات والخيول والحمير أن ترقى إليه. وأنذر الهولنديون في اهتياج بأنهم واضعون إياها إذا ما تمكنوا منها في قفص الأياك. وكان ما جيديك يحاول أن يتسلق الصخر لكن تسلقه كان بالغ الصعوبة فلم يدر أحد كيف أمكن للشابة أن تصل إلى قمته. وبعد نضال طويل صار ما جيديك واقفًا جنب حبيبته والشوق يضطرم بداخله.

"ألا تزال تريدني؟" سألته ماإيانج "جسمي كله لعقه الهولندي وترك عليه أثر بصاقه، وطعن فرجي ألفا ومائة واثنتين وتسعين مرة".

"وأنا طعنت ثمانية وعشرين من فروج النساء أربعمائة واثنتين وستين مرة، وطعنت يدي مرات لا حصر لها، بدون حسبان لمؤخرات البهائم، فهل نحن حقا مختلفان؟"

كأنما استولى عليهما إله داعر، مضيا يتعانقان بقوة ويقبل أحدهما الآخر تحت حرارة الشمس الاستوائية. ولكي يطلقا الوجد الحبيس المضطرم في كليهما منذ سنين خلعا كل ما على جسميهما من ثياب وتركاها للريح فمضت تطفو بها إلى الوادي وتدور بها في الهواء كأنها زهر الماهوجني إذ يحملها النسيم. وما كان الناس في الوادي يصدقون أعينهم فصاح منهم من صاح، والهولنديون احمرَّت وجوههم. ثم إنهما

بلا تردد تناكحا فوق صخرة مستوية على مرأى ممن تجمعوا في الوادي كمن يشاهدون فيلما في السينما. النساء الورعات غطين وجوههن بأطراف طرحهن والرجال جميعًا اهتاجوا وانتصبت قضبانهم ولم يجرؤ أحدهم أن ينظر إلى الآخرين والهولنديون قالوا:

"ذلك ما نقوله دائمًا، أبناء البلد كلهم قردة".

وقعت المأساة بعدما انتهيا من النكاح، حينما دعا ما جيديك حبيبته إلى أن تنزل التل الصخري وتذهب معه إلى البيت فيتزوجا ويعيشا معًا ويتحابا إلى الأبد. قالت ماإيانج إن ذلك مستحيل. فقبل أن تطأ الوادي بقدميها سيضعها الهولنديون في قفص الأياك.

"لذلك أفضّل أن أطير".

قال ما جيديك "هذا مستحيل. ليست لديك أجنحة".

"من يؤمن بأنه قادر على الطيران يقدر على الطيران".

ولكي تبرهن على كلامها، وثبت بجسمها العاري المبلل بقطرات عرق كأنها حبات لؤلؤ تنعكس عليها أشعة الشمس طائرة نحو الوادي مختفية في الضباب الهابط، ولم يسمع الناس إلا صوت صرخات ما جيديك الملتاعة وهو يجري نازلا المنحدر بحثًا عن حبيبته. وبحث معه الجميع حتى الهولنديون وكلابهم البرية. قلبوا الوادي رأسًا على عقب ولم يعثروا لماإيانج على أثر، حية كانت أم ميتة، حتى آمن الجميع في نهاية المطاف بأنها لا بد أن تكون قد طارت حقًا. آمن بذلك الهولنديون وآمن

به ما جيديك، ولمّا لم يبق من ذلك كله غير التل الصخري فقد سمّاه الناس باسم المرأة التي طارت في السماء، فهو تل ماإيانج.

بعد ذلك اليوم ذهب ما جيديك إلى المستنقعات التي لا يحتملها الهولنديون لانتشار الملاريا فيها في موسم الرطوبة وأقام هناك كوخًا لنفسه. في النهار كان يدفع عربة مليئة بالقهوة وحبوب الكاكاو وأحيانًا الكوبرا والبطاطا إلى الميناء، وباستثناء أحاديثه العابرة إلى غيره من الحمالين لم يكن يكلم غير نفسه أو الأرواح المحيطة. وبدأ الناس يظنون فيه الجنون مرة أخرى برغم أنه كفَّ عن اغتصاب البقر والدجاج وأكل الخراء.

وما كاد يقيم في المستنقعات كوخه حتى بدأ مزيد من الناس يتوافدون إلى المستنقعات فتحوَّل المكان بأكواخه إلى حي جديد. والهولندي الوحيد الذي دخل ذلك الحي كان العدَّاد المكلَّف بإجراء التعداد، وعثر عليه بعد أسبوع من ذلك في غرفته المستأجرة صريعًا بسبب حمَّى الملاريا، وهو الشخص الأخير والوحيد الذي زار ما جيديك في كوخه حتى تلك الليلة التي قتل فيها سائق الكوليبري كلبه واقتحم بيته الرجل القوي حاملًا الخبر المذهل بأن ديوي آيو تريد الزواج به. ولما كان لا يدري لماذا تريد الزواج به، فقد بدأت قصة مقبضة تنسج خيوطها في رأسه. كان لا يزال يرتعش حينما سأل الرجل القوي:

"أهي حبلى؟" فلعلها مرغمة على الزواج به لتحمي من الفضيحة اسم عائلة هولندية.

"من الحبلى؟"

"ديوي آيو".

قال الرجل القوي "إذا كانت تريد الزواج بك فلا بد أن ذلك لأنها لا تريد أن تحبل".

استقبلت ديوي آيو خطيبها في بهجة. أمرته بأن يستحم وأعطته ثيابا لطيفة يرتديها لأن شيخ القرية كما قالت يوشك أن يصل. فلم يملأ ذلك ما جيديك بالفرح، بل على النقيض من ذلك. شعر بأنها كارثة محققة، وكلما اقترب ميعاد زواجه، ازداد هو نكدًا وضيقًا.

قالت له ديوي آيو "ابتسم يا عزيزي، وإن لم تفعل ستأكلك الأيام".

"أخبريني لماذا تريدين الزواج بي؟"

قالت ديوي آيو في شيء من الضيق "منذ الصباح وأنت لا تسألني غير هذا السؤال. أتظن أن غيرنا من الناس يتزوجون لسبب وجيه؟"

"في العادة يتزوجون لأنهم يحبون".

قالت ديوي آيو "وهذا هو العكس بالضبط، ليس بيني وبينك أي حب، فهذا سبب وجيه، أليس كذلك؟"

في السادسة عشرة فقط، وشأن كثير من البنات ذوات الدماء المختلطة، كانت الفتاة جميلة، ذات شعر أسود لامع وعينين مزرقّتين،

ترتدي فستان زفاف حريريًا، وتاجًا صغيرًا يجعلها أشبه بجنيات كتب الحواديت. كانت الوحيدة المسؤولة عن منزل آل ستاملر منذ أن حزمت أسرتها حقائبها واتجهت إلى الميناء مع بقية الأسر الهولندية فرارًا إلى أستراليا قبل أن تتبدَّد الفرصة. كان اليابانيون قد احتلوا سنغافورة وبرغم عدم وصولهم بعد إلى هاليموندا، فقد كان محتملًا أن يكونوا وصلوا إلى باتافيا.

كان خبر الحرب قد بلغهم قبل شهور بالفعل حينما سمعوا عبر الإذاعة أن القتال اندلع في أوروبا. وفي ذلك الوقت كانت ديوي آيو قد التحقت بمدرسة الفرنسيسكان التي أصبحت بعد سنين المدرسة المتوسطة التي اغتصب كلبٌ في حمامها حفيدتها رينجانيس الجميلة. كانت تريد أن تصبح معلمة للسبب البسيط نفسه الذي جعلها ترغب عن أن تكون ممرضة. كانت تذهب إلى المدرسة برفقة عمتها هانكه التي كانت تدرِّس لتلاميذ الحضانة في السيارة الكوليبري التي عما قريب ستذهب هي نفسها لإحضار ما جيديك ومع السائق نفسه الذي سيطلق الرصاص على الكلب.

تعلمت على يد أفضل المعلمين في هاليموندا، وهن الراهبات اللاتي علَّمنها الموسيقى والتاريخ واللغة وعلم النفس. وكان الرعاة اليسوعيون يأتون في بعض الأحيان من معهد اللاهوت إلى المدرسة لتلقين التعليم الديني والتاريخ واللاهوت، فكان يعجبهم ذكاؤها الفطري، ويقلقهم جمالها، وحاولت بعض الراهبات أن يقنعنها بعهد الفقر والطهارة والعفة، فتقول لهن "مستحيل، لو تعهَّدت النساء جميعًا

بمثل ذلك لانقرض البشر مثل الديناصورات". فكان حديثها ذلك أدعى إلى الذهول من جمالها. وفي كل الحالات لم تكن تحب في الدين إلا حكاياته الخلابة وفي الكنيسة إلا نغمات أجراس صلاة البشارة الرخيمة.

في عامها الأول بمدرسة الفرنسيسكان اندلعت الحرب في أوروبا. وأفاد المذياع الذي وضعته الأخت ماريا أمام الفصل بأن القوات الألمانية غزت هولندا واحتلتها في أربعة أيام. ابتهج الأطفال، ودهشوا أن تكون الحرب حقيقة، لا مجرد لغو فارغ محشوة به كتب التاريخ المدرسية. وأهم من ذلك أن الحرب دائرة في أرض أسلافهم، وأن هولندا خسرت.

قالت ديوي آيو "فرنسا أولا، الآن تحتلها ألمانيا؟ يا لها من بلد مثير للشفقة".

قالت الأخت ماريا "لم تقولين هذا يا ديوي آيو، وماذا تقصدين؟"

"أقصد أن لدينا من التجار أكثر مما لدينا من الجنود".

عوقبت على كلامها غير اللائق، وأرغمت على قراءة المزامير. ومع ذلك كانت ديوي آيو الوحيدة في فصلها التي فرحت بأخبار الحرب بل وكانت لها نبوءة مفزعة: ستصل الحرب إلى جزر الهند الشرقية بل وإلى هاليموندا. وبرغم أن ديوي آيو بقيت تنضم إلى الصلوات التي تقيمها الراهبات من أجل أمان عائلاتهن في أوروبا، فهي لم تكن تكترث بالأمر كله كثيرًا.

أحاط بها قلق الحرب حتى في البيت، خاصة وأن لجديها تيد وماريتجي ستاملر كثيرًا من الأهل في هولندا، وكانا يسألان باستمرار

عن وصول رسائل من هولندا، وهو ما لم يحدث قط. وكان أشد قلقهما على هنري وآنيو ستاملر، والدي ديوي آيو اللذين هربا من البيت، في غفلة من الجميع، قبل ستة عشر عامًا، وبدون وداع لأحد، تاركين ديوي آيو وراءهما طفلة رضيعة. وبرغم أن ذلك أثار عليهما حنق العائلة، فقد بقوا قلقين عليهما.

كان تيد ستاملر يقول "أرجو أن يكونا سعيدين حيثما هما".

فتقول ديوي آيو "ولو قتلهما الألمان أرجو أن ينعما في الجنة" ثم تقول في نفسها "آمين".

وكانت ماريتجي تقول "بعد ست عشرة سنة لم أعد غاضبة. يجدر بك بدلًا من ذلك أن تصلي كي تلتقي بهما".

"بالطبع أرجو هذا يا أوما. فهما مدينان لي بست عشرة هدية كريسماس، وست عشرة هدية عيد ميلاد، هذا من غير حساب ستة عشر عيد فصح".

كان تعرف أمر أبويها هنري وآنيو ستاملر، إذ همس لها بعض خدم المطبخ بحكايتهما، وكان واردًا جدًا أن يتعرضوا للجلد إن علم تيد أو ماريتجي ستاملر أنهم سربوا الحكاية. ولكن تيد وماريتجي علما بعد فترة أن ديوي آيو سمعت كل شيء بما في ذلك الجزء المتعلق بأنهم عثروا عليها ذات صباح في سلة عند عتبة بابهم، نائمة في هدوء، ملفوفة في بطانية أطفال، وبجانبها ورقة قصيرة كتب فيها اسمها وإشارة إلى أن أبويها أبحرا على السفينة أوْرورا المتجهة إلى أوروبا.

كان يذهلها دائمًا أنها بلا أبوين، وليس لها غير جد وجدة وعمة. فلمّا علمت أن أباها وأمها اختفيا ذات صباح لم تغضب، بل على العكس من ذلك، ملأها الإعجاب.

قالت لتيد ستاملر "إنهما مغامِرَان بحق".

فقال جدها "أنت تقرئين الكثير من القصص يا بنت".

"ولا بد أن يكونا متدينين أيضًا، فالإنجيل يحكي عن أم تركت ابنها على ضفة النيل".

"هذا أمر مختلف".

"طبعًا. أنا تركت على عتبة".

كان هنري وآنيو ابني تيد ستاملر، عاشا في بيت واحد منذ طفولتهما، ولم يدرك أحد الغرام الذي جمع بينهما، فضيحة محققة. ولد هنري من رحم ماريتجي، وكان يكبر آنيو بعامين، وهي ابنة تيد من محظية اسمها ماإيانج. وبرغم أن ماإيانج كانت تعيش في بيت آخر يحرسه رجلان قويان، فقد قرّر تيد أن يجلب آنيو لتعيش في بيته بعد ولادتها. وفي أول الأمر تشاجرت ماريتجي بعنف ولكن ما الذي كان بيدها وأغلب الرجال لهم محظيات وأبناء من الزنا. سمحت أخيرًا للبنت أن تعيش في بيتهما وتحمل اسم العائلة تفاديًا للنمائم في النادي.

نشأ الولدان معًا، فاتسع الوقت ليقع أحدهما في غرام الآخر. وكان هنري شابًا جميلًا بارعًا في صيد الخنازير بكلابه البورزوي (القادمة رأسًا

من روسيا) ولاعب كرة قدم ماهرًا وسباحًا وراقصًا. أما آنيو فكبرت شابة جميلة تعزف البيانو وتغني غناء عذبًا من طبقة السوبرانو. أذن لهما تيد وماريتجي بالخروج معًا إلى الملهى الليلي وقاعة الرقص فذلك زمان متعتهما، وعسى أن يجد كل منهما رفيقًا. ولم تكن تلك إلا بداية المأساة، فبعد الرقص حتى منتصف الليل وشرب الليمونادة في المطعم لم يرجعا إلى البيت. وانتاب القلق تيد فاصطحب رجلين قويين وخرج يبحث عنهما في الملهى، فلم يعثروا هنالك إلا على لعبة الخيول الخشبية الدوارة ساكنة ومعتمة، وبيت مسكون موصد بإحكام، وقاعة رقص خاوية، وأكشاك طعام مغلقة، وبعض العمال النائمين على الأرض في إنهاك واضح أمام أكشاكهم. لم يكن من أثر للمراهقين هناك، فعمد تيد إلى سؤال أصحابهما الشباب عن مكانهما. فقال أحدهم:

"هنري وآنيو ذهبا إلى الخليج".

ولم يكن على الخليج شيء في تلك الليلة إلا نُزُل من بضعة منازل تؤجَّر للعابرين والساهرين. وفتّشها تيد واحدًا واحدًا إلى أن عثر على الاثنين في غرفة، عاريين، أفزعتهما المفاجأة. لم يقل تيد كلمة، ولم يرجع الاثنان قط إلى البيت. ولم يعرف أحد إلى أين ذهبا بعد ذلك. لعلهما عاشا في نزل ما هناك يعملان في أي من المهن الغريبة إن لم يعيشا على الاقتراض أو التسول من أصدقائهما. محتمل أيضًا أن يكونا قد ذهبا إلى الأدغال وعاشا على الثمار ولحم الخنازير البرية. قال شخص إنهما كانا يعيشان في باتافيا ويعملان لشركة السكك الحديدية، ولكن

تيد وماريتجي لم يعرفا لهما مكانًا أو حالًا، ثم ذات صباح عثرا على طفلة في سلة أمام بابهما الأمامي.

قال تيد "وكانت تلك الطفلة هي أنت. سمَّياك ديوي آيو".

قالت الفتاة "وبعد ذلك عملا في إنجاب المزيد من الأطفال على متن أورورا، وربما تركا سلالًا على عتبات كل بيوت أوروبا".

"عندما اكتشفت جدتك ذلك أصابتها حالة هستيريا. خرجت من البيت تجري كالمجنونة فلم يلحق بها أحد، حتى الخيول والعربات. وجدناها على قمة تل صخري لكنها لم تنزل قط. بل طارت".

سألت ديوي آيو "جدتي ماريتجي طارت؟"

"لا، بل ماإيانج".

المحظية، جدتها. قال جدها إنها إن جلست في الشرفة الخلفية ونظرت باتجاه الشمال لرأت تلين صخريين صغيرين. الغربي منهما هو الذي طارت من فوقه ماإيانج فاختفت في السماء، وهو الذي سمَّاه أبناء البلد باسمها: ماإيانج. كان أمرًا مثيرًا، ومحزنًا أيضًا. كثيرًا ما كانت ديوي آيو تجلس عند العصر شاخصة إلى التلّ راجية أن ترى جدتها وهي لا تزال تطير كاليراعة. ولم يشتت انتباهها عن ذلك إلا الحرب، إذ بدأت ديوي آيو أكثر جلوسًا إلى المذياع تستمع إلى أخبار الخطوط الأمامية.

صارت آثار الحرب محسوسة في هاليموندا وإن كانت لا تزال بعيدة. كان تيد ستاملر يمتلك -بالشراكة مع عدد قليل من الهولنديين-

مزرعة الكاكاو وجوز الهند الكبرى في المقاطعة. وبسبب الحرب كانت التجارة العالمية في حالة مزرية، فتهاوى دخلهم وبدا أن عملهم منذور بالفشل. تحرّت الأسر الاقتصاد فلم تكن ماريتجي تشتري الطعام إلا من الباعة الذين يدورون على الأبواب، وكبحت هانكه عادة التردد على السينما وشراء الأسطوانات. بل إن السيد ويلي الهندي الذي كان يعمل لديهم حارسًا وميكانيكيًا قلّل من ذخيرة بندقيته ووقود الكوليبري. وفي تلك الأثناء كان على ديوي آيو أن تنتقل إلى السكن المدرسي.

وبتلك الطريقة كانت تحاول الراهبات الفرانسيسكيات مدَّ يد العون في أثناء الحرب ففتحن السكن المدرسي بالمجان. وامتلأت الحصص المدرسية جميعًا بقصص قلقة عن الحرب التي باتت على مرمى ذراع من أفنيتهم الأمامية. ولمّا لم يكن لديوي آيو صبر على كثرة الكلام فقد وقفت ورفعت صوتها بسؤال:

"بدلًا من الجلوس هنا والكلام لماذا لا نتعلم استعمال البنادق والمدافع؟"

طردتها الراهبات أسبوعًا، وفقط لأن الحرب كانت قائمة لم ينزل عليها جدها عقابًا إضافيًا. رجعت إلى المدرسة بعد سقوط القنبلة مباشرة على بيرل هاربر، وفي جلال أعلنت الراهبة ماريا التي كانت تدرّس التاريخ بمرح دائم أنه "آن أوان دخول أمريكا الحرب".

أدركوا أن الحرب باتت شديدة القرب، تزحف في العشب زحف العظاءة، ببطء ربما، ولكنها تغطي بثقة وجه الأرض بالدم وفوارغ الطلقات. فبات اقتراح ديوي آيو يبدو نبوءة، ثم تبيّن أن القوات المتقدمة

لم تكن قوات الألمان بل هي قوات اليابانيين. ومثل نمر يتبول محددًا منطقة نفوذه، بدأت راية الشمس المشرقة[10] ترفرف في الفلبين، ثم باتت فجأة ترفرف في سنغافورة أيضًا.

ونتجت عن ذلك في البيت مشكلات أكبر. فشأن كل الرجال الراشدين تلقّى تيد ستاملر-ولم يكن قد شاخ بعد- استدعاءات للالتحاق بالخدمة العسكرية الإلزامية. فكان ذلك أصعب كثيرًا من مجرد محاولة توفير النقود. أعطته هانكه وهي تبكي بعض التعاويذ الحارسة وأسدت له ديوي آيو نصيحة جيدة: "وقوعك في أسر أعدائك أفضل كثيرًا من موتك بالرصاص".

وذهب تيد فلم يدر أحد أين ستكون خدمته، ولو أن المرجح أنه كان في طريقه إلى سومطرة ليواجه القوات اليابانية المقتربة حثيثًا من جاوة. رحل تيدعن هاليموندا تاركًا أهله، وبرفقته غيره من رجال أغلبهم من أسر المزارع. وقالت ماريتجي وسط دموعها على فراقه في ميدان البلدة "أقسم بحياتي إن ذراعه الكليلة لم تصب يومًا خنزيرًا بطلقة". واحتلّت مكان زوجها سيدة للبيت وقد بدت مثيرة للغاية للشفقة حتى مضت ابنتها وحفيدتها تواسيانها. وكان السيد ويلي يأتي إلى البيت كلّ يوم تقريبًا، فهو لم يستدع إلى الحرب لأنه هندي لم يسجل قط مواطنًا هولنديًا، علاوة على أن في ساقه عرجا من نطحة خنزير بري.

---

10 أي علم اليابان

قالت ديوي آيو "اهدئي يا جدتي. أعين اليابانيين أضيق من أن ترى هاليموندا على الخريطة". وبالطبع لم تكن تلك غير محاولة للتخفيف عن ماريتجي، فلم يظهر على وجهها ولو طيف ابتسامة.

استشرت الكآبة في المدينة. أغلقت السوق الليلية أبوابها، ولم يعد أحد يزور النادي. لم يعد من رقص وإدارات المزارع صارت تحرسها حفنة من الشيوخ المتهالكين. لم يعد الناس يلتقون لدى المسبح إلا ليغرقوا في الصمت. وفي تلك الأثناء تقريبًا اختفى من هاليموندا كل من كان يعيش فيها من اليابانيين. كان منهم مزارعون ومنهم تجار، وأحدهم كان مصورَ فوتغرافيًا، بل كان منهم اثنان يعملان لاعبي أكروبات في السيرك، فلمّا اختفوا فجأة أدرك الجميع أنهم كانوا يعيشون طول الوقت وبينهم جواسيس للعدو.

أهل البلد فقط هم الذين لم يتزعجوا من ذلك كله، فقد بقوا على حالهم، يفعلون ما كانوا يفعلونه طول الوقت. بقي الحمالون يتجهون إلى الميناء بالعشرات، إذ بقيت التجارة قائمة وبقيت الشاحنات تتحرّك، وبقي المزارعون يعملون في حقولهم والصيادون يقصدون البحر كلّ ليلة.

وصل الجنود النظاميون إلى ميناء هاليموندا الذي صار أكبر موانئ ساحل جاوة الجنوبي، والمخرج المحتمل للإخلاء الجماعي إلى أستراليا. كان في أول عهده مجرد ميناء للصيد عند مصب نهر رينجانيس الكبير، وليس جزءًا من الميراث البحري الحقيقي. كان أهل الساحل ومدن البر

الداخلية يتجمعون فيه لمقايضة سلعهم، وصيادو السمك يقايضون فيه السمك والملح والجمبري مقابل الأرز والخضراوات والتوابل.

وقبل ذلك بعهد بعيد لم تكن هاليموندا غير أدغال ومستنقعات، وأرض مسربلة بالضباب لا تعني أحدًا. ثم هربت إلى تلك المنطقة أميرة من الجيل الأخير في أسرة الباجاجاران[11] المالكة ومنحتها اسمًا. وحوَّلها نسلها إلى قرى وبلدات. وصارت مملكة ماتارام[12] تنفي إليها الأمراء المعارضين، ولم يكن الهولنديون في أول الأمر مهتمين بها نهائيًا، فالمستنقعات تنذر بالملاريا، والفيضان كان جامحا لا تمكن السيطرة عليه، والطرق في حالة مزرية. وكانت أول سفينة ضخمة ترسو هناك في منتصف القرن الثامن عشر سفينة بريطانية اسمها جورج الملكية ولم يكن لها غرض من الرسو إلا التزود بالماء العذب، لا التجارة. ولكن ذلك أثار غضب الإدارة الهولندية، إذ ارتابت أن يكون الإنجليز في حقيقة الأمر قد اشتروا القهوة والنيلة، وربما اللؤلؤ، وربما كانوا يهرِّبون السلاح عبر هاليموندا لتخزينه في ديبونيجرو. فوصلت في نهاية المطاف أول حملة هولندية لإلقاء نظرة ورسم خريطة.

كان ملازم وشاويشان وعرِّيفان ونحو ستين جنديًا مسلحًا هم أول من يعيش هناك من الهولنديين وأقاموا في موقعهم الصغير مكتب بريد هاليموندا الرسمي. وكان ذلك بعدما انتهت حرب ديبونيجرو وبدأ نظام

---

11 كانت مملكة Pajajaran تقع حيثما تقع الآن تقريبًا مدينة بوجور إلى الغرب من جاوة

12 ازدهرت مملكة ماتارام Mataram Kingdom الهندوسية البوذية الجاوية في ما بين القرنين الثامن والعاشر.

التخصيص الزراعي[13]. وقبل ذلك الموقع العسكري، وقبل بدء الهولنديين زراعة الكاكاو، كان محصول القهوة والنيلة اللتين كانتا تنموان بوفرة في شتى أرجاء هاليموندا يشترى عبر الطريق الداخلي الذي يمر بجاوة إلى باتافيا. وكان ذلك الطريق مليئا بالمخاطر: كان يمكن أن تفسد السلع عليه، وكان على طوله لصوص. ولكن بعدما صارت لهاليموندا حاميتها العسكرية وافتتح فيها ميناء بحري، أمكن شحن الحصاد مباشرة إلى السفن وإبحارها مباشرة إلى أوروبا للبيع هناك. أقيمت شوارع أعرض لتلائم العربات والمرور، وشُقّت قنوات لتفادي الفيضان، وبنيت متاجر حول الميناء. وبرغم أنه لم يكن ليقارن مطلقًا بأي من موانئ الشمال، فقد لاحظت الحكومة الاستعمارية ميناء هاليموندا، وافتتح الميناء في النهاية للتجارة الخاصة.

وبطبيعة الحال كان أول نشاط تجاري يقام في المدينة تابعًا للشركة الهولندية الهندية التي كانت تمتلك عددا من السفن. تأسّست كذلك بعض المستودعات، وبالذات بعد افتتاح السكة الحديدية لتقطع الجزيرة من شرقها إلى غربها. غير أنه تبيّن أن التجارة لم تمرّ مطلقًا بعصر ذهبي، وبدلًا من ذلك، طوّرت الحكومة الاستعمارية حامية هاليموندا الصغيرة إلى معقل عسكري حقيقي. كانوا يرون فرصة استراتيجية في أن تكون المدينة هي الميناء الكبير الوحيد في الساحل الجنوبي فتكون أشبه بباب

---

13 ويقصد به السياسة التي اتبعتها هولندا في القرن التاسع عشر في مستعمرتها بجزر الهند الشرقية (أي إندونيسيا حاليا) والتي كانت تقوم على تخصيص جزء من الناتج الزراعي للتصدير.

خلفي يمكن أن يهرب منه الهولنديون إلى أستراليا، بدون أن يضطروا إلى المرور في مضيق بالي أو سوندا في حال اندلاع الحرب.

بدؤوا إقامة الحصون ونصب المدافع على الشاطئ للدفاع عن الميناء والمدينة. أقيمت أبراج المراقبة على قمم التلال في أدغال اللسان الذي هربت إليه وعاشت فيه قبل سنوات كثيرة أميرة مملكة باجاجاران. وجيء بقوات مدفعية من مائة فرد، وبعد عشرين سنة، كان قد نصب خمسة وعشرون مدفع أرمسترونج، وبلغت الخطط الدفاعية ذروتها في مطلع القرن العشرين بإقامة المزيد من الثكنات العسكرية. وتلك كانت بداية أمور كثيرة في هاليموندا: بيوت دعارة وأندية خاصة ومستشفيات وجهود للقضاء على الملاريا وانتشار رجال أعمال هولنديين في المدينة ومن هؤلاء من أقام مزارع الكاكاو وأقام لسنين كثيرة.

عندما اندلعت الحرب واحتلت ألمانيا هولندا، أدخلت تحسينات على جميع المنشآت العسكرية وجيء بالمزيد من الجنود إلى المدينة. ثم أعلنت الإذاعة أن اليابان أغرقت سفينتين حربيتين إنجليزيتين هما أمير ويلز وريبالس، وأن شبه جزيرة مالايو سقطت في يد العدو. لم يتوقف الانتصار الياباني عند ذلك الحد. فلم يمض وقت طويل على سقوط مالايو حتى وقّع الفريق آرثر بيرسيفال قائد قوات الدفاع الإنجليزي وثيقة استسلام سنغافورة التي أشيع طويلًا أنها أقوى المعاقل البريطانية. أخذت الأوضاع تتردّى وتتفاقم حتى وصل مراقب حسابات ذات صباح إلى بيوت أهالي هاليموندا وقال ما سرت على إثره القشعريرة في

الظهور: "اليابان قصفت سورابايا". توقف العمال المحليون عن العمل وتجمَّدت التجارة. وقالوا لماريتجي ستاملر "لا بد أن ترحلي يا سيدة"، فصمتت هي وهانكه وديوي آيو لوقت طويل بدون أن يُجبن بشيء.

سرعان ما غصَّت المدينة باللاجئين الذين جاؤوا بالقطار والعربات الخاصة التي فاضت عن قدرة المدينة على الاستيعاب، حتى ملأت الترع بينما وقف أصحابها في طوابير ينتظرون من ليلة إلى ليلة فرصة ركوب سفينة. جاءت أكثر من خمسين سفينة عسكرية إلى الميناء للمساعدة في الإخلاء. عمَّت الفوضى كل شيء، وبدت هزيمة جزر الهند الشرقية أمرًا مفروغًا منه. وفي انتظار تأكيد بميعاد الرحيل، بدأ الباقون من آل ستاملر يحزمون متاعهم على عجل، ثم فاجأهم قول ديوي آيو المفاجئ "أنا لن أسافر".

قالت هانكه "لا تكوني بلهاء يا بنت، اليابان لن تخطئك".

قالت في عناد "مهما يكن الوضع، لا بد أن يبقى أحد من آل ستاملر هنا. وأنت تعلمين أكثر مني من الذي ينبغي أن ننتظره".

بكت ماريتجي من عنادها وقالت وسط دموعها "سيجعلون منك أسيرة".

"اسمي ديوي آيو يا جدتي، والجميع يعرفون أن هذا من أسماء أبناء البلد".

بعدما دكَّ اليابانيون سورابايا بقنابلهم، واصلوا الزحف باتجاه هدفهم في تانجونج بريوك. كان بعض كبار مسؤولي الحكومة

الاستعمارية من أوائل الراحلين. وأخيرًا ركبت ماريتجي وهانكه ستاملر باخرة زاندام العملاقة بدون أن تعرفا أي مصير لقيه تيد في الميدان، تاركتين ديوي آيو وراءهما نزولًا على إصرارها. كانت الباخرة قد حملت الكثير من البشر ذهابًا وإيابًا لمرات كثيرة ولكن تلك كانت رحلتها الأخيرة، إذ تقاطع مسار زاندام ومسار طرادة يابانية فغرقت الاثنتان بلا قتال. وبدأت ديوي آيو والسيد ويلي والخدم والرجال الأقوياء أيام الحداد.

نزل مشاة يابانيون من الكتيبة الثامنة والأربعين إلى كراجان بعد معركة باتان في الفلبين. تحرك نصفهم إلى مالانج مرورا بسورابايا، والنصف الآخر وصل إلى هاليموندا وأطلقوا على أنفسهم اسم لواء ساكاجوتشي. كانت الطائرات اليابانية قد بدأت تحلّق فعليا في السماء مسقطة القنابل على مصافي ميكسولي أولفادو النفطية التابعة لشركة نفط ماتشابيج باتافسي، وعلى سكن العمال، وعلى مكاتب مزارع الكاكاو وجوز الهند. كان لواء ساكاجوتشي يتقاتل مع الجيش الهولندي الملكي في جزر الهند الشرقية المعروف بالكينيل[١٤]، والمتمترس بقوة خارج المدينة، حينما تلقى الجنرال بي ميجيير خبرًا باستسلام هولندا في كاليجاتي. تهاوت جزر الهند الشرقية جميعًا واحتلت، وسلم اللواء بي ميجيير هاليموندا لليابان في قاعة المدينة.

---

14 الكينيل KNIL هو جيش الهند الشرقية الهولندي الملكي، وهو القوة العسكرية التي نشرتها هولندا في مستعمرتها بجزر الهند الشرقية المعروفة حاليا بإندونيسيا

رأت ديوي آيو كل ذلك وسمعت به، بعينيها وأذنيها، وبرغم ذلك لم تفتح فمها بكلمة طوال فترة حدادها، مكتفية بالجلوس في شرفة بيتها الخلفية، شاخصة إلى التل الذي قال لها تيد إنه سمِّي باسم ماإيانج. وفي عصر أحد الأيام رأت السيد ويلي في الفناء الخلفي وبصحبته كلب بوررزوي كان يفترض أنه كلب أبيها هنري. وللمرة الأولى منذ بدء فترة الحداد، نطقت.

"هرب من هرب، وغرق من غرق".
سأل ويلي "ماذا جرى يا آنسة؟"
قالت "أبدًا، تذكرت جدِّي".

"لا بد أن تفعلي شيئًا يا آنسة، فالخدم حائرون، ألست الآن سيدة البيت؟"

أطرقت. وفي مساء ذلك اليوم أمرت السيد ويلي بأن يجمع خدم المنزل، من طهاة ووصيفات وجناينية وحرس. قالت لهم إنها الآن سيدة البيت الوحيدة. لا بد من تنفيذ أوامرها، ولا ينبغي أن يرفضها أحد. لن تجلد أحدًا، ولكن إذا رجع تيد ستاملر إلى البيت فسوف يجلد العصاة جميعًا، ويرميهم للأياك في الأقفاص. ولم يبد أن أمرها الأول قد أثار ضيق أحد، لكنه فاجأهم وحيَّرهم:

قالت "على أحدكم الليلة أن يختطف شيخًا اسمه ما جيديك من مستوطنات المستنقعات، لأنني سوف أتزوجه صباح الغد".

قال السيد ويلي "لا تمزحي يا آنسة".

"اضحك إذن إن كنت تتصور أنني أمزح".

"لكن القسيس اختفى والكنيسة قصفت فهي حطام".

"هناك شيخ القرية".

"ولكنك لست مسلمة يا آنسة؟"

"لا، ولكنني لست كاثوليكية أيضًا، ليس منذ فترة طويلة".

وكذلك كانت بداية زواج ديوي آيو من ما جيديك. شيخ مثير للشفقة يتزوج شابة جميلة: انتشر الخبر بسرعة في كل ركن من المدينة، حتى إن اليابانيين الواصلين سمعوا النميمة. في الوقت نفسه بعث من لم يتمكنوا من الهرب من الهولنديين رسائل مع خدمهم يتحققون من صدق الخبر، ومنهم من بدأ يستعيد فضيحة أمها وأبيها المخزية.

سأل ما جيديك بعد فترة قصيرة من وصول شيخ القرية "ماذا سيحدث لو لم أتزوجك؟"

"ستكون عشاء الأياك".

"قدِّميني إليها إذن".

"ويسوِّى تل ماإيانج بالأرض".

وأمام هذا التهديد المرعب، تزوج ديوي آيو في التاسعة من صباح ذلك اليوم، بينما شرع اليابانيون في مراسم إعلان سلطتهم على المدينة. لم يدع للاحتفال بالزواج إلا الخدم والحرس. شهد السيد ويلي على الزواج وطيلة الوقت كان ما جيديك يرتعش ويتمتم ولا يملك أن يردِّد

على النحو السليم ما ينبغي أن يكرّره وراء شيخ القرية. وأخيرًا انهار مغشيًا عليه وأنهى شيخ القرية مراسم الزيجة.

قالت ديوي آيو "مسكين. كان ينبغي أن يكون جدي، لو لم يتخذ تيد من ماإيانج محظية له".

حينما أفاق ما جيديك في عصر ذلك اليوم، وجد نفسه زوج ديوي آيو بدون أن يفهم كيف جرى ذلك، فاغرًا فمه كأنه في حضرة شيطانة. رفض أن يمسَّها، وصار يصرخ كلما قرَّبت نفسها منه، ملقيًا عليها كل ما تقع عليه يداه. فلما لانت ديوي آيو، انزوى في ركن من الغرفة يبكي ويرتعش كأنه طفل في مهده. وانتظرت ديوي آيو في صبر، جالسة غير بعيد عنه، ولم تزل في ثوب عرسها. وبين الحين والآخر تحاول استمالته كي يقترب منها ليتحسّسها وربما ينكحها وقد صارت الآن زوجة له. فكلما كان ما جيديك يصرخ، كانت تتوقف عن إغوائه، وتعود للجلوس في هدوء، غير مستبقية من محاولاتها إلا ابتسامة تبتسمها له بين الحين والآخر.

"لماذا أنت خائف مني؟ أنا أريدك فقط أن تلمسني، وطبعًا أن تنام معي، فأنت زوجي".

لم يردّ ما جيديك. فواصلت "فكّر في الأمر، لنقل إننا متزوجان ولكنك لا تنام معي، لن أحبل مطلقًا، وسيقول الجميع إن قضيبك لم يعد يعمل".

أخيرًا غمغم ما جيديك قائلا "كم أنت شيطانة مغوية".

قالت ديوي آيو "بل غواية جميلة".

"لستِ عذراء".

قالت ديوي آيو وقد تأذّت بعض الشيء "طبعًا هذا غير صحيح، نم معي وستعرف أنك مخطئ".

"بل لست عذراء، وأنت حبلى، وتريدين أن تجعلي مني خروفًا بقرنين".

"هذا غير صحيح".

واستمر الجدال بينهما إلى أن انتصف الليل، ثم إلى أن طلع الصبح، ولم يغيِّر أحدهما رأيه. ولما انصبَّ على مخدع زفافهما نور اليوم الجديد، كانت ديوي آيو قد أنهكت من صراخ الرجل الصاعق فكفّت عن الاقتراب منه. خلعت جميع ثيابها، ثوب زفافها، وتاجها، ورمت بها جميعًا على السرير، ووقفت في كامل عريها أمام الشيخ الملتاث وقالت في أذنه رافعة صوتها:

"افعلها وستعرف أني عذراء".

"أقسم بالشيطان ألا أفعلها، لأنني أعرف أنك لست عذراء".

غرزت ديوي آيو إصبعها الوسطى في فرجها، في عمقه، أمام أنف ما جيديك. وتأوهت الفتاة قليلًا من الألم، وارتعدت كلما تحركت إصبعها بين ساقيها، إلى أن أخرجتها وأرتها لما جيديك، وقطرة دم تعلو

طرفها، رسمت بها خطا مستقيما من أعلى جبهة ما جيديك وحتى أدنى ذقنه المرتعشة.

قالت ديوي آيو "حسن، أعتقد أنك محق، الآن لم أعد عذراء".

وتركته لتستحم ثم نامت بعد ذلك فوق ثوب زفافها وكأنما لا تبالي بالشيخ المنزوي مرتعدًا في ركن الغرفة. لم تكن قد نالت أي قسط من الراحة طوال يوم وليلة فنامت في هدوء ولم تستجب للخادمات حينما حاولن إيقاظها للغداء. بل استيقظت عند العصر، ودونما مبالاة بما جيديك مضت على الفور إلى المائدة فأكلت بنهم وبلا حوارات بينما الخادمات شاخصات في انتظار أوامرها. ولما رجعت إلى غرفتها أدركت أن الشيخ ذهب. بحثت عنه في الحمام وفي الفناء وفي المطبخ فلم تعثر له على أثر. ثم سألت أخيرًا أحد الحرس الواقفين أمام المنزل فقال:

"خرج يجري صارخًا كأنما رأى الشيطان يا آنسة".

"ولم تمسكه؟"

قال الحارس "كان يجري بسرعة شديدة، مثلما جرت ماإيانج قبل ستة عشر عامًا، ولكن السيد ويلي طارده بالسيارة".

"وأمسكه؟"

"لا".

ذهبت إلى الإسطبل وانضمت إلى المطاردة على صهوة حصان. خمّنت ديوي آيو، دونما خطأ، أن يكون الشيخ قد قصد التل الصخري

الذي طارت من فوقه ماإيانج وغابت في الضباب. لكن تبيّن أن ما جيديك لم يجر باتجاه ذلك التل، بل إلى تل آخر يقع إلى الشرق منه. سألت بعض من صادفتهم على الطريق فميَّزوا على الأرض أثر سيارة كوليبري واقتفوه حتى قادهم إلى سفح ذلك التل. وجدت ديوي آيو السيد ويلي جالسًا على مقدمة السيارة وقد بدا عاجزًا عن التقدم أكثر مما تقدَّم بسيارته.

قال السيد ويلي "إنه يغني على قمة التل".

رفعت ديوي آيو عينيها فرأت ما جيديك واقفًا على صخرة كبيرة يغني مثل مطرب أوبرالي على المسرح. كان غناؤه يصل إليها خافتًا ولكنها لم تدر أنه يغني في ذلك اليوم الأغنية التي غنَّاها قبل سنوات في نهاية ستة عشر عامًا من انتظاره ماإيانج.

قال السيد ويلي "مؤكد أنه سوف يقفز مثل حبيبته، وسيطير في السماء ويختفي في الضباب".

قالت ديوي آيو "لا. سيتهشَّم على الصخور وينتهي كومة لحم مفروم".

وذلك ما كان. فور أن انتهى من أغنيته، قفز ما جيديك في الهواء. بدا كمن يطير، مبتهجا كما لم يره أحد من قبل لسنين كثيرة. رفرف بذراعيه كأنهما جناحا طائر لكنهما لم تحملا جسمه على الارتفاع، فهوى بسرعة متزايدة. ومع أنه كان يعلم ما ينتظره في النهاية، ظلَّ

مبتسمًا، صائحًا، ممتلئا بالفرحة. تهشَّم على الصخور، وتفتَّت جسمه إربًا، مثلما توقعت ديوي آيو بالضبط.

للموا بقاياه، فبدت أقرب إلى الحساء أو اليخنة منها إلى جثة إنسان، ومضوا بها إلى البيت فدفنوه دفنا لائقًا. وأطلقت ديوي آيو على التل اسم ما جيديك، وكان يجاور تل ماإيانج، وقرَّرت الحداد لمدة أسبوع. وفي نهاية حدادها بلغها نبأ بأن تيد ستاملر سقط مدافعًا عن باتافيا في آخر معركة قبل استسلام هولندا. ولم يصل جثمانه قط، ولكن ديوي آيو قرَّرت الحداد مرة أخرى لمدة أسبوع آخر. وفي نهاية حدادها الثاني، فرحت لمَّا لم يصلها أي نبأ محزن آخر، فرمت جميع ثياب حدادها. وارتدت ملابس مبهجة، وزيَّنت نفسها، ومضت إلى السوق كأنما لم يحدث شيء. ولكنها سمعت لدى عودتها إلى البيت ما هو أشدُّ إدهاشًا من نبأ موت آخر.

اقترب منها السيد ويلي مرتديًا سترة وربطة عنق وحذاء أسود لامعًا وقال إن لديه عملًا مهما يريد أن يناقشه. ظنَّت ديوي آيو أن الرجل يريد أن يستقيل ويسافر إلى باتافيا ليبحث عن عمل، أو لينضمَّ ربما للجيش الياباني. ولم يكن أيٌّ من هذا أو ذاك قريبا حتى من الحقيقة. لم يشِ وجه السيد ويلي المحمرُّ من فرط الخجل بشيء إلى أن تكلم فعلًا، ولمّا تكلم فعلًا لم يقل غير كلمات قلائل أذهلت ديوي آيو.

قال " آنسة، تتزوجينني؟".

٣

غفلت ديوي آيو عن أن الجنود اليابانيين ما كانوا لينتصروا في الحرب بدون معلومات من قبيل أنها ابنة أسرة هولندية. لم تكن قسمات وجهها ولون بشرتها فقط هما اللذين كشفا أمرها، بل السجلات العامة أيضًا في أرشيف المدينة الذي بات بأكمله خاضعًا لسيطرة اليابانيين، ومن ثم فما كانوا ليصدقوا أنها من بنات البلد، سواء أكان اسمها ديوي آيو أم لم يكن.

قالت "أظن أن هذا هو الأمر، مثلما يعرف الجميع أن مولتاتولي[15] سكران وأنه ليس من أبناء جاوة".

بقيت وحيدة تمامًا، تحنّ إلى الماضي وتستمع إلى الجرامافون إذ تدور فيه مقطوعات جدّها الأثيرة، سمفونية شوبرت الناقصة، وشهرزاد لريمسكي كورساكوف، وتفكر في طريقة للرد على عرض السيد ويلي.

15إدوارد داوس ديكر Edward Douwes Dekker (١٨٢٠ – ١٨٨٧) كاتب هولندي اشتهر باسمه الأدبي المذكور في المتن، كما اشتهر بروايته الساخرة ماكس هافلار Max Havelaar التي ندد فيها بالاستعمار في جزر الهند الشرقية (إندونيسيا حاليا)، والتي يشار إليها لاحقا في متن الرواية.

كانت تعرف أن السيد ويلي رجل فاضل، بل إنها تمنّت في يوم من الأيام لو يتزوج عمَّتها هانكه. وكان خذلان رجل مثله عسيرًا مثلما كان الزواج به طيشًا، لكن مهما تكن الظروف، لم تكن لتفكر في الزواج بأي شخص بعد زيجتها الصاخبة بما جيديك.

كان السيد ويلي قد جاء إلى هاليموندا عندما طلب جدها شراء سيارة كوليبري من متجر فيلودروم في باتافايا بدلًا من الفيات القديمة. وكانت الشركة ملك رجل أعمال اسمه بريست فان كيمبين، وهو رجل طيب كان يتيح للناس شراء السيارات بالتقسيط. ولم يكن جدها بحاجة إلى التقسيط، ولكن أصدقاءه حكوا له عن العرض العظيم الذي تقدمه فيلودروم: تسلّمْ سيارة مع وثيقة تأمين، وترتيب مع محل ميكانيكا ممتاز، وتوفير سائق خبير في التعامل مع المحركات. رجع إلى البيت مع السيد ويلي الذي بات سائقًا لهم وميكانيكيًا، فانتفعوا به انتفاعًا كبيرًا، خاصة وأنهم كانوا بحاجة إلى من يعتني بآلات المزرعة. كان متوسط البنية، وفي منتصف الثلاثينيات. وصدره مكشوف دائمًا إذ لم يكن يغلق أزرار قميصه، وثيابه دائمًا مبقعة بالشحم، ويحمل مسدسًا يطلق رصاصه على الجرذان والخنازير. كان ذلك كله ماضيًا قديمًا عندما كانت ديوي آيو بنتًا في الحادية عشرة، قبل أن يتقدَّم لها السيد ويلي بخمس سنين.

"فكّر في المسألة يا سيد. أنا تقريبًا امرأة مجنونة".

قال السيد ويلي "عندما أنظر إليك لا أرى أي علامات على الجنون".

"عندما مات ما جيديك عرفت أنني لم أتزوجه إلا غضبًا على تيد الذي دمَّر حياته، ومعنى هذا بوضوح أنني مجنونة".

"أنت فقط غير عقلانية بعض الشيء".

"وهذه مجرد طريقة أخرى لوصفي بالجنون يا سيد".

فكيف كان خلاصها؟ هربت مجتنبة الرد على طلبه. كان الوقت لم يزل صبحًا والفونجراف لم ينته من المقطوعات بعد حينما رأت شاحنات عسكرية تصطف على الشط متأهبة لتطويق من بقي من السكان الهولنديين واقتيادهم إلى معسكر السجن. في اليوم السابق كان الجنود قد جاؤوا إلى بيوتهم وأمروهم بحزم أمتعتهم. وفي الليل، ودونما كلمة لأي شخص، وبالذات السيد ويلي، حزمت ديوي آيو أغراضها. ولم تأخذ الكثير، فما هي إلا حقيبة ثياب وبطانية ووسادة رفيعة وحجج ممتلكات العائلة. لم تأخذ نقودًا أو حليًا وقد علمت تمامًا أن مصيرها السرقة. بل جمعت بعض عقود جدتها وأساورها ورمتها في المرحاض وشدَّت عليها السيفون، وقسَّمت البقية إلى كميات صغيرة في مظاريف لتعطيها لخدم البيت فيصمدوا إلى أن يعثروا على عمل في مكان آخر. أما هي فابتلعت ستة خواتم ذات فصوص من يشب وفيروز وماس ليكونوا في أمان في بطنها ويخرجوا مع غائطها لتبتلعهم مرة أخرى ما بقيت في السجن. ثم حان وقت الرحيل، إذ توقفت شاحنة أمام منزلها ونزل منها جنديّان في يد كلٍّ منهما نصل بندقية وصعدا الدرج إلى الشرفة التي كانت جالسة فيها تنتظر وصولهما.

قالت ديوي آيو "أنا أعرفكما، أنتما المصوران اللذان كنتما تعملان في الاستوديو عند منعطف الطريق".

قال أحد الجنديين "كان ذلك وقتًا لطيفًا. التقطنا صورا لكل هولندي في هاليموندا".

"وربما لك أيضًا يا آنسة".

قالت ديوي آيو "قصدك يا مدام، أنا أرملة الآن".

استأذنتهما في لحظة لتودِّع خدم المنزل. وبدا أنهم كانوا على علم بأن السيدة راحلة. رأت إحدى الطباخات، واسمها إيناه، تبكي. كانت إيناه مالكة المطبخ الحقيقية وقد عهدت إليها جدة ديوي آيو بإعداد جميع وجبات ضيوف الأسرة. لن تذوق ديوي آيو وجبة ريجستافل[16] اللذيذة من يدها ربما إلى الأبد، كانت الطباخة الجيدة جزءًا مهما من ثروة العائلة، لكن العائلة اختفت الآن فلم يبق منها إلا واحدة ها هي في طريقها إلى أن تكون أسيرة حرب. كانت ديوي آيو تعطي المرأة عقدًا ذهبيًا حينما غمرتها الذكريات. حينما كانت صغيرة وعلَّمتها إيناه الطبخ، فكانت تتركها تطحن البهارات وتُهوِّي على جمرات الموقد. لطمها حزن طاغ لم يلطمها مثله حتى حينما سمعت خبري وفاة جدتها وجدها.

---

16 *Rijsttafel* : كلمة هولندية معناها الحرفي "مائدة الرز"، وهي اصطلاحا وجبة أخذها الهولنديون عن الإندونيسيين، وهي في الحقيقة وليمة من أكلات عديدة تقدم في مقادير صغيرة.

بجوار الطباخة وقف ابنها خادم البيت. كان اسمه موين. وكان أكثر انضباطًا في زيه من جميع من عداه، حريصًا على ارتداء قبعة البلانجكون[17]، مثيرًا إعجاب الجميع حتى الهولنديين. كانت وظيفته أن يتجوَّل في جميع أنحاء البيت، لكنه كان ينشغل أكثر ما ينشغل في أوقات الوجبات إذ يرتِّب المائدة. وكان تيد ستاملر قد علَّمه كيف يشغل الجرامافون، فكان كثيرًا ما يأمره بتغيير الأسطوانة أو البحث عن أغنية معينة، فيسعده ذلك دائمًا، ويدير الأسطوانة ويحرك الإبرة كأنه الرجل الوحيد لهذه المهمة. وكان يعرف كثيرًا من المقطوعات الكلاسيكية، بل ويبدو فعلًا أنه يستمتع بها.

قالت ديوي آيو "لك ذلك كله" مشيرة إلى الجرامافون ورف الأسطوانات.

قال موين "لا يمكن. هذه مقتنيات السيد".

"صدقني أنا، الموتى لا يستمعون إلى الموسيقى".

وبعد سنين لمّا انتهت الحرب وقامت الجمهورية رأت موين مرة أخرى. في ذلك الوقت لم يكن قد بقي من أسر الهولنديين أحد، ولم يكن أحد ثريًّا بما يجعله يستعمل الكثير من الخدم. عرفت أن موين لا يكاد يحسن صنع شيء إلا أن يضع مائدة ويضع عليها الجرامافون، ويقف في السوق يشغل الأسطوانات التي ورثها عن جدها، بينما قرد صغير مدرب وبارع يدفع عربة إلى الأمام أو الخلف أو يتحرك بمظلة راقصًا

---

17 قبعة تراثية للرجال في إندونيسيا شبيهة في بعض أشكالها بالعمامة

على أنغام السمفونية التاسعة من مقام دو الصغير ويلقي الناس الفكة في قبعة البلانجكون التي بات موين يخلعها ويضعها على منضدته مقلوبة. وقفت ديوي آيو تراقبه من بعيد، مبتسمة لحظّه السعيد.

مهنة موين الأخرى كانت نقل الرسائل، فلم تكن في البيوت هواتف، ولم تكن "الرسائل" أكثر من لوح خشبي يكتب على وجهيه بالطباشير. فكانت كثيرًا ما تتبادل النمائم مع زميلات المدرسة بالكتابة على أحد وجهي اللوح، ليجري به موين بعد ذلك إلى بيت الزميلة وينتظر منها الرد مكتوبًا على الوجه الآخر. وفي أثناء انتظاره يقدَّم له العصير والكعك الصغير، فيأكل بشهية، ويرجع باللوح، مثلما يرجع بكل ما يسمع من نمائم خدم البيت الآخر. كان يستمتع بذلك العمل، وديوي آيو كانت تبعثه كلَّ يوم تقريبًا.

الرسالة اللوحية الوحيدة التي لم تبعث بها موين هي رسالتها الأخيرة على الإطلاق، التي بعثتها إلى ما جيديك فذهب بها السيد ويلي والرجل القوي لإيصالها إلى كوخه.

قالت "واللوح أيضًا لك".

ثم التفتت إلى سوبي الغسالة، ملكة الطلمبة والصابون. في صغرها كانت تلك العجوز ترافقها دائمًا عند نومها فتغني لها نينا بوبو وتحكي لها حدوتة القرد الضائع[18]. كان زوجها هو الجنايني، يعلق على ساقه منجلًا

18حدوتة شعبية شائعة في غرب جاوة عن قرد أسود يساعد أميرة جميلة على أختها الكبيرة حين تحاول سلبها حقها كولية للعهد

كبيرًا ويمسك دائمًا بآخر صغير وغالبًا ما يأتي بلفائف مفاجئة، فمرة هرة سوداء، وأخرى بيضة ثعبان، أو سحلية، أو يأتي بهدايا مبهجة، فحينًا بضع موزات ملكية، أو ثمرات قشطة نصف ناضجة، أو كيس مليء بثمار المانجو.

وكان هناك عدد من الرجال الأقوياء، حرس البيت، وحرس الحديقة، وحرس حظيرة الماعز، عانقتهم جميعًا. وللمرة الأولى منذ سنين كثيرة بكت ديوي آيو، فقد كان وقع تركهم أشبه بفقدان قطعة من جسمها. وفي النهاية وقفت تنظر إلى السيد ويلي وقالت له "أنا مجنونة، والمجنونة لا تتزوج إلا مجنونًا، وأنا لا أريد أن أتزوج مجنونًا"، وقبّلته قبل أن تخرج مع الجنديين اليابانيين اللذين ما كانا ليتتظرا أكثر مما انتظرا.

قالت لهم للمرة الأخيرة "اعتنوا ببيتي، ما لم يستولِ عليه هؤلاء الناس".

وصعدت إلى مؤخرة الشاحنة المتوقفة أمام البيت. وتقريبًا لم تجد لها مكانًا فيها، فقد كانت تغصُّ بالنساء وأبنائهن الباكين. لوّحت للخدم الذين كانوا لا يزالون واقفين في الشرفة. لقد عاشت في ذلك البيت ستة عشر عامًا، ولم تخرج عن حدود المدينة إلا في زيارات قليلة وقصيرة إلى باندونج وباتافيا. رأت كلاب البوررزوي تجري وراء البيت نابحة في الفناء المليء بالعشب الياباني الذي كانت الكلاب تحب أن تتقلب فيه وسط زهور الياسمين المنتشرة بجوار البيت وزهور عباد الشمس الطالعة قرب السور. ذلك كان مجال نفوذ الكلاب، وتمنّت ديوي آيو لو يهتم السيد

ويلي برعايتها. بدأت الشاحنة تتحرك بينما تكافح ديوي آيو كي تتنفس وسط أجسام غيرها من النساء. وبقيت تلوح لكلاب البورزوي النابحة.

قالت امرأة بجوارها "أمر لا يصدّق، نرحل عن بيوتنا! أرجو أن لا يطول هذا".

قالت ديوي آيو "أرجو أن يعود جيشنا فيهزم اليابانيين وإلا فسوف نباع بيع السكر والرز".

كان أبناء البلد قاعدين على جانبي الطريق شاخصين إلى المتزاحمين في خلفية الشاحنة بنظرات بليدة. ولكن عددا منهم بدؤوا في البكاء حينما وقعت عيونهم على نساء هولنديّات يعرفونهن، وبدؤوا يلوحون بالمناديل بين النهنهات. مسحت ديوي آيو دموعها، وابتسمت للمشهد الغريب. كان أبناء البلد أبرياء مطيعين وفيهم شيء من الكسل. رأت بينهم ديوي آيو بعض الوجوه التي تعرفها، ممن كانوا يعملون لدى جدها في مزرعة الكاكاووكانت كثيرًا ما تختفي في أكواخهم، وتحبهم لأنهم يحكون لها حكايات فاتنة من مسرح الوايانج، ولأنهم يحبون الضحك، ولأنهم يلبسونها الساري المحبوك وقمصان الكيبايا المصنوعة من الأشرطة ويلمون لها شعرها في كعكة. كانوا شديدي الفقر، فلا يشاهدون الأفلام إلا من وراء الشاشة معكوسة الصور، ولم يدخل أحد منهم النادي أو قاعة الرقص إلا لتنظيفهما. قالت لامرأة بجوارها "لا بد أنهم مرتبكون إذ يرون دولتين أجنبيتين تتصارعان على أرضهما".

بدا أن الرحلة سوف تستمر إلى الأبد في طريقها إلى سجن الساحل الغربي في دلتا نهر رينجانيس الصغيرة. كان ذلك السجن حتى لحظة معينة لا يمتلئ بغير المجرمين الخطرين، من القتلة والمغتصبين والسجناء السياسيين المعارضين للحكومة الاستعمارية وأغلبهم من الشيوعيين الذين كانوا يحتجزون فيه مؤقتا إلى حين الزج بهم في معتقل بوفين ديجول. احترقت النساء تحت الشمس الاستوائية الملتهبة بلا مظلة أو شراب يشربنه، وفي منتصف الرحلة توقفت الشاحنة، فتزوّدت بالماء ولم يتزود الناس بشيء.

تعبت ديوي آيو من طول ما أطلّت على الطريق جاثمة في السيارة، فارتكنت إلى جدار الشاحنة تجيل نظرها فيمن حولها، وأدركت أنها تعرف بالفعل بعض النساء فهن جارات لها أو زميلات في المدرسة. وكانت بين الهولنديين روابط اجتماعية قوية، فمن كان منهم طفلا كان يلتقي في عصر كل يوم تقريبًا مع أمثاله للسباحة في الخليج، ومن كان منهم مراهقا كان يلتقي بأمثاله في قاعة الرقص أو السينما أو العروض الكوميدية. أما الكبار منهم فكانوا يلتقون في النادي. عرفت ديوي آيو بعض صديقاتها. وتبادلن ابتسامات مريرة، بل مزحت إحداهن قائلة "وأنت كيف حالك؟"

وبصدق تام قالت ديوي آيو "زفت. نحن في الطريق إلى السجن". وكان ذلك كفيلا بإضحاكهن قليلًا.

الفتاة التي بدأت المزاح كان تدعى جيني. وكانت تذهب مع ديوي آيو للسباحة، والطفو بعوامة من إطار داخلي قديم كانت ديوي آيو تحتفظ به في السيارة. وكان ذلك عهد سعادة حقيقية قبل أن يدوّي رعد الحرب. كان الشباب يقفون قرب الماء، والكبار يجلسون على الرمل تحت المظلات وفي أفواههم غلايين التبغ، ليغمزوا جميعًا للبنات في ثياب الاستحمام. كانت تعرف أيضًا ما يحدث في غرفة التغيير، فما كانوا يطلقون عليه غرفة التغيير لم يكن في الحقيقة إلا نبعًا طبيعيًا لدى حافة الشط محاطًا بسياج من البامبو، وبرغم أن قسمي الرجال والنساء كانا منفصلين، فقد كانت كثيرًا ما تلحظ العيون تتلصص عبر شقوق السياج فكانت هي الأخرى تتلصص لكن لتصيح "يا إلهي، قضيبك صغير جدا"، فيهرب الرجال في العادة وهم في غاية الحرج.

كان ظهور زعنفة سمكة قرش بين الحين والآخر يثير صخبا بين السابحات، ولكن لم يحدث أن تعرضت إحداهن للهجوم. إذ كان شاطئ هاليموندا ضحلا للغاية، فكن في العادة يسارعن بالخروج من البحر. وفي بعض الأحيان كانت سمكات قرش صغيرة تعلق في شباك الصيادين، فيحرّرها الصيادون دائمًا مؤمنين بأن الاحتفاظ بها شؤم. ولم تكن القروش هي الوحوش الوحيدة المخيفة، إذ كانت التماسيح تعيش على مقربة من مصب النهر محبة هي الأخرى للحوم البشر.

لا بد أن الخليج الآن، بكل أمواجه الرقراقة الوديعة، ممتلئ بعيال أبناء البلد وحدهم، ممن كانوا لا يسيرون إلا حفاة يكسو التراب

أجسادهم ويبتعدون فور أن يروا البنات والشباب يسبحون. وتساءلت ديوي آيو إن كانوا سيسمحون لهن بالذهاب للسباحة في السجن.

فقالت امرأة في منتصف العمر في حجرها طفل صغير "ادعي الله ألا نقابل تمساحًا".

ولم تقل ذلك عبثًا، فقد كان لزامًا عليهم لكي يصلوا إلى السجن في منتصف الدلتا أن يعبروا الماء. وبعد رحلة كدر توقفت الشاحنة لدى النهر، حيث يذرع جنود يابانيون الضفة صائحين في النساء بلغتهم التي لم تفهمها أي منهن.

شحنت النساء بعضهن فوق بعض في معدية أدعى للخوف من الشاحنة، فقد كانت معرضة للغرق وقد يظهر تمساح مثلما قالت المرأة فلا تستطيع أي منهن أن تغلبه في السباحة. وتحركت السفينة ببطء مؤلم، في دوائر تجتنب مواجهة التيار مواجهة مباشرة. مضت ثقيلة متسخة بالسخام والدخان يتصاعد من مدختنها فيحوم في السماء. جفل سرب من طيور البلشون بسبب الجلبة فانطلق طائرا ولم يحط إلا في المياه الضحلة، غير أن منظره لم يبد جميلًا وهم يصلون إلى مبنى قديم قائم من وراء آكام وقد بدا أنه أخلي خصيصا لاحتجاز الأسرى. ذلك هو بلادن كامب، سجن دموي التاريخ، مرهوب من المجرمين. لا أمل لمن يدخله في الهرب ما لم يكن قادرا على العوم لمسافة ميل في نهر جامح تسابقه فيه التماسيح.

ما كاد القارب يرسو حتى شرع الجنود اليابانيون يصيحون مرة أخرى فسارعت النساء يقفزن بأسرع ما يستطعن. بدأ الأطفال يبكون فكان بعض الهياج: إذ وقعت حقيبة في النهر فابتلت صاحبتها وهي تحاول التقاطها، ووقعت حشية نوم في الوحل، وانفصلت أم عن ابنها بوقوعه تحت الأقدام وسط الفوضى. مضى الجمع يسير باتجاه السجن عابرا ثلاث بوابات حديدية يقف عليها الحرس. اصطفت النساء قبل الدخول أمام منضدة جلس وراءها يابانيان يمسكان بقائمة، وبجوارهما سلة للنقود والأشياء الثمينة، وكان من النساء من بدأن بالفعل يخلعن حليهن ويلقينها.

قال أحد الجنود بمالاوية سليمة "اخلعن بأنفسكن قبل أن نفتشكن".

حدثت ديوي آيو نفسها قائلة: **تفضلوا فتشوا خرائي إن شئتم**.

كان السجن أقذر من زريبة الخنازير. فالسقف يسرّب والجدران مبقعة بدم متخثر، وفي الشقوق طحالب وحشائش والأرض وسخة يعمرها القمل والصراصير والدود. جرذان المجاري بدينة، الواحد منها في حجم فخذ طفل، وتجري في المكان مذعورة، مضطربة من الوافدين الجدد، تمرق بين أرجل النساء فيتقافزن صارخات. مضت النساء بأسرع ما استطعن يحددن بالحقائب أماكنهن وينظفنها باكيات. اتخذت ديوي آيو لنفسها مكانًا صغيرا في منتصف عنبر، فردت هناك حشيتها واتخذت من حقيبتها وسادة واستلقت منهكة. كانت سعيدة الحظ أنها بطولها، لا

أم لها ولا ولد يتطلب رعايتها، ولأنها لم تنس اصطحاب أقراص الكينا وأدوية أخرى، فقد كان خطر الإصابة بالملاريا والدسنطاريا قائما، لأن المرحاض لم يكن يعمل.

في مساء ذلك اليوم لم يقدَّم طعام. واللقيمات البسيطة التي جاءت بها النساء انتهت بحلول وقت الغداء. سألت إحداهن اليابانيين عن الطعام فقالوا غدًا أو ربما بعد غد. في تلك الليلة كان عليهن أن يحتملن الجوع. خرجت ديوي آيو من القاعة إلى الحقول وكانت بوابات السجن الثلاث مفتوحة وبوسع الأسيرات أن يخرجن من المعتقل للمشي في الحقول، وكانت عينا ديوي آيو قد وقعتا عند مجيئها على بضع بقرات لعلها تخص بعض حرس السجن أو المزارعين المحليين الذين يعيشون في الدلتا. كانت قد جمعت بعض الديدان وهي تنظف مكانها في عنبر السجن ووضعتها في علبة زبدة بلوباند. وجدت بقرة ترعى، هي أسمن البقرات، فلصقت الدود على جلدها، اكتفت البقرة بنظرة عابرة، ولم تبد انزعاجا، وجلست ديوي آيو على صخرة تنتظر. كانت تعلم أن العلق يمص دم البقرة، وأنه حينما يمتلئ به سيتساقط عنها تساقط التفاح الناضج، وإذ ذلك تناولتها من الأرض وأعادتها إلى العلبة وقد بدت ممتلئة وبدينة.

أضرمت نارا صغيرة ووضعت العلق بالعلبة ليغلي في ماء أتت به من النهر، ودون أن تضيف أي شيء آخر رجعت بالعلبة إلى العنبر الذي بات لها بيتا وقالت لبضع نساء وأطفال كانوا يقيمون بالقرب منها فهم جيرانها الجدد إن "العشاء جاهز". لم يبد أحد اهتمامًا بتناول العلق،

بل إن من النساء امرأة أوشكت أن تتقيأ من مجرد الفكرة. قالت ديوي آيو "نحن لا نأكل العلق بل دم البقرة"، وشقّت علقةً بسكين صغير مستخرجة كتل الدم منها، ثم شقتها بسن السكين لتنساب عصارتها. لم يتحرك أحد لمشاركتها تلك الوجبة الهمجية، أو أن ذلك على الأقل ما كان من أمرهن حتى منتصف الليل حين اشتد عليهن الجوع. فجرَّبن، ووجدن الطعم سقيمًا، لكنه طيب بعض الشيء.

قالت ديوي آيو "لن نموت جوعا، فعلّاوة على العلق لدينا الأبراص والسحالي والفئران".

قالت النساء في عجلة "فعلًا، عظيم، شكرا".

كانت الليلة الأولى مقبضة تمامًا. اختفى نور النهار بسرعة كدأبه في المناطق الاستوائية، وبرغم عدم وجود كهرباء، فقد أشعل الجميع تقريبًا شموعا كن قد أحضرنها فتزاحمت ألسنة لهبها الصغيرة ظلالا على الجدران أفزعت الصغار. تمدَّد الجميع على الحشايا، مثيرًات للشفقة، فلم يداعب أيًا منهن النعاس. ومضت الفئران تنزلق عليهن في العتمة، والبعوض يئز متنقلا بين آذانهن والوطاويط تمرق فوق رؤوسهن. والأدهى من ذلك كله أن الجنود اليابانيين جاؤوا لإجراء تفتيش مفاجئ باحثين عمن لا تزال تخفي نقودًا أو مجوهرات. ثم طلع الصباح غير حامل وعدًا بشيء.

كان بلادن كامب ممتلئًا بنحو خمسة آلاف من النساء والأطفال جيء بهم من كل حدب وصوب. وشعاع الأمل الوحيد أتى من عرافة نظرت

في ورق اللعب وقالت لهن إن الطيارين الأمريكيين يقصفون الثكنات اليابانية، فسارعت ديوي آيو إلى المرحاض، ولكن رتلا طويلًا من النساء كن ينتظرن بالفعل فتناولت قليلا من الماء في علبة زبدة بلوباند وخرجت إلى الحقول، وهناك، وسط بضع من شجيرات البطاطا، حفرت حفرة صغيرة وتغوطت كالقطة، وبعدما اغتسلت واستبقت قليلا من الماء مضت تنبش غائطها بحثا عن الخواتم الستة. وكان عدد من النسوة يحاكين روتينها المقزز على مسافة منها دون أن يعرفن أن ديوي آيو تحرس كنزا صغيرا. غسلت الخواتم بما استبقت من الماء وابتلعتها من جديد. لم تكن تعرف ما الذي سوف يحدث بعد الحرب. لعلها تفقد بيتها ومزرعتها، ولكنها أصرّت على ألا تفقد خواتمها. رجعت إلى العنبر وهي لا تدري هل سيكون بوسعها أن تستحم في ذلك اليوم أم لا.

في ذلك الصباح، كان على الوافدين الجدد أن يقفوا في الحقل والشمس من ورائهم، فالأطفال يبكون والنساء يوشكن أن يفقدن وعيهن، في انتظار قومندان المعسكر ورجاله. ثم ظهر القومندان بشارب كثٍّ وسيف ساموراي يتأرجح إلى الأمام وإلى الوراء متدليا من خصره، وعلى حذائه تنعكس أشعة الشمس المبهرة. قال للسجناء إن عليهم أن ينحنوا للجنود اليابانيين انحناء شديدا، حتى تنثني خصورهم، بمجرد أن يسمعوا الأمر بـ "كايراي" وألا يعتدلوا إلا حينما يسمعون الأمر بـ "ناأوري". وقال من خلال مترجمه إن "تلك علامة احترام للإمبراطورية اليابانية"، ومن يعصوا ذلك يلقوا العقاب الملائم: فيكلفوا بالمزيد من العمل، ويجلدوا، بل وقد يقتلوا.

وخشية الوقوع في الخطأ، لقنت نساء قليلات بالداخل هذه التعليمات لأبنائهن، فمضين يصحن بـ كايراي وناأوري حتى انفجرت ديوي آيو في الضحك.

قالت "أنتن أكثر شرًا من اليابانيين".

فضحكت الأمهات مثلها.

لم يكن هناك مجال يذكر للتسلية. فبرزت غريزة ديوي آيو التي اكتسبتها من دراستها السابقة للتدريس، إذ جمعت عددًا من الأطفال الصغار، وأقامت لهن مدرسة صغيرة في ركن غير مستعمل من العنبر، وعلّمت الصغار القراءة والكتابة والحساب والتاريخ والجغرافيا، وبالليل كانت تحكي حواديت وقصصا من الإنجيل وتمثل بعرائس الوايانج حلقات من الرامايانا والمهابهاراتا التي استمعت إليها من أبناء البلد، وكذلك خلاصات الكتب الكثيرة التي قرأتها. وأحبها الأطفال حبا في قصصها التي لم تكن قط جافة أو مملة. فكانت تمتعهم إلى أن يحين وقت رجوعهم إلى أمهاتهم للنوم.

فرض اليابانيون عليهم أن تكون الزنازين نظيفة طول الوقت، فقسّمت النساء أنفسهن إلى مجموعات عمل صغيرة، وجعلن على رأس كل منها رئيسة ووضعن جدولا لتدوير المهام على المجموعات. فكن يتناوبن الطهو في المطبخ المشترك، ويملأن طسوت الماء، ويغسلن الأواني والأدوات، ويكنسن الفناء، ويحملن أكياس الرز والبطاطس والخشب المحروق وغيرها من الأغراض من الشاحنات إلى المخزن. وبرغم صغر

سنها، وقع الاختيار على ديوي آيو رئيسة لمجموعتها. كان لديها من النضج ما يلزم للقيادة، ولم يكن لديها من يشتتها. وعلاوة على مدرستها الصغيرة، عثرت على طبيبة فأقامتا معًا مستشفى بلا أسرَّة أو أدوية. وطالبت بعض النساء بقس ولكن الرجال كانوا في سجن آخر، فعثرت ديوي آيو على راهبة ورأت في ذلك الكفاية. وقالت في ثقة "ما لم ترد واحدة الزواج فلن نكون بحاجة إلى قس. كل ما نحن بحاجة إليه هو شخص يقيم الشعائر ويقود الصلاة".

ولكن الأمور لم تمض جميعًا بهذه السلاسة. ساءت أخلاق الصبية الصغار فشكّلوا عصابات من أصدقائهم في الزنزانة وصاروا يسبُّون بعضهم بعضا. ولكن شجارات الأطفال كانت أيسر من غضب جندي ياباني. كانت أمَّهات الأطفال يشعرن بأنهن مرغمات على التصرف بقدر مساو من القسوة، فكن يضربن أبناءهن وإن بدا أن ضربهن لا يفضي إلى نتيجة. ولم يكن لدى اليابانيين أدنى نية للفصل في هذه الشجارات أو إيقافها، بل العكس تمامًا هو الصحيح، فقد كانوا يحرِّضون عليها وكأنها لعبة جديدة لهم.

الطعام كان مشكلة أخرى. فالكميات المصروفة لم تكن تكفي آلاف السجناء، لذلك كانوا يعيشون على نظام غذائي مجاعي صارم، لا ينالون إلا الرز المملّح عصيدةً في الإفطار، والغداء قد يكون أي شيء يعثر عليه ثم أصبح لاحقا الخضراوات التي زرعنها بأنفسهن وراء الزنازين. وفي المساء كن يحصلن على شريحة واحدة من الخبز الأبيض الحاف، ولم يحصلن قط على لحم، وكن قد اصطدن أغلب حيوانات بلادن كامب

حتى تسبَّبن في انقراضها. فأتين أول ما أتين على الفئران ـبرغم أن أنفسهن عافتها في البداية لكن قليلا قليلا لم يبق فئران تقريبًا في الدلتاـ وبعدها اختفت السحالي والأبراص. ثم تلاشت الضفادع. وفي بعض الأحيان كان الصغار يذهبون لصيد السمك، لولا أنه لم يكن مسموحا لهم بالابتعاد فكان يرضيهم من السمك ما لا يتجاوز حجمه إصبعا وردية في يد رضيع أو حتى ما لا يتجاوز حجمه حجم صغار الضفادع. وأقصى رفاهية هي التي كانت تتوافر لهن إن عثرن على بعض الموز، ولكنهن كن يخصصنها للصغار الرضع، ثم تتشاجر النساء على القشر.

بدأ الرضَّع يموتون، ثم كبيرَات السن. قتل المرض الأمهات الصغيرات والأطفال والبنات، ففي أي لحظة كان يمكن أن يموت شخص، حتى تحول الحقل إلى مقبرة وراء الزنازين.

كانت ديوي آيو قريبة من شابة تدعى أولا فان ريجك، وكانت البنات عموما يعرفن بعضهن بعضا منذ زمن بعيد، فوالد أولا كان يمتلك مزرعة كاكاو، لذلك كانت الفتاتان كثيرًا ما تتزاوران في منزليهما. أولا كانت أصغر بسنتين وكانت قد اعتقلت هي وأمها وشقيقتها الصغرى، وفي عصر أحد الأيام رأت ديوي آيو الدموع تنساب على خدّي أولا.

قالت "أمي تموت".

ذهبت ديوي آيو تتفقّدها. وبدا ما قالته أولا حقا. كانت مدام فان ريجك مصابة بحمى شديدة، وقد شحبت واعترتها الرعشة، ولم يبد من

الممكن القيام بأي شيء، لكن ديوي آيو طلبت من أولا أن تذهب إلى القومندان وتطلب منه دواء وطعامًا من مخصصات الجنود. فارتعدت أولا خوفا من الاقتراب من اليابانيين.

قالت ديوي آيو "هيا، أمك ستموت".

أخيرًا ذهبت أولا بينما أخذت ديوي آيو تضع بعض الكمَّادات الباردة على جبهة المرأة المريضة وتحاول التسرية عن أخت أولا الصغرى. وبعد نحو عشر دقائق رجعت أولا بدون أي أدوية، وبالمزيد فقط من الدموع. قالت وسط نحيبها "دعيها تمت". سألتها ديوي آيو "ماذا قلت؟". هزَّت أولا رأسها في وهن وهي تمسح دموعها في كمِّها وقالت باختصار "لا أمل. لن يعطيني القومندان الدواء إلا لو وافقت على النوم معه".

قالت ديوي آيو في غضب "سأكلمه أنا". كان القومندان في مكتبه، جالسا في مقعده، ساهما ينظر إلى قهوته المثلجة على المنضدة، منصتا إلى موسيقى المذياع. اقتحمت الغرفة دون أن تطرق بابها. التفت الرجل وقد فاجأته جرأتها وبدا على وجهه غضب من لا يعرف الهزل. لكن قبل أن يتسنى له الانفجار خطت نحوه ديوي آيو حتى لم يبق بينهما إلا المنضدة وقالت "أنا سأحلّ محلّ البنت السابقة يا قومندان. يمكنك أن تنام معي أنا على أن تعطي أمها دواء وطبيبا. وطبيبا".

"دواء وطبيب؟" كان يعرف من الملاوية عبارات قليلة. الفتاة التي تقف أمامه كانت شديدة الجمال، لا تتجاوز سبعة عشر عامًا أو ثمانية

عشر، ولعلها لم تزل عذراء، وهي تعرض عليه نفسها في مقابل بعض دواء الحمى وطبيب. تبخّر غضبه حين نزلت عليه تلك النعمة في ذلك اليوم المضجر. ابتسم، في دهاء وافتراس، وهو يشعر بأنه شيخ سعيد الحظ، ودار حول المائدة بينما انتظرت ديوي آيو في ثباتها المعهود. بلمسة واحدة أحاط القومندان بوجهها كله، زحفت أصابعه زحف السحالي على أنفها وشفتيها، رافعة ذقنها ووجهها، ومضت أصابعه تواصل رحلتها نزولا على رقبتها باليد الخشنة التي تألف القبض على سيف الساموراي، كاسحة في طريقها انحناءة الترقوة، مقتحمة طوق فستانها.

اندفعت يداه أسفل ثوب ديوي آيو فجفلت قليلا، لكن الرجل كان قد قبض بالفعل على نهدها الأيسر، وبعد ذلك بدأت سرعته تزداد. فتح القومندان فستان ديوي آيو بكفاءة تَفَقُّدِه قواته، ثم صار يعتصر صدرها، ويقبّل رقبتها بشهوة نهمة ويداه تجوبان كل ما تطالان من جسمها وكأنه نادم أن ولد بيدين اثنتين لا أكثر.

"بسرعة يا قومندان وإلا فستموت المرأة".

بدا القومندان متفهِّما لذلك فدونما كلمة أخرى شدّ ديوي آيو ورفعها وبعد أن أبعد فنجان قهوته ومذياع الترانزستور طرحها على المائدة. سرعان ما خلع عن الفتاة ثيابها، وعنه ثيابه، ثم وثب فوق جسمها وثبة قط على سمكة. قالت مرة أخرى "لا تنس يا قومندان، دواء وطبيب. قال القومندان "نعم نعم دواء وطبيب". ثم إنه لم يتلكأ حول العش، بل اخترقه بعنف. أغمضت ديوي آيو، فبرغم كل تلك

الظروف، كان ذلك أول رجل ينالها: ارتعدت قليلا، لكنها تجاوزت الرعب. ثم لم تقو على المضي في إغماض عينيها وقد كان القومندان يهز جسمها في ضراوة، ويخضّها بلا توقف، ويجتاحها يمنة ويسرة. ولم يكن بوسعها أن تجتنب منه شيئًا إلا أن تمنع عنه شفتيها إن أراد تقبيلها، وانتهت اللعبة بانفجار وانقلب القومندان بجوارها، فاردا أطرافه لاهثا.

سألته ديوي آيو "طيب، كيف الأمر يا قومندان؟"

قال "مدهش. زلزال".

"أقصد الدواء والطبيب".

بعد خمس دقائق سعدت ديوي آيو حينما أتاها طبيب محلي ذو نظارة مدورة وأدب واضح، وفرحت بأنها لن تكون مضطرة إلى مزيد من العمل مع الياباني مرة أخرى. أوصلته إلى زنزانة أسرة ريجك، وفي الطرقة قابلت أولا فسألتها على الفور "هل فعلتها؟"

"نعم".

صاحت الفتاة "يا إلهي" ولم تملك دموعها. وبينما كان الطبيب يسارع إلى المريضة، مضت ديوي آيو تسرّي عنها. "لم يكن أمرًا ذا بال. كأنك تتغوطين من الأمام".

رفع الطبيب رأسه وقال "هذه المرأة ميتة".

منذ ذلك الحين عشن ثلاثة، كأنهن أسرة صغيرة: ديوي آيو وأولا والصغيرة جيردا التي كانت في التاسعة فقط من العمر. كان والد أولا وجيردا قد استدعي للتجنيد فذهب إلى الحرب مثل تيد، ثم لم تصل أخبار تفيد إن كان لا يزال على قيد الحياة، أم وقع في الأسر، أم مات. مضى عليهن في المعسكر أول عيد فصح وكريسماس، بلا بيض أو شجرة أو شموع، فكل ذلك كان قد استهلك. حاولن أن يتماسكن معًا فتواسي إحداهن الأخرى ويواجهن المرض معًا والموت. منعت ديوي آيو الصغيرة جريدًا من أن تسرق شيئًا من أحد مثلما كان بقية الصغار يفعلون. وكانت تستهلك عقلها وهي تفكر ماذا يمكن أن يأكلن في كل يوم. فلم يبق بقر يرعى في الدلتا والعلق اختفى.

وذات يوم رأت ديوي آيو تمساحا رضيعا على حافة الدلتا، وكانت تعلم أن ما ينبغي اجتنابه فقط من التمساح على البر هو ذيله، فهوت على رأسه بحجر هائل أصاب المسكين إصابة بالغة لكنه لم يقتله. أخذ يطيح بذيله إلى الأمام وإلى الوراء، وبدأ يتحرك باتجاه النهر، تناولت ديوي آيو عود بامبو مسنونا كانت تُشَدُّ إليه في العادة حبال القوارب، وفيخطوة طائشة لم تتخيل أن تقدم أو تقوى عليها، غرست العود في عين التمساح ثم في بطنه، فمات التمساح ميتة مدهشة، وقبل أن تسارع إليه أمه وأصدقاؤه سحبته ديوي آيو من ذيله إلى المعسكر، وصار بوسع السجينات أن يحتفلن حقا بحساء لحم التمساح. وأثني الكثير منهن على شجاعة ديوي آيو وشكرنها.

قالت ببساطة "يا جماعة لا يزال في النهر تماسيح كثيرة إن كنتن تردن المزيد".

كانت قد نشأت على ألا تخاف أي شيء. فقد اصطحبها جدها معه ومع رجاله الأشداء مرات قليلة لصيد الخنازير. بل إنها كانت على مقربة من السيد ويلي حينما نطحه الخنزير البري فأعاقه لما بقي من حياته، لذلك كانت تعرف كيف تتعامل مع الخنزير، فتجري في خط متعرج، لا في خط مستقيم مهما حدث، لأن الخنزير لا يجيد الانعطاف. كان الرجال الأشداء هم الذين علموها ذلك مثلما علموها كيف تتعامل مع التمساح، وكيف تتصرف إذا التف عليها أفعوان أو لدغتها حية، وكيف تواجه كلب الأياك، وماذا تفعل إن أخذت علقة تمص دمها. ولم تكن قد تعرّضت فعليا لشيء من تلك الأخطار قبل أن تفد على بلادن كامب، ولكن الدروس التي تعلمتها من الرجال الأشداء كانت مختزنة في خلفية عقلها.

علموها كذلك تسابيح للتخلص من الأرواح الشريرة وللوقاية من الأخطار. ولم تكن قد استعملت من قبل أيا من تلك التسابيح، ولكنها كانت سعيدة بمعرفتها. كانت تعرف تاجرة جاوية تأتي على قدميها من جبل على بعد مئة كيلو متر لتبيع للهولنديين فواكه من حديقتها، في رحلة تستغرق منها أربعة أيام. وكانت في العادة تقضي ليلة في المخزن فتقدم لها جدة ديوي آيو العشاء وفنجانا من القهوة لتبدأ في اليوم التالي رحلة تستمر أربعة أيام راجعة إلى بيتها. وعلاوة على المال، كانت ترجع أحيانا ببعض

الصدقات من الثياب القديمة. تلك المرأة لم تكن تخشى أي نوع من وحوش الأدغال وديوي آيو كانت تعرف السبب، وهو تلاوتها للتسابيح.

ولكن ديوي آيو لم تكن تؤمن بذلك، مثلما كانت تحار دائمًا في جدوى الصلاة. ومع ذلك، ومع أنها لم تكن تصلي مطلقًا، فقد كانت تقول لجريدا "صلّي يا جريدا وادعي لأمريكا أن تنتصر في الحرب".

انتشرت النمائم في المعسكر عن انتصار أمريكا وهزيمة ألمانيا. فارتاحت السجينات لها قليلا، مهما بدا ذلك الأمل ضعيفا، لكن الأيام مضت تتبع بعضها بعضا، ومثلها الأسابيع، والشهور، وأخيرًا حل الكريسماس، ولم يكن احتفال ديوي آيو به في ذلك العام إلا تسرية عن جريدا. اقتطعت غصنا من شجرة بانيان أمام بوابة المعسكر الأمامية، وزيّنته بزينة من الورق، وغنّت أغنية عيد الميلاد، واغتبطت أشد الغبطة لما رأت أولا وجريدا ولو لوهلة عابرة وقد نسيتا شقاء من تقضيان أيامهما أسيرتين في معسكر.

بدأن يتناقشن في خططهن لما بعد الحرب، كيفما جاءت نهاية الحرب، بمجرد أن ينلن حريتهن. قالت ديوي آيو إنها سوف ترجع إلى بيتها، وتعيد كل شيء إلى نصابه، وتعيش العيش الذي عرفته من قبل. ربما لن يكون الوضع بالضبط كسابقه، لأن أبناء البلد قد يقيمون جمهوريتهم ويغيِّرون ما كانوا عليه في الماضي، ولكنها سوف ترجع إلى بيتها وتعيش فيه. وسوف يسعدها أن تعيش معها أولا وجريدا. ولكن أولا فكرت بواقعية في أن اليابانيين ربما يكونون قد استولوا على البيت

وباعوه لشخص ما. أو ربما يكون أبناء البلد هم الذين فعلوا ذلك فبات البيت ملكا لهم.

قالت ديوي آيو "بوسعنا أن نشتريه منهم"، وحكت لهم عن سر الكنز الذي خبّأته هناك، وإن لم تحك لهما أين خبأته بالضبط. "حتى لو كان اليابانيون قصفوه فلم يبقوا منه إلا على كومة من الطوب، بوسعنا أن نشتريه مرة أخرى". فرحت جريدا فرحة حقيقية وهي تستمع إلى تلك الحكاية. كانت قد بلغت الحادية عشرة، لكنها نحلت ولم ينمُ جسمها كما كان ينبغي له خلال ذينك العامين. ولكن الجميع كن معها في القارب نفسه، فكلهن نحلن وضمرن. ديوي آيو نفسها كانت على يقين أنها فقدت من وزنها خمسة عشر كيلو جرامًا على الأقل.

قالت وهي تنتزع من نفسها ضحكة صغيرة "وذلك يكفي خمسة عشر طبقا من الحساء".

بدأ الجنون الحقيقي في المعسكر بعد انتهاء قرابة عامين مكتملين، حينما بدأ الجنود اليابانيون يعدون قائمة بجميع النساء ممن تتراوح أعمارهن بين السابعة عشرة والثامنة والعشرين. كانت ديوي آيو في الثامنة عشرة، وقاربت على التاسعة عشرة. أولا كانت في السابعة عشرة. فكّرن في البداية أن القائمة تعني التكليف بأعمال أشق، إلى أن حدث ذات صباح أن وصلت شاحنات عسكرية إلى الجهة الأخرى من النهر، وعبرت حفنة من ضباط الجيش بالقوارب متجهين إلى بلادن كامب. كان قد سبق أن جاؤوا بضع مرات للتفتيش أو للإبلاغ عن

قواعد أو أوامر جديدة، وفي هذه المرة كان الأمر هو تجميع كل النساء اللاتي تتراوح أعمارهن بين السابعة عشرة والثامنة والعشرين. وسرعان ما استشرت الفوضى حين أدركت النساء أنهم سوف يفصلونهن عن صديقاتهن وأسرهن.

تظاهرت بعض الفتيات ـومنهن أولاـ بأنهن عجائز فلم ينطل ذلك طبعا على أحد. ومنهن من جرين فاختبأن في المراحيض أو تسلّقن إلى الأسطح فقبعن هناك، لكن الجنود اليابانيين عثروا عليهن جميعًا. وحاولت عجوز أن تعترض، خشية أن تفقد ابنتها، فقالت إن أُخذت الشابات فلتؤخذ معهن العجائز، فلم تلق من الجنود اليابانيين إلا الضرب المبرح.

وأخيرًا اصطفّت الشابّات في منتصف الفناء، يرتعدن خوفا وقد تكدست أمهاتهن بعيدا. رأت ديوي آيو من بعيد جريدا وهي تتشبّث في عمود، وحيدة تمامًا، تبتلع دموعها، وكانت وراءها أولا لا تقوى على رفع عينيها عن حذائها البالي. سمعت بعض البنات يبكين ويتلون الصلوات. ثم جاء الضباط يفحصونهن واحدة واحدة. وقفوا أمام كل منهن ضاحكين وهم يفصحون أجسامهن من أعلى الرأس حتى أصابع القدمين، وقد يرفعون في بعض الأحيان ذقن واحدة بأناملهم ليفحصوا وجهها.

وبدأ الاختيار، فانفصلت بعض البنات إلى جنب، وكلما كان الضباط يطلقون سراح بنت كان يبدو وكأن سهما انطلق من بين البنات

إلى الأمهات. ثم لم يبق من التصفية الثانية إلا قرابة النصف، ومنه ديوي آيو وأولا، واقفات في منتصف الفناء بيادقَ عديمة الحيلة في لعبة اليابانيين السخيفة. نودي عليهن واحدة بعد الأخرى لتقف أمام الضابط يفحصهن مرة أخرى بعينين ضيقتين. وبقيت من ذلك الانتقاء الأخير عشرون فتاة في وسط الفناء تشبثت إحداهن بالأخرى وإن لم تجرؤ واحدة على النظر في عيون أيٍّ من الأخريات. أولئك الفتيات اللاتي وقع عليهن الاختيار، الجميلَات الصحيحات القويات، أمرن بحزم كل أمتعتهن على الفور والتجمع في مكتب الإدارة. وكانت الشاحنة تنتظر لكي تمضي بهن.

قالت أولا "لا بد أن أحضر جيردا".

قالت ديوي آيو "لا. على الأقل تعيش هي إذا متنا نحن".

"أو العكس؟"

"أو العكس".

عهدتا بجريدا إلى أسرة كانت ديوي آيو تعرفها منذ وقت طويل. ومع ذلك لم تستطع أولا أن تتقبل الموقف فجلست الأختان تتعانقان في ركن عناقا طويلًا، بينما كانت ديوي آيو تحزم متاعيهما وتساعد في ترتيب ما يتبقى منهما لجريدا.

ثم قالت ديوي آيو لجريدا "أوكيه، هذا يكفي، بعد سنتين من هذه الحياة المملة سنذهب في رحلة لبعض الوقت، وسأرجع إليك ببعض التذكارات".

قالت جريدا "لا تنسي أن تحضري دليلا سياحيا".

قالت ديوي آيو "والله أنت بنت ظريفة".

تجمَّعت النساء قرب البوابة، وبدا من المنظر أن ديوي آيو هي الوحيدة التي تتصرف وكأنهن ذاهبات لنزهة ممتعة. فبقية البنات وقفن مرتبكات خائفات ناظرات إلى اللاتي يتركنهن وراءهن. تقدم الضباط وساق بعض الجنود البنات إلى المركب دافعين إياهن بعنف. ومن أعلى المركب كان لا يزال بوسعهن أن يرين بوابة السجن ويرين المحتشدات بعيدا بداخله يشهدن رحيلهن. كان البعض يلوحن بالمناديل فيذكِّرنهن باللحظة التي أخذهن فيها اليابانيون من بيوتهن للمرة الأولى. وها هي رحلة أخرى تبدأ. لكن ما كاد المركب يتحرك حتى تلاشت البوابة ومنظر السجن. وإذ ذاك انفجرت البنات في البكاء فطغى نحيبهن على هدير المحرك وجعير الجنود الذين استاؤوا من بكائهن.

ثم نقلن إلى شاحنة كانت تنتظر في الضفة الأخرى من النهر. قبع الجميع في أطراف الشاحنة إلا ديوي آيو التي وقفت مستندة إلى حد الشاحنة ناظرة إلى المشاهد المألوفة طوال الطريق إلى هاليموندا وبجوارها حارسَان مسلحَان. بعد سنتين في السجن، كانت جميع البنات تقريبًا يعرفن بعضهن معرفة جيدة، ولكن لم يبد على إحداهن أن بها رغبة في الكلام، كما كن مندهشات من الهدوء الذي بدا على ديوي آيو. حتى أولا لم تكن تعرف فيم تفكر فتجاسرت على الظن بأن ديوي آيو ليس لديها من تحمل همه، فهي لم تترك وراءها أحدًا.

سألت ديوي آيو الجندي وهي تعلم أن الشاحنة تتجه إلى غرب المدينة وربما ما وراءها "إلى أين أنتم ذاهبون بنا يا سيدي؟"، ويبدو أن الحرس كانوا قد تلقوا أوامر بعدم الكلام إلى البنات، فتجاهل الحارس سؤالها، وبدلًا من ذلك ظل يتكلم إلى الآخرين باليابانية.

سيق البنات إلى بيت كبير ذي فناء ضخم مليء بالأشجار والشجيرات، وفي وسطه شجرة بانيان ضخمة، وبمحاذاة سوره صف من النخيل بين كل واحدة والأخرى جوزة هند صينية. عندما دخلت الشاحنة الفناء، ظنت ديوي آيو أن في طابقي البيت أكثر من عشرين غرفة. نزلت النساء من الشاحنة مشدوهات: كانت النقلة حادة من السجن الكئيب وضيع المنظر إلى ذلك القصر المنيف المريح. بدا الأمر شديد الغرابة، لا بد أن خلطا ما قد شاب الأوامر.

علاوة على الحارسين، كان ثمة مزيد من الجنود يتحركون في المكان أو يلعبون الورق. وخرجت من البيت امرأة محلية في أواسط الخمسينيات، وقد لمّت شعرها في كعكة وارتدت جيبة فضفاضة حولها حزام مفكوك عند الخصر. ابتسمت للنساء الواقفات في الفناء كأنهن قرويات يخشين الاقتراب من قصر الأمير.

سألت ديوي آيو في أدب "أهذا بيتك يا سيدتي؟"

قالت "ناديني ماما كالونج، فأنا مثل الكالونج، وطواط الفواكه، أكثر نشاطا بالليل مني بالنهار". نزلت من الشرفة واقتربت من البنات محاولة أن تخفّف سيماء القهر التي تبدّت على وجوههن بنكتة وابتسامة.

"هذا البيت كان بيت الإجازات لصاحب مصنع ليمونادة هولندي من باتافيا. نسيت اسمه، ولكن اسمه لا يهم، لأن البيت كله أصبح بيتكن من الآن".

سألت ديوي آيو "لماذا؟"

"أعقد أنكن تعرفن لماذا. أنتن هنا للتطوع من أجل الجنود المرضى".

"كمتطوعات الصليب الأحمر".

"شاطرة يا بنت. ما اسمك؟"

"أولا".

"طيب يا أولا، هاتي صاحباتك إلى الداخل".

كان البيت من الداخل أشد جمالا، فيه لوحات كثيرة معلقة على الجدران معظمها من موي إندي[19]. والأثاث كله جديد لم يمسسه أحد، وكله مصنوع من خشب محفور ببراعة. رأت ديوي آيو صورة عائلية لم تزل معلقة على جدار، فيها جماعة من الناس بدا أنهم ينتمون إلى ثلاثة أجيال وقد تكدسوا جميعًا في أريكة واحدة. لعلهم نجحوا جميعًا في الهرب، أو ربما منهم من يعيش في بلادن كامب، ويمكن تمامًا أن يكونوا قد ماتوا جميعًا. كان في أحد الأركان صورة أخرى كبيرة للملكة

---

19 *Mooi Indie* وتعني بالهولندية "جزر الهند الجميلة" وتشير إلى إحدى عشر لوحة بألوان الماء لـ دو شاتيل Du Chattel تصور جمال جزر الهند الشرقية ونشرت للمرة الأولى في أمستردام سنة ١٩٣٠.

فيلهلمينا[20]، فلعلّ اليابانيين هم الذين أنزلوها. كل ذلك جعل ديوي آيو تشعر بأنها الآن لم تعد تملك بيتًا، فلعلّ اليابانيين استولوا عليه، أو لعلّه صار حطاما بسبب قذيفة ضالّة. ولكن كل شيء صغير كان يحظى بعناية فائقة، ربما من ماما كالونج، ولما دخلت إحدى غرف النوم، شعرت وكأنها تدخل غرفة عروس. فالسرير واسع وعليه حشية وثيرة لينة وناموسية بلون تفاحة حمراء والهواء عبق بشذا الورد. كانت الخزانات لا تزال مليئة بالثياب، وكان بعضها ثيابا أنثوية قالت ماما كالونج إن بوسعهن ارتداءها. قالت أولًا إن كل ذلك بعد سنتين في السجن يبدو أشبه بالحلم.

قالت ديوي آيو "ألم أقل لك إننا في رحلة".

استقلت كل بنت بغرفة، ولم تنته الرفاهية عند ذلك الحد. فبعون من خادمتين قدمت ماما كالونج لهن عشاء حافلا، فكان بعد التضوّر جوعا على مدار شهور أفضل ما تذوقته ألسنهن. ولكن ذكرى من تركنهن في السجن مرّرت على أكثر البنات طعم كل شيء.

قالت أولا "كان ينبغي أن تكون جريدا معنا".

حاولت ديوي آيو مواساتها "إذا لم ينته بنا المطاف إلى أن نبعث للعمل في مصنع أسلحة، فيمكننا أن نذهب إليها".

"المرأة قالت إننا سوف نتطوع في الصليب الأحمر".

---

20 Queen Wilhelmina ملكة هولندا (١٨٩٠ ـ ١٩٤٨)

"وماذا؟ وما الفارق؟ أنت حتى لا تعرفين كيف تضمِّدين جرحا، فما الذي كان يمكن أن تفعله جريدا؟"

كان ذلك صحيحا، ولكنهن جميعًا كن مفتونات بفكرة أن يصبحن متطوعات في الصليب الأحمر، ولو كان معنى ذلك أن يعملن مع العدو. إذ بدا ذلك على أقل تقدير خيرا من الموت جوعا داخل السجن. انهمكن تمامًا في مناقشة أمور الإسعافات الأولية. قالت فتاة صغيرة إنها كانت من الزهرات في الكشافة المدرسية وتعرف كيف تخيط جرحا، وليس ذلك فقط، بل تعرف كيف تداوي الأمرّاض البسيطة مثل الإسهال والحمى والتسمّم الغذائي بالاعتماد على الأعشاب البرية.

قالت ديوي آيو "المشكلة أن الجنود اليابانيين لا يحتاجون إلى دواء للإسهال، بل يحتاجون قطع رقابهم".

تركت ديوي آيو المجموعة وذهبت إلى غرفتها. ولأنها كانت الأهدأ بينهن، وإن لم تكن كبراهن سنا، فقد بتّن يعتبرنها قائدة لهن. فتبعها البنات التسع عشرة واجتمعن في غرفتها، فمنهن من جلسن على السرير، واستأنفن الكلام في قطع رقاب اليابانيين إذا أصيبت رؤوسهم فلم تعد بهم حاجة إلى رقابهم. لم تلتفت ديوي آيو إلى ثرثرتهن الحمقاء، منهمكة في الاستمتاع بسريرها الجديد كأنها طفلة صغيرة أهديت لعبة جديدة. أخذت تتحسَّس الحشيَّة وتربِّت على البطانية وتتقلب يمنة ويسرة بل ووثبت إلى أعلى جاعلة الحشية تهتز وصاحباتها يتقافزن.

سألتها إحداهن "ماذا تفعلين؟"

قالت وهي تتقافز "أختبر السرير، هل يمكن أن ينهار من فرط الاهتزاز المشبوب؟"

قالت فتاة أخرى "لا يمكن أن نشهد زلزالًا".

قالت "من يدري، لو كنت سأقع في نومي من أعلى السرير، فإنني أفضل أن أنام على الأرض من الأصل".

قلن "يا لك من فتاة غريبة" وانسللن واحدة إثر الأخرى إلى غرف نومهن.

ولمّا خرجن جميعًا، مضت ديوي آيو إلى الشباك ففتحته لتجد قضبانا حديدية، قالت "لا مجال للهرب". أغلقت الشباك وارتقت السرير وجذبت على نفسها الغطاء بدون أن تخلع ثيابها، وقبل أن تغمض عينيها أخذت تصلي "أيتها الجحيم، أنت تعرفين أن الحرب هكذا".

***

لما طلع الصبح، كان الإفطار جاهزا: رز مقلي وبيض. كانت البنات جميعًا قد استحممن لكنهن بقين في ثيابهن القديمة التي بدت أشبه بأقمشة المطابخ المهترئة وقد استعملت وغسلت وجفّفت مرّات ومرّات. بدت في أعينهن المحمرّة آثارٌ تشي بأنهن بكين طيلة الليل. ديوي آيو فقط هي التي أخذت ببرود ثيابا من خزانتها فكانت ترتدي فستانا قصير الكمين بلون القشدة فيه نقاط صغيرة وقد ربط حول خصرها حزام ذو مقبض مدور. ووضعت على وجهها البودرة وطلت شفتيها بطبقة خفيفة من الطلاء وعطّرت جسمها بقليل من عطر الخزامى، بعدما عثرت على ذلك كله في أدراج التسريحة. بدت أنيقة مشرقة كأن اليوم

عيد ميلادها، ناتئة وسط الكثيبات المحيطات بها. نظرن إليها نظرات اتهام وكأنهن ضبطنها ملوثة اليدين بدماء الخيانة، لكنهن ما انتهين من تناول الإفطار إلا وهرعن إلى غرفهن، فغيّرن ثيابهن، وأبدت كلٌ إعجابها بالأخريات.

كان النهار قد أوشك على الانتصاف حينما جاء اليابانيون، وملؤوا البيت بوقع أحذيتهم. تذكّرت البنات على الفور أنهن برغم كل شيء لم يزلن أسيرات، وأن شعورهن أخيرًا بالسعادة أمر غريب. تراجعن حتى لامست ظهورهن الجدران، وحلّت عليهن الكآبة من جديد. إلا ديوي آيو التي سارعت ترحب بواحد من الضيوف.

"كيف حالك؟"

اكتفى بالنظر إليها لوهلة، غير معتنٍ بالردّ، ثم ذهب يبحث عن ماما كالونج. تكلما قليلا، ثم رجع فعدّ البنات قبل أن يخرج مرة أخرى. وهدأ البيت بعد أن لم يبق فيه غير البنات وماما كالونج واثنان من الجنود الواقفين على بابه.

قالت إحداهن "كان يعدنا وكأننا مجموعة من الجنود".

قالت ماما كالونج "هذه وظيفة القومندان".

طوال ذلك اليوم لم يفعلن شيئًا غير التجول في صالة المعيشة أو في غرفهن، حتى استولى عليهن الضجر. فبعدما تذكّرن بحنين طفولتهن السعيدة قبل الحرب، لم يبق لديهن ما يتكلمن فيه. لم يعد منهن من

تتكلم عن الصليب الأحمر، إذ لم تظهر أي إشارة على أنهن سيكنّ متطوعات فيه فعلًا. فالياباني لم يتكلم عنه، ولكنه لم يتكلم عن أي شيء أصلًا. كانت البنات يرين أنه لا بد من بعض التدريب إذا كن سيصبحن متطوعات، لكن بدا أنهن فقط سوف يبقين حتى يتعفنَّ في ذلك البيت، وسط كل تلك الرفاهية التافهة. والأدهى كما قالت إحداهن أن الجبهة بعيدة تمامًا عن البيت، لعلها في المحيط الهادي أو حتى في الهند، لكن المؤكد أنها ليست في هاليموندا. فلم يكن في المدينة جنود متطوعون. ولم يكن في المدينة جنود جرحى، ولم يكن أحد بحاجة إلى الصليب الأحمر.

قالت ديوي آيو "لكنهم بالتأكيد يحتاجون قطع رقابهم".

لم يبد أن النكتة لا تزال مضحكة، خاصة وأن التي قالتها بدت كمن لا تحمل همًا للدنيا بكل ما فيها. بدا أنها تنعم بكل شيء، تأكل التفاح الموضوع، وبنهم مماثل تأكل الموز والبابايا.

سألتها أولا "أنت ميتة من الجوع، أم شرهة وحسب؟"

"الاثنتان".

في اليوم التالي لم يكن قد حدث أي شيء، فازددن حيرة على حيرة. حاولت أولا أن تسرّي عن نفسها بالتفكير في أنه سوف تتم مبادلتهن مع أسرى آخرين وأن هذا هو السبب في إطعامهن هذا الطعام الجيد وهذا البيت وهذه الثياب بحيث لا يبدو عليهن أنهن كن يعانين. ولم تصدق ذلك أي من البنات. وحانت فرصة طرح الأسئلة حينما جاء عدد من الجنود اليابانيين إلى البيت ومعهم مصور فوتغرافي. ولكن لم

يكن بينهن من يجيد الإنجليزية أو الهولندية أو المالاوية. فقط أشاروا إلى الفتيات أن يقفن وقفات أنيقة لأنهم سوف يصورونهن. فاصطفّت البنات على مضض أمام الكاميرا، مرغمات على الابتسام، راجيات أن تكون أولا على حق في أن هذه الصور سوف تكون جزءاً من الحملة الدعائية حول أوضاع الأسرى، وأن التبادل سوف يحدث.

قالت ديوي آيو "لماذا لا تسألن ماما كالونج عما يجري؟"

ذهبن إلى المرأة وبادرنها قائلين "قلت إننا سوف نكون متطوعات للصليب الأحمر!".

قالت "صحيح، قلت متطوعات، لكن ربما ليس مع الصليب الأحمر".

"بمعنى؟"

نظرت إلى البنات وكن يبادلنها النظر في فضول. انتظرن بوجوه بريئة لم تعرف الخطيئة تقريبًا إلى أن هزَّت ماما كالونج رأسها في وهن، وتركتهن في عجلة فسارعن يتبعنها قائلات لها "قولي أي شيء".

"كل ما أعرفه هو أنكن أسيرات".

"ولماذا يقدم لنا كل هذا الطعام؟"

"حتى لا تمتن" واختفت في الفناء الخلفي. ولم تعرف البنات إلى أين هي ذاهبة ولم يستطعن اتباعها وقد منعهن الجنديّان اليابانيان ساميللمرأة وحدها بالمرور.

وازددن ضيقا لما رجعن فوجدن صاحبتهن ديوي آيو جالسة في كرسي هزَّاز، تدندن في خفوت ولا تزال تأكل التفاح. نظرت إليهن مبتسمة وقد رأت على وجوههن الغضب المكبوت. قالت "شكلكن ظريف، كأنكن مجموعة من العرائس القماشية". تحلَّقن واقفات حولها، ولكن ديوي آيو بقيت صامتة، إلى أن قالت إحداهن أخيرًا:

"ألا تشعرين بأن أمرًا غريبًا يجري؟ ألا تشعرين بالقلق؟"

قالت ديوي آيو "القلق يأتي من الجهل".

سألت أولًا "أنت إذن تعرفين ما الذي يجري لنا؟"

قالت "نعم، سيجعلون منا عاهرات".

كن جميعًا يعلمن ذلك، لولا أن ديوي آيو فقط هي التي وجدت في نفسها شجاعة أن تنطق.

٤

كان ماخور ماما كالونج قائما منذ إقامة ثكنات الجيش الاستعماري الهولندي الهائلة. قبل ذلك كانت مجرد فتاة تعمل في حانة تمتلكها عمتها الآثمة، وكانتا تبيعان فيها نبيذ الرز وخمير قصب السكر فأصبح الجنود زبائن يتردَّدون على حانتهما بانتظام. وبرغم أن الحانة ازدهرت كما لم تزدهر من قبل بعد تدفق الجنود على المدينة، لم تجن الفتاة منها ما يعينها على الحياة. فلم تكن تحصل في مقابل العمل من الخامسة صباحا إلى الحادية عشرة ليلا إلا على وجبتين في اليوم. إلى أن اكتشفت طريقة للانتفاع بوقت فراغها الضئيل في كسب قرشين لنفسها. إذ صارت بعد إغلاق الحانة تمضي إلى ثكنات الجنود، وقد علمت ما يريدونه وعلموا ما تريده. كان الجنود يدفعون لها لتمتطي خصورهم عارية. فلم تكن ترجع بنقودهم إلى البيت قبل أن ينكحها ثلاثة منهم أو أربعة. وبعد فترة بدأت تجني من المال أكثر مما تجنيه عمَّتها. كانت حاستها الاقتصادية جيدة. وذات يوم بعدما عوقبت بسبب نعاسها في أثناء العمل، هجرت عمَّتها وأقامت لنفسها حانة في آخر رصيف الميناء. وثمة أخذت تبيع نبيذ الرز وخمير قصب السكر وجسمها. ولم تعد تذهب إلى الثكنات بعدما صار الجنود يأتونها في حانتها. وبنهاية الشهر الأول

من افتتاح الحانة كانت قد عثرت على فتاتين في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر ليساعدنها في العمل نادلتين وعاهرتين. وبدأت مسيرتها المهنية كـ مدام. وبعد ثلاثة أشهر صارت لديها ست عاهرات غيرها، فكان ذلك كافيا لأن تتوسَّع في الحانة مقيمة حجرات قليلة ذات جدران من البامبو المجدول. وذات يوم جاء عقيد ليتفقَّد الموقع العسكري فزار الماخور، ولم يكن يريد من ذلك أن يستأجر عاهرة لنفسه بل ليطمئن على ملاءمة المكان لجنوده.

قال "هذه زريبة خنازير. سيموت الجنود هنا قبل أن يواجهوا العدو".

فسارعت ماما كالونج تردّ بما يليق من الاحترام والتهذب مع عقيد "لكنهم سيموتون من الحرمان إذا أرغمتهم على انتظار ماخور أفضل حالًا".

اقتنع العقيد بأن الماخور يدعم روح جنوده المعنوية ويعزِّز روحهم القتالية، فكتب تقريرا محابيا، وفي غضون شهر ونصف الشهر من زيارته قرَّر الجيش أن يقيم منشآت أكثر ثباتا. تخلصوا من جدران البامبو والأسقف المقامة من ورق قصب السكر، وجعلوا الأرضيات من الخرسانة، والجدران أشبه بجدران معقل حربي. كل الأسرَّة تقريبًا كانت مصنوعة من الصاج والحشايا من القطن الممتاز. فرحت ماما كالونج بكل ذلك الذي تلقّته بلاثمن وصارت تقول لكل جندي يأتي إليها:

"لك هنا أن تمارس الحب كما لو كنت في بيتك".

فقال لها جندي "ما أسخف هذا الكلام. ليس في بيتي إلا أمي وجدتي العجوز".

ومنذ ذلك الحين صار كل من يأتي إلى المكان ينعم بالعناية والرعاية. وصارت العاهرات يرتدين ويتجملن خيرا مما كانت تفعل السيدات الهولنديّات، بل لقد كنَّ أجمل من الملكة نفسها.

ولما انتشر السيفيليس طالبت ماما كالونج والجنود ببناء مستشفى. كان في الحقيقة مستشفى عسكريا، ولكن المدنيين أيضًا كانوا يتردّدون عليه. وأوشك الماخور أن يفلس لولا أنها توصلت بسرعة إلى عدد من الحلول الناجعة. حاولت أن تقنع بعض الجنود باتخاذ محظياتهم الخصوصيات، وقالت إن بوسعها أن توفّر لهم هؤلاء النساء بأجر معين. وجابت القرى، بل وغامرت بتسلق الجبال، باحثة عن الشابّات المستعدات لأن يصبحن نساء للقوات الهولندية.

وبقيت تعتني بهن في ماخورها، ولكن كلا منهن كانت مخصّصة لاستعمال جندي واحد فقط. وسرعان ما أثرت بتلك الطريقة، وقد ضمنت ألا تنشر بناتها المرض القذر. وحين كان الجنود الذين يجزعون من تعريفة ماما كالونج القاسية يقرّرون الزواج بمحظياتهم، كانت تطالبهم بتعويض باهظ. وفي الوقت نفسه باتت تؤجر العاهرات العجائز لمن يبدي اهتمامًا بهن. خاصة وقد ظهر زبائن جدد لأولئك العاهرات بدلًا من الجنود، وهم البحارة وعمال الشحن والتفريغ في الميناء.

يمكن القول بلا إجحاف إنها كانت خلال السنوات الأخيرة في العهد الاستعماري أغنى نساء هاليموندا. صارت تشتري الأرض التي يبيعها المزارعون بعدما يخسرون كل ما لديهم على مائدة القمار، ثم تؤجرها لهم، إلى أن امتدت أملاكها في كامل الأراضي المنبسطة حتى سفوح التلال. وربما لم يكن يتجاوز أملاكها إلا أصحاب المزارع الهولنديون.

صارت في المدينة أشبه بملكة صغيرة، يحترمها الجميع، من أبناء البلد والهولنديين على السواء، وتركب عربة تجرها الخيول كلما خرجت لتعتني بشؤون عملها الذي بقيت المتاجرات بفروجهن أهمَّ أصوله بالطبع. وفي خروجها ذلك على الملأ كانت تتخذ مظهرا لائقا بصورة لا تصدق، فترتدي الساري المحبوك، وقميص الكيبايا، وتلمّ شعرها في كعكة. وطبعا لم تكن في ذلك الحين على ما كانت عليه قديمًا من نحول، وفي ذلك الوقت بدأ الناس ينادونها بـ ماما متّبعين ما درجت عليه العاهرات الصغيرات. ولا يعرف أحد من الذي بدأ ذلك، لكن اسمها طال من كالونج حتى صار ماما كالونج، وراق لها الاسم، حتى نسي الجميع، اسمها الحقيقي القديم، وهي نفسها نسيته.

وفي الخان قال جندي هولندي سكران "الآن بعدما تهاوت جميع الممالك، ها هي مملكة جديدة تظهر في هاليموندا، مملكة ماما كالونج".

برغم ما كانت عليه من جشع لا ريب فيه، لم ترغب قط في أن تعاني عاهراتها الصغيرات، بل إنها -على العكس تمامًا- كانت تدلّلهن

حتى الإفساد، كأنها جدة ترعى قبيلة من الحفيدات. فكان لديها خدم يدفئون لهن الماء فيغتسلن بعد أن ينهكهن الحب. وفي أيام معينة، كانت تسمح لهن بإجازة وتصطحبهن إلى الشلالات القريبة. وكانت تستعمل أفضل الخياطين لحياكة ثيابهن، وعلى رأس ذلك كله، كانت صحتهن تقع في قمة أولوياتها.

وكم كانت تقول إنه "ما من لذة تعلو على أن يكون للمرأة جسد سليم".

ورحل الجنود الهولنديون وجاء الجنود اليابانيون. وبقي وسط ذلك التغيير ماخور ماما كالونج على حاله. فكانت في خدمة الجنود اليابانيين بمثل التفاني الذي كانت به في خدمة زبائنها السابقين، بل لقد سعت إلى المزيد من البنات الصغيرات. إلى أن استدعتها ذات يوم السلطات المدنية والعسكرية لاستجواب سريع. ولم يكن الأمر مزعجا، إذ لم يَعْدُ رغبة عدد من كبار المسؤولين العسكريين في عاهرات خصوصيات، غير عاهرات الرتب الصغيرة، وطبعا غير عاهرات الصيادين وعمال الشحن والتفريغ. كانوا يرغبون في عاهرات جديدات، نقيّات تمامًا، ومخدومات على أفضل نحو، فكان على ماما كالونج أن تعثر عليهن بأسرع ما تستطيع لأن الرجال -مثلما قالت هي نفسها- كانوا يموتون من فرط الحرمان الجنسي.

قالت "بسيطة يا سيدي، ما أسهل أن نعثر على فتيات من هذا النوع".

"قولي لي أين؟"

قالت ماما كالونج باختصار "الأسيرات".

***

عند العصر بدأ الجنود اليابانيون في الوصول، وبدأت البنات يجرين مذعورات هنا وهناك. حاولن أن يعثرن على شقّ يفلتن منه، ولكن كلّ المواضع كانت تحت الحراسة. ففناء البيت الكبير محاط بسور عال ذي بوابة كبيرة في الأمام وباب صغير في الخلف ولا يمكن اختراق أيّ منهما. حاول بعض الفتيات أن يتسلقن إلى سطح البيت كما لو كن يرجون أن يطرن أو يعثرن على حبل هناك يرتقينه إلى السماء.

قالت ديوي آيو "أنا عن نفسي جرّبت كل شيء. ولا مهرب".

صرخت أولا وهي تنهار باكية "سنصبح عاهرات".

قالت ديوي آيو "بل أسوأ من ذلك. لا أعتقد أنهم سوف يدفعون لنا".

فسارعت فتاة تدعى هيلينا تصيح في الضباط اليابانيين متهمة إياهم بانتهاك حقوق الإنسان كما تنصُّ عليها اتفاقية جينيف، فلم يضحك الضباط وحدهم، بل وضحكت ديوي آيو ملء شدقيها، وقالت:

"في الحرب لا وجود للاتفاقيات يا عسل".

بدت هيلينا أكثر الفتيات حزنا لما عرفت أنهن سوف يصبحن عاهرات. والمضحك بحق أنها كانت قد قرّرت أن تترهبن ثم اندلعت الحرب فحلّت الفوضى على كل شيء. كانت هي الفتاة الوحيدة التي

اصطحبت كتاب صلوات إلى ذلك المكان، فبدأت في تلك اللحظة تتلو مزمورا أمام اليابانيين، راجية ربما أن يهرب الجنود وهم يعوون من فرط الخوف شأن الأرواح الشريرة إذ تطردها التعاويذ. لكن المدهش أن الجنود اليابانيين كانوا في غاية التهذب معها، ففي نهاية كل دعاء كانوا يقولون "آمين" وهم بالطبع يضحكون.

ثم قالت هي الأخرى "آمين" وانهارت في وهن على كرسي.

أتى ضابط ببضع ورقات أعطى واحدة لكل فتاة، عليها جميعًا كتابات بالمالاوية تبيَّن أنها أسماء زهور مختلفة، وقال "هذه أسماؤكن. وابتهجت ديوي آيو باسمها: وردة، وقالت "احذروا، لكل وردة شوكتها". فتاة أخرى حصلت على أوركيدة، وأخرى على داليا. وأولا أصبح اسمها ألامندا.

أُمرن بالذهاب إلى غرفهن بينما اصطفَّ عدد من الرجال اليابانيين أمام منضدة في الشرفة يشترون تذاكرهم. وكانت أسعار الليلة الأولى باهظة للغاية إذ كانوا يعتقدون أن جميع البنات لم يزلن عذارى. وما كانوا يعرفون أن ديوي آيو لم تعد طاهرة. وبدلًا من أن تذهب البنات إلى غرفهن تجمَّعن حول ديوي آيو التي كانت لا تزال تختبر مرتبة سريرها قائلة "أحدهم سوف يزلزلها الليلة".

ثم بدأ الجنود يقتنصون البنات واحدة بعد الأخرى في معركة سهل عليهم الانتصار فيها، ممسكين البنات من معاصمهن كأنهن هِرَّات مريضة تتملَّص بلا جدوى ممن يمضي بهن. في تلك الليلة سمعت ديوي

آيو صرخات هستيرية صادرة من غرفهن بينما رحى المعارك دائرة. استطاع عدد من البنات أن يهربن من الغرف عاريات تمامًا، قبل أن يمسك بهن الجنود من جديد ويلقين بهن فوق الأسرَّة. كنَّ ينتحبن طوال تلك اللقاءات الرهيبة، بل إنها سمعت هيلينا تجأر بآيات مزمور بينما الجندي الياباني يخضُّ فرجها. وفي الوقت نفسه كانت تسمع رجالا يابانيين آخرين في الشرفة يضحكون من كل تلك الجلبة.

ديوي آيو هي الوحيدة التي لم تتذمَّر، ولا أفلتت منها آهة. كان من نصيبها ضابط ياباني طويل ضخم، بدين كأنه مصارع سومو، يعلّق حول خصره سيف ساموراي. استلقت ديوي آيو على السرير رافعة عينيها إلى السماء، غير ناظرة إليه مطلقًا، وغير مبتسمة بالقطع. بدا أكثر تركيزا على أصوات الهياج خارج غرفتها لا على أي شيء داخلها. استلقت كأنها جثة مهيَّأة للدفن. ولمّا علا جعير الضابط الياباني مطالبا إياها بأن تخلع ثيابها، بقيت على سكونها لم تتحرك على الإطلاق، وكأنها لا تتنفّس.

في ضيق استلَّ الياباني سيف الساموراي ولوّح به إلى أن مسَّ بنصله المستوي وجه ديوي آيو، وأعاد عليها أمره، فبقيت ديوي آيو بلا حركة، حتى بعدما تركت ذؤابة السيف علامة في خدها. بقيت عيناها مرفوعتين إلى السماء ساكنة كأنما التصقت أذناها بأصوات نائية. غضب الياباني فنزع عنه سيفه وصفع وجه ديوي آيو صفعتين فاحمرّ خداها وانتفض جسمها لوهلة، لكنها بقيت على لامبالاتها المستفزة.

مستسلما لحظه التعيس مزّق الياباني عن المرأة التي بين يديه ثيابها ورماها ممزقة على الأرض، وباتت المرأة عارية، فباعد بين ذراعيها وساقيها حتى صارت طريحة أمامه، وبعدما قيّم كتلة اللحم الصامتة الساكنة أمامه، سارع فتعرّى ووثب إلى السرير، وواجه جسم ديوي آيو مهاجما إياه. وبقيت ديوي آيو طوال اللقاء البارد كله على وضعها الذي جعلها عليه الياباني، لا تستجيب بأي حرارة أو دفء أو مقاومة لا داعي لها. لم تغمض، ولم تبتسم، بل بقيت عيناها معلّقتين بالسقف.

وكان لبرودها ذلك أثر هائل، فلم يستغرق الرجل ثلاث دقائق، بل دقيقتين وثلاثا وعشرين ثانية أحصتها ديوي آيو وهي تنظر إلى ساعة الجد في ركن الغرفة. انقلب الياباني بجوارها ثم نهض واقفا بسرعة وهو يغمغم في تذمُّر. ارتدى ثيابه على عجل وخرج دون أن ينطق بكلمة أخرى صافقا الباب في طريقه. وفي تلك اللحظة فقط تحركت ديوي آيو، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة في غاية العذوبة، تمطّت قائلة:

"يا لها من ليلة مضجرة".

ولبست ومضت إلى الحمام، فوجدت هناك عددا من البنات يغتسلن كأنما يتطهرن من مشاعر القذارة والعار والخطيئة بملء أيديهن من المياه. لم تكلم أيٌ منهن الأخرى. لم يكن الأمر قد انتهى، فالليلة لم تزل في بدايتها ولم يزل عدد من اليابانيين ينتظرون. فأرغمن بعد الاغتسال على الرجوع إلى غرفهن، لمزيد من المقاومة ومزيد من الصراخ، إلا في غرفة ديوي آيو التي عادت إلى سلوكها البارد.

في تلك الليلة نالت كلٌ منهم أربعة رجال أو خمسة. فما عانت منه ديوي آيو لم يكن النكاح الجنوني المحموم الذي أصاب جسمها بشلل غريب، بل صرخات صاحباتها ونشيجهن. فحدثت نفسها تقول: مسكينات، مقاومة المكتوب أقسى على النفس من أي شيء. ثم جاء اليوم التالي.

في صباح ذلك اليوم كان العمل كثيرًا. في يأس، قصَّت هيلينا شعرها كيفما اتفق فكان على ديوي آيو أن تهذّبه. وفي الليلة الثالثة عثرن على أولا شبه ميتة في الحمام وقد حاولت أن تقطع معصميها. سارعت ديوي آيو تحملها إلى غرفتها، غائبة عن الوعي، ومبلولة حتى عظامها، بينما ذهبت ماما كالونج تبحث عن طبيب. لم تمت، لكن ديوي آيو أدركت برغم ذلك أن ما مرَّت به أولا كان أشنع وأبشع مما تصورت. فما كادت أولا تتجاوز أزمتها حتى قالت لها ديوي آيو:

"'أولا اغتصبت وماتت' لا أود أن يكون هذا هو التذكار الذي أرجع به إلى جريدا".

برغم أن الحياة مضت على ذلك النحو لأيام، بقي من الفتيات من لم يستطعن قبول ذلك المصير البائس، وبقيت ديوي آيو تسمع صرخات في منتصف الليل. اثنتان من البنات كانتا كثيرًا ما تختبئان في الطرقات أو تتسلقان شجرة السابوديلا وراء البيت. فنصحتهما حينذاك بأن تفعلا ما تفعله هي كل ليلة.

"استلقيا كالجثة، إلى أن يضجروا منكما". ولكن الفتاتين وجدتا ذلك أبشع. لم تستطع أي منهن أن تتخيّل الاستلقاء في سكون بينما شخص يهاجم جسمها وينكحها. "أو لتعثر أي منكن على من يروق لها ولو قليلا فتخدمه بكل جوارحها حتى يدمنها فيرجع كل مساء ويدفع مقابل الليلة كلها. خدمة شخص واحد ليلة بعد ليلة خير من النوم مع كثير من الرجال المختلفين".

بدت تلك أقرب إلى فكرة أفضل، ولكنها بقيت فكرة رهيبة صعب على البنات أن يتخيلنها.

قالت "أو احكين لهم حواديت مثل شهرزاد".

ولم تكن أي منهن بارعة في حكي الحواديت.

"ادعونهم إلى لعب الورق".

ولم تكن أي منهن تجيد لعب الورق.

قالت ديوي آيو وقد أعيتها الحيل "ما دام الأمر كذلك، فاقلبن الطاولة. واغتصبنهم أنتن".

برغم ذلك كله، كان بوسعهن في النهار أن يشعرن بسعادة حقيقية، بلا أي منغصّات. في الأسبوع الأول غلبهن الإحساس بالعار فلم تكلّم أي منهن الأخريات، وصرن يحبسن أنفسهن في غرفهن، ويمضين الوقت وحيدات. فلما مرَّ أسبوع بدأن يجتمعن على الإفطار، ويحاولن التسرية عن أنفسهن وتسلية بعضهن بعضا، فيتكلمن عن أشياء لا علاقة لها بأي شيء مما يرينه في لياليهن المأساوية.

كانت ديوي آيو تنفق بعض وقتها مع ابنة البلد ماما كالونج - وكانت إذ ذاك في منتصف العمر- فنشأت بين الاثنتين صداقة غريبة لم تكن لتنشأ إلا لأن ديوي آيو حافظت على سلوك هادئ لا يشي بأي رغبة في التمرد، ولم تتسبَّب لماما كالونج في أي مشكلة مع اليابانيين. وحكت ماما كالونج لديوي آيو بكل أمانة أن لديها ماخورا في آخر رصيف الميناء، وأن نساء كثيرّات يذهبن إليه الآن مرغمات ليخدمن اليابانيين ذوي الرتب الصغيرة، وأن جميع نسائها من بنات البلد إلا اللاتي في هذا البيت.

قالت ماما كالونج "أنتن محظوظات لأنكن لا تعملن ليل نهار. كما أن الضباط من أصحاب الرتب الصغيرة أوغاد حقيقيون".

قالت ديوي آيو "لا فرق بين ضباط الرتب الصغيرة وإمبراطور اليابان. كلهم وراء فروج النساء".

جاءت ماما كالونج بامرأة محلية شبه عمياء لتدليك البنات، فكنّ كلَّ صباح يستسلمن للتدليك الروتيني وقد صدقن ماما كالونج حينما قالت إن ذلك يضمن ألا يحبلن. ولم يستثن من ذلك إلا ديوي آيو التي كانت تقضي الصباح نائمة قبل الإفطار ولا تذهب للتدليك إلا بين الحين والآخر حينما تشعر بأن الانتهاك بلغ منها أقصاه.

وكانت تقول باستخفاف "الواحدة تحبل لأنها تنكح، وإن لم تحبل فليس بسبب التدليك".

وخاطرت، وبعد شهر في الماخور كانت أول امرأة حبلت. نصحتها ماما كالونج بإجهاض الجنين. قالت المرأة "فكّري في أهلك". فقالت لها ديوي آيو "وأنت تقولين لي هذا يا ماما أفكّر فعلًا في أهلي، فلا أهل لي الآن إلا الطفل الذي بداخلي". وتركت ديوي آيو بطنها تعلو وتنتفخ وتتضخّم يومًا بعد يوم. وكان لحملها منافعه، فقد طلبت منها ماما كالونج أن تلزم غرفة خلفية وأعلنت لجميع اليابانيين أنها حبلى وأنه ليس مسموحًا لأحد أن ينام معها. ولم يرغب في النوم معها أي من اليابانيين في ذلك الوضع، ومضت هي تشجّع بقية البنات على اتباعها.

"صحيح ما يقولون، إن كل مولود جديد يأتي بحظه السعيد".

ومع ذلك لم تجرؤ أي بنت على اتباع ديوي آيو في مخاطرتها.

ولثلاثة أشهر تالية، لم تتخل أي منهن عن روتين التدليك الصباحي اليومي، ولم تحبل أي منهن، فواصلن مواجهة الرعب كل ليلة، مؤثرات ذلك على الرجوع إلى أمهاتهن ببطون منتفخة.

قالت أولا "ماذا أقول لجيردا؟"

"قولي 'تذكارك يا جيردا في بطني'".

وكالعادة كان يتوافر لهن في منتصف النهار وقت فراغ كبير، فيتجمعن للنميمة والثرثرة، ومنهن من يلعبن الورق ومن يساعدن ديوي آيو في خياطة ثياب لطفلها القادم. كن يشعرن بإثارة كبيرة لأن إحداهن توشك أن تلد، وكانت قلوبهن تتواثب في صدورهن وهن ينتظرن أن يخرج الطفل إلى هذا العالم الفاسد.

وأحيانا كن يتكلمن عن الحرب. كانت الأقاويل تنتشر بأن الحلفاء يوشكون على مهاجمة جيوب معينة تابعة للجيش الياباني فترجو البنات أن تكون هاليموندا من بينها.

قالت هيلينا "أتمنى لو يقتل اليابانيون كلهم وتندلع أحشاؤهم من بطونهم".

قالت ديوي آيو "لا تتغابي فيسمعك ابني".

"وماذا في ذلك؟"

"في ذلك أن والده ياباني".

فضحكن جميعًا لطرفتها المريرة.

غير أن رجاءهن في قدوم الحلفاء حقا كان يشحذ أرواحهن. فلما دخلت البيت حمامة زاجلة أمسكتها بنت منهن وبعثن معها رسالة إلى جنود الحلفاء. ساعدونا. نحن مرغمات على البغاء. عشرون بنتا في انتظار المقاتلين المنقذين. كانت الفكرة بلهاء، ولم يعرفن كيف ستعثر الحمامة على قوات الحلفاء. ولكنهن أطلقنها مع ذلك في عصر أحد الأيام.

لم يبد ما يشي بأن الحمامة رجعت إلى قوات الحلفاء، ولكن حينما ظهرت الحمامة مرة أخرى بدون رسالتهن، عرفت البنات أن شخصا ما، في مكان لا يعلمنه، قرأها. فبعثن في فرح رسالة جديدة، وظللن يفعلن ذلك مرة تلو مرة طوال ثلاثة أسابيع.

لم تأت قوات الحلفاء، بل أتى لواء ياباني لم تره أي من البنات من قبل. وإثر وصوله المفاجئ حاول الجنود الذين يحرسون أقصى أركان البيت أن يمنعوا دخوله بأي طريقة. غير أن الجنديين اللذين استجوبهما ارتعشا، وتخبَّطت مفاصلهما في بعضها بعضا.

سأل اللواء "ما هذا المكان؟"

صاحت ديوي آيو قبل أن يفتح أي من الجنديين فمه "مكان للعاهرات".

كان عسكريا طويل القامة متين البنية، لعله من نسل ساموراي قديم، وكان يعلّق سيفا على كلٍّ من جنبيه، وله فودان كثيفان على جانبي وجهه الجاد البارد.

سأل "كلكن عاهرات؟"

أومأت ديوي آيو وقالت "نحن نرعى أرواح الجنود المريضة. لقد جعلوا منا بغايا، بالقوة وبلا مقابل".

"وأنت حامل؟"

"وكأنك لا تصدق أن جنديًا يابانيا يمكن أن ينكح فتاة يا سيادة اللواء".

تجاهل قول ديوي آيو وبدأ في توبيخ جميع الجنود اليابانيين في البيت، ولما حلّ الليل وجاء عدد من الزبائن المعتادين استعر غضبه،

واستدعى عددا من الضباط فعقد في إحدى الغرف اجتماعا خاصا، وكان واضحا أنه لا يوجد من يتجاسر على أن يكسر له كلمة.

في الوقت نفسه كانت البنات ينظرن إلى مخلّصهن بامتنان وابتهاج وكأنه نصر رائع ذلك الذي تحقّق لهن عبر الرسائل التي لم يتوانين عن إرسالها. قالت هيلينا "لا أصدق أن يكون لملاك وجه ياباني". وقبل أن يرجع اللواء إلى وحدته، تقدّم من البنات المجتمعات في غرفة الطعام، ووقف أمامهن، فخلع قبعته، ثم انحنى حتى استوى خصره.

صاحت ديوي آيو "ناؤورا!".

اعتدل اللواء مرة أخرى وللمرة الأولى رأين ابتسامته. "أرسلن إلي مرة أخرى إن لمسكن أحد هؤلاء المعتوهين بإصبعه".

"لماذا تأخرت علينا هكذا يا سيادة اللواء؟"

قال بصوت لين عميق "لأنني لو سارعت بالمجيء لما وجدت هنا غير بيت فارغ".

سألته ديوي آيو "هل يمكن أن أعرف اسمك يا سيادة اللواء؟"

"موساشي".

"لو أنجبت ولدا فسوف أسميه موساشي".

غادر اللواء في شاحنة كانت تنتظره أمام البيت بينما تلوّح له البنات. وما كاد يذهب حتى سارع الضباط الذين كانوا واقفين يجفّفون بمناديلهم عرقهم البارد باللحاق به. وتلك كانت أول ليلة لا يأتي فيها

من يغتصبهن. مضت الليلة في سلام وقد أقامت البنات حفلا صغيرا على ثلاث زجاجات نبيذ جاءت بها ماما كالونج ووزّعتها ديوي آيو في كؤوس صغيرة كأنها كاهن في مناولة مقدّسة.

قالت "نخب سلامة اللواء. اللواء الوسيم".

قالت أولا "الذي لو اغتصبني لما قاومت".

قالت ديوي آيو "ولو ولدت لي فتاة فسأسميها ألامندا، باسم أولا".

وانتهى كل شيء فجأة. لم يعد من بغاء، ولم يعد من ضباط يابانيين يأتون في الليل يهتكون أجسامهن. الشيء الوحيد الذي كان يثير توتر البنات أنهن كن في سبيلهن إلى لقاء أمهاتهن، وكن لا يعرفن كيف يمكن أن يتكلمن عما مررن به. جرّب بعضهن الوقوف أمام المرآة، مستجمعات شجاعتهن، قائلات لصورهن "ماما، أنا الآن عاهرة". وطبعا ما كان لإحداهن أن تقولها بتلك الطريقة، فكن يجرّبن من جديد "ماما، لقد كنت عاهرة". ولكن ذلك أيضًا بدا غير مناسب، فقلن"ماما، لقد أرغموني على العهر".

ولكنهن علمن أن قول ذلك لأمهاتهن أصعب من قوله للمرآة. أما نزر الحظ السعيد الوحيد فهو أن اليابانيين في ما بدا لم يكونوا يخططون لإعادتهن مرة أخرى إلى بلادن كامب في القريب، بل للإبقاء عليهن في البيت، لا كعاهرات، بل كأسيرات حرب مثلما كن من قبل. بقي الجنود يحرسونهن بيقظة، وماما كالونج بقيت تدعو البنات لاستغلال ميزة الرعاية الممتازة التي كانت توفرها لهن.

قالت في اعتزاز "أنا أعامل جميع عاهراتي معاملة الملكات. لا يفرق معي حتى إذا ما تقاعدن".

كن يملأن الأيام والأسابيع والشهور، يسلّين أنفسهن مع ديوي آيو التي استمرَّت تحيك الثياب لابنها. وبعونٍ من صديقاتها كانت قد انتهت بالفعل من مِلء سلة كاملة من قطع الثياب الصغيرة التي فصّلنها مما عثرن عليه في خزائن البيت من قماش. فأنجاهن ذلك على الأقل من ملل انتظار الحرب أن تنتهي، إلى أن جاءت ماما كالونج بقابلة.

قالت ماما كالونج "جميع عاهراتي اللاتي حملن وضعن أولادهن بمساعدتها".

قالت ديوي آيو "أرجو فقط أن لا يكون جميع النساء اللاتي ساعدتهن في الولادة عاهرات".

وفي يوم ثلاثاء من العام الذي بدأ بالأسر في بلادن كامب ثم بالانتقال إلى الماخور، أنجبت ديوي آيو فتاة، فأوفت بعهدها وسمّتها ألاماندا. كانت الطفلة جميلة، ورثت جمال أمها، ولم يكن من علامة فيها على أن أباها ياباني إلا ضيق عينيها. فقالت أولا "بنت بيضاء ضيقة العينين. هذا لا يحدث إلا في جزر الهند الشرقية الهولندية".

قالت هيلينا "خسارة أنها ليست ابنة اللواء".

وسرعان ما أصبحت تلك البنت الصغيرة بهجة لساكنات البيت، فحتى الجنود اليابانيون أقاموا حفلة على شرف حظها السعيد وكانوا

يأتون إليها بالدمى. قالت أولا "لا بد أن يحترموها، فألامندا في النهاية ابنة قائد لهم". فرحت ديوي آيو أن أولا بدأت تدريجيا تنسى ماضيها المضطرب، وعادت إليها من جديد روحها الحلوة. فكانت تقضي أيامها تساعد الطفلة الصغيرة، شأنها شأن بقية البنات اللاتي صرن يناديِن بعضهن بعضا بـ خالتو.

في فجر أحد الأيام دخل جندي ياباني غرفة هيلينا وحاول أن يغتصبها، فصرخت حتى أيقظت كلاًّ من في البيت وهرب الجندي في العتمة، فلم يعرفن أي الجنود هو الذي حاول اغتصابها، إلى أن جاء اللواء ذات صباح، فأمسك بأحد الجنود واقتاده إلى منتصف الفناء، وأعطاه مسدسا، وضعه الجندي في فمه وأطلق رصاصة فجَّر بها رأسه. وبعد ذلك لم يجرؤ أحد على الاقتراب من النساء.

في الوقت نفسه، لم تكن الحرب قد انتهت. فكان يصل إلى أسماعهن، من ماما كالونج، ومن بعض الخادمات اللاتي كن يأتين لمعاونتها، أن الجنود اليابانيين انتهوا من بناء خنادق دفاعية بطول الساحل الجنوبي. وكانت ماما كالونج قد أعطت البنات في السرِّ مذياعا فسمعن أن قنبلتين ألقيتا على اليابان وأن ثالثة لم تلق بعد، فكان ذلك كافيا لإضرام شرارة في البيت. بدا وكأن الجنود اليابانيين قد سمعوا الأخبار هم الآخرون، فكانوا في الأيام التالية يكتفون بالجلوس تحت الأشجار بلا حراك، ثم بدؤوا يختفون واحدًا بعد واحد، مبعوثين إلى حيث لا يدري أحد. ولما آن الأوان أخيرًا وبدأت طائرات الحلفاء تحلّق

في سماوات هاليموندا ملقية مناشير صغيرة تزعم أن الحرب قاربت على الانتهاء، لم يكن قد بقي في حراسة البيت غير جنديين.

لو أن البنات لم يحاولن الهرب برغم أن جنديين فقط هما اللذان بقيا في حراستهن، فذلك لأن الوضع كله كان في غاية الاضطراب فلم يعرف أحد إلام سيفضي. فضلا عن أنهن سمعن في المذياع أن القوات البريطانية باتت تسيطر على المدن، فبدا لهن أن البقاء في البيت خير لهن من الخروج للشوارع وأكثر أمنا. كانت اليابان قد انهزمت وكن ينتظرن قوات الحلفاء أن تنقذهن. ثم تبيَّن أن تلك القوات تتراخى في المجيء إلى هاليموندا، وكأنما نسوا أن للمدينة وجودا على وجه الأرض أصلا، ولكن الطائرات رجعت تحلِّق مرة أخرى، ملقية البسكويت والبنسلين، وظهرت قوات الطوارئ. كان أول من قدموا هم الصف الثاني من قوات جيش الهند الشرقية الهولندية الملكية المكونة من ألوية الهولنديين. كانوا يطلقون على أنفسهم "جيش الهند الشرقي الملكي الهولندي"، أو الكينيل، وسرعان ما وضعوا علمهم بدلًا من علم اليابانيين أمام البيت. واستسلم الجنديّان اليابانيان المتبقيان بلا مقاومة.

لكن ما أدهش ديوي آيو بحق هو أن السيد ويلي كان في أحد اللواءين.

قال "انضممت للكينيل".

قالت ديوي آيو "يعني، أحسن من الانضمام لليابانيين". وأرته طفلتها وهي تقول ضاحكة "لم يبق منهم إلا هذه".

ثم جيء بعائلات البنات العشرين من بلادن كامب. بدت جيردا شديدة النحول، ولمّا سألتهن عما جرى منذ أن ذهبن، راوغتها أولا قائلة "أخذونا في رحلة"، لكن جيردا أدركت ما حدث بالفعل بمجرد أن رأت ألامندا الصغيرة. عشن هناك في البيت مع الجنود الهولنديين الذين تناوبوا على حراستهن. وكانت تلك أوقاتا عصيبة على ديوي آيو لأن السيد ويلي ظلّ يبوح لها بحبه العميق، وبرغم أنه واجه رفضها من قبل، فقد بدا مستعدا تمام الاستعداد لمواجهته من جديد.

ولكن الحظ التعيس جاء مرة أخرى لينقذ ديوي آيو.

فذات ليلة، كان السيد ويلي وثلاثة غيره من الجنود يتولّون نوبة حراسة البيت حينما أغارت عليه عصابة حربية من القوات المحلية وهاجمتهم بأسلحة سرقوها من القوات اليابانية، ومناجل وسكاكين وقنابل يدوية. وكان هجومهم المباغت حاسمًا، إذ قتلوا الجنود الهولنديين الأربعة. وذبح السيد ويلي من الخلف وهو يثرثر مع ديوي آيو الواقفة أمامه، وطار رأسه باتجاه المنضدة وتناثر دمه على ألامندا الصغيرة. وقتل جندي آخر بطلقة وهو يتغوّط في المرحاض، بينما قتل الاثنان الآخران في الفناء.

كان قوام العصابة أكثر من عشرة، جمعوا السجينات كلهن، واكتشفوا أنهن جميعًا من النساء، وكلهن هولنديّات، فازدادوا عنفا على عنف. قيّدوا عددا من النساء في المطبخ واقتادوا البقية إلى غرفهن ليغتصبوهن، فكان صراخهن أوجع للقلب من صراخهن حين أحالهن

اليابانيون إلى عاهرات، فحتى ديوي آيو قاومت هذه المرة رجلا من العصابة استولى على ابنتها وجرح ذراعها بسكينه.

وسرعان ما جاءت النجدة فاختفت العصابة على الفور. ودفنت النساء الرجال الأربعة في الفناء الخلفي.

قالت ديوي آيو وهي تضع زهرة على قبر السيد ويلي "لو كنت انضممت إلى العصابات لكنت على الأقل اغتصبتني"، وبكت.

وتكرَّرت تلك الواقعة. فالحرس الأربعة على البيت كانوا دائمًا أقل من العصابات عددا وتجهيزا، ولم يستطع القائد المحلي أن يوفّر المزيد من الحرس إذ كان يعاني نقصا في الجنود، ولم تشعر النساء بالأمان إلا حينما جاءت القوات البريطانية لتعزّز أمن المدينة كلها. وكانت القوات جزءاً من الفرقة الهندية الثالثة والعشرين التي جاءت إلى جاوة، وكان من أعضائها جنود الجورخاس النيباليين[٢١]. نصبوا مدافعهم الرشاشة في كل موضع، وبعضها نصب في فناء البيت الخلفي. فلما جاءت العصابات المحلية مرة أخرى، وجدت مواجهة ضارية، وعجز أفرادها عن دخول الفناء، وقتل منهم واحد، فلم يستهدفوا البيت بعدها مرة أخرى.

طابت لهن الحياة ونعمت طوال فترة حراسة البريطانيين فكن يقمن حفلات صغيرة يردن منها نسيان الشدائد الماضية. وفي بعض الأحيان كانت البنات الصغيرات يذهبن إلى الشاطئ في عربة جيب عسكرية في

---

21 الجورخاس Gurkhas كتيبة نيبالية في الجيش البريطاني آنذاك

حراسة عدد من الضباط مكتملي التسليح. بل لقد وقع بعض الضباط في غرام بعض البنات، ووقعت بعض البنات في غرامهم. كان يصعب على البنات أن يتكلمن عما جرى لهن، ولكن الأمور مضت تتحسّن بمجرد أن لقين العناية والرعاية. ودعيت مرة فرقة موسيقية محلية في احتفال صغير شهد نبيذا وكعكة.

وتواصل إنقاذ الأسرى: وصل الصليب الأحمر الدولي وبدأ الإعداد لترحيل جميع الأسرى إلى أوروبا على الفور. لم يعد البلد آمنا للمدنيين، خاصة بعدما بقوا في الأسر ثلاث سنين. أعلن المحليون استقلالهم، وانتشرت الميلشيات المسلحة في كل مكان. وزعم بعضها أنها الجيش الوطني، وغيرها أطلق على نفسه اسم جنود الشعب، وكلهم كانوا عصابات من خارج المدينة، وأغلبها كان قد تلقّى تدريبه على أيدي اليابانيين في فترة الاحتلال، أو على أيدي الجيش الهولندي وانضموا إلى قوات الكينيل خلال فوضى الحرب. لم تكن المعارك قد انتهت، بل كانت في الحقيقة قد بدأت للتو، وكان أبناء البلد يعدونها حربا ثورية.

استعدت جميع بنات بيت الأسرى وأُسَرُهُنّ للرحيل في طائرة أعدّها الصليب الأحمر، إلا بنتا واحدة طالما كانت لها دماغ وحدها: ديوي آيو. قالت "ليس لي أحد في أوروبا. ليس لي إلا ألامندا، وطفل آخر يكبر الآن في بطني".

قالت أولا "عندك أنا وعندك جيردا على الأقل".

"لكن هذا وطني".

وكانت بالفعل قد أخبرت ماما كالونج أنها لا تريد الرحيل عن هاليموندا، وأنها باقية في المدينة، ولو كان معنى هذا أن تكون عاهرة. قالت لها ماما كالونج "عيشي في البيت كما كنت من قبل. هو الآن بيتي ولا يمكن أن تطالب العائلة الهولندية باسترداده".

وهكذا بينما كان الجميع يستعدون للرحيل، بقيت ديوي آيو مع ماما كالونج وعدد من الخدم. وانتظرت ميلاد ابنها الثاني، الذي كانت على يقين أنه ابن رجل معين من رجال العصابات، بينما تقرأ رواية ماكس هافيلار[22] التي تركتها أولا في البيت. كانت قد قرأتها من قبل، ولكنها أعادت قراءتها مرة أخرى حين لم تجد شيئًا آخر تفعله، وقد منعتها ماما كالونج من عمل أي شيء. وولد الطفل أخيرًا بعدما أصبح عمر ألامندا سنتين تقريبًا، وتبيّن أنه بنت، فسمّته ديوي آيو باسم بنت في الرواية التي كانت تقرؤها تدعى أديندا.

بعدما عاشت شهورا في بيت ماما كالونج، بدأت تفكر في الكنز المدفون في الخراء داخل أنابيب المجاري في بيتها القديم، وفي أن الوقت قد حان لاسترداد البيت. كان البيت الذي تعيش فيه قد أصبح بالفعل ماخورا جديدا يمتلئ بنساء كنّ يستعملن لراحة اليابانيين في أثناء الحرب، وقد وجدت ماما كالونج وفرة من البنات اللاتي لم يجرؤن أن يرجعن إلى بيوتهن فقرَّرن البقاء معها، وتوافدن فملأن الغرف وعشن

---

22 "ماكس هافيلار أو مزادات القهوة في شركة التجارة الهولندية" رواية صدرت عام ١٨٦٠ لمولتاتولي (وهو اسم أدبي لإدوارد داوس ديكر) وقد أسهمت هذه الرواية في إظهار السياسات الهولندية الاستعمارية في ما يعرف الآن بإندونيسيا

عيش الأميرات في مملكة ماما كالونج، وكان جنود الكينيل زبائنهن المخلصين. سمحت ماما كالونج لديوي آيو بالبقاء في إحدى الغرف مع ابنتيها ما دامت بحاجة إلى ذلك، دون أن ترغمها على البغاء في مقابل ذلك. وقبلت ديوي آيو رقة ماما كالونج بامتنان، لكنها بقيت على قناعتها بأن بيت العاهرات ليس المكان المناسب لنشأة ابنتيها، فعقدت عزمها على الرجوع إلى بيتها القديم.

لم تكن بحاجة حقا إلى احتراف البغاء، فقد كانت لديها خواتمها الستة التي ظلت تبتلعها طوال الحرب. باعت لماما كالونج واحدًا منها، وكان له فصٌ من اليشم، وعاشت بثمنه لفترة. بل إنها اشترت عربة أطفال مستعملة من محل الخردة، ووضعت فيها طفلتيها ومضت تقطع للمرة الأولى ذلك الشارع المفضي إلى هاليموندا. كانت أديندا الصغيرة مستلقية أسفل المظلة، بينما جلست ألامندا وراء أختها الصغيرة مرتدية كنزة وقبعة. كانت ديوي آيو تلم شعرها بشريط وترتدي فستانا طويلًا تلف حزاما حوله عند خصرها، وتحشو جيبيه بصدريات الصغار وأقمطة وزجاجة حليب، تسير في هدوء دافعة العربة أمامها.

بدا الطريق موحشا مهجورا. وكانت قد سمعت أن أغلب الرجال مضوا إلى الأدغال لينضموا للعصابات المسلحة. لم تر غير حلاق هرم عند منعطف، يوشك أن يقتله الملل في انتظار زبون. ولم تر عداه إلا بعض جنود الكينيل يحرسون المدينة ويقرؤون جرائد قديمة، ناعسين، لا يقلون إحساسا بالملل. منهم من جلس وراء مقاود الشاحنات وسيارات الجيب ومنهم من جلسوا يعتلون دبابة. وجّهوا لها تحيات حارة، بعدما

رأوا أنها امرأة بيضاء، وعرضوا عليها أن يرافقوها، فلم يكن آمنا لهولندية أن تسير بمفردها، إذ قد تظهر عصابة مسلحة، كما قالوا، في أي وقت.

قالت لهم "لا، متشكرة، أنا ذاهبة لاستخراج كنز ولا أريد أن يقاسمني فيه أحد".

ومضت في طريق مطبوع في ذاكرتها، قاصدة الحي الذي كان يعيش فيه من قبل مُلاك المزارع الهولنديون. كانت البيوت محتشدة إلى الشط، وقد واجهت بشرفاتها الطريق الضيق الممتد بطول الساحل، بينما واجهت سقائفها الخلفية تَلّين سامقين في البعيد من وراء خضرة المزارع اليانعة. وصلت إلى هناك بعد رحلة هانئة، قاطعة طريق الشاطئ، وهي على يقين من أن البحر لن ينشق مطلقًا عن عصابة مسلحة. بدا كل شيء مثلما كان بالضبط. فالسياج كان لا يزال غارقا في براعم الأقحوان وشجرة ثمرة النجمة في موضعها بجوار البيت والأرجوحة متدلية من أدنى أغصانها. أصص الزهور التي وضعتها جدتها بمحاذاة الشرفة كانت لا تزال في مواضعها، وإن ذبل الصبار كله ومات عطشا، والتفت نبتات القلقاس على بعضها بعضا. كان واضحا تمامًا أن أحدًا لا يعتني بالعشب والأوركيد في التعريشة الأمامية، فتراخت على الأرض، وسرعان ما أدركت أن الخدم والحرس تركوا البيت، فلم يعد يعيش هناك في ما يبدو حتى كلاب البورزوي الروسية.

دفعت العربة إلى الفناء الأمامي، وحارت لما رأت نظافة أرضية الشرفة. فكّرت أن شخصا ما لا بد قد كنس التراب. حاولت أن تفتح الباب فوجدته غير موصد بالرتاج. دخلت وهي لا تزال تدفع العربة برغم أن الطفلتين كانتا قد بدأتا في التذمر. كانت غرفة الجلوس معتمة فأضاءت المصابيح، ورأت أن الكهرباء لم تنقطع، ورأت كل شيء فجأة غارقا في النور. كل شيء في موضعه: المناضد والكراسي والخزائن، كل شيء ما عدا الجرامافون الذي أخذه موين. بل ووجدت صورة لها معلقة على الجدار وهي فتاة صغيرة في الخامسة عشرة توشك أن تلتحق بمدرسة الفرنسيسكان.

قالت لألماندا "انظري، هذه ماما. صوّرها رجل ياباني، ثم اغتصبها بعد ذلك رجل ياباني آخر لعله والدك".

واصل الثلاث جولتهن في البيت، وصعدن إلى الطابق الثاني، وديوي آيو تحكي لهن كل ذكرياتها، تريهما أين كان الجد والجدة ينامان، وصورة التقطت لهنري وآنيو ستاملر وهما لا يزالان صغيرين لم يغرم أحدهما بعد بالآخر. وبالطبع لم تكن الصغيرتان تفهمان أي شيء، ومع ذلك استمتعت ديوي آيو بدورها كمرشدة سياحية إلى أن تذكّرت كنزها المخبوء في مواسير الصرف. دعت طفلتيها إلى البحث معها في المرحاض، وارتاحت حينما رأت أنه لم يزل في موضعه، فكان كل ما تحتاج إليه هو أن تفك المواسير وتصل إلى كنزها.

"امرأة هولندية تتسكع في عهد الجمهورية الجديدة!". سمعت ديوي آيو ذلك الصوت آتيًا من ورائها "ماذا تفعلين هنا يا ست؟"

استدارت لترى صاحبة الصوت: عجوز من أهل البلد وجهها بادي الشراسة، ترتدي الساري، وقميص كيبايا مهلهلًا، وفي يدها عصا تتكئ عليها. كان فمها مترعًا بمضغات من ورق التنبول. وقفت تلقي على ديوي آيو نظرة احتقار، وكأنها سوف تضربها بالعصا بلا أدنى تردد ضرب كلبة ضالة.

قالت ديوي آيو "يمكنك أن تري صورتي معلقة على الجدار" مشيرة إلى صورتها وهي بنت في الخامسة عشرة. "هذا البيت بيتي".

"هذا فقط لأنني لم أجد الوقت لتعليق صورتي بدلًا منها".

وسارعت العجوز تأمرها بالرحيل، لكن ديوي آيو أصرّت أن لديها حجّة البيت. فما كان من العجوز إلا أن ضحكت، وأشاحت بيدها قائلة "بيتك صودر يا ست". وكان ذلك واضحًا، وشرحت العجوز وهي تمضي بالضيفة الثقيلة إلى الباب أن اليابانيين استولوا على البيت، وعند نهاية الحرب سرقته عائلة أحد رجال العصابات. وهي عائلة العجوز التي فقد زوجها ذراعه بضربة سيف ساموراي قبل أن يذهب إلى الأدغال برفقة أبناء خمسة، ولم يمض عليه وقت طويل حتى مات برصاصة من أحد جنود الكينيل، ومعه اثنان من الأبناء. "فأنا الآن وريثة هذا البيت. لكن لك أن تأخذي صورك إن كنت تريدينها، ولن أطالبك بالثمن".

أدركت ديوي آيو أنه ما من سبيل إلى مشاجرة المرأة بالكلمات. فخرجت على الفور، دافعة العربة، لكنها لم تفقد تصميمها على

استرداد بيتها. مضت إلى الحكومة المدنية المؤقتة والمكاتب العسكرية، وقابلت قومندان الكينيل، وطلبت منه النصيحة، فكانت نصيحته لها محبطة تمامًا، إذ طلب منها أن تنبذ كل أمل في استرداد بيتها في القريب، قائلا إن الوضع لا يسمح بذلك، فالعصابات لم تزل تحوم في الجوار، ولو كان البيت يخص عائلة أحدهم، فالأفضل أن تنسى الأمر، ما لم يكن معها من المال ما تشتري به البيت.

ولم يكن لديها المال. وما كانت الخواتم الخمسة المتبقية كافية بأي حال لشراء بيت. أما أملها الوحيد، أي كنزها، فكان لا يزال في المرحاض، وما كان بوسعها الوصول إليه بدون أن تمتلك البيت أولا. توجهت على الفور إلى ماما كالونج، وقد علمت أن تلك المرأة دائمًا تسارع إلى نجدة كل محتاج، وكلّمتها بمنتهى الصراحة. "ماما، أقرضيني بعض المال. أريد أن أسترد البيت، أن أشتريه".

كانت ماما كالونج تنظر إلى كل شيء من وجهة النظر المالية، وتستطيع دائمًا أن تضع يدها على الفرص الجيدة. "وكيف ستردين المال؟"

قالت ديوي آيو "عندي كنز عائلي. قبل الحرب دفنت كل حلي جدتي في مكان خفي لا يعلم عنه إلا أنا والرب".

"وماذا لو كان الرب قد سرقه؟"

"في هذه الحالة أرجع إليك وأعمل في الدعارة إلى أن أسدّد ديني".

واتفقتا على أن هذه هي الفكرة المثلى. بل إن ماما كالونج عرضت التوسط في شراء البيت، فلو حاولت ديوي آيو شراءه بنفسها، فقد ترفض زوجة المحارب بيعه. إذ ما كانت امرأة من أهل البلد لتثق فيها، بمظهرها الهولندي، فضلًا عن أن ماما كالونج كانت عميقة الخبرة بشراء العقارات من أمثال تلك المرأة ممن يحتاجون إلى المال. فوعدت ديوي آيو بأن تساوم لها على أقل سعر ممكن.

استغرقت الصفقة كلها أسبوعًا، ظلت ماما كالونج تذهب كل يوم إلى المرأة الشرسة وترجع من عندها إلى أن انتهت المهمة. وافقت العجوز زوجة المحارب على بيع البيت إن حصلت لقاءه على بيت آخر فضلًا عن مبلغ من المال. وأحسنت ماما كالونج التعامل مع الأمر، فتسنَّى أخيرًا لديوي آيو أن تأمر المرأة بمغادرة البيت وألا تضع قدمها فيه مرة أخرى. وبرفقة ماما كالونج، سارعت ديوي آيو تنتقل إلى البيت هي وابنتاها الصغيرتان، مستعملة سيارة جيب عسكرية كانت تخص أحد زبائن الماخور من الكينيل. كم فرحت بالرجوع إلى بيتها، وقد اطمأنت أنه بات ملكًا لها.

وأخيرًا سألتها ماما كالونج "متى إذن سوف تسدِّدين لي؟"

"أمهليني شهرًا".

قالت "نعم، هذا يكفي للحفر. إذا أزعجك أحد في بيتك فتعالي فقط إليّ. عندي أصدقاء مقربون من المحاربين وأعرف طبعًا جنودًا من الكينيل. وكلهم زبائن".

لم تبدأ ديوي آيو الحفر على الفور. بحثت في البداية عن مربية أطفال، حتى عثرت على واحدة في معسكرات التلال، وكانت عجوزًا تدعى ميراه خدمت قبل الحرب لدى أسرة هولندية. قالت لها ديوي آيو بحسم إنها ليست هولندية، وإنها من أهل البلد واسمها ديوي آيو، ومن خلال ميراه عثرت على جنايني استطاع أن يعيد الأرض إلى انتظامها. ومرَّ أسبوع قبل أن تستريح وترى أن كل شيء رجع إلى ما كان عليه، بفناء نظيف ونباتات بادية الطزاجة.

قالت لنفسها "نحن محظوظات لأن اليابانيين والحلفاء لم يدمروه".

وفي ذلك الوقت جاءتها أخبار من أولا وجيردا، إذ التم شملهما مع جدتهما وجدهما، بل تبيَّن أن أباهما بخير بعدما احتجز في معسكر للأسرى في سومطرة. خطبت أولا لجندي إنجليزي واتفقا على الزواج خلال سنة، في السابع عشر من مارس، في كنيسة سانتا ماريا. لم تستطع ديوي آيو حضور زفافهما، لكنها أرسلت بعض صور ابنتيها، فتلقَّت من أولا إحدى صور زفافها. علَّقتها على الجدار حتى تراها أولا إذ حدث وجاءت لزيارتها.

بعد الانتهاء من أغلب المهام المنزلية، بدأت التفكير في استخراج الكنز. كان الجنايني، ويدعى صبري، قد نال ثقتها فأخبرته عن خطتها للحفر وصولًا إلى مواسير المجاري. وقالت إنها إذا لم تفعل ذلك فإنها لن تستطيع أن تدفع له أجره. هكذا جاء الجنايني بعتلة ومجرفة، وشمَّرت ديوي آيو كمَّي سترتها، وارتدت بنطال جدها، وساعدت صبري في

تفكيك الأرضية والحفر في التراب بمحاذاة ماسورة المجاري المتجهة إلى خزان المجاري. وكان العمل سهلا عليهما بسبب عدم استعمال المرحاض منذ بداية الحرب. فلم يصادفهما غائط دافئ كريه الرائحة، بل مجرد تراب مفتت عامر بديدان الأرض المتلوية.

ظلا يعملان طوال النهار بينما ميراه تهتم بالصغيرتين، فما كانا يتوقفان إلا لحظات لشرب الشاي والاستراحة قبل استئناف نزع الخرسانة والتقليب في ما بقي من الغائط بعدما تحول بالفعل إلى تراب. لكنهما لم يعثرا على شيء. كانت ديوي آيو على يقين أنهما أزالا كل الغائط والتراب من المواسير، ولكنها لم تعثر مع ذلك على أي من الحلي التي أخفتها هناك. لم تظهر عقود أو أساور ذهبية، لم يظهر غير تراب عفن متكلس، بني رطب. لم تصدق أن الحلي يمكن أن تتعفن وتذوب في الغائط، فيئست وتوقفت عن العمل وهي تغمغم:

"سرق الرب كنزي".

في الحقبة الثورية، كان الناس يجترئون على الصياح بشعارات براقة وكتابتها على الجدران في الشوارع، ورفعها في لافتات، بل وكتابتها في دفاتر المدارس. وبتلك الروح قرَّرت ماما كالونج أن تعيد تسمية ماخورها، لتمنحه عنوانا يمثل جوهر روحها. كان قد سبق لها أن أطلقت عليه "ضاجع أو مت" ثم سمَّته "ضاجع مرة، ضاجع إلى الأبد" ثم استقرت على "ضاجع حتى الموت".

ومن أسف أن قولها صدق، إذ مات جندي من الكينيل وهو يضاجع، بعدما نحره أحد رجال العصابات، ثم مات أحد رجال العصابات وهو يضاجع أيضًا برصاصة من أحد جنود الكينيل، وماتت عاهرة في أثناء مضاجعة بسبب قبلة طويلة حبست أنفاسها.

وهكذا، في ماخور "ضاجع حتى الموت" تحولت ديوي آيو إلى مومس. لم تعش فيه قط، إذ كان لديها بيت. فقط كانت تمضي إلى الماخور عند الغروب وترجع إلى البيت عند الصباح، وقد أصبح لديها ثلاث بنات ترعاهن، هن ألامندا، وأديندا، ومايا ديوي التي ولدت بعد ثلاث سنين من أديندا. فكانت ميراه ترعى البنات في الليل، وترعاهن في النهار ديوي آيو بنفسها كأي أم عادية. أدخلت البنات أفضل المدارس، ودأبت على إرسالهن إلى المسجد لتلاوة الصلوات مع الكياي جاهرو.

قالت لميراه "لن يصبحن مومسات ما لم تكن هذه رغبتهن الحقيقية".

هي نفسها لم تعترف قط صادقة بأنها مومس، لأن ذلك لم يكن حقا ما أرادته، بل العكس بالتحديد، إذ كانت تقول دائمًا إنها أكرهت على الدعارة بسبب الظروف، وكانت تقول لبناتها إن الظروف صنعتها "تمامًا كما تصنع من شخص نبيا أو ملكا".

صارت العاهرة المفضلة في المدينة. فلم يتردد على الماخور رجل تقريبًا إلا ونام معها مرة على الأقل، مهما كبّده ذلك من المال. ولم يكن ذلك بسبب هاجس قديم لديهم بالنوم مع امرأة هولندية، بل لأنهم كانوا يعرفون أن ديوي آيو خبيرة بارعة في السرير. لم يعاملها أحد

بخشونة، مثلما كانوا يعاملون العاهرات الأخريات، فلو كان أحد فعل ذلك لجُنَّ جنون بقية الرجال كأنما التي أضيرت زوجة كل واحد منهم. لم تكن ليلة تمضي عليها بدون أن تستمتع بزائر، ولكنها ألزمت نفسها بصرامة برجل واحد كل مساء. ومن أجل ذلك التحديد الصارم، فرضت ماما كالونج لها سعرا عاليا وكان الربح الإضافي يصب في جيبها، جيب تلك الملكة الوطواطة التي لم تكن تنام الليل.

نعم، ماما كالونج كانت ملكة المدينة، وديوي آيو أميرتها. كانت للاثنتين ذائقة واحدة، فكلتاهما امرأة تعتني بنفسها أشد العناية وترتدي من الثياب ما هو أكثر من ثياب ربات الصون والعفاف. كانت ماما كالونج تحب قماش الباتيك المنسوج يدويا وتشتريه بنفسها من سولو ويوجاياكارتا وبيلونجان، والكيبايا الفضفاضة، وتعقص شعرها في كعكة تقليدية. وكانت تلك طريقتها في اللبس حتى داخل الماخور، ولم تكن تلبس ثياب البيت المنزلية إلا في أثناء راحتها. أما ديوي آيو فكانت تنسخ كل ما يروق لها من صفحات مجلات الموضة النسائية نسخا دقيقا فتقلدها فضليات نساء المدينة.

الاثنتان كانتا مصدر البهجة في المدينة. فلم يقم فيها حدث هام إلا وتلقتا دعوة لحضوره. فجلست ماما كالونج وديوي آيو في كل عيد استقلال جنبا إلى جنب العمدة سَدره، والحاكم، وطبعا شودانتشو، بعد خروجه أخيرًا من الأدغال. وبرغم أن النسوة الفاضلات والطبيعيات كن يكرهنهما كراهية حقيقية، لعلمهن أن أزواجهن يختفون في جنح

الليل دعما لـ "ضاجع حتى الموت"، فقد كن مهذبات أمامهما (وقحابا من وراء ظهريهما).

ثم حدث ذات يوم أن خطرت لرجل فكرة أن يخالل الأميرة وحده من دون الرجال، بل وفكّر أن يتزوجها. ولم يخطر لأحد أن يعارضه، إذ كان يقال إنه رجل لا يقهر. كان يقال له مامان المجنون، أو مامان جيندنج.

وهكذا بلغت سعادة رجال هاليموندا نهايتها، وارتسمت على وجوه نسائهن وعشيقاتهن أعرض الابتسامات.

٥

لا يزال الناس حتى اليوم يتذكرون بوضوح كيف وصل ذلك الرجل ذات صباح عاصف كانت فيه ديوي آيو لا تزال حية وتتشاجر على الشط مع بعض صيادي السمك. نعم، أهل هاليموندا يعلمون عن ظهر قلب جميع مآثره، مثلما يعلمون جميع نوادر الكتاب المقدس.

في شبابه الغض كان مامان جيندنج بالفعل أحد مقاتلي الجيل الأخير من كبار الفرسان، والتلميذ الوحيد للمعلم تشيزل من الجبل العظيم. وفي نهاية العصر الاستعماري خرج هائما على وجهه بحثا عن حظه، فلم يصادف في طريقه أحدًا، من صديق أو عدو، إلى أن جاء اليابانيون. فقاتل في صفوف جيش الشعب، وفي الحرب الثورية فاز لنفسه بلقب عقيد، ثم حدث في أثناء إعادة هيكلة القوات أن كان واحدًا من آلاف الجنود المسرَّحين، فلم يبق له غير مجد مشاركته في الكفاح. ومع ذلك لم ينل الحزن من مامان جيندنج، بل رجع يهيم على وجهه محقّقا في بقية سنوات الحرب سمعة جديدة، سمعة قاطع طريق.

كانت غريزته في اللصوصية تنبع من كراهيته للأثرياء، وكراهيته للأثرياء كانت مفهومة تمامًا. فقد كان ابنا غير شرعي للحاكم، إذ

كانت أمه إحدى خادمات المطبخ في بيته شأن أجيال وأجيال سابقة من عائلتها، ولم يدر أحد متى بدأت العلاقة بينهما، لكن الجميع كانوا يعلمون أن بالحاكم شبقا طاغيا لا تشبعه زوجته ومحظياته وعشيقاته، فكان في بعض الليالي يسحب إحدى خادماته إلى جناحه، ومن بين من لقين ذلك المصير التعيس والدة مامان جيندنج فلم تفلت من نكاحه لها في نهاية المطاف. ولما اكتشفت زوجة الحاكم الأمر طردت خادمة المطبخ حرصا على سمعة الأسرة. ولم تكترث لكون أسرة الخادمة، ابتداء بأمها وأبيها وجدتيها من الناحيتين وجديها وأمهات هؤلاء الأجداد وآبائهم قد خدموا جميعًا في منزلها. وبلا أي شيء، إلا جنين ينمو في أحشائها، هامت المرأة على وجهها في الأدغال إلى أن تاهت في الجبل العظيم.وثمة عثر عليها المعلم تشيزل، الحكيم الهرم الذي أعانها في مخاضها في ظل نخلة.

وبينما المرأة على فراش الموت قالت "سمِّه مامان مثل أبيه. هو ابن شرعي للحاكم ابن الحرام"، ولفظت أنفاسها قبل أن تلقي نظرة أخرى على ابنها. وفي أسى بالغ، اصطحب المعلم الطفل إلى البيت.

قال للولد "ستكون آخر المقاتلين".

أحسن الاعتناء بالولد، فأكثر في طعامه، وعمل على تقويته وتدريبه حتى قبل أن يتعلم المشي. كان يغطس الرضيع في ماء مثلج ويتركه يشوى في حر شمس الظهيرة. ولما بدأ يمشي ألقى به في النهر حتى أرغمه على العوم. فلم يبلغ من العمر خمس سنين إلا وهو أقوى طفل

على وجه الأرض صدّق من صدّق وكذّب من كذّب. إذ كان بوسع ماماِن جيندنج ـوقد صار ذلك هو اسمه ـ أن يسحق بيديه العاريتين صخرة فيحيلها إلى ذرات رمل. وخلافا لغيره من الحكماء، علّم تشيزل الطفل كلّ ما يعلمه، لم يبخل عليه بشيء منه. علّمه حركات القتال كلها، ووهبه الطلاسم والتعاويذ، بل وعلمه كيف يقرأ ويكتب بلغة السوندانيز[٢٣] القديمة والهولندية والمالاوية واللاتينية. وعلّمه التأمل، وعثل تلك الجدية علّمه الطبخ.

ولما بلغ ماماِن جيندنج الثانية عشرة مات تشيزل. فدفنه واحتدّ عليه أسبوعا، ثم نزل من الجبل مستهلا أوديسة الانتقام من أبيه بالدم. وكان ذلك تقريبًا في الوقت الذي وصلت فيه القوات اليابانية، فلم يجد أباه في البيت، إذ كانت الأسرة قد تفرّقت بالفعل وضاعت ضمن من ضيّعتهم الحرب. كان الحاكم قد هرب بسبب شراكته مع الهولنديين، وكان على ماماِن جيندنج أن يقضي ثلاث سنين وهو يبحث عن عدوه الذي شرّد أمه وتسبّب في موتها. وحتى بعد تلك السنوات الثلاث لم يستطع أن يثأر لنفسه ولأمه، إذ إنه لما وجد أباه أخيرًا، وجده وقد قتلته فرقة إعدام، فرأى جثته لكنه لم يتكرّم عليه بإحراقه.

بعد رحيل اليابانيين وإعلان الاستقلال ونشوب الحرب الثورية، انضم إلى حرب العصابات. كانوا يقيمون نهارا في أكواخ صيادي

---

23 ويتكلم بها اليوم قرابة ١٥% من الشعب الإندونيسي

السمك على الساحل الشمالي ويحاربون ليلا، ولكن قوات الكينيل كانت في الغالب تفوز في تلك المواجهات. ولم يحدث في تلك الأثناء شيء مثير للاهتمام إلا شيء واحد: حدث أن افتتن مامان جيندنج بصيادة سمك صغيرة جدًا اسمها ناسْيَه. كانت فتاة دقيقة الجسم، لذيذة، ذات غمازتين في خديها، وبشرة داكنة جميلة. وكان مامان جيندنج يراها حينما يخرج ليسير على الشط جامعًا السمك لغدائه. كانت فتاة لطيفة تتسلل إلى رجال العصابات بما تستطيع جلبه من طعام، وعلى وجهها أجمل ابتسامة يمكن أن تراها عين.

لم يكن يعرف عنها الكثير، ليس إلا اسمها. ولكنها ملأته إحساسا بالحياة فصمَّم أن يقلع عن التصعلك ويكسب كل معركة لكي يكونا معًا في النهاية. وعلم أصدقاؤه شغفه بها فشجَّعوه على أن يتقدم طالبا يدها. ولم يكن مامان جيندنج قد تكلَّم مع امرأة قط، إلا البغايا في أثناء الاحتلال الياباني، فسرعان ما أدرك أن مواجهة ناسيه الصغيرة اللذيذة أشقُّ عليه من مواجهة فرقة إعدام هولندية. لكن الفرصة سنحت إذ رأى ناسيه تسير وحدها وفي حضنها سبت سمك في الطريق إلى البيت، فلحق بها. رأى ابتسامة الفتاة، وغمازتيها، فاستجمع شجاعته وسألها إن كانت ترضى أن تكون زوجة له.

كانت ناسيه قد بلغت الثالثة عشرة فقط. فلا أحد يعرف إن كانت حداثة سنِّها أم غير تلك هي التي حبست أنفاسها وأجفلتها حتى أوقعت السبت وانطلقت تجري إلى البيت بدون أن تلقي السلام، كأنها طفلة أفزعها مجنون. واقفا وسط السمك، تابعها مامان جيندنج في جريها

متمنيًا لو أن أمه لم تلده. لكنه لم يتراجع، مطلقًا. بثّ فيه الحب شجاعة لا يبثها إلا الحب. فلملم السمك، ومضى بخطوات عازمة، حاملا السبت إلى بيت الصغيرة، معتزما أن يتقدم لأبيها طالبا يدها.

وجد ناسيه واقفة أمام البيت بجوار شخص ضئيل في إحدى ساقيه شيء من عرج. لم يكن يعرف عن ناسيه إلا أن لها أخوين أكبر منها ماتا في حرب العصابات وأن لها أبا شيخا يعمل في صيد السمك. لم يكن يعرف أي شيء عن شاب جائع أعرج. وقف مامان جيندنجأمامهما محاولا أن يبتسم وقد وضع السبت عند قدمي ناسيه. تعالى خفقان قلبه، وأكلته نار الغيرة، ولولا الشجاعة أو الغباء ما أعاد كلامه.

سألها بوجه دامٍ "ناسيه، هل تحبين أن تكوني زوجة لي؟ عندما تنتهي الحرب، سوف أتزوجك".

هزّت الفتاة رأسها ومضت تبكي.

قالت وسط بكائها "يا سيدي المحارب، ألا ترى الرجل الواقف بجواري؟ هو ضعيف، صحيح. لن يقدر أبدا على الذهاب إلى المحيط للصيد، وطبعا لن يقوى مثلك على الحرب، أعرف يا سيدي أنك قادر بكل سهولة على أن تقتله وتأخذني بسهولة كأنك تأخذ سمكة. لكن إن فعلت، فتكرّم عليّ واسمح لي أن أموت بجواره، لأننا نحب أحدنا الآخر ولا طاقة لنا على الافتراق".

بقي الشاب الهزيل صامتا مطأطئ الرأس، لم يرفع وجهه ولو مرة. وفي لحظة انفطر قلب مامان جيندنج، فأطرق لوهلة ثم مضى عنهما، لم

يلق السلام، ولم يلتفت وراءه. كان بوسعه أن يرى بعينيه ما بين الاثنين من حب، ولم يشأ أن يحطم سعادتهما، ولو كان الثمن أن يبقى لفترة طويلةٍ طويلة يضمِّد جراح قلبه.

وطوال ما بقي من الحرب ظلت تروِّعه هلاوس أطلقتها من عقالها ملاقاة حبه بالرفض. فكانت تأتي عليه أحيان فيجلس في العراء عسى أن تصيبه طلقة عدو، بل كان يجعل من نفسه هدفا عاريا للبنادق والمدافع، ولكن كان مكتوبا له النجاة. وطوال تلك الفترة كلها لم ير الفتاة مرة أخرى، واجتنب أي فرصة تجمعه بها. ولما انتهت الحرب سمع بزواجها من حبيبها، فبعث لها وشاحا أحمر اشتراه من نسَّاج في المدينة هدية لزفافها.

حُلَّت العصابات، وغلبت السعادة الحزن في نفس ماهان جيندنج، وقد صار بوسعه مرة أخرى أن يهيم على وجهه، وإن بات يحمل الآن بين ضلوعه قلبا أثقلته الجراح. جاب الساحل الشمالي طولا وعرضا، سالكا السبل التي سبق أن سلكتها العصابات، مقتاتا من السطو على بيوت الأثرياء، قائلا لهم "لو كنتم شركاء للهولنديين فلا بد أنكم كنتم خدما لليابانيين، فلا يثرى في أثناء الثورة إلا الخونة".

بنحو عشرة رجال روَّع مدن الساحل بينما الشرطة والجيش يسعيان وراءه بلا كلل. وعاش ورجاله عيش روبين هود، يسرق الأثرياء، ويوزع الغنائم على الفقراء، معتنيا بالأرامل واليتامى الذين قضت الحرب على أزواجهن وآبائهم. واشتهر ملقيا الرعب في قلوب الأصدقاء والأعداء، فلم يجد في ذلك سعادته. لم يكن يحل بمكان إلا

ويسبقه إليه جرحه القديم الذي لم تقو على مداواته أي فتاة جميلة ممن رآهن أو عاهرة ممن عرفهن في أكواخ النبيذ المقامة من جريد النخيل. وما كان الليل يحل عليه إلا وينتابه الجنون، فيأمر رجاله بالخروج والبحث عن بنات جميلات ذوات غمازات وبشرات داكنة مغوية. كان يصف ناسيه بالتفصيل، فيؤتى إليه في مخبئه ببنات كأنهن نسخ منها، لولا أن كلا منهن تمتاز عنها بميزة، فينكحهن الليلة بعد الأخرى، ثم لا تملأ أي منهن فراغ ناسيه في قلبه.

لم يعاوده شغفه بالحياة إلا بعد فترة طويلة، حينما سمع خرافة يحكيها أبناء صيادي السمك عن أميرة تدعى رينجانيس، بلغ جمالها أنه ما من رجل إلا ويقبل من أجلها على الموت عن طيب خاطر. استيقظ مامان جيندنج ذات ليلة متأهبا لمعاركة أي شخص في سبيل نيل تلك المرأة فمضى يوقظ رجاله رجلا رجلا ويسألهم أين تعيش الأميرة رينجانيس. فقالوا في هاليموندا طبعا. لم يكن مامان جيندنج قد سمع بالمدينة من قبل، لكن أحد رجاله أخبره أنه إن أبحر بمحاذاة الساحل متجها ناحية الشرق فسوف يصل إلى هاليموندا. ممتلئا بالإيمان، وعاقدا العزم قبل ذلك وبعده على مداواة جرحه القديم، أوكل إلى رجاله أمر منطقته، وقال لهم إنه خارج في رحلة بحرية، مستقلا زورقا من جذع شجرة ليعثر على حبه الحقيقي. كان الحب أخيرًا قد عرف طريقه إليه مرة ثانية، ولو لم يعرف آنذاك عن رينجانيس إلا ما حكاه له عنها أبناء الصيادين.

قالوا له إن الأميرة فائقة الجمال، وإنها الأخيرة من سلسال عائلة باجاجاران الملكية، وقد ورثت جمال جميع أميرات مملكة باكوان[24]. قال الناس إن الأميرة نفسها أدركت أن جمالها سرٌّ شقائها. كانت لم تزل طفلة تروح وتجيء خارج أسوار القصر كيف تشاء، فتثير الاضطراب والهياج ما عظم منه شأنا أو صغر. إذ كان الناس أينما سارت يحملقون في وجهها، ذاهلين في غشاوة من الأسى، وقد ارتسمت على وجوههم البلاهة. كانوا يتجمّدون كأنهم تماثيل بشرية حمقاء، لا يتحرك فيهم غير أعينهم، تكاد تخطو وراءها على التراب خطوة إثر خطوة. كان ظهورها يجعل الموظفين يهملون شؤون الدولة ويغيبون في أحلام يقظة آخرها أن عصابات اللصوص استولت على قطاعات شاسعة من المملكة لم تسترد بعد ذلك إلا بجهد وبتكلفة عظيمين، وبعد تضحية بحياة نصف قوات الجيش الملكي.

قال ماما ن جيندنج"هذه امرأة يُسعى إليها".

قال له صديق "كل ما أرجوه ألا ينفطر قلبك مرة ثانية".

قالوا إن أبا الأميرة نفسه كان آخر ملك قبل هجوم الديماك على المملكة[25]، وإنه شاخ قبل الأوان لهوسه بجمال ابنته. فبرغم أنه ما لأحد أن يضاجع ابنته، يظل الوقوع في الحب هو الوقوع في الحب. تصادمت في نفسه الرغبة والحشمة فتآكل كل ما في نفسه، حتى لم يعد يتصور

24 اسم آخر لمملكة باجاجاران التي سلف ذكرها في هامش سابق.

25 كانت سلطنة الديماك دولة إسلامية في ساحل جاوة الشمالي، حيث تقع اليوم مدينة ديماك. ولم تدم تلك الدولة طويلًا لكنها لعبت دورا مهما في ترسيخ الإسلام بإندونيسيا.

خلاصا له من شقائه إلا الموت. وفكّرت الملكة الغيور أنه ما من سبيل للخروج من هذا الوضع إلا بقتل الفتاة الصغيرة. فكثيرًا ما كانت تتسلل إلى المطبخ وتأتي بسكين وتمضي على أطراف أصابعها إلى مخدع ابنتها عاقدة العزم على طعنها في قلبها النابض. لكنها في كل مرة كانت ترى ابنتها، فيفتنها جمالها، وتقع في غرامها، وتنسى كل نية آثمة، وترمي السكين، وتسارع إلى طفلتها، تربت عليها وتقبلها، إلى أن تتمالك نفسها، وتستعيد وعيها، فتشعر بالعار مما أوشكت أن تفعله، وتترك ابنتها الصغيرة، وهي تعاني ولا تبوح.

طوال الرحلة ظل صيادو السمك يحكون لمامان جيندنج حواديت عن الأميرة رينجانيس. كان يبحر غربا في زورقه الصغير حتى إذا حلّ الغروب رسا في قرية من قرى الصيادين. فيسألهم كم بقي على هاليموندا، ويرشدونه أن يواصل الإبحار باتجاه الغرب ثم يدور جهة الجنوب ثم يتجه مرة أخرى جهة الشرق. ويدعونه أن يلزم الحذر ويتقي موجات بحار الجنوب. وبعد ذلك يحكون له عن الأميرة، فتزداد على الهائم الوحيد فتنته.

وعاهد نفسه "لأتزوجنها".

***

عانت الأميرة رينجانيس نفسها الكثير من جمالها المتنامي، فأغلقت على نفسها باب غرفتها. لم يبق لها من صلة بالعالم الخارجي إلا شق صغير في الباب تمرِّر الخادمات منه الثياب وأطباق الطعام. كانت قد تعهدت بألا

تبدي حسنها للعيان، وتمنَّت أن تتزوج رجلا يحبها لغير جمالها. فمضت في الخفاء تخيط ثوب زفافها، وتعد جهاز عرسها، ولكنها لم تكن تملك أن تكتم خبر جمالها، فتناقلته ألسن الحكّائين والطوّافين والهائمين على وجوههم في الأصقاع. أما أبوها الذي أمرضته مشاعره المحرمة، وأمها التي كفّت الغيرة بصرها، فقد عقدا العزم على تزويجها والخلاص منها. بعثا تسعة وتسعين رسولا إلى أقصى أرجاء المملكة بل وإلى البلاد المجاورة يعلنون عن مسابقة بين الأمرَاء والملوك ومن عداهم. مسابقة جائزتها الحق في الزواج بأجمل نساء الدنيا، الأميرة رينجانيس.

وجاء من الرجال أوسمهم، وبدأت المسابقة. لم يكن التنافس في الرماية كالسباق الذي فاز فيه أرجونا فتزوّج دروبادي. بل طلب الملك من كل رجل أن يصف المرأة المثالية، ما طولها، وما وزنها، وما طعامها المفضل، وكيف تصفّف شعرها، وما لون ثيابها، وما رائحة جسمها، وكل شيء، ثم يطلب منه بعد ذلك أن يجلس أمام باب مخدع الأميرة رينجانيس لتطرح عليه سؤالا. فإن وصف الرجل امرأة تشبه الأميرة تمام الشبه، وإن أرادت الأميرة رجلا يشبه الرجل الجالس أمام باب مخدعها تمام الشبه، فقد وعد الملك بأن يزوجهما. ولم يكن مألوفا أن يجد الناس أزواجهم بتلك الطريقة فلم تنته المسابقة في النهاية إلى رجل مناسب.

والحق أن نيل امرأة كتلك المرأة لم يكن بالأمرً اليسير. وبينما كان مامان جيندنج في مضيق سوندا، إذ حاولت عصابة من القراصنة أن تسرق نفائسه، فأغرقها. ولم يكن أولئك هم العقبة الوحيدة. فبينما كان يدخل بحار الجنوب، لم تعقه العواصف الهوجاء وحدها، بل واجهته

سمكتا قرش ظلتا تحومان بلا كلل حول زورقه. وكان عليه أن يرسو في المستنقعات ليصطاد غزالا يلهي به سمكتي القرش فتكونان رفيقتين له في رحلته. وكل ذلك لأجل خاطر الكائن النادر المسمى رينجانيس.

عقمت المسابقة أن تنتهي إلى زوج، فعادت المملكة إلى يأسها، وإلى عذاب الجمال. إلى أن دبَّر ذات يوم أمير ناقم لاختطاف الأميرة بالقوة، بصحبة ثلاثمئة من فرسانه. طغا الفرح على الملك لما علم أن أحدًا سوف يختطف الأميرة ويتزوجها، لكنه بدافع من الفروسية لم يملك إلا أن يسمح لقواته بمحاربة الغزاة. وجاء أمير آخر من مملكة أخرى بثلاثمئة فارس مددا، راجيا أن ينال الأميرة شكرا له على دعمه، فاندلعت بذلك حرب كبيرة. وانجرف إلى تلك الحرب أمرَاء وفرسان، فلم ينته العام إلا والناس في حيرة من أمرهم لا يعرفون من مع من ومن ضد من، لكن الجميع كانوا يعرفون أن الحرب دائرة على امرأة ظلت طوال سنين إلهة الجمال في هاليموندا. وازدادت لعنة الجمال، ووقع آلاف الجنود بين جرحى وقتلى، وخرب البلد عن بكرة أبيه، واستشرى فيه المرض والجوع بلا رحمة، وكل ذلك من جراء جمال جهنمي.

قال صياد سمك هرم في النزل الذي قضى فيه مامان جيندنج ليلته "هذا أبشع الأزمان. أبشع حتى من حرب بوبات[٢٦] حين هاجمنا

---

26 حرب بوبات Bubat معركة بين عائلة سوندانيس Sundanese المالكة وجيش ماجاباهيتMajapahit وقعت فى ميدان بوبات فى القسم الشمالى من تارولان (عاصمة ماجاباهيت) سنة ١٣٥٧.

ماجاباهيت بالمكيدة، ونحن في النهاية، وكما لا يخفى عليك، لسنا أهل حرب".

قال مامان جيندنج "أنا عن نفسي من قدامى محاربي الثورة".

"هاه، تلك لا تقارن بالحرب على الأميرة رينجانيس".

ولا يمكن القول بأن الأميرة لم تكن تعرف شيئًا من ذلك كله. فقد كانت خادماتها يهمسن لها من شق الباب، مثلما كان ديستاراتا الأعمى يسمع مصائر أبنائه في معركة كوروسيترا[٢٧]. عانت الجميلة الصغيرة كثيرًا، فلم تعد تقوى على الأكل أو النوم، وصار يعذّبها أنها أصل كل ذلك الشقاء. ما كان البكاء ليهوِّن عليها، ربما ولا الموت، فتذكرت فجأة فستان زفافها وقررت أن خلاصها الوحيد من ذلك كله هو أن تتزوج على الفور، ومن المؤكد أن الحرب ستنتهي حينئذ ومعها كل ذلك الشقاء.

سنوات كانت قد مضت في ذلك الوقت وهي تغلق على نفسها باب مخدعها المعتم، لا يرافقها فيه غير قنديل زيت خافت الإضاءة وفستان زفافها. وكانت قد خاطته كله بنفسها، فجعلته بصنعة يديها أجمل فستان زفاف على وجه الأرض، لا يباريه عمل أي خياطة أو خياط. وذات صباح انتهى أخيرًا العمل على الفستان، ولم تكن الأميرة

27 كان ديستاراتا في المهابهاراتا ملك هاستينابور في زمن معركة كوروسيترا، وهي حدث الذروة في الملحمة، وكان أبا لمئة ولد وابنة واحدة.

تعلم ممن سوف تتزوج فحدَّثت نفسها بأن تفتح الشباك وحسب، ومن يظهر لها من الشباك كائنا من كان يكن شريك حياتها.

وقبل أن تنفذ ما قطعته على نفسها، ظلت تستحم بماء الورد طوال مئة ليلة. وذات صباح لم ينسه الناس، ارتدت فستان الزفاف، ولم تكن بالتي ترجع عن عهد قطعته على نفسها، بل تصون كلمتها. فتحت النافذة للمرة الأولى منذ سنين لتتزوج أول من تقع عليه عيناها. فإن رأت أكثر من رجل تختار أقربهم. وتعهدت ألا تأخذ من امرأة زوجها، أو من حبيبة رجلها، فلم تكن ترغب في إيذاء أحد.

لبست فستان الزفاف فصارت أجمل من ذي قبل. سطع جمالها، حتى في تلك الغرفة المعتمة، ففتنت الخادمات اللاتي كن يتجسَّسن عليها، واحترن في أمرها، ترى ما الذي تنتوي أن تفعله. بخطى رشيقة اقتربت الأميرة رينجانيس من النافذة، وتمهلت لحظة، وزفرت زفرة توتر. لقد قطعت العهد ولا بد من الوفاء به. أخذت يداها ترتعشان بعنف وهي تلمس ضلفتي الشباك، وفجأة انخرطت في البكاء، وقد علقت بين حزن عميق وفرحة طاغية. وبلمسة خفيفة من أناملها فتحت مزلاج الشباك، فانفتحت الضلفتان بصرير سنوات. وقالت "أنت يا من هنا، كائنا من كنت، تزوجني".

قال ماما جيندنج لصياد سمك آخر في صباح آخر "ما أتعس حظي إذ لم أكن هناك. قل لي كم تبعد هاليموندا؟"

"غير بعيدة".

كم قيل له غير بعيدة، فلم تعد له في تلك الكلمات من سلوى وقد بدا أنه لن يصل أبدا. مضى في رحلته البحرية، متوقفا في كل معسكر للصيادين وفي كل ميناء سائلا: أين هاليموندا، فيقال له واصل الإبحار جهة الشرق، كلهم كانوا يقولون ذلك فكانوا يفقدونه ثقته. وبغتة شعر أن الأمر كله خدعة كبيرة وأن الجميع يكذبون عليه وأن هاليموندا ليست غير مكيدة. وقرَّر أنه إن سأل أحدًا آخر مرة أخرى فقال له إن عليه أن يواصل الإبحار جهة الشرق فسوف يلكمه في وجهه ويوقف كل ذلك المزاح بل الهزل.

وفي تلك اللحظة رأى ميناء صيد وصفًا من أكواخ الصيادين، فولّى وجهه بسرعة جهة البر، مودِّعا سمكتي القرش اللتين ظلتا ترافقانه طوال رحلته حتى قامت بينهما صداقة نادرة. سرت في جسمه رعشة الوهن والهزيمة، فاقدا الأمل في مقابلة الأميرة الفاتنة رينجانيس في يوم من الأيام. ترك الزورق وقابل صياد سمك كان يجذب شبكته إلى الشط. قبض يديه وسأل "أهذه هاليموندا؟"

"نعم، هذه هاليموندا".

كان صيادا سعيد الحظ، فلو كان مامان جيندنج ـالذي قال عنه أستاذه إنه خير مقاتلي الأرضـ أطلق عنان غضبه لما استطاع الصياد أن يجابهه ويصده. عصفت الفرحة بمامان جيندنج بعد طول رحلته إذ تبيَّن أن هاليموندا ليست أكذوبة مخترعة، وأنه بلغها أخيرًا، ومضى يتنسّم

هواءها، ويكلم أحد أهلها. جثا على ركبتيه ممتلئا بالشكر بينما الصياد ينظر إليه في حيرة.

غمغم "كل شيء هنا يبدو جميلًا".

قال الصياد "نعم. حتى الخراء هنا ينزل جميل الشكل" وتهيَّأ للرحيل لولا أن احتجزه ماماان جيندنج.

سأله "أين أقابل رينجانيس؟"

"أي رينجانيس؟ لدينا أطنان من النساء المسميات رينجانيس. بل إن شوارع وأنهارًا هنا اسمها رينجانيس".

"الأميرة رينجانيس طبعًا".

"هذه ماتت منذ مئات السنين".

"ماذا قلت؟"

"قلت ماتت منذ مئات السنين".

كل شيء انتهى فجأة وحدَّث ماماان جيندنج نفسه قائلًا إن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا. ولم يكن له في ظنه عزاء، فانفجر الغضب منه في ضراوة، وهدّد الصياد المسكين، وصاح فيه أنه كاذب. وجاء صيادون آخرون حاملين مجاديفهم الخشبية ليساعدوا زميلهم، فحطّم ماماان جيندنج مجاديفهم وتركهم مبعثرين فاقدي الوعي على الرمل الرطب. ثم جاء ثلاثة بلطجية شداد فاقتربوا منه، وأمروه بالرحيل قائلين إن هذه منطقتهم من الساحل، فلم يرحل ماماان جيندنج بل هجم

عليهم بلا رحمة فغلب ثلاثتهم وطرحهم على الأرض فوق أجساد الصيادين وهم أقرب إلى الموت منهم للحياة.

ذلك هو الصباح الهائج الذي وصل فيه ماما جيندنج إلى هاليموندا فأثار كلٌ ذلك الاضطراب. كان أولئك الصيادون الخمسة والبلطجية الثلاثة أول ضحاياه. وأعقبهم أحد قدامى المحاربين إذ خرج فأطلق الرصاص عليه من بعيد وهو لا يدري أن الرصاص لا ينفذ في ذلك الغريب، فلما تبيَّن له ذلك لاذ بالفرار، ولكن ماما جيندنج طارده، وانتزع منه بندقيته، وأصابه بطلقة في ساقه أقعدته على أرض الشارع.

وصاح "من أيضًا يريد القتال؟"

كان عليه أن يعاقب بعض أهل المدينة التي خدعته بقصة عمرها مئات السنين، فوقع المزيد من المصادمات في ذلك اليوم خرج منها جميعًا منتصرا، ولم يبق على الشاطئ من يرغب في تحدّيه. ولكن الوهن بدأ يظهر عليه، فمضى شاحب الوجه إلى كشك طعام فقدَّم له صاحبه كلَّ ما لديه. بل انهال عليه الناس بما لديهم من عرق البلح آملين أن يسكر فلا يسبب المزيد من المتاعب. امتلأ ماما جيندنج طعامًا وشرابًا فانقلب سكران طريحًا على ظهره في زورقه الذي كان قد سحبه إلى رمل الشاطئ. استعاد الرحلة كلها بكل ما لقي فيها من خيبات، وقبل أن يغلبه النوم قال في وضوح تام "لو رزقت يومًا ما بابنة فسوف أسميها رينجانيس". ثم راح في النوم.

صحيح أن الأميرة رينجانيس ماتت قبل سنين كثيرة، ولكنها لم تمت إلا وقد تزوجت واعتزلت العالم في هاليموندا، فحينما فتحت الشباك بعدما أوصد سنوات كثيرة، اندفعت أشعة شمس الصباح الدافئة إلى المخدع، فعميت عيناها لوهلة. بدا وكأن الكون توقف ليشهد الجمال الرهيب إذ يعود إلى الدنيا من عتمة مغلقة. توقفت الطيور عن الزقزقة والريح عن السريان، بينما وقفت الأميرة ساكنة كأنها لوحة إطارها شباك مخدعها. مرَّ بعض الوقت قبل أن تألف عيناها الضوء وبدأت تتلفت حولها، بنظرة متوترة وخدَّين محمرَّين إذ كانت توشك أن تلتقي الشخص الذي سيكون حبيبا لها. لكن على مدى البصر لم يكن أحد حاضرا إلا كلب أدار رأسه باتجاهها وقد شدَّه صرير الشباك عند انفتاحه. بهتت الأميرة لوهلة، لكن تذكروا أنها ما كانت لتحنث بوعد قطعته، فتعهدت من أعماق قلبها أن تكون لذلك الكلب زوجا وحبيبة.

وما كان أحد ليقبل بتلك الزيجة، فهرب الاثنان إلى غابة يخفيها الضباب على حافة بحار الجنوب. والأميرة بنفسها هي التي أطلقت عليها اسم هاليموندا، أي أرض الضباب. وعاشا هناك سنين كثيرة، وبالطبع أنجبا أبناء، لذلك يؤمن أغلب أهل هاليموندا بأنهما أبناء كلب وأميرة، كلب لم يعرف أحد اسمًا له. حتى الأميرة نفسها لم تعرف له اسمًا، ولمتختر له اسمًا للتدليل. كان كل ما تعرفه حينما رأته للمرة الأولى من شباكها هو أن عليها أن تسارع بالنزول للقاء عريسها، وليقل الناس بعد ذلك ما يقولون. وقالت قاطعة القول "ليس أقل مبالاة بجمالي أو قبحي من كلب".

سرعان ما ذاع خبر وصول ماما جيندنج إلى هاليموندا. كان قد استيقظ من قيلولته السريعة عاقدا العزم أن يتخذ من المدينة وطنا وأن يعيش بين سلسال الأميرة رينجانيس. فرح بمنظر أكواخ الصيادين إذ ذكّرته بأيامه الخوالي، وتعريشات الشراب والحانات المصفوفة بطول الشاطئ، والمتاجر بطول شارع جالان ميرديكا، وماخور ماما كالونج بالطبع، أفضل مواخير المدينة.

وجد نفسه هناك بتوصية من بعض المارة المجهولين. فكّر أنه إذا كان سيعيش في المدينة فلا غنى له عن السيطرة عليها، والسبيل الأمثل لذلك هو البدء بالماخور. دخل الخان فوجد العجوز نفسها تنتظره، وقد بلغتها سمعته التي أسَّسها منذ رسوّه على الشاطئ، ومعها عدد من بناتها وبلطجي يحمي المكان. قدَّمت له ماما كالونج بنفسها كأس بيرة فصبَّه في جوفه ثم وقف وسط الخان وسأل من أقوى رجل في المدينة. ضاق عدد من البلطجية العاملين في الخان بالسؤال فاندلع شجار عنيف في فناء الخان. لم يلتفت ماما جيندنج إلى مناجلهم وخناجرهم وفضلات ما في أيديهم من سيوف الساموراي، ولم يستغرق وقتا يذكر قبل أن يجعل عاليهم سافلهم.

فرك يديه في رضا، ودخل الخان من جديد راجيا أن يعثر على من يضربه، فإذا به يرى بدلًا من ذلك امرأة جميلة جالسة في الركن وبين شفتيها سيجارة. همس لماما كالونج "أريد أن أنام مع هذه المرأة، عاهرة كانت أم قديسة".

قالت ماما كالونج "هذه ديوي آيو، وهي أفضل عاهرة هنا".

سأل مامان جيندنج "على سبيل البركة يعني؟"

"على سبيل البركة".

قال مامان جيندنج "سأعيش في هذه المدينة، وسأبول على فرجها كما يعلن نمر عن أرضه".

كانت ديوي آيو جالسة في الركن لا تبالي بشيء. وتحت وهج المصباح توهجت بشرتها بيضاء نظيفة تنم عن تراثها الهولندي. كانت في عينيها لمسة من الأزرق، وشعرها الأسود ملموم في ضفيرة فرنسية طويلة، وبين أصابعها النحيلة سيجارة، وأظافرها مطلية بالأحمر الدموي. كانت ترتدي فستانا عاجي اللون وقد لفت حزاما على خصرها اللدن. سمعت ما قاله مامان جيندنج لماما كالونج فالتفتت إليه. لوهلة التقت نظرتها بنظرته، وابتسمت ديوي آيو ابتسامة موجعة بدون أن تتحرك في وجهها عضلة.

قالت "سارع إذن يا حبوب قبل أن تبول في سروالك".

أخبرته ديوي آيو أن لها غرفة خاصة، في جناح وراء الخان، وأنها لا تذهب إلى هناك على قدميها، فعلى كل من يريدها أن يحملها إلى هناك كأنه عريس يحمل عروسه. وطبعا لم تكن لدى مامان جيندنج مشكلة في ذلك، فاقترب من العاهرة الجميلة حتى وقف أمامها وانحنى. ولما رفعها بين ذراعيه قدَّر أنها تزن ستين كيلوجراما. وسار بها إلى ما وراء الخان، عابرا بابا، ماضيًا وسط بستان برتقال عبق، قاصدا بناء

صغيرا خافت الإضاءة وسط عدد من الأبنية الأخرى. قال لها مامان جيندنج "لقد جئت إلى هنا لأتزوج الأميرة رينجانيس، ولكنني تأخرت أكثر من مئة سنة. ما رأيك أن تأخذي مكانها؟"

قبلت ديوي آيو خد خاطبها هذا وقالت "الزوجة مومس بالمجان، والمومس عاملة بأجر. وأنا لا أحب أن أمارس الجنس بدون مقابل".

مارسا الحب طول الليلة تقريبًا، ممتلئين بالحرارة والتوق كأنهما حبيبان التقيا بعد طول فراق. ولما أقبل الصباح كانا لا يزالان عاريين ملفوفين في بطانية، جالسين أمام الجناح ينعمان بالهواء البارد، بينما العصافير تتقافز بين أغصان شجر البرتقال وتطير منها في رحلات قصيرة إلى حافة سطح الجناح، وظهرت الشمس بدفئها من صدع بين تلي ماإيانج وماجيديك في شمال المدينة.

بدأت هاليموندا تصحو، واستعد العشيقان للنهار، فنزعا عنهما البطانية، وغرقا في ماء دافئ يملأ حوضا كبيرًا تركه اليابانيون، وارتديا ثيابهما. وشأن كل صباح ركبت ديوي آيو البيكاك إلى بناتها الثلاث في البيت. وتهيَّأ مامان جيندنج لنهار جديد في المدينة.

قدمت له ماما كالونج الإفطار، رزًا أصفر مع فطر القش وبيض سمَّان كانت قد بعثت من اشتراه في الصباح الباكر من السوق. سأل ماماان جيندنج مرة أخرى عن أقوى رجل في المدينة، أقوى رجالها بحق "لأنه لا يمكن أن يوجد رامبان بارعًان في مكان واحد". قالت ماما كالونج إن هذا صحيح، وذكرت له رجلا يدعى إيدي الأحمق هو أكثر

بلطجي مرهوب الجانب، مكانه في محطة الأتوبيسات، وحكت له ما يشيع عنه: يخافه الجنود والشرطة، قتل من الناس أكثر مما قتل أي محارب أسطوري، وكل قطاع الطرق واللصوص والقراصنة في المدينة خدمه. فضلا عن أنه على الأرجح علم بأمر ماماان جيندنج، فمن المؤكد أن جميع بلطجية الماخور نقلوا إليه خبره. لما انتصف النهار مضى ماماان جيندنج إلى محطة الأتوبيسات وعثر على الرجل وهو جالس مسترخيا في كرسي هزّاز من خشب الماهوجني.

قال له ماماان جيندنج "تنازل لي عن سلطتك أو نتقاتل حتى الموت".

كان إيدي الأحمق في انتظاره. فقبل التحدي، وانتشر الخبر كالنار في الهشيم. كانت سنوات كثيرة قد مضت منذ أن شهد أهل المدينة أي تسلية حقيقية، فتوافد العشرات في حماس إلى الشاطئ الذي قرَّر الرجلان أن يتقاتلا عنده. ما كان لأحد أن يتكهن أيهما سوف يقتل الآخر. بعث القومندان العسكري في المدينة فرقة يقودها رجل هزيل يعرفه الجميع بلقبه شودانتشو، ولكن أحدًا لم ينتظر منه أن يقدر على منع القتال.

كان شودانتشو يسيطر على قطعة صغيرة من المدينة من مقرّه الذي علق عليه لافتة تعلن أنه "قومندان مقاطعة هاليموندا العسكرية". ولما كانت المشاجرة العنيفة قد وقعت في نطاقه، فقد تبرع بتولي أمرها وأبلغ الجيش بذلك. وفي واقع الأمر ما كان لفرقة مسلحة واحدة أن تفعل

الكثير، فحسبها الحفاظ على مظهر النظام أمام الواقفين. والحق أنه كان في سريرته يتمنى لو يموت الاثنان، فلم يكن من سبيل إلى أن يوجد ثلاثة مسؤولين في مدينة واحدة، وكان شودانتشو يرى نفسه جديرا بأن يكون الوحيد. ثم طال عليه الانتظار وهو ينتظر مع غيره لا يستطيع التكهن بالنتيجة.

تبيَّن أن عليهم الانتظار طوال أسبوع كامل قبل أن تنتهي المشاجرة. دامت سبعة أيام وسبع ليال بلا توقف، ثم قال شودانتشو لأحد جنوده "واضح أن إيدي الأحمق ميت ميت".

فأجابه الجندي في أسى "لا فرق بالنسبة لنا. هذه المدينة مليئة بقطّاع الطرق والبلطجية والعصابات وجنود الثورة وفلول الشيوعيين. ونحن عالقون هنا لتنظيف آثار شغبهم جميعًا، ولن يحدث يومًا أن نوقف هذا".

أطرق شودانتشو. وقال الجندي "الأمر أننا نستبدل المجنون بالأحمق"، وابتسم في مرارة وهمس "فلنرج ألا يدس أنفه في شؤون الجيش".

برغم أنه كان يسيطر منفردا على الوحدة العسكرية المحلية في أحد أركان هاليموندا، كان لشودانتشو احترامه البالغ في شتى أرجاء المدينة. حتى إن بعض قادته كانوا يقدمون له التحية الرسمية، إذ كان الجميع على علم بأنه الشخص الذي تزعم تمرد كتيبة في هاليموندا في أثناء الاحتلال الياباني، وأن أحدًا لم يفُقْه شجاعة خلال ذلك التمرد. كان أهل المدينة

على يقين أنه لو لم يعلن سوكارنو وهاتا[28] الاستقلال، لكان شودانتشو أعلنه بنفسه. كان الناس يحبونه حقا، وإن علموا أنه ليس بالجندي المثالي، إذ كانت وحدته متورطة في تهريب الأقمشة إلى أستراليا وضخ المركبات والأجهزة الإلكترونية في السوق السوداء، وكانت تلك التجارة رائجة في ذلك الوقت، وما كان من القادة من يريد القضاء على تجارة تدرّ على اللواءات كلّ تلك الأموال. فكان الانتباه لأمر مشاجرة هزيلة الشأن أقلّ ما يمكن أن يشغلهم.

منهكا أشد ما يكون الإنهاك، استسلم إيدي الأحمق في نهاية المطاف للموت، بعد إغراقه في مياه المحيط الضحلة. رمى خصمه جثته في البحر، فابتهجت سمكتا القرش صديقتا مامان جيندنج بتلك الوجبة غير المنتظرة ساعة العصر. رجع مامان جيندنج إلى الشاطئ ونظر في وجود جميع أهل هاليموندا، وقد بدا منتعشا كأن بوسعه أن يقاتل سبعة رجال آخرين بمثل حدته في مقاتلة الأحمق. "والآن" قال المجنون "السلطة كلها لي. وما لأحد غيري الآن أن ينام مع ديوي آيو".

في دهشة من أمر مامان جيندنج، تحرّكت ديوي آيو بحذر فبعثت مرسالا يدعو البلطجي الجديد لزيارتها. وفي أدب قبل مامان جيندنج الدعوة ووعد بالمجيء بأسرع ما يستطيع.

---

28 محمد هاتا (١٩٠٢-١٩٨٠) أول نائب لرئيس إندونيسيا سوكارنو بعد الاستقلال، ولقّب بالمعلن «أي معلن الاستقلال»

كانت بحق أفضل عاهرات المدينة، وامرأة شديدة الجمال، في الخامسة والثلاثين من العمر، تدعك جسمها صباح كل يوم بصابون الكبريت، وتنغطس مرة في الشهر في ماء ساخن مطيَّب بالأعشاب. فكان جمالها يضاهي جمال مؤسِّسَة المدينة، ولم يكن من سبب لعدم نشوب حرب عليها إلا أنها كانت عاهرة، فكان بوسع أي راغب أن ينام معها ما امتلك المال اللازم، وجاء احتكار مامان جيندنج المعلن فلزمت مناقشته.

لم تكن تظهر في العلن تقريبًا، لكن الأعين كانت تقع عليها بين الحين والآخر في عربة صغيرة عند الغروب ماضية في طريقها إلى ماما كالونج، أو راجعة إلى بيتها في الصباح. وفي ما خلا ذلك، قد ترى وهي تصطحب بناتها إلى السينما، أو المعرض، أو وهي تأخذهن إلى المدرسة. وفي بعض الأحيان كانت تذهب إلى السوق، لكن ذلك كان أمرًا في غاية الندرة. وما كان لغريب على المدينة أن يتصورها عاهرة، فقد كانت أكثر احتشاما في ملبسها من أي امرأة أخرى، وأعف سلوكا من عذارى القصور، وفي إحدى يديها سلة التسوق وفي الأخرى مظلتها. حتى في الماخور نفسه كانت ترتدي فستانا ثقيلا يغطيها تمامًا، وتفضل الجلوس وهي تتصفح أدلة السفر في ركن من الخان. ولم تغرِ الرجال قط في العلن، فلم يكن ذلك أسلوبها.

كان بيت أسرتها القديم يقع في القسم الاستعماري من المدينة، أسفل جبل صغير يواجه البحر، وراء ما بقي من مزارع الكاكاو وجوز الهند. وكانت قد استردته بدافع من الحنين إلى الماضي، ثم صار ذلك

الحنين يقتلها. كان مجمع سكني قد بدأ يقام على ضفة نهر رينجانيس فحجزت منزلا فيه راجية أن تنتقل لسكناه في السنة التالية.

في عصر ذلك اليوم جاء البلطجي، ولم يكن قد مضى وقت يذكر على استيقاظ سيدة الدار واغتسالها، فاستقبلته فتاة صغيرة، في نحو الحادية عشرة من عمرها. قالت له إنها مايا ديوي وإن على ماما جيندنج أن ينتظر في الغرفة الأمامية إلى أن تنتهي أمها من تجفيف شعرها. بدت الصغيرة في مثل جمال أمها، كان ذلك واضحا وضوح الشمس، جاءته بكأس من الليمونادة المثلجة، فلما أخرج البلطجي سيجارة سارعت الصغيرة تأتيه بمطفأة وضعتها أمامه على المنضدة. حكم ماما جيندنج أن انتظام البيت وجمال منظره لا بد أن يكون ثمرة عمل الفتاة. وكان قد سمع من ماما كالونج أن لديوي آيو ثلاث بنات، فثار فضوله إلى أن يرى مدى جمال أختي الفتاة. ولكن بدا أن ألامندا وأديندا ليستا في البيت.

ظهرت ديوي آيو محلولة الشعر ساطعة في نور شمس العصر. طلبت من ابنتها الخروج، وأيقظت هرة كانت نائمة على كرسيها، ثم جلست. كان في جميع حركاتها تراخ، وحسن، ورهافة. اضطجعت ووضعت ساقا على ساق مرتدية فستانا طويلًا ذا جيوب كبيرة على الجنبين وشريط معقود حول عنقها. تنسَّم ماما جيندنج عبق الخزامى الرهيف وزيت الصبار في شعرها، وبرغم أنه كان قد نام معها من قبل، ورآها في عريها، كان لا يزال مشدوها أمام جمالها القاتل. كانت يدها النحيلة بيضاء كاللبن إذ تمتد إلى علبة سجائر في أحد جيوبها، ثم انضمت إليه في

التدخين. ولوهلة لم يقو مامان جيندنج على أكثر من الغمغمة، عاجزا عن أن يرفع عينيه عن قدميها وخُفِّها المخملي الأخضر الداكن إذ يهتز ببطء إلى الأمام وإلى الخلف.

قالت ديوي آيو "شكرا على مجيئك. وأهلا بك في بيتي".

كان البلطجي يعرف سرَّ دعوته، أو كان يخمِّنه على الأقل. كان يعلم أنه لا يملك ما يبرِّر به ما أعلنه، لكنه كان قد وقع في غرام المرأة. ونسي بها أخيرًا كل ألمه، نسي ناسيه، ونسي الأميرة رينجانيس، وانتشى بتلك العاهرة الخارقة. لم يكن يريد أن يلقى أذى جديدا، فإن لم يكن بوسعه أن يتزوجها، فليس أقل من أن يكون الرجل الوحيد الذي ينام معها.

كان هدوء العاهرة غريبا ولا شك، وكان مرده قطعا إلى ما لديها من ذكاء حاد. أخذت تنفث الدخان بدقة، وتتبعه في طفوه بعينيها كأنما هي مفكرة مستغرقة في أمر ما. فاحت رائحة سيجارتها المستوردة منعشة وخفيفة. وكانت قد أتت وفي يدها كأس ليمونادة، فلما انتهت من سيجارتها ارتشفت منه وأشارت للبلطجي أن يشرب من كأسه الموضوع أمامه، ففعل ذلك في خرق. وفي مسجد بعيد دقَّ طفل على طبلة، فلا بد أن الساعة كانت الثالثة عصرا أو نحو ذلك.

قالت العاهرة "أمر محزن أن تكون تقريبًا الرجل الثاني والثلاثين الذي يحاول امتلاكي".

لم يندهش البلطجي من ذلك، فقد كان يعرف بالفعل ما سوف تقوله. قال "إما أنني سوف أتزوجك، وإما سأدفع لك كل يوم لكي لا تخدمي أحدًا غيري".

قالت وهي تضحك ضحكة صغيرة "المشكلة أنني لا أستطيع أن أمارس الجنس كل يوم، وهكذا سأتلقى مالًا بلا مقابل، ولكن الأمر يروق لي، لأنني على الأقل سأعرف من يكون الأب إذا ما حملت".

"موافقة إذن على أن تكوني عاهرتي الخاصة لما بقي من حياتك؟"

هزَّت ديوي آيو رأسها. "ليس لذلك الوقت كله. لكن ماداميسمح لك قضيبك ومالك بذلك".

"إذا لم تشعري بالرضا، أستطيع أن أستعمل إصبعي أو حافر بقرة بدلًا من قضيبي".

قالت ديوي آيو وهي تقهقه "أنا متأكدة أن إصبعك يكفي ما دمت تعرف كيف تستعمله"، وصمتت برهة ثم غمغمت "هذه إذن نهاية عملي كعاهرة عامة".

قالتها بما يشبه الحنين. على مدار السنين عرفت من الحزن الكثير، ولكنها عرفت أوقاتا طيبة أيضًا. قالت "الحقيقة أن كل امرأة عاهرة، فحتى الزوجة الصالحة تبيع نفسها بمهر ومصروف بيت... أو بحب، إن كان للحب وجود. لا أقول إنني لا أؤمن بالحب، بل العكس تمامًا في الحقيقة هو الصحيح، فأنا أفعل كل ما أفعل بأقصى درجة من الحب.

لقد ولدت لأسرة هولندية ونشأت كاثوليكية إلى أن تلوت الشهادة وأصبحت مسلمة يوم عرسي. تزوجت في يوم من الأيام وكنت متدينة. ولا يعني فقداني كل ذلك أنني فقدت الحب أيضًا. أشعر بأنني أصبحت متصوفة أو قديسة. ولكي تكون امرأة عاهرة فعليها أن تحب كل الناس، وكل شيء، كله كله: القضبان، والأصابع، وحوافر البقر".

قال البلطجي "لم آخذ من الحب إلا الألم القاتل".

قالت ديوي آيو "عموما، أنت حر أن تحبني، ما دمت لن تنتظر الكثير في المقابل، فلا علاقة للحب بانتظار المقابل".

"لكن كيف أحب من لا تحبني في المقابل".

"ستتعلم ذلك أيها الرجل الشديد".

وتصديقا على اتفاقهما مدَّت ديوي آيو يدها فقبَّل ماماN جيندنج أناملها. وابتهج الاثنان بالاتفاق، وبرغم أنهما لم يعيشا في بيت واحد، بدت عليهما أكثر فأكثر علائم حديثي الزواج. ولما التقى مامان جيندنج بابنتي العاهرة الأخريين اللتين ورثتا جمال أمهما الأمثل، كانت ألامندا في السادسة عشرة وأديندا في الرابعة عشرة. قال "سأقتل كل من يمسُّ شعرة من هؤلاءالبنات".

وصار الناس يرونهم في الخارج كأنهم أسرة، يذهبون معًا إلى السينما، ويقضون أيام الأحد على الشاطئ يصطادون أو يسبحون. وفي بقية الوقت كان البلطجي يقابل ديوي آيو في الليل في جناحها الخلفي

بماخور ماما كالونج، فلما كان الصباح يحل لم تكن تسارع كدأبها بالرجوع إلى البيت، بل تبقى معه مسترخيين في بستان البرتقال يثرثران.

وذات ليلة، بعد أسابيع من وصول ماما جيندنج، لم يزر ماخور ماما كالونج. ولم يجرؤ أحد على أن يمس ديوي آيو، فقضت الوقت تقرأ في أدلة السفر، ودخل رجل آخر بصحبة حرسه: شودانتشو.

تلك كانت زيارته الأولى إلى الماخور. ابتهجت بذلك ماما كالونج أشد البهجة وسارعت تستقبله بنفسها، مهيأة لأن تقدم له أي شيء يشاء. ولم يكن شودانتشو يرغب في أقل من أجمل عاهرة في المكان. التفت إلى ديوي آيو وبلا تردد أشار إليها. سرت في الناظرين رعشة، ولم يجرؤ أحد منهم على أن يقول شيئًا، أما ديوي آيو فرفضت بهزة من رأسها. تلك كانت أول مرة ترفض فيها ديوي آيو زبونا، ولكن شودانتشو لم يكن بالرجل الذي يقبل الهزيمة بهزة رأس. ملوحا بمسدسه مضى باتجاه العاهرة وأمرها أن ترمي الكتاب الذي تحمله وتمضي معه إلى السرير. وللمرة الأولى على الإطلاق، مضت مرغمة إلى غرفتها على قدميها غير مدللة ولا محمولة، فملأ ذلك نفسها مقتا. وتبعها شودانتشو إلى الجناح بينما جلس حرسه في الخان.

"لوَّحت بمسدسك كالجبناء".

قال شودانتشو "عادة سيئة، أرجو أن تغفريها لي يا سيدتي. الحقيقة أنني أريد أن أسأل، هل لي أن أتزوج كبرى بناتك، ألامندا؟"

شخرت ديوي آيو في احتقار. ونبَّهته أولا أن معاملته الفظة بلا شك لم تدعم فرصه، ثم قالت في تعقل إن "ألامندا هي المسؤولة عن عقلها وعن جسمها، فلماذا لا تذهب إليها وتسألها إن كانت تريد الزواج بك أم لا". وخطر لها أن هذا الجندي الهزيل بائس أشد البؤس إذ يتقدم للزواج بهذه الطريقة.

"كل من في المدينة يعلم أنها أحبطت رجالا كثيرين، وأخشى أن ألقى منها مثل ما لقوا".

كانت ديوي آيو تعلم أن شبابا وشيوخا مجانين بألامندا. وكلهم حاول الظفر بحبها فلم يظفر أيٌّ منهم بشيء لأن ألامندا، كما عرفت أمها، كانت مغرمة بحب رجل واحد، رحل وكانت في انتظار عودته.

قالت ديوي آيو "عليك أن تسأل ألامندا، وإن تبيَّن أنها تريد الزواج بك، فسأقيم لكما حفلًا خرافيًا، وإن تبيَّن أنها لا تريد، أقترح عليك أن تنتحر".

نعبت بومة في بستان البرتقال، وحطت على الأرض تختطف سنجابا. حاولت ديوي آيو أن تضيِّع الوقت على أمل أن يأتي رجلها في النهاية فيسوِّي الرجلان المسألة بينهما.

دنا منها شودانتشو وتحسس ذقنها الناعمة كالشمع وسأل "وماذا تقترحين أن أفعل الآن يا سيدتي؟"

نصحته ديوي آيو "ابحث عن فتاة أخرى". في هذه المدينة فتيات جميلَات كثيرَات، كلهن من نسل الأميرة رينجانيس ذات الجمال الذائع. ولكنه لم يرحل، ودفع ديوي آيو بعنف إلى السرير نازعا عنها ثيابها. ونكح المومس في عجلة فلما ارتخى قضيبه استراح لوهلة ثم غادر بدون أن يقول كلمة.

وبقيت ديوي آيو في السرير لا تصدق ما جرى للتو. لم يكن الأمر فقط أن رجلا نام معها بعد أن حرَّم ماما جيندنج ذلك على الجميع، بل إنها المرة الأولى التي ينال منها رجل بهذه الوقاحة. لقد كان رجال هاليموندا يعاملونها بأرق مما يعاملون زوجاتهم. نظرت إلى فستانها الذي انقطع منه زرَّان إثر فتحه عنوة، ودعت أن يصعق البرق شودانتشو، واستعر غضبها وهي تتذكر كيف نام معها كأنها قطعة لحم، كأنه كان يضاجع عين المرحاض لدقائق عابرة، وكأنما لم تكن المدينة كلها ترهبها. كان الأمر كله كافيا لأن تسب وتبكي وتسارع راجعة إلى البيت.

علم ماما جيندنج بما جرى بمجرد طلوع النهار التالي. لم يكن يعرف شودانتشو لكنه كان يعرف أين يعثر عليه. انطلق من محطة الأتوبيس التي كان يعيش فيها إلى مقر وحدة هاليموندا العسكرية، وعند البوابة، ومن داخل "قفص القرد" أوقفه الحارس المناوب. قال ماما جيندنج إنه يريد أن يقابل شودانتشو. لم يكن لدى الجندي سلاح حقيقي، بل مجرد خنجر وهراوة، وكان يعرف أنه ليس بوسعه مقاتلة الرجل بأي حال، فحيَّاه وأشار إلى باب فمضى باتجاهه ماما جيندنج.

بنطلون من الجينز وتيشيرت قصير الكُمَّين يظهر وشم التنين الباقي على عضلات زنده الأيمن منذ أيام مشاركته في حرب العصابات، اقتحم مامان جيندنج مكتب شودانتشو بدون أن يطرق بابه. كان القومندان منهمكا في اتصال لاسلكي مع القيادة المركزية، فرفع رأسه في دهشة. ولما عرف فيه مقاتل الشاطئ، ورآه واقفا أمامه معتدا بنفسه، أنهى الحوار بسرعة ووقف يكظم غضبه فيومض برغم ذلك في نظرته. وقبل أن يقول شودانتشو كلمة كان مامان جيندنج يقول "اسمع، ليس لأحد غيري أن ينام مع ديوي آيو، وإذا تجاسرت ورجعت إلى سريرها، فلن ترى مني رحمة".

لم يستوعب شودانتشو أن يهدّده أحد بهذه الطريقة، وفي مكتبه. سأله إن كان يعلم أنه قد يشنق، أن الدولة قد تعدمه، بكلمة من شودانتشو. ثم إنه كان يعلم أن ديوي آيو عاهرة، فلو أن المشكلة أنه نام معها بدون أن يدفع فبوسعه أن يدفع لها أكثر مما دفعه أي رجل من قبل. وبغضب من السلوك المتعالي الذي يبديه البلطجي الواقف أمامه، استلّ شودانتشو مسدسه المعلق إلى خصره، وحرك زرَّ الأمان وصوبه إلى الرجل كأنما يقول له أنا لا أخشى تهديداتك، وخير لك أن تخرج على قدميك وإلا ضربتك بالنار.

قال البلطجي "تمام، واضح أنك لا تعلم من أنا".

لم يكن شودانتشو يعتزم أن يطلق الرصاص فعلًا، بل أراد فقط أن يرهب الرجل. فلما رأى أن مامان جيندنج يلوِّح بخنجر، لم يبق أمامه

خيار إلا أن يضغط على الزناد. وبينما انطلقت الرصاصة، رأى مامان جيندنج يترنَّح، لكنه أدرك لاحقا أن الرصاصة لم تصبه بأي جرح. كانت الرصاصة ترقص على الأرض.

كان شودانتشو على يقين أنه لم يخطئ الهدف، وازداد روعه حينما رأى مامان جيندنج يبتسم له.

"اسمع يا شودانتشو. أنا لم أستلّ خنجري لأهاجمك، بل لأبين لك أنني لست خائفًا منك. أنا لا أقهر. رصاصك لا يمكنه إيذائي، ولا حتى هذا النصل" وغرس مامان جيندنج نصل خنجره في بطنه بكل قوته. انكسر النصل ووقعت ذؤابته على الأرض لم تترك في جلده خدشا. تناول الرصاصة والذؤابة من الأرض وفرد راحته يريهما لشودانتشو.

كان شودانتشو واقفا في سكون تمثال ومسدسه مدلى من يده الضعيفة ووجهه في لون الرماد الباهت، لقد سبق أن سمع عن أمثال هذا الرجل، ولكن تلك كانت المرة الأولى التي يرى فيها مثله بعينيه.

قال مامان جيندنج قبل أن يغادر "للمرة الأخيرة يا شودانتشو، لا تلمس ديوي آيو. وإن فعلت فسوف أجعل العالي في هذا المكان سافله، ثم سأقتلك".

٦

مدفونا في رمل ساخن لا ينتأ منه إلا رأسه، استغرق شودانتشو في التأمل، حينما دنا منه أحد رجاله.

لم يكن الجندي تينو صديق ليجرؤ على إزعاجه، بل إنه في الحقيقة لم يكن يعرف إن كان بوسعه إزعاجه. فبرغم أن عيني شودانتشو كانتا مفتوحتين كعيني رأس منحور، كانت روحه تهيم في عالم من النور، أو هكذا دأب شودانتشو على وصف تجارب نشوته. كان دأبه أن يقول "إن التأمل ينجيني من النظر إلى هذا العالم المنتن" ثم يقول "أو من النظر على الأقل إلى وجهك القبيح".

بعد وهلة جفلت عينه وبدأ جسمه يتحرك، فعلم تينو صديق أن تلك نهاية تأمله. قام شودانتشو من الرمل بحركة واحدة، ناثرًا حباته عنه قبل أن يجلس بجوار الجندي كأنه طائر يحط. كان جسمه العاري هزيلًا بسبب صرامته في اتباع صيام داود، يصوم يومًا ويفطر يومًا، برغم معرفة الجميع أنه ليس بالشخص المتدين.

قال تينو صديق وهو يمد يده بزيه الرسمي الأخضر الداكن "ها هي ثيابك".

قال شودانتشو وهو يرتدي ثيابه "لك في كل زي دور مهرج جديد، أنا الآن شودانتشو الصياد العظيم".

كان تينو صديق يعلم أن شودانتشو لا يحب ذلك الدور، ومع ذلك وافق أن يلعبه. قبل بضعة أيام كانوا قد تلقوا أمرًا مباشرا من الرائد سَدْرَه قومندان مدينة هاليموندا العسكري بالخروج من الأدغال ومساعدة الناس في إبادة الخنازير. وكان شودانتشو يكره أن يتلقى الأوامر من ذلك الأبله سدره حسب ما كان يقول عنه. ولكن تلك الرسالة كانت عامرة بالاحترام والثناء، قال فيها سدره إن شودانتشو هو الوحيد الذي يعرف هاليموندا معرفته بظاهر يده، ولذلك هو الوحيد الذي يثق الناس أنه سيساعدهم في صيد الخنازير.

قال شودانتشو "هذا ما يحدث حين يعدم العالم حربا، يختزل الجنود إلى صيادي خنازير"، وقال "وسدره غبي، لا يعرف مؤخرته من قضيبه".

كان شودانتشو يقيم في الأدغال التي هربت إليها الأميرة رينجانيس قبل سنين كثيرة، وكانت تلك الأدغال لسانا عظيماً من الأرض على شكل أذن فيل تحيط به شواطئ عامرة بالسلاحف البحرية ووهاد منحدرة وقليل من الشطوط الرملية فهي منطقة آمنة تقريبًا من فساد البشر، إذ اعتبرت منذ الحقبة الاستعمارية محمية طبيعية، للفهود وكلاب الأياك. هنالك كان يعيش شودانتشو منذأكثر من عشر سنوات، مقيما في كوخ صغير كالذي أقامه في أثناء حرب العصابات،

وتحت إمرته اثنان وثلاثون جنديًا، وبين الحين والآخر يأتي من المدنيين من يساعدهم، فيتناوب الجميع على الذهاب في شاحنة إلى المدينة لقضاء حوائجهم، إلا شودانتشو. فلم يكن طوال تلك السنوات العشر قد قام برحلة أطول من رحلته إلى الكهوف القريبة حيث يجلس للتأمل ثم يرجع إلى الكوخ فلا يغادره إلا لصيد السمك وطبخ الطعام للجنود ومراعاة كلب الأياك الذي استأنسه. حتى جاءت رسالة سدره لتعكر صفو تلك الحياة. لم يكن في الأدغال خنازير، فتلك الحيوانات كانت تعيش في تلال تقع إلى الشمال من هاليموندا، لذلك كان لزاما عليه أن ينزل إلى المدينة. وكانت طاعة ذلك الأمر لا تعني له إلا خيانة عزلته.

قال "يا للبلدة المزرية التي لا يجيد جنودها حتى صيد الخنازير".

إحدى عشرة سنة مضت على آخر مرة زار فيها المدينة. كانت الأوامر قد صدرت بتسريح قوات الكينيل فذهب إلى المدينة ليشرف على رحيلهم. قال أيامها في خيبة "سايونارا «وداعا»، ما أشبهني بصياد سمك ينتظر صيده في صبر، فلا ينال إلا سلة شخص غيره مليئة بالسمك"، وعاد إلى الأدغال بصحبة جنوده المخلصين الاثنين والثلاثين، وبدؤوا منذ ذلك الحين واجباتهم المملة التي استمرت لأكثر من عشر سنين. ولكي يشغلوا أنفسهم، كانوا يقومون على حراسة بعض شاحنات التهريب التابعة لتاجر التقى به شودانتشو وهما يقاتلان اليابانيين معًا. ولو أنه شخصيا لم يشرف على أي شيء قط إذ كان جنوده الاثنان والثلاثون يتولون أمر كل شيء. أما هو فكانت عادته أن يستكشف الأدغال بحثا عن كهوف صالحة للتأمل، أو يصطاد سمك

البيغاء، أو يمارس تمريناته القتالية. كان بوسعه أن يختفي بغتة، بقوة تقنية حربية ابتكرها بنفسه، ثم يظهر بغتة مثلما اختفى.

كان قد ابتكر تلك التقنية قديمًا حين كان لا يزال شودانتشو الحقيقي في تمرد كتيبة هاليموندا، وفي ذلك الوقت كان جيش اليابان السادس عشر لا يزال يحتل جزيرة جاوة. كان في العشرين من العمر حينما برقت في ذهنه بغتة فكرة لامعة: التمرد. كان أول شخص دعاه للانضمام إليه هو سدره، وكان هو الآخر يحتل رتبة شودانتشو في الكتيبة، كما كان صديقًا له منذ الطفولة. كانا قد بدآ حياتهما العسكرية في وقت واحد في كتيبة الشباب التي شكّلها اليابانيون. ذهبا معًا إلى مدينة بوجور في غربي جاوة لنيل تدريبهما العسكري إثر تأسيس كتيبة الشباب، وتخرج كل منهما برتبة شودانتشو قبل رجوعهما إلى هاليموندا، ليقود كل منهما الفصيلة الخاصة به. وها هو إذ دعا صديقه أن يتمرد معه أيضًا.

قال سدره "أنت تطلب الموت".

فأجابه ضاحكا "صح. اليابانيون جاؤوا من بعيدٍ بعيد لمجرد أن يدفنوني، ستكون هذه قصة عظيمة لأبنائي وأحفادي".

كان أصغر شودانتشو في هاليموندا، وأهزلهم جسما. ولكنه الوحيد الذي أطلق عليه اسم شودانتشو، ولما وضعت أخيرًا خطط التمرد، كان هو من قاد الحركة بنفسه. كان هناك ثمانية يحملون رتبة الشودانتشو، وكلٌّ منهم على رأس فصيلة، أعربوا عن رغبتهم في

الانضمام، وأصبح اثنان من الشودانتشو مستشارين للعصابة. اكتشف قائد الكتيبة الخطة، لكنه آثر البقاء بعيدا غاسلا يديه من الأمر كله، وقال "لست حفار قبور، ولست بالذات حفارا لقبري".

قال شودانتشو "حسن يا أيها القائد، أنا سأحفر لك قبرك"، ثم صرفه من الاجتماع السري. وما كاد يخرج حتى قال شودانتشو للحاضرين "إنه يفضل التعفن حتى الموت وراء مكتب".

وفرد خريطة ساذجة لهاليموندا، واضعا في المواقع اليابانية رمزا لقوات كوراوا وجاعلا له ولقواته رمز بانداوا[٢٩]، مذكّرا رجاله بأنه "ما من بيشما إلا ويموت وما من يوديستيرا إلا ويرقد، فالجميع يموتون، والجميع عليهم أن يقاتلوا من أجل البقاء، ولو من وضع الرقود"[٣٠]. في طفولته كان جده يسليه بحكايات المقاتلين في المهابهاراتا، فعاش وفي قلبه ذلك الولع الفادح بالحرب حتى كان الناس يقولون إنه "كان ينبغي أن يكون قومندان الجيش السادس عشر".

وكان أن استمرت تلك الاجتماعات السرية ستة أشهر قبل أن يجدوا في أنفسهم الثقة الكافية لبدء التمرد. أحصوا سلاحهم وذخيرتهم، وراجعوا خطتهم للهرب في حالة الفشل، وحدّدوا أهدافهم في حال الاستيلاء على هاليموندا. وبعث الرسل لإحضار الدعم اللازم من

---

29 كوراوا قوات من نسل الملك الأسطوري كورو و بانداوا هم أبناء الملك باندا الخمسة المعترف بهم، في المهابهاراتا

30 بيشما Bhisma مقاتل في المهابهاراتا أوتي حياة مديدة تمناها، و يوديستيراYudistiral من شخصيات المهابهاراتا أيضًا

الكتيبة الأخرى. وفي مطلع فبراير كان كل شيء جاهزا: سيتم تنفيذ التمرد في الرابع عشر منه.

قال شودانتشو لجده وهو يودعه "قد لا أرجع، أو لعلي أرجع إلى البيت جثة هامدة".

مع اقتراب يوم التمرد، جهَّز مسدسه وذخيرته، وتأكد من توزيع الأدوية في حقائب النجاة مع الجميع، تحسبا لاضطرارهم للهرب. اتصل بتاجر يدعى بيندو كان يساعده من قبل في تهريب الصاج، ليجهز إمدادات الطعام للمحاربين. والتقى مباشرة بالحاكم والعمدة ورئيس الشرطة فأخطرهم بأن الرابع عشر من فبراير سوف يشهد "مناورة حربية شاملة" وأن جميع جنود كتيبة الشباب في هاليموندا مشاركون فيه، فلا ينبغي أن يزعجهم أحد، وكانت تلك شفرته للتمرد. كان يتحسب لأي خيانة محتملة.

وفي الثانية والنصف من نهار يوم التمرد قال "اليوم يوم عمل شاق لحفاري القبور".

وبدأ التمرد بفتح النار على مقر الكيمبيتاي[٣١] في فندق ساكورا. تم إعدام ثلاثين رجلا في ملعب كرة القدم: واحد وعشرين جنديًا وموظفا من اليابانيين، وخمسة من المخلّطين الإندونيسيين الهولنديين وأربعة متواطئين صينيين، وسحبت جثثهم جميعًا إلى المقبرة فألقي بها جميعًا بلا مراسم أمام بيت حفار القبور.

---

31 جهاز المخابرات الحربية اليابانية في الفترة من ١٩٣١ إلى ١٩٤٥

لم يدعم الشعب شيئًا من ذلك كله. أغلق الناس على أنفسهم أبواب بيوتهم، موقنين أن ما يجري لا يعدو بداية إرهاب أسوأ، فمن المؤكد أن قوات الدعم اليابانية سوف تأتي من المدينة فلا ينجو منها أحد. غير أن المتمردين كانوا يتحركون في جذل فينزلون علم اليابان، ويرفعون بدلًا منه علمهم. أحاطوا المدينة بالشاحنات، وهم يهتفون بشعارات الحرية والاستقلال، وينشدون أغنيات النضال. ولما غربت الشمس اختفوا كأنما ابتلعهم الليل. كانوا يعلمون أن خبر التمرد سوف يصل إلى اليابانيين، بل لعله وصل إلى جاوة كلها، وأن الصباح لن يطلع إلا وقد وصلت قوات الدعم.

قال شودانتشو "بعد كل هذا الذي جرى، لا بد أن نترك هاليموندا إلى أن تهزم اليابان". فصاروا بذلك عصابة محاربين حقيقية.

قسَّموا قوات الثوار إلى ثلاث مجموعات وانفصلوا. انتقلت المجموعة الأولى بقيادة شودانتشو باجونج إلى المنطقة الغربية لمواجهة اليابانيين عند دخولهم هاليموندا من ذلك الاتجاه. وتوغلت في الخرائب المحيطة بالمقاطعة، وهي الخرائب المليئة باللصوص. والمجموعة الثانية بقيادة شودانتشو سدره انتقلت إلى الأدغال الكثيفة في التلال الشمالية. والمجموعة الأخيرة تحركت شرقا، فاستولت على دلتا النهر، وكانت تلك بقيادة شودانتشو، وأعدت نفسها لمعركة في المستنقعات ولهجمات الملاريا والدسنتاريا. وإلى الجنوب كانت الطبيعة تحابيهم على هيئة بحار الجنوب الضارية. تحركوا جميعًا قبل منتصف الليل بمجرد أن بدأت كلاب الأياك في العواء من البعيد.

وكذلك كانت البداية. في إثارة وفي خوف. بدأ جنديان يصيحان منادين على أمّيهما، فلما هدَّدهما القائد بإرجاعهما إلى بيتيهما تجددت في نفسيهما الشجاعة وأقسما أن ينتصرا في كل معركة أو يموتا وهما يحاولان. تحركت القوات إلى مواقعها المحددة، حاملين البنادق قصيرة الفوّهات وبنادق الصيد التي سرقوها من الكينيل ومدفعًا صغيرًا من عيار ثمانية ميلليمتر سرقوه من الكتيبة. لم يكن يحمل البنادق إلا قائد الفصيلة وقائد السرية، أما الجندون فكانوا يحملون الحراب أو الرماح حادة السنان المصنوعة من البامبو. مضت الجماعة وفي مقدمتها مستكشفان بينما يؤمّن المؤخرة اثنان آخران. وكانوا يعتزمون، بما توافر لديهم من أسلحة مهما تكن، أن ينتصروا في معركة ضد أشرس القوات في آسيا وأكثرها حظوة بالإعجاب، القوات التي غلبت روسيا والصين وطردت الفرنسيين والبريطانيين والهولنديين من مستعمراتهم، ثم كانت في ذلك الوقت تخوض حربًا مع نصف العالم، بل هي القوات التي علَّمتهم أنفسهم كيف تكون المسكة الصحيحة للسلاح.

قال شودانتشو يبثّ الحماسة في نفوس رجاله "إن البطل ينتصر دائمًا، ولكن النصر دائمًا يستغرق بعض الوقت".

في اليوم الأول من حرب العصابات، هاجمت جماعة شودانتشو شاحنة في طريقها إلى الدلتا التي كان يقع فيها سجن بلادن كامب. فُجِّرَت قذيفة أسفل شاحنة فانفجر خزان الوقود مما أسفر عن مصرع جميع الجنود اليابانيين داخلها. وكتب مراسل بعد ذلك يقول إن القوات الغربية اشتبكت في قتال مفتوح مع الجنود اليابانيين عند أطراف

الأدغال، وبعد معركة ضارية تمكن باجونج ورجاله من الهرب بعيدا حتى بدا أن القوات اليابانية لن تلحق بهم. هاجمت الجماعة الشمالية اليابانيين على طول الطريق الرئيسي لكنها تعرضت لكمين من كتيبة كبيرة. وتلقت أمرًا بالرجوع، فرجع شودانتشو سدره وجميع رجاله إلى المدينة مستسلمين.

قال شودانتشو "حتى الحمار يتذكر أن ينسى طريق الرجوع إلى البيت. لكنه أغبى من جحش".

في اليوم الثاني اعترضت طريقهم قوات يابانية فقامت بينهم مناوشات بطول ضفة النهر. استطاعوا أن يقتلوا اثنين من الجنود اليابانيين، لكنهم دفعوا ثمنا باهظا، خمسة من الجنود الثوار أزهقت أرواحهم، ثم حوصروا. وفي محاولة لإنقاذ أنفسهم، قفزوا إلى النهر وصاروا أهدافا سهلة لنيران العدو. وفي عملية إنقاذ مات آخر منهم، وهرب شودانتشو وعدد من رجاله.

وسرعان ما غيّر طريقه وخططه. فقرر الرجوع، بدون استسلام، وذلك كان أعظم تكتيك سمع به رجاله. كانت في جنوب المدينة غابة محمية، فساروا في دائرة عبر مستنقعات شجر المنجروف قبل أن يتسلقوا الصدوع من شاطئ مليء بالمحار داخلين إلى الأدغال. وانخدع الجنود اليابانيون وقوات ميلشيا البيتا الذين يطاردونهم، فظنوا أنهم سوف يواصلون الطريق باتجاه الشرق لاستطلاع ثوارالكتيبة الأخرى، حسب خطتهم الأصلية. لكن شودانتشو حسبها بسرعة وانتهى إلى أن التمرد قد

فشل. عثر عليهم اليابانيون، ولم تساعدهم الكتيبة الأخرى، فكانت الخطة المثلى هي الهروب إلى الغابة الأقرب إلى المدينة، ومن هناك يتأهبون لحرب عصابات حقيقية.

اختفوا لأيام في كهف، فكان بوسع صيادي السمك أن يروهم من مراكبهم وهم في المحيط. وبعثوا مستكشفا ليحدد وضع المجموعة الغربية، ووضع المدينة عموما. فرجع إليهم بأخبار سيئة: استولى اليابانيون وكتيبة الشباب على الغابة التي كانت تختبئ فيها المجموعة الغربية. وسمح للصوص وقطاع الطرق بالهرب، أما الثوار فوقعوا في الأسر. وبأسلحة لم يبق منها إلا حراب الغاب والرماح، لم تستسلم المجموعة، فكان على الجنود الستين المتبقين ومعهم شودانتشو باجونج أن يعدموا في الرابع والعشرين من فبراير في فناء الكتيبة.

نزل شودانتشو من الجبل متنكرا في شكل متشرد هزيل جربان مهلهل الثياب. ولم يكن التنكر صعبا على الإطلاق بعد عشرة أيام من حرب العصابات هام فيها فكان يصعب تمييزه عمليا عن أي متسول حقيقي. دخل المدينة بشعره المتكلس المترب فلم يعرفه فيها أحد. سار على الرصيف ممسكا علبة من الصفيح فيها حجر يحركه فيها برقة، إلى أن توقف أمام مقر الكتيبة جوار شجرة بوانسيانا على جانب الطريق، فشاهد بعينيه تنفيذ الإعدام. أطلق الرصاص على الجنود الستين واحدًا بعد واحد، وألقيت جثثهم في شاحنة أفرغت أمام بيت حفار القبور.

قال لجنوده وهم يرفعون الراية فوق معقلهم في الصباح حدادا "إياكم أن تتمنوا موتا عادلا يتذكركم به الناس. صدقوني، ليس من الناس كثيرون مستعدين أن يتذكروا أي شيء لا يعنيهم مباشرة".

وخطّط لعمل انتقامي شرس. فقاد ذات ليلة هجوما على موقع عسكري وسرق بعض الذخيرة قبل أن يقتل ستة جنود يابانيين ويرمي جثثهم في الشارع. وفجروا شاحنة ثم اختفوا قبل أن يصيح ديك الصباح. وفي اليوم التالي رأت المدينة جثث الجنود اليابانيين الستة مطروحة في الشارع فسادها الاضطراب، وتساءل الناس عمن يكون قد قام بهذا العمل. أما اليابانيون والكتيبة، ومن ضمنها سدره، فعلموا سريعا: شودانتشو لم يزل على قيد الحياة، وقد أعلن عن حرب لا تنتهي.

قابل اليابانيون في الكيمبيتاي ذلك بانتقام أعمى فسرعان ما فقدوا صوابهم. كان الجنود يقتحمون بيوت الناس بحثا عن شودانتشو ورجاله، ويسألون فلا يجدون لدى أحد جوابا. وفي اليوم الثالث لمصرع الجنود اليابانيين الستة سرق مستودع طعام وشاحنة وقتل الجنديان اليابانيان اللذان كانا يقومان على حراستهما. ثم عثر على الشاحنة غارقة في النهر ولم يعثر على الطعام. ومشّط اليابانيون ضفة النهر بدون أن يعثروا على شيء.

وبعد ليلتين جاء مبعوث إلى كوخ شودانتشو ونقل إليه خبر العصيان الذي استشرى إلى جميع من في جاوة تقريبًا. كان تمردهم قد

ألهم تمردات صغيرة أخرى في عدد من الكتائب، وبرغم أنها منيت جميعًا بالفشل، لكنها أثارت مخاوف عميقة لدى اليابانيين، بل لقد أشيع أن كتيبة الشباب سوف تسرَّح وينزَع سلاحها.

قال شودانتشو "هنا يكمن خطر اقتناء نمر جائع".

وبعد أربعة أيام فجَّروا جسرا كانت تعبره خمس شاحنات يابانية معبأة بالجنود. فانعزلت هاليموندا طوال شهور، وأمن محاربو العصابات في مخابئهم.

وذات صباح مشرق عصي على النسيان، كان شودانتشو قد انتهى من التغوط وسط شعاب مرجانية حينما رأى جثة رجل رماها اليم بالساحل. لم يكن على الجثة المتفخة بدرجة تهدد بأنها على وشك الانفجار غير مئزر يخفي عورتها. جذب شودانتشو ورجاله جثة الغريق إلى الشاطئ وفحصوها. كان في البطن منها جرح غائر.

قال شودانتشو "هذا جرح حربة. لقد قتله اليابانيون".

قال جندي "هذا متمرد من كتيبة أخرى".

"ولعله نام مع عشيقة الإمبراطور هيروهيتو[32]".

وبغتة صمت شودانتشو وهو يطالع وجه الجثة. كان واضحا أنه من أهل البلد، هزيل الوجه كأن لم يجد قط كفايته من الطعام، شأن أغلب أهل البلد، ويبدو زلقا بغير شارب أو لحية. لكن لم يكن ذلك ما

---

32 إمبراطور اليابان (١٩٢٦ـ١٩٨٩).

أثار اهتمامه، إنما الشكل الغريب لفم الرجل. وأخيرًا خلص إلى النتيجة "هذا الرجل كان يرضع شيئًا ما". وبمساعدة غير قليلة من جندي آخر، فصل بين فكي الجثة عنوة بأصابعه.

قال الجندي "لا يوجد شيء".

قال شودانتشو "لا" وأجال أصابعه في فم الجثة حتى خرج بقصاصة ورق أوشكت تقريبًا على الذوبان. "من أجل هذه قتل". ونشر الورقة على قطعة جافة من الشعاب المرجانية. بدت أشبه بمنشور مطبوع على آلة ناسخة. كانت المياه المالحة التي تسربت إلى فم الجثة قد أذابت الحبر تقريبًا، لكن شودانتشو استطاع أن يقرأها. وخفقت قلوب الجميع وهم يتوقعون نبأ مهما، فلا أحد يموت بسبب حمله منشورا قديمًا عديم المعنى. بأصابع ترتعش (لا من برد الهواء القارس ولا من الجوع)، أمسك شودانتشو الوريقة والدموع تنهمر على خديه. وقبل أن تسنح الفرصة ليسأله جنوده الحائرون عن أي شيء سألهم هو "ما تاريخ اليوم؟"

"الثالث والعشرون من سبتمبر".

"نحن إذن متأخرون لمدة شهر".

"عن أي شيء؟"

"عن الاحتفال"، ثم قرأ عليهم ما كان مكتوبا في ورقة الميت. "**إعلان: نعلن نحن شعب إندونيسيا استقلالنا... السابع عشر من أغسطس سنة ١٩٤٥. باسم الشعب الإندونيسي، سوكارنو وهاتًا**".

ساد الصمت لوهلة، ثم انفجروا في الهتاف والصياح، وجروا جميعًا إلا شودانتشو يرقصون أمام أكواخهم كأنهم ممسوسون ينشدون أغنيات النصر. وبدون أن يتلقوا الأمر، مضوا يجمعون أغراضهم ويحزمون أمتعتهم كأنما انتهى كل شيء. وتأهبوا للخروج من الغابة واقتحام المدينة لإبلاغها بالخبر البهيج، لكن شودانتشو سارع يوقفهم قبل أن ينتشر الجنون أكثر مما انتشر.

قال "علينا أن نعقد اجتماعا".

انصاعوا له وتجمعوا أمام كوخه.

قال شودانتشو "لا يزال في هاليموندا كثير من اليابانيين، ولا بد أنهم يعلمون بهذا، لكنهم رأوا أن يلزموا الصمت". وسرعان ما توصل إلى استراتيجية. كان على نصفهم أن يقوموا بغارة خاطفة على مكتب البريد، ويأخذوا رهائن إن لزم الأمر، ولن يكون في الأمر خطر كبير لأن كل عمال البريد من أهل البلد. في مكتب البريد آلة نسخ، عليهم أن يستعملوها في إرسال إعلان الرجل الميت إلى المدينة كلها بأسرع ما يستطيعون. قال في ثقة "استعينوا بساعي البريد". وعلى النصف الآخر أن يتسللوا إلى الكتيبة فيبلغوهم هناك بما جرى، وينزعوا سلاح اليابانيين، ويحشدوا الحشود، ويقيموا لقاء حاشدا في ملعب كرة القدم. وبعد ذلك الاجتماع الوجيز السريع، خرجوا من الأدغال.

مجرد وصولهم إلى المدينة بعث الجنون في نفوس الجميع، حتى قبل طباعة المنشور في مكتب البريد وتداوله بسرعة. استطاع شودانتشو أن يستولي على شاحنة ويطوف بالمدينة وهو يصيح أن "إندونيسيا أعلنت

استقلالها في السابع عشر من أغسطس، وتبعتها هاليموندا في الثالث والعشرين من سبتمبر". وقف الجميع على جوانب الطرق جامدين كأنهم استحالوا حجارة. أوشك حلاق أن ينتزع أذن زبونه، وفقد بائع صيني سيطرته على دراجته ومضى يتدحرج على الطريق هو وكعكه الساخن. نظروا جميعًا إلى الشاحنة المارة غير مصدقين، وتخاطفوا المنشور المتطاير يقرؤونه. وسادت البهجة، بدأ تلاميذ المدرسة الابتدائية يرقصون على قارعة الطريق، ثم انضم إليهم الكبار جميعًا.

خرج اليابانيون من مكاتبهم، ومن بينهم قومندان الجيش سيدوكان. لم يكن بيدهم ما يفعلونه حينما اكتشفوا ما حدث، فلم يظهروا مقاومة للجنود حينما خرجوا من الكتيبة ينزعون أسلحتهم. وبدون مراسم أنزل الثوار علم اليابان وهم يصيحون في وجه اليابانيين. "كلوا هذا العلم اللعين". ثم استبدلوا به علمهم الأحمر والأبيض في مراسم جليلة مرددين نشيد "الراية الإندونيسية" الوطني.

بدأ الناس يحتشدون في ملعب كرة القدم، نحالًا مهلهلي الثياب، ومع ذلك مشعين متوهجي الوجوه. لم يسبق لهم في حياتهم، أو حياة أجدادهم، أو حياة أجداد أجدادهم، أن عرفوا الاستقلال. وجاء ذلك اليوم فعرفوا بأنفسهم، وسمعوا بآذانهم أن إندونيسيا حرة، وكذلك هاليموندا بالطبع. قاد شودانتشو مراسم أخرى لرفع الراية، قرأ خلاله إعلان الاستقلال مرة أخرى بينما يجلس أهل المدينة القرفصاء على العشب وأفراد الجيش واقفون في ثبات، طوالا، راسخين. وابتداء من ذلك العام ولأعوام كثيرة قادمة، لم يعد يحيي ذكرى إعلان الاستقلال

في السابع عشر من أغسطس من كل عام غير تلاميذ المدارس والجيش. أما مراسم المواطنين الخاصة فلا تزال تقام في الثالث والعشرين من سبتمبر، وحتى هذه ينضم إليها التلاميذ والجيش. لم يكتفوا في ذلك اليوم بتحية العلم وقراءة نص الإعلان وهم يغنون نشيد راية إندونيسيا الوطني، بل بعثوا إلى بعضهم بعضا هدايا من سلال الطعام وأقاموا معرضا لها في الشارع. وإن سأل غريب، أو سأل مدرس تلاميذه متى نالت إندونيسيا استقلالها، يقولون "في الثالث والعشرين من سبتمبر". وكم حاولت الحكومة المركزية أن توضح الخلط وتبين سبب تأخر المعلومات سنة ١٩٤٥، لكن مواطني هاليموندا أقسموا بحياتهم ألا يحتفلوا بيوم الاستقلال إلا في الثالث والعشرين من سبتمبر. وبعد فترة لم يعد أحد يبالي بالأمر كثيرًا، أو قليلا.

ثار شغب عندما قامت جماعة من الشعب بسحب قائد الكتيبة وتبيَّن أنهم جاؤوا به لينفذوا فيه حكم الإعدام بناء على خياناته في أثناء التمرد. كانوا مستعدين لتعليقه في شجرة كاتابّا تقع عند ركن ملعب الكرة، لولا أن أوقفهم شودانتشو، وفك قيود قائد الكتيبة وأخذه إلى منتصف الملعب. كان يعلم بخيانة الرجل، ومن أجل ذلك وضع في يده مسدسا. وسمعه الجميع وهو يندفع وسطهم قائلا:

"كلنا تعلمنا على أيدي اليابانيين، لذلك تعلمون مثلما أعلم ما الذي ينبغي أن يفعله الخائن".

صوَّب قائد الكتيبة المسدس على رأسه وأنهى حياته. وبرغم ذلك أمر شودانتشو الجنود جميعًا بأن يكملوا مراسم التحية الأخيرة، فوضعت الجثة في علم ودفنت في أرض غير بعيدة عن مستشفى المدينة، فكانت أول مقبرة في مدافنهم العسكرية. لم يمت غيره في ذلك اليوم. تولى شودانتشو سلطة الكتيبة، وسرعان ما أرسل مبعوثين لجمع مزيد من المعلومات، وبالتعاون مع أهل المدينة بدأ إصلاح الجسر الذي سبق أن دمَّره بنفسه. رجع المبعوثون بعد يومين يقولون إن كتيبة الشباب قد حلت وإن جميع الكتائب تحولت إلى هيئة أمن الشعب.

وهكذا أقاموا هيئة أمن الشعب. لكن مبعوثا جاء بعد يومين من ذلك وقال إن هيئة أمن الشعب قد حلت وتحولت إلى جيش أمن الشعب.

قال شودانتشو في ضيق "لو غيَّروها مرة أخرى، فسوف تخوض هاليموندا حربا ضد إندونيسيا".

اتخذت الحكومة المركزية قرارات بتوزيع الرتب. متفوقا على القادة الآخرين حصل على رتبة العميد، وصديقه الغبي سدره رضي برتبة الرائد. ولكن شودانتشو لم يول مثل تلك الأمور أدنى اهتمام قائلا للجميع "إنني أفضل أن أبقى شودانتشو وحسب". وبعد أسابيع قليلة، جاء مبعوث حاملا طردا فيه رسالة موجهة إلى شودانتشو بدا أنها كتبت قبل شهور عديدة ولم تصله إلا الآن، من رئيس جمهورية إندونيسيا. وسرعان ما علم أهل المدينة جميعًا فحواها: لقد عيَّن الرئيس شودانتشو

قائدا أعلى لجيش أمن الشعب برتبة لواء، اعترافا ببطولته في قيادة تمرد الرابع عشر من فبراير.

وفيما كان أهل المدينة يحتفلون بتعيينه القائد الأعلى، اختفى شودانتشو في مخبئه القديم أيام حرب العصابات. قضى ذلك اليوم كله يصطاد السمك ويسبح في المحيط، متأملا في طفوه على سطح الماء كما لو كان جثة غارقة. لم يكن يرغب في التفكير في كابوس توليه منصب القومندان العام لجيش أمن الشعب. كان قبل رحيله قد قال للرائد سدره "أمر مؤسف أن يعرف أنني أول من تمرد، فيختارونني بسبب ذلك القائد الأعلى. لا أعرف يا أخي أي جيش هو جيشنا، فيختارون رجلا لم ير في حياته فرج امرأة عن قرب ليصبح قائده الأعلى". وقرب حلول الليل عثر عليه أصدقاؤه ورجعوا به إلى المدينة.

بعد فترة من ذلك جاءه نبأ مع مبعوث آخر، فلقيه بالترحاب. لما لوحظ أن شودانتشو لم يجلس على كرسي القائد الأعلى ولو مرة واحدة، فقد رأى قومندان الفرقة وقومندان جزر جاوة وسومطرة أن يعقدا اجتماعا للنظر في بديل له. وأعلن المبعوث أن "رئيس الجمهورية اختار بالفعل العقيد سوديرمان قائدًا أعلى لجيش أمن الشعب برتبة لواء".

قال شودانتشو "الحمد لله. هذا المنصب لا يليق إلا بمن يسعى إليه".

وبينما اغتم أهل هاليموندا بمعرفتهم الخبر، كان شودانتشو يطفو على سطح الماء ببهجة تفوق الخيال.

أعيدت تسمية جيش أمن الشعب فأصبح جيش خلاص الشعب. وكانوا قد انتهوا للتو من طباعة لوحات تحمل اسم جيش خلاص الشعب، حينما جاءهم خبر تغيير اسمه إلى جيش جمهورية إندونيسيا.

سأل الرائد سدرة "هل سنعلن الحرب على إندونيسيا؟"

ضحك شودانتشو وهز رأسه قائلا ومطمئنا "لا داعي. نحن دولة جديدة ولا نزال نتعلم اختيار الاسماء".

ولم يكن جيش اليابان قد رحل، ولا الشعب قد حصل بعد على فرصة التعرف على عهد السلام، حينما بدأت طائرات الحلفاء تحلق في سماء هاليموندا. وفي غضون أيام قليلة وصلت القوات الإنجليزية والهولندية. أطلق سراح أسرى الكينيل وأعيد تسليحهم وبدؤوا نزع سلاح جيش البلد. واتخذ شودانتشو على الفور إجراءات طارئة، داعيا الجنود إلى الرجوع للأدغال. وفي هذه المرة بعثهم في اتجاهات البوصلة الأربعة قائدا بنفسه قوات تحصين الغابة الجنوبية. قرَّر أن يخوض حرب عصابات أخرى ضد قوات الحلفاء، وضد قوات نيكا (الإدارة المدنية لجزر الهند الهولندية) بالذات. ولكن لم يكن محاربو العصابات هم وحدهم الذين مضوا إلى الأدغال، بل تبعه المدنيون أيضًا، وأغلبهم من الشباب، بعدما أقسموا على الولاء لشودانتشو. قسم جميع جنوده بحيث يقود كل منهم مجموعة صغيرة من المحاربين المدنيين في الغالب، وكان بعضهم هم الذين اغتصبوا ديوي آيو وصديقاتها قبل وصول الجنود الإنجليز.

دامت حرب العصابات الجديدة هذه عامين ذاق فيهما المحاربون مرارة الهزيمة أكثر مما ذاقوا حلاوة النصر. ومع أن جنود الكينيل كانوا يعلمون بوجوده في الأدغال عند الرأس البحري، لم يستطيعوا قط أن يعثروا على الرجل الذي كانوا يسعون إليه: شودانتشو. كانت الأدغال مليئة بالمحاربين الذين يعرفون المنطقة خيرا ممن عداهم، ويقيمون في السجون اليابانية الحصينة القديمة. ولم يقو جنود الكينيل ـومعهم الإنجليزـ يومًا على دخول الغابة، فآثروا أن يقيموا مواقعهم في المدينة. ورأى المحاربون من جانبهم أن دخول هاليموندا أمر صعب. قطع جنود الكينيل طريق إمدادات الطعام والسلاح، فلم يكن لذلك معنى، لأن محاربي العصابات كانوا يزرعون حقول الأرز في وسط الغابة، وكانوا قد اعتادوا من قبل على خوض حرب بلا ذخيرة. وحتى حينما حاولوا الإغارة عليهم من الجو، تفاداها المحاربون بخبرتهم السابقة التي جنوها من اليابانيين.

زاد شودانتشو في تطوير تكتيكاته الحربية، فتوصل إلى أفضل سبل التخفي والاختراق، حتى صار بوسعه أن يظهر فجأة ويختفي بسرعة، بل لقد صار يصعب حتى على رجاله أنفسهم أن يعرفوه إذا ما تخفى.

قال "إن هي إلا طريقة أخرى من الاستغماية، لا يعثر فيها على المحارب حتى يموت".

واستمر هذا إلى أن بلغ شودانتشو نبأ أوقف المعارك جميعًا: اعترفت هولندا على مائدة المفاوضات بسيادة جمهورية إندونيسيا. أثار ذلك

ضيقه بعض الشيء ـ كانت الجمهورية قد أعلنت الاستقلال بالفعل قبل أربع سنوات، والآن فقط تعترف هولندا بتلك الحقيقة، وفي مقابل ذلك يسمح لهم بالرحيل.

قال مغتما "ذلك يفقد الحرب كلها معناها".

ومع ذلك خرج شودانتشو من الغابة ومعه جوهر عصابته. ولقيهم أهل المدينة بالبهجة، فقد كان لا يزال بطلا لهم. وقف الناس بالرايات الملونة على جوانب الطريق الذي مضى فيه شودانتشو ممتطيا بغلا، غير ملتفت بالمرة إلى الترحاب الحماسي، متجها مباشرة إلى الميناء، حيث كان الهولنديون من جنود ومدنيين يتأهبون لركوب سفينة تحملهم جميعًا إلى وطنهم. اقترب شودانتشو من قومندان الكينيل الذي ابتهج برؤيته عدوه في نهاية المطاف. تصافح الرجلان بحرارة، بل إنهما تعانقا.

قال القومندان "في مرحلة ما سنخوض الحرب من جديد".

"نعم، حينما تسمح بذلك ملكة هولندا ورئيس جمهورية إندونيسيا".

ثم افترقا عند المعبر. بقي شودانتشو واقفا عند المرفأ بعدما سحب الدرج ورفعت المرساة، بينما وقف القومندان إلى سياج السفينة. ولما دار المحرك وتعالى صوت هديره وبدأت السفينة تتمايل، لوَّح كل منهما للآخر.

وأخيرًا قال شودانتشو "سايونارا".

***

جاءت نهاية الحرب بصمت، صمت كالذي يخيّم على الناس بعدما يتقاعدون. مضى شودانتشو يقتل الوقت لأيام قليلة في مقر فصيلته القديم على شاطئ هاليموندا. فلم يكن يفعل طوال النهار شيئًا إلا أن يجز العشب فيطعم به بغله، أو يصطاد السمك من جدول صغير مجاور، إلى أن جمع أصدقاءه وقال لهم إنه ذاهب إلى الغابة بلا رجعة.

سأله الرائد سدره "وماذا أنت فاعل هناك؟"، وكان سدره قد تولى رئاسة الجيش في المدينة، "لم يعد أحد بحاجة إلى محاربين هناك".

قال شودانتشو بهدوء "ليس لدى الجندي ما يفعله في وقت السلم، لذلك سأمارس بعض العمل في الغابة".

وذلك بالتحديد ما كان من أمره. اتصل بالتاجر بيندو الذي كان يهرِّب الصاج تحت حمايته في مقابل توفير الدعم اللوجستي للمحاربين. وبالتعاون مع تاجر صيني جاء به بيندو، بدأ شودانتشو يهرب المزيد من السلع عبر السواحل. وبعدما توصل الثلاثة إلى اتفاق، بات مستعدا للرجوع إلى الغابة، فاختار اثنين وثلاثين من أخلص جنوده ليصحبوه في مغامرته.

قال لهم "أعداؤنا الآن هم اللصوص".

كان كل من في المدينة من مدنيين وجنود يعلمون بنشاطهم في التهريب. وكانت البضائع جميعًا تدخل وتخرج من ميناء صغير أقيم على حافة الرأس: تليفزيونات، ساعات يدوية، بل وشباشب. ولم يشتك الناس قط، فقد بقي شودانتشو بطلا لهم، فضلا عن أن فائض السلع

كان يباع في هاليموندا بأسعار زهيدة فعلًا قبل أن يبعث أغلبها إلى مدن أخرى. وبقي ضباط الجيش أيضًا صامتين، من ناحية لأن الرائد سدره كان صديقا قديمًا لشودانتشو، ومن ناحية أهم لأن شودانتشو كان يقتطع نصف الأرباح فيبعثها إلى اللواء في العاصمة. وسرعان ما أدرك الجميع أن لديه علاوة على مواهبه الحربية الطبيعية غريزة تجارية استثنائية أيضًا.

قال شودانتشو "ما من فارق بين الحرب والتجارة. هذه وتلك بحاجة إلى قدر فائق من الدهاء".

والحق أن شودانتشو لم يكن منخرطا في تفاصيل شؤون التجارة اليومية، إذ كان رجاله الاثنان والثلاثون يولون ذلك عنايتهم الفائقة. فقضى أكثر من عقد يعيش في كوخه الحربي، يصطاد السمك ويتأمل ويربي كلاب الأياك البرية. بل إنه أمر جنوده أن يتزوجوا، ويشتروا بيوتا، ويعيشوا في المدينة، ويتناوبوا على مرافقته في الغابة الخاوية إلا منه. بدأ الرجال يفقدون غرائزهم القتالية، وبدنت أجسامهم من الإفراط في الطعام وملذات الحياة التي كانوا يعيشونها، ولكن شودانتشو بقي كما كان دائمًا نحيل الجسم، رشيقا كما كان دوما، لم يطرأ عليه أي من علامات التدهور. وكان يحرص على أن يبقى مشغولا، بإعداد طعام للجميع لا يأكل هو منه إلا أقل القليل، وبدأت تطيب له حياته الوادعة، إلى أن طلب منه الرائد سدره أن يخرج من الغابة لإبادة الخنازير على سفوح تلي ماإيانج وماجيديك.

قال تينو صديق لشودانتشو "لا أعرف إن كان بالإمكان إقناع الجنود بصيد الخنازير. لهم عشر سنوات الآن وهم جالسون وراء مقاود الشاحنات".

قال شودانتشو "لا بأس. لقد جندت بالفعل جنودا جددا وهم متلهفون على القتال"، ثم أطلق صفيرا حادا فأقبل عليه جميع كلاب الآياك، رمادية الفراء، خفيفة الحركة، متأهبة للقتال. كانوا نحو مئة كلب يزاحمون بعضهم بعضا عند قدميه.

قال تينو صديق وهو يربت على أحد الكلاب "لا شك أن ذلك يكفي لغزوة الخنازير".

"الأسبوع القادم ننتقل إلى الجبهة".

كان صيد الخنازير قد بدأ قبل أربع سنوات أو خمس على يد مزارع يدعى ساهودي وخمسة من أصدقائه بعدما تعرَّضت حقول أرز لهم أسفل سفح تل مالإيانج لهجمات الحلاليف طوال شهر كامل. ومع اقتراب موسم الحصاد وقع نظر ولد ساهودي الصغير الذي لم يكن يبلغ من العمر إلا سبع سنين على خنزير في فناء بيتهم الخلفي. ونال منه ساهودي. وسارع يجمع أصدقاءه ويقيمون كمينا.

اختاروا ليلة اكتمال القمر. وقف الرجال الستة صامتين وقد انقسموا أزواجا وسط شجر الجوافة والسابوديلا والأمبريلا، وقد تسلَّح كل منهم في ركنه من الحقل بمسدس. وانتظروا في صبر، وذؤابات

سجائرهم تتوهج في الظلام، مصممين على قتل أول خنزير يرونه. وقبيل الفجر سمعوا أخيرًا بعض الشخير، ولم تمض دقائق حتى ظهر الحيوان في نور القمر المكتمل، ولم يكن وحده، كانا خنزيرين يغيران على حقل الفاصوليا والذرة.

استل ساهودي بسرعة مسدسه وصوب على أحد الخنزيرين، وكان واضحا له تمامًا في نور القمر، ومع رصاصته انطلق رصاص ثلاثة مسدسات أخرى على الخنزير، فانهار في التراب وقد باتت في فكه ثلاثة ثقوب من ثلاث رصاصات. حاول الرجال أن يصوِّبوا على الخنزير الثاني، لكنه هرب لما سمع صوت الرصاص ورأى رفيقه يتهاوى على الأرض. هرب ساحقا كل ما يصادفه في طريقه.

تواثب الرجال الستة من مكامنهم وسط الأشجار، فلما رأوا أن الخنزير الساقط لم يمت بعد، طعنه ساهودي في قلبه بكل قوته بعصا خشبية، مجهزا على روحه إلى الأبد. لكن شيئًا كان يحدث لتلك الجثة تحت نور القمر: لم يصدق الرجال الستة أعينهم وهم يرون جسده أسود الشعر الملطخ بالوحل تحول فجأة إلى جثة بشرية في رأسها ثلاث رصاصات وفي صدرها طعنة.

قال ساهودي "اللعنة. هذا الخنزير تحول إلى إنسان".

انتشر الخبر بسرعة من قرية إلى أخرى حتى علمت به هاليموندا كلها. لم يتعرف أحد على الجثة ولا قال أحد إنها تخص أحدًا يعرفه، فتعفنت في مشرحة المدينة، قبل أن تدفن في المقابر العامة. ومنذ ذلك

الحين لم يجرؤ أحد على قتل خنزير، خوفا من اللعنة التي حلت على ساهودي وأصدقائه الخمسة: فقد أصابهم الجنون جميعًا. مرت أربعة أعوام لم يقتل فيها أحد خنزيرًا، برغم الضراوة التي صارت عليها تلك الحيوانات في إغارتها، ولم يبق من أمل لدى المزارعين إلا أن يأتي الجيش. وكان الرائد سدره قد بعث عددا من الجنود بالفعل إلى الغابة فرجعوا يحملون دجاجة برية وأرنبا للغداء، ولم يرجعوا بخنازير. وأخيرًا أرسل الرائد سدره مبعوثا يطلب العون من شودانتشو مدركا تمامًا أنه الرجل الذي يمكن الاعتماد عليه.

انتظر الناس وصول شودانتشو. ومثلما فعلوا قبل عشر سنوات، اصطفوا على جانب الطريق رافعين المناديل رايات صغيرة، راجين أن يروا بطلهم الغائب منذ سنين. وقف الأطفال في المقدمة مأسورين بشخصية الرجل الذي سمعوا عنه عشرات الحكايات من آبائهم وأمهاتهم وأجدادهم وجداتهم. وحضر كذلك قدامى المحاربين الذين شاركوا في الحرب الثورية وقد ارتدوا كامل أزيائهم العسكرية كما لو كانوا يحتفلون بيوم الاستقلال. أدى له الجنود النظاميون التحية الرسمية فأطلقوا المدافع على الشاطئ، واحتفل تلاميذ المدارس به بقرع الطبول.

وأخيرًا ظهر شودانتشو، ولم يكن هذه المرة يمتطي بغله، بل يسير راجلا، مرتديا ملابس فضفاضة، حالقا شعره على الزيرو، نحيل الجسم كشأنه دائمًا، أقرب إلى راهب منه إلى جندي. كان يحرسه جنوده الاثنان والثلاثون الذين بقوا على إخلاصهم له حتى بعدما لاقوا الأمرين من التدريبات البدنية التي فرضها عليهم طوال أسبوع ليفقدهم بعض

وزنهم ويؤهلهم للمهمة. وكان هناك أيضًا ستة وتسعون جنديًا، منهم الرمادي، والأبيض، والبني، وكلهم من الأياك المتقافزة وراءهم من فرط الإثارة أمام الترحاب الاستثنائي الذي لقوه من أهل المدينة. تقدم الرائد سدره يحيي صديقه بنفسه.

بعد معانقته سدره الذي نما له كرش كبير جعله أشبه بالحبلى، قال شودانتشو للجماهير في مزاح ثقيل "الظاهر أنني اصطدت حالًا أول خنزير! صدقوني الكلاب توشك أن تفقد سيطرتها على نفسها".

أقامت المجموعة في مقر شودانتشو القديم الذي لم يشغله أحد منذ رحيل اليابانيين بدافع من الاحترام. وفي اليوم التالي، وفاء لوعده، ودونما راحة كثيرة، بدأت ملحمة الصيد. اختص كل جندي بثلاثة كلاب، وقاد شودانتشو الجميع بمسدس وخنجر. لم يكمنوا في هدوء مثلما فعل ساهودي وأصدقاؤه، بل تقدموا في الآكام والأدغال التي أقامت الخنازير فيها بيوتها. فاستيقظت الحيوانات الهائلة من قيلولتها ومضت تقفز هنا وهناك.

في ذلك اليوم تمكنوا من صيد ستة وعشرين خنزيرًا، وفي اليوم الثاني واحد وعشرين، وفي الثالث سبعة عشر، فأضير الشعب الخنزيري ضررا غير هيِّن. قتل البعض بالرصاص، وجمعت البقية حية في حظيرة مؤقتة هائلة أقيمت في ملعب كرة القدم قرب مقر الشودان. والغريب في أمر كل تلك الخنازير التي قتلت أن أيا منها لم يتحول إلى إنسان. كان واضحا تمامًا أنها مجرد خنازير، ذات أنياب وخطوم وجلود سوداء

الشعر ملطخة بالوحل. فاجترأ بذلك المزارعون على الانضمام إلى حملة صيد الخنازير في اليوم الرابع، ومنذ ذلك الحين أصبح صيد الخنازير ابتداء من موسم الحصاد وحتى موسم الغرس تقليدا سنويا.

ألقى رجال شودانتشو الخنازير الذبيحة في مطابخ المطعم الصيني، وما بقي على قيد الحياة بدأ تجهيزه لمصارعة الخنازير التي أقيمت للاحتفال بالنصر المؤزر. كانوا يضعون في الحلبة خنزيرًا وكلبا، وبدأ أهل هاليموندا المتعطشون للتسلية يتكهّنون. كان شودانتشو ورجاله قد أقاموا حلبة في ميدان الملعب بألواح يبلغ ارتفاع الواحد منها ثلاثة أمتار وتصطف على هيئة دائرة، وخارج هذا النطاق، وعلى ارتفاع نحو مترين، أقاموا منصة متينة من عيدان بامبو متصالبة ليقف عندها الحضور. ولكي يصل الناس إلى المنصة كان عليهم أن يتسلقوا درجا يحرسه جنديّان يحصّلان التذاكر التي كانت تبيعها فتاة جميلة جالسة إلى منضدة قريبة.

بدأت مصارعة الخنازير عصر يوم أحد بعد أسبوعين من وصول شودانتشو، واستمرت ستة أيام إلى أن صرعت جميع الخنازير وألقيت في مطابخ المطعم. وكان المشاهدون يتوافدون من أقصى أرجاء المدينة ومن خارجها ليصطفوا أمام بائعة التذاكر الجميلة. وكان الراغبون في الفرجة من غير القادرين على دفع ثمن التذكرة يتكدسون عند أشجار جوز الهند المزروعة حول الملعب أو يجلسون على الأغصان. فكان نخيل جوز الهند يبدو من البعد، بسبب ثيابهم الملونة، وكأنه لم يعد ينبت بلونيه الأخضر والبني المعتادين.

كانت مصارعة الخنازير مسلية للغاية، فكلاب الأياك التي لم يكن شودانتشو قد استأنسها تمام الاستئناس لم تزل على شيء من ضراوتها البرية حين تصارع الخنازير البرية. كان على كل خنزير أن يواجه خمسة أو ستة من الأياك، فلم تكن المصارعة عادلة بالقطع، ولكن الجميع كانوا يريدون أن يطمئنوا تمام الاطمئنان إلى أن جميع الخنازير سوف تموت، كانوا يريدون مجزرة لا معركة. وإن بدا أن خنزيرًا يريد أن ينفرد بكلب، كانت بقية الكلاب تهاجمه، وتعض لحمه وتمزقه إربا. وإن بدا على خنزير الإنهاك، كان أحد الجنود يغرقه بماء بارد، فيرغمه أن ينشط للمجزرة التالية. وكانت نتيجة كل مواجهة واضحة: يموت الخنزير، ويصاب كلب أو اثنان بجروح تافهة. ثم يوضع في الحلبة خنزير آخر، ويطلق عليه ستة كلاب جديدة تنهشه نهشا. وبدا على جميع المشاهدين الرضا بالفرجة على ذلك العرض القاسي، إلا شودانتشو الذي وقع بغتة أسير عرض مختلف كل الاختلاف.

فوسط جميع المشاهدين رأى شابة شديدة الجمال، لم يبد عليها الاهتزاز وسط جمع أغلبه من الرجال. لعلها كانت في السادسة عشرة، بدت ملاكا نزل إلى الأرض. شعرها الأسود مربوط بشريط أخضر، وبرغم البعد أمكن شودانتشو أن يرى عينيها النافذتين البديعتين، وأنفها الحاد، وبسمتها بادية القسوة. بشرتها كانت بيضاء متوهجة، كأنها تسطع، ويكسوها ثوب عاجي يرفرف في نسيم العصر. أخرجت الفتاة سيجارة من جيبها، وبهدوء فريد مضت تدخنها بدون أن تفارق عيناها للحظة معركة الكلاب والخنازير، وكان شودانتشو يتابعها منذ اللحظة

التي وضعت فيها قدميها على الدرج، وبدا أنها حاضرة وحدها. وفي ذهول سأل الرائد سدره الواقف بجواره "من هذه الفتاة؟"

تتبع الرائد سدره وجهة عينيه وقال "اسمها ألامندا. ابنة العاهرة ديوي آيو".

بعدما انتهت مصارعة الخنازير، وزّع شودانتشو كلابه الستة والتسعين على مواطني هاليموندا، فذهب أغلبها إلى المزارعين لمساعدتهم في الحراسة، وبقيتها وزّع عشوائيا. وأمر شودانتشو من لم يحصلوا على كلاب أن يتحلّوا بالصبر، فسرعان ما ستتوالد، وستمتلئ هاليموندا بكلاب كلها من نسل الأياك.

كان ينبغي أن يرجع شودانتشو إلى الغابة مثلما كان ينوي في الأصل، إذ قال للرائد سدره فور وصوله إنه سيبقى في المدينة إلى أن ينتهي من تسوية مسألة الخنازير. لكن منذ أن وقعت عيناه على ألامندا في حلبة الخنازير لم يغمض له جفن. وحدثته نفسه أن "لا بد أن يكون هذا هو الحب". والحب هو الذي جعله يرتعش ويبحث عن حجج للبقاء في المدينة لفترة أطول، بل ربما لعدم الرحيل عنها مرة أخرى.

وجاءه الحل حينما قال الرائد سدره "لا تذهب على الفور، لدينا مزيد من الاحتفالات بالنصر. أوركسترا ميلايو".

فسارع شودانتشو يقول "حبًا في المدينة، سأبقى بعض الوقت".

ورآها مرة أخرى، في ليلة عرض أوركسترا ميلايو. أقيم العرض في ملعب كرة القدم أيضًا، ولكن العرض في هذه المرة كان بلا تذاكر، فكان المكان أكثر ازدحاما. جاءت فرقة موسيقيين من العاصمة، ومعها مطربون لم يكن أحد قد سمع بهم من قبل، ولكن أحدًا لم يبال بذلك، فقد كانت الموسيقى جيدة، والرقص أيضًا، وأمكن لشباب هاليموندا وشاباتها أن يتمايلوا، ربما بسبب الإيقاع، أو بسبب الشراب.

الأغنيات كلها قلوب مفطورة، وحب من طرف واحد فكأنه تصفيق بيد واحدة، وأزواج غادرون، لكن برغم مأساوية الأغنيات، لم تبك المغنيات، بل ارتسمت على وجوههن الغارقة في المساحيق الابتسامات وانطلقت منهن الضحكات، ومضين يدرن ظهورهن للجمهور ويهززن مؤخراتهن. فكلما صفق الحاضرون لمؤخراتهن، التفتن إليهم وقد كدن يجلسن، فيزداد الناس تصفيقا، إذ كن يرتدين جيبات قصيرة لكي يرى كل راغب ما يرغب في رؤيته. ذلك المزيج من الموسيقى، والعاطفية، والدعارة هو الذي جعل كثيرًا من الناس يبتهجون في ذلك المساء أشد البهجة.

رأى شودانتشو ألامندا مرة ثانية، تسير وحدها. وهذه المرة كانت ترتدي بنطالا من الجينز وسترة جلدية، ومرة أخرى كانت سيجارة معلقة بين شفتيها العذبتين. شعر شودانتشو بامتنان شديد لخروجه من الغابة ومقابلته ملاكا حقيقيا يسير في مدينته الحبيبة. لم تكن الفتاة تتمايل أمام المسرح، بل اكتفت بالفرجة وهي واقفة بجانب إحدى عربات المأكولات التي تناثرت حول الملعب. عاجزا عن مقاومة جمالها المستفز،

اقترب منها شودانتشو. وبسبب شهرته، كانت رحلته إلى حيث تقف الفتاة مزعجة بحق، إذ كان عليه أن يخوض في بحر من التحيات، إلى أن أصبحت الفتاة أخيرًا أمامه مباشرة، بل إلى أن أصبح هو واقفا أمام الفتاة مباشرة، متشرِّبا عن قرب جمالها الطبيعي الفاتن. حاول أن يبتسم، لكن ألامندا لم تبد له إلا نظرة غير مكترثة.

قال شودانتشو محاولا أن يقيم حوارا "لا يحسن بفتاة أن تتحرك وحدها بالليل".

نظرت ألامندا في عينيه مباشرة. "لا تكن غبيا يا شودانتشو. أنا وسط مئات من الناس الليلة".

وانصرفت ألامندا بدون كلمة أخرى. تجمّد شودانتشو غير مصدق. تلك الكلمات القليلة كانت أقسى عليه من أي معركة خاضها. استدار ومضى يسير بجسد وروح سلبا كل ما لديهما من طاقة.

وسأل نفسه رائيا لحاله: **هل من استراتيجية حربية لدحر الحب؟**

حاول أن ينسى صورة الفتاة، فكلما حاول أسره الوجه نصف الياباني نصف الهولندي مع النزر الإندونيسي. حاول أن يختلق أسبابا تمنعه من حب الفتاة. فظل يحمل نفسه في لحظات ما قبل النوم (برغم أنه لم ينم حقا في تلك الليلة) على التفكير فقط في أن تلك الفتاة ولدت على الأرجح في العام الذي حصل فيه على رتبة شودانتشو وبدأ يخطط للتمرد. فارق السن بينهما عشرون سنة، وها هو رجل اعتبر القائد

الأعلى، ومنحه أول رئيس لجمهورية إندونيسيا رتبة اللواء، يستسلم أمام فتاة في السادسة عشرة. وكلما ازداد تفكيرا في ذلك ازداد الأمر إيلاما، ووجد نفسه موحولا في حب لا قاع له.

وذات صباح استيقظ وقد أقسم أن يبقى في هاليموندا لا يبرحها إلى الأبد، وأن تكون ألامندا زوجة له.

لكنه لم يخبر جنوده الاثنين والثلاثين المخلصين المنتظرين أوامره إلا حينما سأله تينو صديق "متى سنرجع يا شودانتشو؟"

"نرجع إلى أين؟"

"إلى الغابة حيث نعيش منذ عشر سنوات".

"الذهاب إلى الغابة مرة أخرى لن يكون رجوعا. أنا وأنت والجميع ولدنا هنا، في هذه المدينة، هاليموندا، وإليها رجعنا".

"لا تريد إذن الرجوع إلى الغابة".

"لا".

وأثبت هذا، إذ وضع لافتة معدنية على مقر فصيلته القديم: منطقة هاليموندا العسكرية. وللرائد سدره الذي ظهر فجأة بمجرد أن سمع أن شودانتشو قرر البقاء في المدينة واندفاعه إلى إقامة منطقة عسكرية، قال "ها أنا ذا، قومندان المنطقة العسكرية، مخلص لجنودي، ومنتظر الأوامر".

قال له سدره "لا تكن سخيفا. أنت لواء. ومكانتك تلي الرئيس مباشرة".

قال بصوت كسير "ما دمت أنا باقيًا في هذه المدينة، بجوار الفتاة التي أخبرتني أنت باسمها، فسوف أكون أي شيء، ولو تحتَّم عليَّ أن أصير كلبًا".

نظر سدره إلى صديقه وملء عينيه الشفقة. وبعدما تردّد لوهلة قال الرائد سدره "هذه الفتاة لها حبيب بالفعل". ولم يحتمل أن ينظر إلى وجه شودانتشو فقال وهو ملتفت عنه "شاب اسمه كلايوون".

وكان يعلم أنه ينطق ما ينفذ مباشرة في القلب.

٧

لا أحد يعرف كيف انتهى الرفيق كلايوون في الشبيبة الشيوعية، فبرغم أنه لم يعرف الثراء قط، كان دائم البحث عن المتع. بالطبع كان والده شيوعيا حقا، وخطيبا مفوّها، استطاع أن يفلت من الذهاب إلىمعتقل بوفين ديجول بأمر من الحكومة الاستعمارية، فنجا لفترة، لكن اليابانيين أعدموه في النهاية، بعد مناكفات لا نهاية لها وكتابة مناشير أقنعت مخابرات الكيمبيتاي بأنه متمرد شيوعي. ومع ذلك لم تظهر بوادر قط على أن كلايوون سوف يقتفي خطى أبيه. كان متفوقًا في الدراسة لدرجة أنه تقدّم على أقرانه بسنتين، وبدا أن بوسعه أن يصبح أي شيء يريده حينما يكبر.

الحق أن كلايوون كان يبدو أقرب إلى ابن عاق منه إلى شاب شيوعي منتظم. كان يقود عصابة من صبية الحي فيسرقون ما تصل إليه أيديهم لمجرد المتعة: جوز الهند والخشب وحفنات الكاكاو وكل ما تقع عليه أعينهم ويسيل له لعابهم. كانوا يسرقون في ليلة العيد دجاجة فيشوونها، وفي اليوم التالي يبحثون عن صاحبة الدجاجة ليطلبوا منها السماح. وكانوا لا يغالون في إثارة ضيق أحد، فتركهم الناس للهوهم،

وإن اشتكى منهم واحد أو اثنان. وما كادوا يقاربون مطلع العقد الثاني من عمرهم حتى علم الجميع أنهم مروا بالماخور. ولكي يحصلوا على شيء من المال ينفقونه كانوا يذهبون إلى البحر أو يساعدون في سحب الشباك، فلا يجدون المال في أيديهم إلا ويبحثون عن عاهرة، ولكنهم في بعض الأحيان كانوا يجدون أنفسهم مفلسين تمامًا، وبسبب الماخور كانوا قد فقدوا كل قدرة على التحكم في شهواتهم.

وكان كلايوون ذكيا، ويصل بالتفكير في بعض الأحيان إلى حد الإدهاش، إن لم يشارف الجنون. أخذ ذات مرة ثلاثة من أصدقائه إلى الماخور، وتبادلوا النوم مع عاهرة. في البداية شجعتهم العاهرة على أن يرتقوا سريرها اثنين في المرة فقد كانت لديها كما قالت فتحة في الأمام وأخرى في الخلف. ولم يكن بينهم من يريد ولوج فتحة يلجها معه الخراء، فناموا معها واحدًا بعد واحد. وأظهر كلايوون كرم الزعيم إذ دعا صاحبيه إلى أن يناما معها أولا مكتفيا هو بالمرة الأخيرة، ولما انتهى الجنس وجدت العاهرة نفسها أمام منظرهم الكئيب وهم يندفعون من الباب ويختفون عن الأنظار بدون أن يدفعوا لها.

حكى كلايوون في حديقة البيرة ولم يمض على الحكاية وقت طويل قائلا "سألتها هل أعجبك الجنس معنا فقالت إنه أعجبها. إذا كان أعجبها وأعجبنا نحن أيضًا، فلماذا يكون علينا نحن أن ندفع؟"، وكثيرًا ما كان الناس يستمتعون بهذه الحكايات منه.

كانت أمه مينا تريد أن تجنّبه مصير أبيه فأبعدته عن الأفكار الماركسية الجنونية وكل ما له علاقة بها، ولم تبال بما يفعله ما دام لن يتحول إلى الشيوعية. كانت ترسله إلى السينما وحفلات الموسيقى وتسمح له أن يسكر في حديقة البيرة ويشتري الأسطوانات، وكان يسرُّها بصفة خاصة أن تراه يتسكع مع كثير من الفتيات. وكانت تعلم أن ابنها نام مع كثيرات منهن، وأن كثيرات غيرهن تضرّعن إليه كي ينام معهن، ولم تبال بذلك كله. فقد كان في رأيها خيرا من أن تراه في يوم من الأيام واقفا أمام فصيلة الإعدام. وكانت تقول "حتى إذا أصبح شيوعيا، أريده أن يكون شيوعيا سعيدا". كان زواجها الذي دام بضع سنين من شيوعي واحتكاكها برفاق زوجها قد جعلاها تنتهي إلى أن الشيوعيين دائمًا مهمومون مشغولو الخاطر لا يستمتعون مطلقًا بوقتهم. فما كان منها خلال تلك الحقبة العصيبة التي شهدت الاحتلال الياباني والحرب الثورية إلا أن أطلقت العنان لكلايوون ليعيش حياة العربدة كيف يشاء.

لم يبلغ ذلك الشاب السابعة عشرة من عمره إلا وقد أشرقت له الحياة وراقت من حوله نجما للبلدة. كان يرتدي البنطال الفضفاض والسترة الداكنة والحذاء اللامع، فتخرج البنات من بيوتهن ويتبعنه كأنهن قطار حاملات فستان العروس، ومن وراء البنات يسير الشباب. أحبته البنات وأغرقنه بالهدايا التي تكدست حتى صار بيته أشبه بمستودع. ولم يكن من شيء آخر يشغلهم فكانوا يقيمون حفلات كل ليلة تقريبًا، وكان أصدقاؤه الشباب يعشقونه أيضًا، لأنه لم يكن يستأثر لنفسه

بالبنات. وهكذا عاشوا جميعًا، فلعلَّ كلايوون وصحبه كانوا في تلك السنوات أسعد أهل المدينة.

كان كلايوون قد سمع عن عاهرة شهيرة تدعى ديوي آيو، فإن كان ثمة ما يعكر صفو سعادته فهو أنه حتى تلك اللحظة وقد بلغ السابعة عشرة من عمره لم يكن قد نام بعد مع تلك العاهرة التي كان الجميع يتكلمون عنها. وكان قد جرَّب حظه بضع مرات، لكن ديوي آيو لم تكن تنام إلا مع رجل واحد كل ليلة، وكان كل مرة يأتي متأخرا، بعدما يكون الرجال قد اصطفوا أمامه. أو إن حدث ووصل في الوقت المناسب، يجد من ينحيه جانبا لأن لديه مالا أكثر، وكانت ماما كالونج دائمًا تقدم من يقدر أن يدفع أكثر. صار لا يشغله طوال الوقت إلا أن يصل إلى غرفتها وسريرها، واستولت عليه تلك الصورة الشيطانية حتى صار ينام مع أخريات وهو يتصور أنه نائم مع ديوي آيو التي كان قد لمحها مرات في المدينة.

جعلته ديوي آيو يدرك على أقل تقدير أنه ليست كل امرأة على وجه الأرض مجنونة به. فحتى الزوجات والأرامل، وإن لم يكن بهن ما بالبنات من هوس به، كن يتبعنه أينما ذهب، ويداومن على اختلاس النظر إليه، وكان يعلم أنهن في قرارة أنفسهن يتُقْن إلى اصطحابه إلى مخادعهن. كان قد نام مع بعضهن، حتى بدا أن بوسعه أن ينام مع من يشاء من النساء، مع أي امرأة إلا ديوي آيو. كان على يقين أن تلك المرأة دون غيرها ليست مغرمة به، بل إن الأمر في حقيقته على العكس تمامًا من ذلك، إذ عليه هو أن يدفع لها. بدأ يفكر كيف تسنح له فرصة

النوم معها، ولم يكن ينبغي أن يطول الوقت، فحتى خمس دقائق فقط تكفيه، بل إن مجرد لمسها يرضيه. قرر أن يذهب فيزور المرأة في بيتها، وذلك أمر كان على يقين أن غيره من الرجال لم يفعلوه قط.

كان كلايوون يحب الموسيقى ويجيد العزف على الجيتار، أو كان يحفظ على أقل تقدير بضع أغنيات غرامية يغنيها لأصدقائه. ذهب وحده تمامًا في يوم أحد إلى بيت ديوي آيو وقد ارتدى زي فنان شوارع حاملا جيتاره عاقدا العزم على أن يغزو قلب المرأة بأغنياته وغوايته البلهاء. وكان قد فعل مثل ذلك بضع مرات من قبل، مثيرًا جنون البنات إذ يغني لهن واقفا أسفل شبابيك حجرات نومهن. وما إن وصل إلى بيت ديوي آيو ووقف أمام بابه حتى أخذ يداعب أوتار جيتاره ويغني بصوته الجهير.

وبدا واضحا أن العاهرة لم تنخدع مطلقًا، لكنه بقي واقفا، وغنى خمس أغنيات كاملة من أغنياته، ولم يفتح له أحد الباب. كان قد سمع الناس يقولون إن المرأة تعيش في بيتها مع بناتها الثلاث المراهقات وخادمتين، وأنهن جميعًا كريمات. معتمدا على ذلك الكرم، بقي واقفا هناك حتى غنى عشر أغنيات كاملة وحتى جف حلقه. وبعدما مضت ساعة، تناول منديله يجفف قطرات عرق كانت قد بدأت تلتمع على جبهته ورقبته. كانت ساقاه قد بدأتا تعجزان فعليا عن حمل جسمه، ولم تبد بعد بادرة على أن سيدة الدار سوف تخرج. فوضع أخيرًا الجيتار على منضدة وجلس على مقعد يستريح للحظة، وقد بدأ فعليا يرى النجوم في عز الظهر لكنه كان عازما ألا ييأس.

تبيَّن أن توقف الموسيقى أكثر إثارة لسيدات البيت من الموسيقى نفسها. فعلى غير توقع انفتح الباب وخرجت منه فتاة في الثامنة تقريبًا من عمرها وفي يدها كأس ليمونادة وضعته على المنضدة بجوار الجيتار.

قالت "يمكنك أن تواصل الغناء في فنائنا كما تريد، لكن لا بد أنك الآن تشعر بالظمأ".

وثب كلايبوون واقفا في بلاهة. لم يكن ذلك رد فعل على كلمات الفتاة أو على كأس الليمونادة الذي دعي إليه، بل لمرأى تلك الحورية الصغيرة البديعة الواقفة أمامه. في حياته كلها لم يكن قد رأى فتاة على ذلك القدر من الجمال، برغم أنه رأى ديوي آيو نفسها. لم يدر من أي طينة خلق الرب ذلك الكائن، لقد بدا له أنه يرى النور يشع من كامل جسمها. برؤيتها مضى يرتعش أكثر مما ارتعش بعد ساعة من الغناء وهو واقف لا يبالي به أحد، قال بشفتين ترتعشان "ما اسمك؟"

"أنا ألامندا، ابنة ديوي آيو".

علق ذلك الاسم في رأسه كما يعلق مسمار انهالت عليه مطرقة. حمل الجيتار ومضى، مصعوقا، مبلبلا. والتفت مرات ينظر إلى ذلك الجمال، فكان يرتد كل مرة ببصره سريعا كأنما لا يطيق ما يراه.وما كاد يصل إلى بوابة البيت حتى صاحت عليه الفتاة قائلة:

"اشرب قبل أن تمشي، لا بد أنك ظمآن".

كالمنوَّم مغناطيسيا، استدار كلايوون ورجع إلى الشرفة، تناول كأس الليمونادة الباردة بينما الفتاة واقفة تبتسم له ابتسامة دافئة.

قال كلايوون "لأنك من أعددته لي يا سيدتي الصغيرة لا لسبب آخر سوف أشربه".

"أنت غلطان، أنا لم أعده، الخادمة هي التي أعدته لك".

ومنذ ذلك الحين نسي كلايوون رغبته في النوم مع ديوي آيو. محت تلك الجميلة الصغيرة كل ما عداها، حطمت حياته اليومية وربما مستقبله. ففي الأيام التالية على لقائهما، تبدَّل كل شيء. نهر كل فتاة حاولت الاقتراب منه، ورفض كل دعوة إلى حفل، وآثر البقاء في البيت متأملا مصيره الغرامي البائس: دون جوان حقيقي ترغمه طفلة في الثامنة من عمرها على الركوع. تلك كانت الحقيقة، وإن لم يدر أحد على الإطلاق ما الذي حدث. لم يعرف أحد من أصدقائه بشأن زيارة الأحد إلى بيت ديوي آيو، ولم يجرؤ أحد أن يخمِّن سبب انطوائه. إنشغلت أمه عليه، فعلى مدار سنوات تربيتها لكلايوون لم يحدث قط أن رأته حزينا مثل هذا الحزن.

سألته وقد أوشك اليأس أن يتمكن منها "هل أصبحت شيوعيا؟ هذا الغم لا يركب إلا الشيوعيين".

قال كلايوون لأمه "أنا أحب".

"أسوأ وأضل" وجلست بجواره تربت على شعره المتماوج الطويل. "طيب، اذهب واعزف على الجيتار تحت شباك غرفتها مثلما تفعل كل مرة".

قال كلايوون والدمع يوشك أن ينهمر منه "ذهبت فعلًا لإغواء أمها، ولم أتمكن من الأم لكنني على حين غرة وقعت في غرام ابنتها، ولن يكون بوسعي أن أنالها أبدا".

"ولم لا؟ أتقول لي إن في المدينة بنتا لا تريدك؟"

قال كلايوون وهو يلقي بنفسه في حجر أمه كأنه قط مدلل "ربما هذه الفتاة فقط. اسمها ألامندا. ولا بد أن أكون شيوعيا وثوريا وأقف أمام فصيلة الإعدام مثل أبي والرفيق سالم لكي أنال هذه الفتاة، وسأفعل".

قالت مينا وقد سرت القشعريرة فيها إثر قسم ولدها "قل لي ما شكل هذه الفتاة".

"ليس في هذه المدينة، وربما في الكون كله، من هي أجمل منها. أجمل حتى من الأميرة رينجانيس التي تزوجت الكلب، أو هذا رأيي أنا على الأقل. هي أجمل من ملكة بحار الجنوب. هي أجمل من هيلانة التي اشتعلت بسببها حرب طروادة.هي أجمل من ضيا بيتالوكا التي أشعلت

الحرب بين الماجاباهيت والباجاجاران[33]. هي أجمل من جوليت التي مضت بروميو إلى حتفه. هي أجمل من أي إنسان. كأن جسمها كله يشرق، شعرها يتلألأ مثل الحذاء بعد تلميعه، وجهها لين ناعم كأنه مصنوع من الشمع، وابتسامتها مغناطيس يجذب كل ما حولها".

قالت أمه تواسيه "أنت ند لمثل هذه الفتاة".

"المشكلة أن نهديها لم ينموا بعد، وليس لديها شعر بعد في عانتها. عمرها ثمانية أعوام فقط يا ماما".

بقهر من معاناته، وجد كلايوون مت نفسه في كتابة رسائل غرامية لم يبعثها قط. حاول على مدار أيام أن يؤلف الرسائل الغرامية التي خطر له أنها الأنسب لفتاة في الثامنة من عمرها، فانتهت الرسائل جميعها مزقًا في سلة القمامة، إذ كلما كان يحاول كتابة رسالة غرامية تلائم طفلة، كان يعجز عن التعبير الدقيق عن ولعه. ثم إنه جرَّب أن يصب كل ما في قلبه فلم يدر إن كانت البنت ستستوعب ما كتبه. وفي نهاية المطاف توقف.

في ذلك الوقت كان كلايوون قد أنهى المدرسة متقدما على أترابه بسنتين. ففي حين كان الجميع بين ذاهبين إلى المدرسة أو ذاهبين إلى العمل، كان هو يسرِّي عن نفسه بطلب الحب. فصار كل صباح ينسل

---

33 Diah Pitaloka أميرة فائقة الجمال في مملكة سوندا، وكان يفترض أن تتزوج هايام ووروك ملك ماجاباهيت الجديد الذي كان يتوق إلى أن تكون ملكة مملكته. وفي ثنايا مأساة معركة بوبات انتحرت الجميلة الشابة

من البيت ويمشي إلى بيت ديوي آيو، لكنه لم يخط مرة إلى داخل فنائهن. بل ينتظر ألامندا إلى أن تخرج بزيها المدرسي وحقيبتها المدرسية مع أختها الصغيرة أديندا، فيقترب منهما، ويعرض عليهما أن يسير معهما إلى المدرسة.

فتقول ألامندا "طبعًا. لكن لا تلمني لو تعبت".

كان يفعل ذلك كل صباح، وفي الفسحة يقف تحت شجرة سابوديلا أمام فصلها ليراها وهي تلعب مع زميلاتها. وعند نهاية اليوم الدراسي كانت تجده بانتظارها عند البوابة فيصاحبها حتى البيت. وفي أثناء وجودها في الفصل، أو بعد عودتها إلى البيت، كان الغم يعود من جديد ليستولي على كلايوون. بدا أن جسمه ينكمش، وبدا طول الوقت هائما لا يلوي على شيء.

وسألته ألامندا ذات مرة "أليس لديك ما تفعله خيرا من المشي بجوارنا؟"

فقال لها "أنت تقولين هذا لأنك لا تعرفين بعد معنى الوقوع في الحب".

قالت ألامندا "باعة الألعاب أيضًا يتبعون الأطفال أينما ذهبوا. لم أكن أعرف أن هذا اسمه 'الوقوع في الحب'".

أفزعته الفتاة بحق، جعلته يرتعد كما لو كان شيطان طلع له، صار يحلم بها في الليل فإذا بأحلامه كلها كوابيس يستيقظ منها فزعا

يتصيد أنفاسه، متخشب الجسم غارقا في العرق. وبعد فترة ظهرت أزمة في علاقتهما الفاترة المحدودة بالسير بين البيت والمدرسة. فلم يكن بوسع كلايوون بالفعل أن يواصل حياته على ذلك النحو، فانهار في أحد الأيام صريع الحمَّى، ولم يقو في أول يوم على أن يسير مع البنت إلى المدرسة، والحق أنه حاول، لكنه لم يقو على السير إلا إلى باب بيته، وهنالك وجد مينا تجرُّه جرًّا إلى سريره، وتضعه فيه، وتضع على جبهته قماشة باردة وهي تهدهده بالأغنيات كما كانت تفعل معه حينما تصيبه الحمى وهو طفل صغير.

قالت له أمه "اصبر، بعد سبع سنوات من الآن ستكبر بما يكفي لتقع في غرامك".

قال كلايوون في وهن "المشكلة أن هذا الحب غير المتبادل سوف يقتلني بلا شك قبل أن يأتي هذا اليوم".

قصدت أمه عددا من سحرة الدوكون فأشاروا عليها بأحجبة وتعاويذ قادرة أن توقع الشخص في الغرام، لكنها لم تكن بحاجة إلى هذه الأحجبة والتعاويذ، لأن كلايوون كان سيجن إن عرف أنه لم ينل قلب الفتاة إلا بعون الدوكون. كانت تبحث عما يخفف اللوعة التي تمزق ابنها أمام عينيها.

قال لها آخر دوكون قصدته "ما من حجاب لهذا، لا كان ولا سيكون"، بعدما قال لها مثل ذلك كل دوكون قبله.

"فما العمل؟"

"عليك أن تنتظري حتى يتضح كل شيء: فإما أن ينال حبه، وإما أن يموت مفطور القلب".

عندما أوشك كلايوون على التعافي من الحمّى، جرَّبت مينا علاجا تقليديا لإسعاده، إذ اصطحبته للمشي على الشاطئ وجلسا في حديقة قريبة يطعمان القردة والغزلان. كانت تدلل الفتى كأنه طفل في السادسة وحاولت أن تشركه في حوار حول أي شيء، أي شيء إلا أن يكون فتاة اسمها ألامندا.

وفي ثنايا ذلك حكت مينا كل شيء لأصحابه، راجية أن يعينوها على حل مشكلتها العويصة. راحوا يدعون كلايوون من جديد لحفلاتهم، ويطلبون منه أن يعزف لهم على الجيتار، وأن يغني. دعوه إلى أن يرافقهم في سرقة الدجاج والسمك من بِرَك الناس، وأن يخرج معهم في رحلة إلى الجبال، وأن يخيم معهم حيث يقيمون حفلات حول النار. بل لقد حاولت البنات أن يغوينه من جديد، أن يظفرن بقلبه أو يؤججن فيه شهوته على الأقل، بل إن إحداهن جذبت كلايوون إلى خيمة وعرَّته من ثيابه، وأخذت قضيبه بالقوة. كان يريد أن يمارس الحب معها، ولكن ذلك لم يعد إليه كلايوون القديم. كان قد فقد كل مرحه العفوي، وكل بشاشة وجهه، بل وفقد شهوته التي كم تأججت أمام أي سرير.

لم تفلح أي من تلك المحاولات، وعلم كلايوون نفسه ذلك. علم أن لعنة المعاناة حلَّت عليه، وأن حب تلك الفتاة ولا شيء غيره هو

القادر على مداواته. تمنّى لو أنه يخطفها، وأن يحملها إلى مكان خفي، إلى وسط الأدغال، ليعيشا معًا في كهف أو في واد يرعيان فيه قطيعًا من الماعز. هنالك يرعاها بنفسه، ويلبّي لها احتياجاتها، ويربّيها حتى تصير شابة، فيحين الوقت الذي يظفر فيه بحبها. ترك أصحابه، ورجع مرة أخرى ينتظر الفتاة أمام بيتها كل صباح. واندهشت البنت حينما رأته يظهر من جديد بعدما طال غيابه فسألته "كيف حالك؟ سمعت أنك كنت مريضًا".

"نعم. مريض بالحب".

"هل الحب كالملاريا مثلًا؟"

"أسوأ".

ارتعدت ألامندا، ثم تقدمت أختها تمشي إلى المدرسة. وتبعها كلايوون وسار بجوارها في بؤس، قبل أن يقول أخيرًا:

"اسمعي يا بنت، هل تريدين أن تحبيني؟"

توقفت ألامندا. نظرت إليه، وهزّت رأسها.

سألها كلايوون في خيبة "لم لا؟"

"لأنك قلت بنفسك إن الحب أسوأ من الملاريا".

وأمسكت ألامندا مرة أخرى يد أختها وواصلتا المشي. ومرة ثانية تركت كلايوون فانهار على الفور صريع حمّى أخرى ومعاناة أشد تعذيبًا.

عندما كان كلايوون في الثالثة عشرة، جاء شيخ إلى بيتهم طالبا طلبا غريبا: "اسمحوا لي أن أموت عندكم". وما كان لأمه أن ترفض طلبًا كذلك، فأدخلت الرجل ودعته إلى شراب. لم يفهم كلايوون كيف للرجل أن يموت في بيتهم، ربما يموت جوعًا، فقد بدا عليه أنه لم يكن قد أكل شيئًا منذ أيام. فلما دعته إلى الطعام، أكل بنهم حتى بدا أنه ليس مستعدا للموت. أكل كل ما وضع أمامه، حتى إنه لعق عظام السمك، فلم يترك نتفة. ثم إنه تجشأ في هناءة وفتح فمه مرة أخرى قائلًا "أين الرفيق؟"

قالت مينا في امتثال "قتله اليابانيون".

سأل الضيف "وذلك الولد، ذلك الطفل ابنك منه".

قالت أمه بشيء من الاقتضاب "طبعا، لم أحبل به من خنزير بري".

كان الضيف اسمه سالم. وبرغم أن مينا لم تبد راضية بمجيئه، فقد أصر الضيف على البقاء معهما. "بوسعي أن أبقى في الحمام، وألا آكل إلا ما يأكله الدجاج، ما دمت تسمحين لي أن أموت هنا".

حاول كلايوون أن يقنع أمه بأنه من الأفضل ترك الرجل يموت في البيت بدلًا من أن يموت في مصرف. فأعطيت لسالم في النهاية الغرفة الأمامية، وهي غرفة للضيوف لم يكن أحد قد استعملها من قبل، وتعهد كلايوون بأن يستمر في تقديم الطعام له إلى أن تحين لحظة موته.

لم يكن صعلوكا. بمجرد أن خلع حذاءه رأى كلايوون أن بشرة قدميه ملآنة بالأورام.

سأله كلايوون "أأنت هارب؟"

"نعم، وغدا يأتون لإعدامي".

"لماذا؟ سرقت شيئًا من أحد؟"

"من جمهورية إندونيسيا".

وبذلك الحديث بدأت بينهما صداقة. حتى إن سالم أعطى للصغير البيريه الذي كان يرتديه، وقال إنه حصل عليه حينما كان في روسيا، وأوضح له أن جميع العمال في روسيا يرتدون بيريهات مثل هذا. قال إنه زار بلادا كثيرة، ابتداء من عام ١٩٢٦.

قال كلايوون "لكن لا يبدو أنك زرتها سائحا".

"عندك حق، كنت هاربا".

"وممن كنت سرقت في تلك المرة؟"

"جزر الهند الشرقية الهولندية".

كان الرجل ثائرًا وشيوعيًا، شيوعيًا من الطراز القديم، أحد الذين أخذوا أفكارهم مباشرة عن الشيوعي الهولندي المسمى بـ سنيفلايت[٣٤]،

34هندريكوس جوزيفوس فرانسيسكوس مارى (هينك) سنيفليت Hendricus Josephus Franciscus Marie (Henk) Sneevliet, (١٨٨٣-١٩٤٢)، شيوعى هولندى نشط فى هولندا ومستعمرتها فى جزر الهند الشرقية، وكان له إسهام فى إنشاء الحزب الشيوعى الصيني. قاوم احتلال النازيين لهولندا فأعدمه الألمان في أبريل ١٩٤٢.

والمعروف بالرفيق سالم. اعترف بأنه كان يعرف سيماون[35] جيدا، وأنه كان عضوا في الحزب الشيوعي الإندونيسي منذ بدايته. وصل به الأمر حينما كانوا في سيمارانج[36] أنه كان يحمل في صباح كل يوم الحليب الدافئ إلى تان مالكا[37] الذي كان مريضا بالسل. وكان يقول في فخر إن الحزب الشيوعي الإندونيسي هو أول منظمة تستعمل اسم إندونيسيا، مضيفا أن الحزب كان أول من قاوم الحكومة الاستعمارية. وكانت إدارة جزر الهند الشرقية الهولندية تكرهه حتى قبل ثورته عليها. نفي سنيفلايت سنة ١٩١٩، ورفيقه سيماون نفي بعد أربع سنوات، وبعد سنة واحدة من نفي تان مالكا. فما كان من آخرين –ومن بينهم سالم نفسه- إلا أن حزموا حقائبهم انتظارا للنفي أو الزج في السجون.

وتبيّن أن الحكومة الاستعمارية كانت قد قرّرت اعتقاله في يناير سنة ١٩٢٦، فالظاهر أنهم كانوا قد سمعوا عن تحركات الثورة الأولى التي كانت قد نوقشت في معبد برامبانان قبل شهر من ذلك. لم يسجن سالم قط، إذ أمكنه الفرار إلى سنغافورة هو وآخرون. وتلك كانت أولى تجاربه مع التسكع برغم أنه بطبيعته لم يكن متسكعا.

---

35 كان سيماون Semaun (١٨٩٩ تقريبًا . ١٩٧١) أول رئيس للحزب الشيوعي في إندونيسيا

36 Semarang مدينة على الساحل الشمالي لجزيرة جاوة

37 تان مالكا (١٨٩٧ . ١٩٤٩) معلم وفيلسوف ومؤسس اتحاد النضال وحزب موربا، ومقاتل في حرب العصابات، وبطل قومي في إندونيسيا

قال لكلايوون "من يقل لك إنه شيوعي لكنه غير ثوري، فلا تصدق أنه شيوعي حق".

واستلقى على السرير بشكل غير مألوف: عاريا تمامًا. خلع جميع ثيابه الوسخة، الغارقة في الوحل، ورفض أن يأخذ ثياب أبي كلايوون القديمة حينما عرضها الأخير عليه. في البداية لم يدر كلايوون ماذا عليه أن يفعل لكنه بعد وهلة جلس على كرسي بجوار الباب مواجها الشيخ العاري بأكثر ما استطاعه من البساطة.

قال الرفيق سالم "أريد أن أموت ولا شيء بحوزتي. أخشى أن يطلقوا عليّ الرصاص قبل أن أستيقظ".

قال كلايوون "لو أن ذلك هو إحساسك فلا تنم. سيتاح لك النوم قدر ما تشاء فور أن تموت. إلى الأبد".

كان ذلك صحيحا. فحاول الشيخ أن يبقي عينيه مفتوحتين برغم أن كلايوون كان يعرف أنه مرهق ولا شك. ولكي يضمن ألا يغلبه النوم ظل الرفيق سالم يتكلم بلا توقف، فكان كلامه يخرج منه مفككا في بعض الأحيان، وفي بعض الأحيان متماسكا كما لو كان يتلو مرثية. وظن كلايوون فيه الجنون. قال إنه كان شديد القرب من رئيس الجمهورية. فقد كانا يعيشان في حي واحد من سورابايا[٣٨]، وكانا يدرسان على يد معلم واحد، وفي بعض الأحيان كانا يقعان في غرام المرأة نفسها. ولاحقا، بعد مارجع من أول هروب له وقد قضى وقتًا

38مدينة وميناء في شمال شرق جاوة

طويلًا في موسكو، التقى بالرئيس من جديد، فتعانقا، وامتلأت عيونهما بدموع الفرح.

قال "لعلك الآن لا تصدقني، ولكن يومًا سيأتي فتقرأ كل هذا في الجرائد. ومع ذلك، هذا الرجل نفسه هو الذي يبعث الجنود لاغتيالي".

سأل كلايوون "لماذا؟"

قال الرفيق سالم "ذلك ما يحدث حينما تسرق شيئًا من شخص آخر".

"وممن أيضًا سرقت؟"

"قلت لك، من جمهورية إندونيسيا".

قال إن التردد هو سبب فشل ثورة الحزب الشيوعي سنة ١٩٢٦. التقى بتان مالكا في سنغافورة، بعد هروبه الأول، لمناقشة استراتيجيتهما. عارض تان مالكا بشدة فكرة الثورة، لشعوره بأن الشيوعيين ليسوا جاهزين بعد. فذهب إلى موسكو ينشد دعم الكومنتيرن، فلم يلق إلا الممانعة بمزيد من الشدة.

قال الرفيق سالم "احتجزني ستالين ثلاثة شهور بهدف إعادة تلقيني".

ولكن فكرة الثورة كانت قد ملأت رأسه. وبعدما سمح له بمغادرة موسكو، رجع إلى سنغافورة معتزما تنفيذها، وإن لم يدعمه في ذلك أحد، وإن لزم أن ينفذها بطريقة حرب العصابات. ولكن تبيَّن أن الثورة قامت بالفعل، وفشلت بالفعل. وأرغمت الحكومة الاستعمارية

الحزب على أن يحل نفسه، وحظرت جميع أنشطته. وسجن أغلب كوادره، ما لم يلق بهم في المعتقل. وكان الأكثر إحباطا أن بدأ إذ ذاك دعم الكومنتيرن للثورة، فكان ذلك الدعم نكتة باخت إذ جاءت بعد فوات الأوان.

قال "رجعت إلى موسكو مرة أخرى، للدراسة".

أوضح أنه كان لا يزال ثمة وقت لثورة أخرى، في فرصة قد تسنح في المستقبل ويرجَّح فيها النجاح. كانت قد بلغته أخبار سيئة، عن استسلام بعض الشيوعيين إثر الزج بهم في معتقل بوفين ديجول واختيارهم التعاون مع الحكومة الاستعمارية. وأن الذين أصروا على معتقداتهم كان مصيرهم النفي إلى أماكن يمكن أن تقتلهم الملاريا فيها بلا رحمة.

نهض ليذهب إلى الحمام، فسارع كلايوون يغطي جسد الشيخ بساري وهو يقول "أمي ستصرخ حتى يصل صراخها إلى السماء إن رأتك تسير في البيت عريان هكذا".

ومع أن الرفيق سالم لم يمانع تغطية جسده، قال "وما الفرق؟ غدا ستراني عاريا وميتا".

استمروا في ثرثرتهم، في الشرفة، والرفيق سالم لا يرتدي غير الساري. ومن جلستهما تلك كانا يريان امتداد المحيط المظلم إلا من أضواء فوانيس الصيادين، ويسمعون صوت الموج الرائق الباعث على الهدوء. سأل الولد عن الذي كان يسعى إليه الشيوعيون، وأجابه الرفيق

سالم: "الجنة"، وعند دقة منتصف الليل، رأوا شاحنة تمر مملوءة بجنود الكينيل، لكن الجنود لم يروا الاثنين الجالسين في الشرفة.

قال الرفيق سالم "الدنيا تتغير". طوال مئات السنين كان أكثر من نصف هذه الأرض خاضعا لحكم الدول الأوروبية وقد جعلت منه مستعمرات لها، حلب الأوروبيون كل ما أمكنهم العثور عليه، ومضوا به إلى بلادهم، وحققوا الثراء لأنفسهم. لكن هذا لا ينطبق على ألمانيا واليابان، هاتان لم تحصلا على أي شيء. لكنهما الآن قوتان تناطحان أي بلد متقدم، ولذلك تطالبان بحصتيهما. وهنا منشأ الحرب، حرب بين دول جشعة. (سأل الرفيق سالم إن كان في البيت سجائر فذهب كلايوون يحضر تبغه من غرفته). أهل البلد هم الأكثر إثارة للشفقة، ممتهنون أشد ما يكون الامتهان. بعد سنين كثيرة من العيش في ظل حكم أمرّاء الراجا الهنود والتعرض لأكاذيب الملوك، جاء الأوروبيون على حين غرة، ولم يفهموا الإحساس الجنوني المفرط بالاحترام الذي كان لا يزال حيا في أرض جاوة. كان المزارعون -بعد إرغامهم على العمل وإرغامهم على تسليم أغلب محاصيلهم للحكومة الاستعمارية- لا يزالون ينحنون إذا ما صادفوا في شارع فتاة هولندية. الشيوعية ولدت من حلم جميل، لن يخطر مثله مرة أخرى على وجه هذه الأرض: حلم بألا يوجد كسالى يملؤون بطونهم بينما يكد غيرهم ويتضور جوعا. سأل كلايوون إن كانت الثورة السبيل إلى تحقيق هذا الحلم الجميل.

قال الرفيق سالم "نعم، ليس للمقهورين إلا أداة وحيدة للمقاومة: السعار. ولا بد أن أقول لك إن الثورة ليست إلا سعارا جماعيا ينظمه حزب واحد".

كان السبب الوحيد للثورة الشيوعية في رأيه هو أن البرجوازية لن تفاوض مطلقًا تفاوضا سلميا. لن يسلموا سلطتهم مطلقًا بدون قتال، لن يتخلوا عن ثرائهم من تلقاء أنفسهم، ويقينا أنهم لن يوافقوا على خسران نمط حياتهم المريح. لا يريدونها شراكة، لأن ذلك لن يبقي لهم على أحد يجلب لهم القهوة، ولن يبقي لهم على أحد يغسل لهم الثياب، ولن يبقي لهم على أحد يصلح لهم الموتورات، ولن يبقي لهم على أحد يجمع لهم حبوب الكاكاو. في دنيا الشيوعية يحق الكسل للجميع، ويتحمل الجميع أيضًا مسؤولية العمل. "وهذا ما لن ترغب فيه البرجوازية، فلا بديل إلا الثورة".

كان سالم قد عاد إلى الوطن قبل أيام من يوم إعلان الاستقلال. كانت الجمهورية قائمة منذ ثلاث سنوات، ولكن الهولنديين كانوا لا يزالون في كل مكان. والأبعث على الحزن أن الجمهورية هزمت في كل حرب وخسرت على كل مائدة تفاوض، فلم تكن تسيطر إلا على منطقة الداخل. والتقى بصديقه القديم، رئيس الجمهورية فقال له على الفور "ساعدنا على تحصين هذا البلد وإطلاق الثورة".

قال له "هذه فعلًا مسؤوليتي. إيك كوم هاير أوم أوردي تي شيبن.ما جئت إلا لأنظم كل شيء".

كان يعتقد أن مصدر الفوضى كلها إنما ينبع في نهاية المطاف من رئيس الجمهورية نفسه، ومن نائب الرئيس، والمسؤولين، ورجال الحزب. قال إنهم "باعوا الشعب بيع العبيد في أثناء الاحتلال الياباني، والآن يبيعون الأرض للهولنديين". لم يكن أحد موضع ثقة لديه إلا الحزب الشيوعي الإندونيسي. استقبله الحزب بالترحاب، لكنه اكتشف بسرعة أن الحزب ارتكب أخطاء قاتلة في توجيه نضاله. أراد أن يعيد توجيه الحزب، فسلموه كل شيء، هذا المخلّص القادم رأسًا من موسكو. وبعد شهر واحد من مجيئه قامت الثورة في مدينة ماديون[39]، ونعم، بالطبع كانوا الشيوعيين. لم يكن حاضرا بنفسه حينما بدأت، لكنه ذهب بعد ذلك ليمنح الثوار دعما معنويا. ولم تستمر الثورة إلا لأسبوع، وبعده صار هاربا مرة أخرى.

"وها أنا الآن، في انتظار أن يحفر قبري".

قال كلايوون "قطعت على قدميَّ طريقا طويلًا بالفعل. ولا يزال الوقت متاحا لو أنك تريد الهروب".

قال الرجل بحزن مرير "عرفت الثورة مرتين، وفي كلتيهما فشلت، وهذا يكفي لكي أعرف ما قيمتي. الآن حان وقت موتي، لذلك أعرف أنني حتى لو فررت فلن أفر من مصيري".

لم يفهم كلايوون هذا المنطق على الإطلاق.

---

39 Madiun في القسم الغربي من شرق جاوة

"لكن إذا مت ينتهي كل شيء".

أغمض الرفيق سالم أمام نسيم الليل الذي كان يمسح وجهه. "الآن دورك أنت، يا رفيق".

اعترف الرفيق سالم بأنه لم يكن بالماركسي الأمثل، وأنه لم يفهم النظرية الطبقية، لكنه كان على يقين من حتمية محاربة الظلم بكل طريقة ممكنة. قال إنه ما من ماركسيين في هذا البلد، لكنّفيه قدرا كافيا من حشود الجياع الذين يعملون أكثر مما يلاقون في مقابل عملهم، والذين ينبغي عليهم الركوع كلما ظهر كبير أو عظيم، والذين يعلمون أنه ما من سبيل للحرية إلا الثورة. قال لكلايوون، فكّر في هذا، عشرات الآلاف من العمال، في مصانع السكر وفي كل أراضي ومزارع قصب السكر. يعملون طوال السنة، وملاك المزارع هم الذين ينعمون بالراحة في عطلات الأسبوع في بيوت الإجازات على سفوح التلال. لا يحصل العمال على تعويض كاف في يوميتهم، وملاك المزارع يجنون الثمار كل شهر. ومثل ذلك في مزارع الشاي. وهذا هو السبب الذي يحتم علينا الثورة، والعبارة الماركسية الوحيدة التي علينا أن نغرسها في قلوبنا هي هذه: يا عمال العالم اتحدوا.

عندما علا صياح الديك في البعيد، تراخى الحديث بينهما كما لو كان أدركهما عبق الموت. سكت الرفيق سالم في كرسيه كما لو أنه مات قبل أوانه. لم ينم، بل كان في منتهى اليقظة في حقيقة الأمر، ينتظر في صبر

أن يبدأ الصباح الأخير. وبصوت هادئ هامس لا يكاد يسمع قال "مثل مؤمن يوقن أنه في طريقه إلى الجنة، أنا ماركسي حقيقي لا أخاف الموت".

سأله كلايوون في لهفة "هل أنت مؤمن بالله؟"

قال الرفيق سالم "هذا سؤال لا مجال له. ليست وظيفة الإنسان أن يتساءل هل الله موجود أم لا، لا سيما وأنت تعرف أن أمام عينيك رجلا يطأ رقبة رجل".

"إذن ستدخل الجحيم".

"أفضل أن أذهب إلى الجحيم، لأنني قضيت حياتي كلها أحاول أن أنهي سيادة الإنسان على الإنسان. ولو أن لي أن أخبرك برأيي، فهذا العالم هو الجحيم، ومهمتنا أن نخلق فيه جنتنا".

وجاء صباحه الأخير، ومصداقا لما تنبأ به الرفيق سالم، ظهرت على حين غرة فرقة جمهورية بقيادة نقيب، تريد إعدامه. جاؤوا في هدوء، يرتدون ثيابا مدنية، لأن هاليموندا كانت منطقة خاضعة لاحتلال قوات الكينيل. حاصرت الفرقة سالم وهو لا يزال جالسا مع كلايوون في الشرفة.

قال كلايوون "إنه يريد أن يموت عاريا كيوم ولد".

قال النقيب "مستحيل، لا أحد يريد أن يرى أعضاءه مدلاة منه. خاصة وأنه شيوعي".

"لكنه طلبه الأخير".

"لا فائدة".

قال كلايوون "لو أن هذا رأيكم، فليكن في الحمام. دعوه يتعرّ، ولعله يريد أن يتغوط أولا، ثم أطلقوا عليه الرصاص".

قال النقيب وهو يهز رأسه "الشيوعي الأول يموت في الحمام. تلك إذن قصة عظيمة لكتب التاريخ".

وهكذا انتهت القصة. رمى الرفيق سالم الساري، ولطخ جسمه بالتراب وهو يتنفس بعمق هواء الصباح المنعش، كأنما بذلك يودع الدنيا. تبعه كلايوون والنقيب وعدد من الجنود إلى الحمام، وكلايوون يرجو ألا توقظ جلبة الصباح أمه. وفي الحمام، قبل إطلاق الرصاص عليه، أخذ يغني دماء الشعب والنشيد الأممي، ففاضت بالدمع عينا كلايوون. وما كادت الأغنية الثانية تنتهي، حتى صوَّب النقيب مسدسه إلى الباب الموارب، وأطلق عليه ثلاث رصاصات. طلقة إثر الأخرى. مات الرفيق سالم عاريا في الحمام: ولد بلا شيء، ومات وهو بلا شيء. استيقظت مينا على طلقات الرصاص، وهرعت ترى ماذا جرى، فرأت جنديين يسحبان جثة الرجل بينما ابنها يشاهد.

قالت "رأيت أباك يعدمه اليابانيون وها أنت ترى الآن هذا يموت على أيدي الجيش الجمهوري. أعمل رأسك، ولا تفكر يومًا ولو لثانية أن تكون شيوعيا".

قال كلايوون "ملوك كثيرون انتهوا مشنوقين ولم يمنع هذا كثيرين أن يحلموا بالملك".

قالت مينا بقلق "أكل عقلك في ليلة؟"

"على الأقل أصابني بالبرد في هواء الليل".

أخذ الجنود الجثة إلى تقاطع طرق. لم يبد أنهم يخشون وردية الكينيل، فقد كانوا يعلمون أنهم في ساعة مبكرة كتلك لا بد أن يكونوا نياما. تبعهم كلايوون، وشاهد جثة الرفيق سالم تطرح في عرض الطريق. وقف وسط حشد من الناس تجمعوا لمشاهدة الجثة المزدانة بثلاثة ثقوب، كان كلايوون لا يزال يرتدي البيريه الذي ناله حديثا هدية من الرفيق سالم، والذي لن يخلعه لسنوات كثيرة تالية، وسيظل مرتديا إياه في اليوم الذي يقف فيه أمام فصيلة الإعدام العسكرية. كان دم سالم يتدفق في كل اتجاه. صب عليه جندي الجاز وأشعل جندي آخر الثقاب، وفيما كانت الجثة تحترق، فاحت منها رائحة خنزير يشوى.

سأل رجل "من هذا؟"

قال كلايوون "واضح أنه ليس خنزيرًا".

بقي الولد بجواره إلى أن خبت النار واختفى الجنود. جمع رماده ووضعه في علبة صغيرة رجع بها إلى البيت. خشيت أمه من تصرفاته المتطرفة فقالت إن الرفات سوف يجلب الشؤم.

"واخلع البيريه".

خلع البيريه ووضعه على المنضدة، ثم تمدد في السرير.

قالت مينا "الحمد لله أنك ولد لطيف".

"لا تسيئي الفهم يا ماما، أنا أخلع البيريه فقط لأنني مستيقظ منذ فترة طويلة وأريد أن أنام".

جلس كلايوون على الرصيف أمام متجر مغلق، يمزق ملصقات إعلان سجائر انتزعها انتزاعا عن الجدران. وفيما يتأمل حبه البائس، مضى يتابع السيارات المارقة، ويسأل نفسه إن كان في الدنيا شخص أشقى منه. كانت أمه وأصحابه قد ألحوا عليه أن يبتهج، فرفض كلامهم وقال إنه ما من بهجة له في الدنيا إلا أن ينال هذه الفتاة لنفسه.

وأخيرًا قالت له مينا "اذهب وابحث عن شخص أشقى منك، فلعل هذا يجعلك أحسن حالًا، ولو قليلا".

أول من خطر له أبوه والرفيق سالم، وكلاهما أعدم. لم يخطر لمينا وهي تشير عليه بما أشارت به عليه أن أول من سيفكر فيه هو هذان الرجلان. طوال أسبوع كامل ظل يجلس على الرصيف يشاهد الأشقياء الذين حكى له عنهم الرفيق سالم، والذين حكى أبوه عن أمثالهم من قبل وهو ولد صغير. كان يريد أن يرى الناس يمرقون أمام عينيه في سياراتهم الألمانية والأمريكية بينما بجواره متسول يمتلئ جسمه بالدمامل والتقرحات. أراد أن يرى امرأة في طريقها إلى السوق ومن حولها الخدم يحملون سلالها، بل ويحملون لها مظلة تقيها الشمس. أراد أن يرى كل تلك التناقضات الاجتماعية بعينيه، ليشتِّت نفسه في المقام الأول، وليعرف كم هو مؤسف أن يدمِّر الحب رجلا بينما غيره يموتون جوعا أو تستنزف حياتهم في العمل.

مضى أكثر من شهر عليه وقد ترك بيته وصار يعيش وسط المتسولين، ومن بعد قوة ووسامة، نحل جسمه حتى صار كومة عظام، ومضى شعره يبهت ويتصلّب كأطراف المكنسة. لم يكن يتظاهر بأي حال، بل كان يحاول أن يمحو معاناته بمعاناة تفوقها. يأكل ما يعطيه له الناس، فإن لم يعطه أحد شيئًا ينقب في سلال القمامة، مقاتلًا المتسولين والكلاب الضالة والجرذان.

لم تعد البنات يتبعنه أينما ذهب. بل العكس في الحقيقة، فكان إن قابلته بنت ولم تعرف فيه كلايوون الذي كان يثير جنونها بل وربما يأخذها بإشارة من إصبعه إلى السرير، تمتعض، وتسد أنفها، وتداري وجهها، وتسرع في خطوها. حتى الصغار صاروا يرمونه بالحجارة، فيجد نفسه طول الوقت ممتلئا بالجروح، تطارده الكلاب الضالة كما لو أنه قنفذ صالح للافتراس. وحتى بعدما رجع إلى البيت لم تعرفه مينا، وقالت له "إن رأيت متسولا اسمه كلايوون، فقل له ارجع إلى البيت لأن أمك تموت وتريد أن تلقي عليك نظرة أخيرة".

قبل كلايوون طبق أرز من أمه وقال لها "لا يبدو أنك تموتين".

"إن هي إلا كذبة تافهة".

وبعد زمن ألف هذه الحياة ألفته بحياته. وبدأ ينسى أشياء كثيرة: أمه وبيته وأصحابه والبنات كلهن، وألامندا بالذات (وإن بقيت ذكراها الأخيرة تؤرق أفكاره في بعض الأوقات)، انمحى كل شيء أمام حياة التشرد. وبدلًا من التفكير في ذلك كله، بات لا يفكر إلا في العثور على

حفنة أرز ومكان مريح يستلقي فيه، وذلك ما بدا له أهم بكثير مما عداه. تخفّف من كل أفكاره المعقدة حتى صار صعلوكا سعيدا، إلى أن جاءته المتاعب ذات يوم على شكل متسولة شابة اسمها إيساه بيتينا.

رآها مرتين. مرة إذ يغتصبها خمسة متشردين عند أطراف مقلب القمامة وكان واضحا أنه لن يقدر على مقاتلة مغتصبيها. لكنه أيضًا كان قد رآها تمر قبل أن يكمن لها المتشردون الخمسة، فبدت له جميلة، لكنها أيضًا بدت نتنة بلا حدود، بعد أسابيع لم يمسسها فيها الماء والصابون. كان صراخها يفطر القلب ويزعج قيلولته في مأواه الورقي فخرج منه حاملا منجلا، ومضى يقترب منها. كان اثنان من الخمسة قد انتهيا من مضاجعتها، فكان كلاهما يبتسمان وهما يمسحان قضيبيهما بطرفي قميصيهما. وآخر كان يغرس فيها رمحه، مكافحا في الدخول وفي الخروج، وقد كفّت الفتاة عن المقاومة. وآخر كان يعتصر ثدييها، بينما الخامس كان ينتظر نافد الصبر، وهو يضرب قضيبه بيده.

قال كلايوون بوضوح وحسم "أعطوني الفتاة".

وقف له أحد الرجلين اللذين انتهيا من مضاجعتها، وكان يبدو زعيم المتشردين الخمسة، وأخذ يشمر كميه.

قال كلايوون "قلت أعطوني الفتاة".

"عليك أن تعبر إليها على جثتي".

"تمام" وقبل أن يدرك أيٌّ منهم أن كلايوون يخفي منجلا وراء ظهره، كان المنجل قد أطاح برقبة المغتصب. اندفع دم الرجل بينما سقط رأسه وانكسرت رقبته وفي غضون ثوان كان قد انهار على الأرض ميتا بلا لبس. ركل كلايوون جثته واقترب من الأربعة الباقين. "عبرت على جثته، والآن أعطوني الفتاة".

سارع الرجل المنهمك في مضاجعتها يخرج قضيبه ويجري بوجه ممتقع كأنه رغيف عفن، ومن ورائه أصدقاؤه الثلاثة. تركوا الفتاة خلفهم طريحة على منضدة بلا سيقان، عارية، فاقدة الوعي. حمل كلايوون الفتاة على ظهره بعدما لفها بقميصه ومضى بها إلى مأواه. وضعها في سريره، ولم يكن غير أريكة قديمة، ثم ألقى عليها نظرة قبل أن يستلقي هو على كومة جرائد ويروح في النوم.

عندما استيقظ كان الليل قد حل، فرأى الفتاة جالسة على الأريكة تحتضن ركبتيها وترتعش من الجوع. كانت لا تزال عارية مثلما وجدها، لا يسترها غير قميصه المنسدل على كتفيها. قدم لها كلايوون بعض عصيدة الذرة من القدر مباشرة، ولم يكن ذلك غير بقايا باردة وحامضة من إفطاره، لكن الفتاة أكلتها باستمتاع. وطوال الوقت ظلّ كلايوون جالسا بجوارها، يراقبها بانتباه طفل صغير. أكلت الفتاة بدون أن تراعي وجوده. لم يبد عليها أدنى تأثر، بل لعلها كانت قد نسيت بالفعل ما حدث. وكان كلايوون يرى شعرها الفاتح الذي بدا له كالحرير، وعينيها النافذتين، وأنفها الدقيق، وشفتيها الرفيعتين.

سألها كلايوون "ما اسمك؟"

لم تجبه، بل وضعت طاسة العصيدة تحت الكنبة القديمة، وجلست تنظر إلى كلايوون في حياء فتاة عذراء. مدّت يدها إلى يد كلايوون تمسّها في حنان عاشقة. ارتعش كلايوون للحظة، وقبل أن يدرك ما الذي يحدث كانت الفتاة قد وثبت عليه وطرحته على ظهره فوق الكنبة واعتلت بجسمها جسمه، وعانقته بشدة وقبلته بما يشبه العنف. في البداية حاول كلايوون أن يدفعها عنه بكل قوته، لكنه تردد، وبقي على سكونه رافعا يديه كمن استسلم أمام فرقة الإعدام. ولما أزاحت الفتاة عنها قميصه وشعر بملمس ثدييها المستديرين الصلبين على صدره، ذاب كل شيء في دفء مدوِّخ. وشعر مرة أخرى بدم الوله يندفع نهما في شرايينه، فبادل الفتاة عناقا بعناق، وقبلات بقبلات، وخلع سرواله.

بعد واقعة قاسية اغتصبت فيها من خمسة متشردين، أظهرت الفتاة أنها عاشقة جامحة. ونسي كلايوون أيضًا كل ما جرى، فعانق الفتاة بقوة وقلبها فبات هو الذي يعتليها، وكلاهما عار ومهتاج. تغلّبا على ضيق الكنبة البالية ومارسا الحب بحركات متكرِّرة ومليئة مع ذلك بالشهوة، فمضيا يرتجّان ويهتزّان ويضطربان كقارب تضربه العاصفة.

ثم لما انتهى النكاح، تذكّر كلايوون أنه لم يعرف شيئًا عن الفتاة، تمامًا كما أن تلك الفتاة لا تعرفه. كانا لا يزالان مستلقيين معًا على الكنبة، وكل منهما يعانق الآخر، منهكًا، حين سألها كلايوون مرة أخرى "ما اسمك؟". وكما في المرة السابقة لم تجبه الفتاة. بل ابتسمت

فقط، وغمغمت بكلمات غير متماسكة ولعلها جنونية، قبل أن تغمض وتروح في نوم عميق، وغطيط رقيق.

قال له متشرد بعد فترة غير طويلة إن "اسمها إيساه بيتينا، فبهذا الاسم يناديها الجميع".

تابع كلايوون أسئلته "ومن أين جاءت؟"

قال المتشرد "عثروا عليها قبل أسبوع على جانب الطريق، ومنذ ذلك اليوم وهي تغتصب جماعيا كل يوم تقريبًا، إلى أن جئت أنت وقتلت أحد مغتصبيها، هذه البنت عقلها خفيف".

وذلك ما كان. لم يتخيل كلايوون ما يمكن أن يقوله أصحابه إن علموا أنه نام مع فتاة مجنونة. لكنه بناء على منطقه السليم، أو بدافع محتمل من رغبة أخرى، كان أول ما فعله هو أن أخذ الفتاة إلى الشاطئ ليغسل جسمها، وألبسها ثيابا أفضل سرقها من حبل الغسيل في بيت أمه. وعاشا معًا في مأواه الورقي، على الكنبة القديمة التي كانا يجلسان عليها في بعض الأحيان يستريحان ويأكلان عين الجمل بعد أن يكسرا جوزاته بالصخور، أو ينامان عليها ويمارسان الحب، بجوار موقد من قوالب طوب عليه قدر يطبخان فيه طعامهما. لم يعرفا قط ما الذي كان من أمر مغتصبي إيساه بيتينا المتشردين، برغم أن كلايوون ظل لفترة يتخوَّف من رجوعهم للانتقام. ولما باتت إيساه بيتينا تعيش مع كلايوون في بيت واحد فقد اتفق الجميع على أنهما زوجان رسميا، فلم يعد أحد إلى مضايقة المجنونة.

بدا أن كلايوون نفسه قد نسي السبب الأصلي لتحوله إلى متسول متشرد. لم يعد ينشد الشقاء كي يلهيه، أو يعذب نفسه عسى أن ينسى أساه من جراء رفض ألامندا الصغيرة لحبه، بعدما اكتشف أن خير وسيلة لنسيان فتاة هي فتاة أخرى. ولم تكن حياته بلا طعام مناسب أو مقام لائق سبب معاناة له، بل إنه في الحقيقة كان مبتهجا بوضعه القائم، وقد اكتشف مرة أخرى شغف الحب كاملا غير منقوص، إن كانت إيساه بيتينا تقابل دفء حبه بدفء مثله، فينسى الاثنان وضاعة الحياة التي يعيشانها. بسكرة الحب تلك ما كان لأحد أن يرى في إيساه بيتينا الجنون، ولم يبال كلايوون بكونه لا يعرف من ماضي الفتاة أي شيء، فوعدها قائلا "يومًا ما سوف أتزوجك"، ولم يزد ما بينهما عن مداعبة أحدهما للآخر طوال اليوم تقريبًا وطوال الليل، لا يتوقفان إلا لتناول الطعام حين يقرصهما الجوع أو للنوم حين يهدّهما التعب. وكانت الكنبة مكانهما الأثير للحب، فتتعالى منها تأوهات توقظ الجيران وتلهبهم في جنح الليل. حتى دبت الغيرة منهما في قلوب الناس، وإن فهموا أنهما في ما يماثل شهر العسل لدى المحدثين في الحب، وهي الفترة التي لا تدوم إلا لأسابيع.

وذات ليلة في غمار إحدى مطارحاتهما المعتادة للغرام، سعى ثعبان من كومة قمامة ودخل كوخهما وعض طرف إصبع قدم إيساه بيتينا إذ صادفه في طريقه. لم تصرخ الفتاة، وهي الغارقة في الجنس إلى أن بلغ الاثنان ذروة لم يبلغا مثلها من قبل. وما كان لحظهما الحسن ذلك أن يدوم. انهار كلايوون، بعدما قذف، على جنبه وسمع الفتاة تتأوه وتئن.

فظن أنها لا تزال ترغب فيه، لكنه رأى ساقها تزرقُّ فأدرك ما جرى. وكان الوقت قد فات، فالثعبان الذي عضها كان من الكوبرا السامة، وماتت الفتاة على الكنبة نفسها، عارية، ولا يزال جسمها يأتلق بعرق الحب.

رأى الجيران ـوقد فاض بهم الكيل من صراخ كل ليلةـ في هذه المأساة جزاء وفاقا للعلاقة الآثمة بين الاثنين، وما كانوا يرون فيها إلا لونا من العربدة. حمل كلايوون جثة الفتاة إلى حفار القبور كامينو، وطلب منه أن يدفنها كما يليق بالمؤمنين الأتقياء. ولم يرافق الحفار أحد خلال ذلك إلا كلايوون وقد لبس ثيابا لائقة سرقها من أحد البيوت. قال باكيا "عاشت حياتها لإسعادي فقط".

ثم إنه مضى في يوم الحداد السابع فأحرق الكوخ حتى سواه بالأرض، وأوشكت ألسنة النار أن تسري في الأكواخ الورقية المجاورة لولا أن سارع أصحابها يرمون عليه مياه المجاري بأسرع ما استطاعوا حتى أخمدوا النار. وجن جنون كلايوون فصار يرمي خراء الكلاب على الناس ويكسر بالحجارة مصابيح أعمدة الشوارع. لم يكن من الممكن احتواء حزنه. كان يكسر بحجارة ضخمة يملأ الواحد منها راحة يده واجهات المخابز المصطفة بطول شارع جالان ميرديكا، فتصرخ البائعات فزعا. سرق من ساعي البريد دراجته وتركه يجري والرسائل تتناثر منه في الشارع. قتل ثلاثة كلاب أطلت من بيوت أثرياء، ومزق إطارات سيارات صادفها مصفوفة أمام السينما، وحرق مركزا أمنيا. واستفز

ذلك كله الشرطة فجاء رد فعلها عنيفا، إذ سارعت إلى اعتقاله بدون مقاومة منه في أثناء قيامه بتفكيك الجدار الذي يعيِّن حدود المدينة.

اعتقل بدون أن يبالي أحد إن كان سيقدَّم إلى محكمة أم لا. وفي زنزانته الانفرادية، وجد كلايوون السلام أخيرًا، وبدأ هدوؤه القديم يعاوده ويترسخ في نفسه. ولم يعد يصادف عناء إلا في الليل، حينما يتكلم في نومه، مناديا إيساه بيتينا بصرخات تصم الآذان، وتطغى على عواء الكلاب البرية ومواء القطط المتسافدة. وشاع بين الناس خبر الرجل المحبوس بسبب فقده لحبيبته، ووصل الخبر إلى أمه. كان كلايوون محتجزا منذ سبعة شهور حينما جاءت مينا وأخرجته بكفالة. مضت به إلى البيت كأنها أم غاضبة عثرت على ابنها يلعب في حظيرة البقر. سألته في غضب "أليس هناك شيء أهم لديك من حب امرأة؟" ومضت تحمِّمه بنفسها برغم أنه كان في ذلك الوقت رجلا ناضجا.

كان البيت لا يزال على حاله التي تركه عليها عند رحيله. لم تتزحزح قطعة من أثاثه عن مكانها. قرأ الروايات البوليسية والقصص الغرامية ذات النهايات السعيدة التي سبق أن أرسلتها إليه البنات، راجيا بلا جدوى أن يخفِّف عن نفسه ما فيها. قرأ كذلك الرسائل الغرامية الكثيرة التي بعثتها إليها البنات، فلم يزده ذلك كله بالطبع إلا غمًّا على غمّ. بدا وكأن كل شيء رجع إلى سيرته الأولى، إلى الحزن الأول، وانكسار القلب الأول. حاول أن يعثر على أصحابه، فوجد أن بعضهم تزوج وأنجب، وتمنى لنفسه نزرا من سعادتهم. زار كذلك عددا من

صاحباته القديمات، فوجد منهن من تزوجن، بل ووجد بينهن مطلقَات، وجرَّب النوم مع ثلاث منهن أو أربع لمجرد أن يستشعر دفء الحب مرة أخرى. فما كان شيء من ذلك يزيده إلا افتقادا لإيساه بيتينا.

قالت له أمه "ارجع إلى الحياة في الشوارع، عسى أن تعثر على حب جديد".

قال "وهذا ما سوف أفعله".

وحزم أشياءه كلها، راجيا إن عاد في يوم من الأيام أن يجدها بانتظاره مرتبة ونظيفة. تناول الكتب التي كانت مبعثرة على سريره والمنضدة وأرضية الغرفة فرتبها في صناديق ورقية ووضعها في ركن غرفته. رتَّب ثيابه في دولابه، وركن جيتاره القديم، وخزَّن جميع أسطواناته. بل إنه وضع موسى الحلاقة وفرشاة الأسنان في درج لديه. لم يبق فوق المنضدة إلا شيء واحد، ولكنه ما كان ليخزنه في أي مكان، بل لقد تركه ليرتديه: ذلك هو بيريه الرفيق سالم. وقف ينظر إلى نفسه في المرآة. كان جسمه قد نحل بعد سنوات المعاناة، وصار وجهه كئيبا وعيناه بليدتين. شعره كان لا يزال متماوجا وطويلًا. وقف لوقت طويل، ينظر إلى البيريه ويتساءل إن كان صحيحا ما قاله له الشيوعي، عن العمال الروس وأنهم جميعًا يرتدون مثل هذه القبعة.

قال لنفسه "يا لك من شخص كئيب المنظر. كئيب بحيث يلائمك تمامًا هذا البيريه".

إذ ذاك ظهرت مينا واقفة في الطرقة، ناظرة إلى ابنها الواقف أمام المرآة. حاولت أن تخمِّن لماذا لبس كلايوون بنطاله المكوي، وقميصه القطني، وتلك القبعة.

"لا تبدو كالمتسولين يا ولد".

قال كلايوون وهو يلتفت إلى أمه "ماما، ابتداء من اليوم قولي لي يا رفيق".

٨

في صباح أحد الأيام، رأى المزدحمون على رصيف محطة هاليموندا في الضباب منظرا مذهلا لم يروا له مثيلا من قبل. أمام مكتب التذاكر، تحت شجرة اللوز، حبيبان يتبادلان قبلات ملتهبة غافلين عن الزمان والمكان. قبلات مفعمة بالحرارة جعلت الذين شهدوا القصة وحكوها على مدى السنوات التاليات يحلفون إن ما رأوه بأعينهم بين تلك الشفاه كان لهبا يضطرم. وصارت خرافة، خرافة كلايوون وألامندا. خرافة يتذكرها الرجال والنساء، سواء بسواء، في حسد.

شاع نبأ ذلك السلوك المستفز في الأسابيع الأخيرة السابقة على ذهاب كلايوون إلى العاصمة جاكرتا للالتحاق بالجامعة.

كان ألامندا وكلايوون يتواعدان، ويراهما الجميع، ويرون فيهما أجمل حبيب وحبيبة على وجه الأرض، باستثناء أديندا. لكن ألامندا كانت تضع أصابعها في أذنيها كلما قالت لها أديندا إنها ليست أكثر من قحبة رخيصة يلذُّ لها أن تفطر قلوب الرجال، وتدعوها أن تكف عن ذلك، ولو من أجل هذا الرجل فقط. لعل الفتاة كانت لا تزال تتذكر كيف غرق كلايوون حتى أذنيه في غرام أختها ألامندا منذ أن كانت في

الثامنة، ولعلها كانت ترى من العار أن تحطِّم أختها عن عمد حبا نادرا كذلك الحب. بل إن أديندا أقسمت إنها سوف تقتل ألامندا إن هي تسبّبت في أذى لذلك الرجل. كانت تقول إن رفضها الصريح لحبه خير من القبول به ثم إهماله إهمال القمامة. ولم تكن ألامندا تبالي بأي من تهديدات أختها الصغيرة، وبدا واضحا أنها شابة عنيدة لا يمكن لأحد أن يملي عليها تصرفاتها.

قالت "اعترفي يا صغيرة بأنك تشعرين بالغيرة".

قالت أديندا "لو كنت لأغار من أحد فهي ماما التي نامت مع مئات الرجال".

"وفي رأيك أنني لا أقدر أن أنام مع رجل؟".

قالت أديندا "أنا متأكدة أنك قادرة أن تنامي مع كل رجل في هذه المدينة، فأنت رهيبة مثل ماما، لكن لا يمكن أن تمنحيهم جميعًا ما يجب من الحب".

خلافا لأختها البيتوتية، كانت ألامندا تقضي أيامها في التردد على الحفلات بصحبة حبيبها وأصدقائهما، أو في أي مكان يتجمعون فيه للغناء على الجيتار. كانوا يجوبون البلدة ويترددون على السينما، ففي بعض الأحيان لم تكن ترجع إلى البيت قبل أن يتحول الليل إلى الفجر. وتجد حتى في ذلك الوقت المتأخر أختيها منتظرتين في الشباك وقد ارتسم القلق على وجهيهما، فتمضي هي مباشرة إلى غرفتها بدون أن تنبس بكلمة، إلا ما تدندن به من أغنيات غرامية مما كان شائعا في ذلك الوقت.

قالت أديندا في ضيق "أنت أسوأ من عاهرة، العاهرات على الأقل يرجعن إلى بيوتهن بمال".

فقالت لها ألامندا من داخل غرفتها "قوليها يا ست جراوتش الصغيرة"[40] ولا تكتمي في قلبك، أم أقولها لك أنا مرة أخرى؟ أنت وقعت في غرام كلايوون".

"حتى لو كنت أحبه، فلن أقولها أبدا، لأنني إن فعلت فسوف تقتلين نفسك".

لم تكن مجرد شائعة، فالشاب كان بالفعل ذا شعبية كبيرة بين السيدات، وليس في ذلك البيت وحسب بل في شتى أرجاء هاليموندا. والحق أنه كان يحظى بتلك الشعبية منذ أن كان ولدا صغيرا، حين كان الناس يندهشون من قدراته العقلية إذ كان يستطيع حل مسائل الصف السادس وهو لا يزال في الصف الخامس فقرَّر الناظر أن يقدمه على أقرانه. وفي الإعدادي كان يفوز في جميع مسابقات الرياضيات، ولأنه كان يجيد أيضًا عزف الجيتار والغناء ولأنه كان بادي الوسامة، فقد بدأ يخرج ليلا بصحبة جماعات من البنات المغرمات به.

ذلك حينما كان يخرج مع أي فتاة يريدها، قبل أن يقع في غرام ألامندا وهي بعد طفلة في الثامنة، ويتشرّد في الشوارع، ويقيم علاقة مع مجنونة اسمها إيساه بيتينا. في ذلك الوقت صار الجميع يقولون إنه وألامندا

---

40 Mrs. Grouch من شخصيات المسلسل الأمريكي الشهير "عالم سمسم"، ويمكن ترجمة اسمها إلى "السيدة سخيفة".

ثنائي نادر، شاب وسيم ذكي وفتاة ورثت جمالها عن أرفع عاهرات المدينة مقاما. الجميع إلا أديندا التي كانت تشعر بأن الأمر لا ينقصه شيء كي يكون كارثة محققة. حتى ذلك الحين كانت ألامندا قد عرفت كثيرًا من الرجال ونبذتهم كلهم واحدًا بعد الآخر. كانت سمعتها سيئة، والجميع يعلمون ذلك، بمن فيهم أديندا.

فعلت ألامندا ذلك في كثير من زملائها في المدرسة الذين أثارتهم بجمالها، وبسمتها الآسرة، وخطوها الرشيق، وأشياء أخرى من ذلك القبيل، كانت تطيِّر النوم من أعينهم. ولمّا كان بعض أولئك الشباب يحاولون السعي إليها كانت حينئذ تبدأ في التغير، والتحول إلى عصفورة برية تثب بعيدا كلما هم أحد بالإمساك بها.

وما كان الساعون إليها يستسلمون بسهولة، بل يغرقونها تحت وابل من الغزل الساحر، ويغدقون عليها الوعود، ويمطرونها بالهدايا، من زهور وبطاقات ورسائل وشعر وأغنيات. وكانت تقبل ذلك كله وتمنُّ على الجميع بالمزيد من الابتسامات المغوية، والنظرات الفاتنة، والخطى التي تزيدها رشاقة وليونة، بل وتكافئهم فوق ذلك بفتات الثناء فتقول لأحدهم أنت شاب طيب، أو شاطر، أو وسيم، أو جميل الشعر، فيوشك هذا من فرط الإطراء أن يطفو فوق النجوم.

كان كلٌّ منهم يزداد ثقة ويشعر بأنه الأكثر وسامة بين رجال الأرض، أو أطيب رجال الأرض قلبا، أو أجمل رجال الكوكب شعرا، فلا يقتنعون بذلك إلا وينتهزون أول فرصة ليقولوا لألامندا أو يبعثوا لها

رسالة يبثونها فيها رغباتهم البدائية: **ألامندا، أنا أحبك**. وتكون تلك اللحظة المثلى لتحطيم الرجل، لزعزعته، لتمزيقه إربا، والفرصة المثلى لاستعراض تفوق المرأة، فتقول ألامندا، **وأنا لا أحبك**.

ومرة قالت ألامندا "أنا أحب الرجال، لكنني أحب أكثر أن أراهم يكون مفطوري القلوب".

كانت قد لعبت تلك اللعبة مرات كثيرة، وكم كانت تستمتع بها من جولة إلى أخرى، برغم أن اللعبة كانت مكشوفة دائمًا: هي ستكون الفائزة وهم الخاسرون. وستضحك من قلبها إذ ينسحب طامح ليحل محله طامح غيره.

تخيلوا أنها تفعل ذلك منذ أن بلغت الثالثة عشرة، أي منذ ستين. لا أحد ينكر أنها بالفعل ورثت عن أمها جمالها شبه المثالي وكذلك النظرة النافذة عن الرجل الياباني الذي ضاجع أمها. عرفت للمرة الأولى أنها قادرة على أن تأسر قلب رجل حينما وقع كلايوون في غرامها قديمًا وهي في الثامنة. ثم حدث وهي في الثالثة عشرة أن تعارك ولدان على لون كيلوتها. أقسم أحدهما إنه رأى ألامندا ترتدي كيلوتا أحمر، وأصرّ الثاني أنها ترتدي كيلوتا أبيض. وتشاجر الولدان في آخر الفصل، وضرب أحدهما الآخر فلم يتدخل بينهما أحد، بل إن شجارهما كان ممتعا للجميع، إلى أن أدرك المدرس ما كان يجري. وما كاد الولدان يتورّمان وينزفان حتى تدخلت ألامندا فقالت لهما:

"أنا لابسة كيلوتًا أبيض، لكنه أحمر أيضًا، لأنني في أيام الطمث".

ومنذ تلك اللحظة أدركت أن جمالها ليس مجرد سيف يمكن أن يقعد الرجال، بل هو كذلك أداة للسيطرة عليهم. وبدأ القلق ينتاب أمَّها فراحت تحذرها.

"ألا تعرفين ماذا فعل الرجال في النساء في أثناء الحرب؟"

قالت ألامندا "أعرف ما حكيته أنت لي، وسأريك ما يمكن أن تفعله النساء بالرجال في وقت السلم".

"ماذا تقصدين يا صغيرتي؟"

"في زمن السلم، أنت أوقفت الرجال صفوفا ليدفعوا لك ثمن النوم معك، وأنا جعلت صبية كثيرين يبكون قلوبهم المكسورة".

طالما تخوّفت ديوي آيو من طبيعة ابنتها الكبرى العنيدة، وتابعت أحوالها عبر الرجال الذين كانوا يأتون إلى سريرها بالنمائم عن عدد الصبية الذين فقدوا عقولهم من جمالها. فكانت ديوي آيو تقول لزبائنها إن "الشيء الوحيد المطمئن أنها لم تتحول إلى عاهرة، فلو حدث ذلك ربما ما كنت لتكون هنا في سريري الآن".

تلك كانت ألامندا، التي نجحت حتى في غزو كلايوون معبود البنات في هاليموندا، والشيء الوحيد الذي كان يجعله مختلفا عمَّن غزت قلوبهم هو أنها في نهاية اللعبة لم تلق به عرض الحائط، إذ تبيَّن أنها وقعت في غرامه هي الأخرى. كانت سمعة الولد قد بلغت ألامندا، إذ

كانت بنات الجيران الكبيرات دائمات التهامس عنه، عن أكثر رجال العالم وسامة.

وسرت شائعات لا أساس لها تقول إنه ليس ابن مينا الأرملة وزوجها الشيوعي الراحل الذي أعدمه اليابانيون بعدما فشلت ثورة الشيوعيين في ماديون، وبعدما ضجر كثير من الناس من كل ما له صلة بالشيوعية. اختلقت فتاة قصة عن عثور الزوجين عليه، ملفوفا في بطيخة كبيرة وجداها على ضفة النهر، وعن كونه ابن حورية أشفقت على حظهما العاثر فعهدت إليهما بابنها ليخفّف عنهما إلى حينِ خطيئتهما الأبدية. وقالت فتاة أخرى إنه خرج طفلا من قوس قزح، وقالت أخرى إنه عثر عليه بداخل زهرة هائلة على شكل قمع، برغم أن جميع هؤلاء الفتيات في حقيقة الأمر لم يكنّ موجودات في الدنيا عند ميلاد كلايوون.

تلك قصص لم تنشرها الفتيات المغرمات سرا بحبه، بل لقد كان الكبار أنفسهم يقسمون إن بريق النجوم ساعة مولده فاق قليلا بريقها فوق المدينة من قبل ذلك ومن بعده، كأنما العالم كان في انتظار ميلاد نبيٍّ جديد، وإن الهولنديين الذين كانوا يحومون حول هاليموندا اعتبروا ذلك نذير شؤم.

وسواء كان ذلك كله صحيحا أم غير صحيح، وقعت ألامندا أسيرة للرجل منذ اعترف لها مخلصا بحبه وهي ابنة ثماني سنين، وظلت على حبها له طوال سنين بعد ذلك رويت فيها القصص عنه، وحتى

بعدما قيل عن اختفائه. فطوال الوقت الذي قضاه شريدا ولم يدر أغلب الناس مما جرى له شيئًا، ظلت البنات يتكلمن عنه ويفتقدنه حتى الموت. كثيرات منهن اعتقدن أن عصابة من اللصوص اختطفته لسبب لا يعلمنه وأخذوه إلى موضع ما فقتلوه هناك. وغيرهن اعتقدن أنه اختفى عامدا لمّا عرف أن حياته في خطر. ومهما تكن القصة، أصبح كلايوون بطلا أسطوريا لدى فتيات كثيرات، يكاد يضاهي بطولة شودانتشو في المدينة.

كانت ألامندا في الخامسة عشرة حينما عاود كلايوون الظهور أخيرًا وقد بلغ الرابعة والعشرين، وصار يطلق على نفسه الرفيق كلايوون. رجع من حياة التشرد وأصبح خيَّاطا يعمل بجوار أمه في بيتهما، ولكنه عمل غير ذي معنى، إذ ظل يشترك مع أمه في الدخل الذي كانت تحققه هي دائمًا، فلم يزدد إلا قليلا بسبب البنات الإضافيات اللاتي حاولن أن يلفتن نظره إذ يطلبن منه حياكة فساتين جديدة لهن. وسرعان ما ترك مهنته التافهة وعمل مع أحد أصدقائه في صنع المراكب. في ذلك الوقت كان الفيبرجلاس لا يزال غالي الثمن، فكانا يستعملان الزفت في تبطين ألواح الخشب وتلك كانت وظيفته في ورشة المراكب، بجانب بعض أعمال الطلاء، إلى أن انتقل للعمل في مزرعة كيويو العجوز لعيش الغراب، فكانت مهمته الأساسية فيها تقتصر على مراقبة الترموميتر ليتأكد من ثبات درجة الحرارة عند الدرجة المناسبة وتقليب القش. وفي أوقات أخرى كان يشارك في نشر الخميرة، وحصد الفطر، وتغليفه، ونقله، والقيام بأي شيء آخر يطلب منه. كان واضحا في ذلك الوقت أنه أصبح من كوادر الحزب

الشيوعي الذي كان واحدًا من الأحزاب الثلاثة الكبيرة في انتخابات المدينة قبل أربعة أعوام (وكان يبدو أنه قد يصبح حزب الأغلبية لولا ما تعرَّض له أهل هاليموندا من أذى في أثناء الثورة)، فكان أصغر عضو يمكن لأحد أن يصادفه في مقر الحزب الكائن عند منعطف شارع جالان بيلندا.

كان الحزب الشيوعي يستغل سمعته في غواية البنات ليصبحن ضمن كوادره بعدما بات واضحا أن القاعة تغص أمام الرفيق كلايوون ببنات يصرخن في هستيريا كلما وضعوه على المنصة ليخطب في اللقاءات العامة. كان الرفيق كلايوون وسيما بحق، وأهم من ذلك أنه خطيب بالفطرة. ذهبت ألامندا لتراه ذات مرة في احتفال عيد العمال وقد أثارتها هستيريا صديقاتها. وكان رأي كثير من الناس أنه إذا حصل الحزب الشيوعي على الأغلبية في مدينتهم فسوف يكون ذلك بفضل الرفيق كلايوون.

حينما مالت ألامندا إلى غزو أوسم رجال المدينة، كانت بالفعل قد اشتهرت بوصفها الفتاة التي خيَّبت رجاء ثلاثة وعشرين رجلا وقعوا في غرامها، في حين كان كلايوون قد اشتهر باثنتي عشرة فتاة نالهن في فترة زمنية قصيرة غير اللاتي أهملهن. كانت مسابقة إذن بين أشرس المقاتلين، ولم يكن عمال المزرعة فقط هم الذين ينتظرون نتيجة المسابقة بل وجميع أعضاء الحزب الشيوعي، بل كانت قلوب أهل المدينة كلها تخفق في ترقُّب وتساؤل عما سيكون من أمر الفتى والفتاة. بل إن البعض

أجروا مراهنات عمن سيكسر منهما قلب الآخر، وتأهَّب الشباب والشابَّات قبل الأوان لانكسار القلوب.

عندما أمرت المدرسة الطلبة ببدء التدريب العملي، أقنعت ألامندا بعض صديقاتها بأن يلتحقن بمزرعة كيويو العجوز لإنتاج عيش الغراب. وهكذا التقى الاثنان في مزرعة لإنتاج عيش الغراب، في الحظيرة الدافئة، وسط الأغطية البلاستيكية. كانت ألامندا تذهب إلى الحظيرة بدعوى المساعدة في حصاد عيش الغراب كلَّ صباح، فتلتقي هناك بالرجل، وتغويه بابتسامتها أو تهيِّجه بفتحها أزرار فستانها العلوية. وكان الرجل يشاهدها من المستوى الرابع في الحظيرة بينما هي واقفة تحته ممعنة في غوايته بأن تطلب منه طلبا غير ذي شأن. فيلاقيها الشاب بهدوء حازم، وإعجاب مكشوف بروعتها كأنما لا يبالي بأنه قبل بضع سنوات فقط فقد عقله تمامًا أمام ذلك الجمال الجارح.

خلال تلك الأسابيع كانا يلتقيان كل يوم، فيشتركان في تقليب القشِّ، ويتجادلان في ضبط درجة الحرارة، ويتنازعان في الحجم الذي يجب أن يكون عليه الفطر قبل حصاده، ويتشاجران حول ما إذا كان ينبغي أن تنثر الخميرة فوق القش.

واقفا هناك يواجهها وسط عيدان البامبو الناتئة من رفوف الفطر قال كلايوون أخيرًا "أنت جميلة يا آنسة، لكنك مشاكسة"، وترك ألامندا ذاهبا إلى بقية العمال الذين كانوا يستريحون من عمل اليوم.

عبيط، هكذك حدثت ألامندا نفسها. ما كان ينبغي أن يتركها الرجل ويبتعد بتلك الطريقة، كان ينبغي أن يغويها بمزيد من الحماس، ويسعى إليها، قبل أن تلقي هي به عرض الحائط كعادتها. وقفت ألامندا لدى باب الحظيرة تنظر إليه وهو يستريح بين أصدقائه، جالسا على حافة الحقل، موزعا السجائر ومشعلا إياها، والجميع ينفثون الدخان في الهواء ويتكلمون ويضحكون.

ساعتها فقدت السيطرة على الوضع، وللمرة الأولى وجدت أن أرق الحب قد حلَّ بها هي، فصارت كل ليلة تنتظر مجيء الصباح لترجع إلى مزرعة الفطر وتكون مع الرجل الذي لم تعد تعرف إن كانت حمى الحب لا تزال تستعر فيه أم خبت. ولما بدأت تدرك أنها وقعت في حبه حقا، ارتاعت أنها غزيت ومضت تحاول قتل تلك المشاعر بالتفكير في أنجع السبل التي تجعل الرجل يركع أمام قدميها. وحينئذ، وسواء أكانت تحفل به أم لا تحفل به، فإنها ملقية به عرض الحائط، انتقاما منه أن أوقعها في غرامه. ولكنهما كلما كانا يلتقيان، كان الرجل يتقبل نعمة حضورها الجميل في الحظيرة بدون أن يبذل أي جهد إضافي، كأنما يكفيه ابتهاجا أن تكون برفقته.

ازدادت ألامندا غرقا في مشاعر الحب حتى فقدت السيطرة، وأذهلها اكتشافها هذا الرجل الاستثنائي الذي ينظر إليها في إعجاب، ويتمعّن في كل انحناءة من انحناءات جسمها، ومع ذلك لا يغفل ولو لوهلة عن عمله في نثر الخميرة. بدأت ألامندا تحلم أن يغويها، ويرسل إليها الزهور والرسائل الغرامية. كانت تريد أن تراه وهو يفعل كل

الأشياء المخجلة التي كان يفعلها لها وهي في الثامنة، حتى استسلمت أخيرًا إلى أنها واقعة فعلًا في غرامه، ولم تعد تشعر بالحاجة إلى معاندة قلبها. ولكن ذلك الرجل لم يغيِّر موقفه من ألامندا مثقال ذرة، برغم أنها باتت تجاهر بإعجابها به إذ تطلب منه توصيلها إلى مكان ما بصوت مشاكس أو تغالي في الاقتراب منه وهو يعمل، إلى أن خشيت أن تتعثَّر أمامه، فأقنعت نفسها بأن حبها ذلك حب من طرف واحد، وقرَّرت أن تستسلم وتعترف بالهزيمة.

قالت لنفسها: ليكن، سأكف عن محاولة لفت نظرك. وما كادت تستسلم، وتكف عن تمنِّيها أن يكون هذا الرجل من نصيبها، حتى فوجئت بالأرض تنشقُّ عن كلايوون وهو يقطف زهرة ويقدمها لها. وعاد حب ألامندا على الفور إلى الجموح.

قال الرجل "سنذهب صباح يوم الأحد إلى الشاطئ، إذا أحببت أن تأتي معنا، فسأكون في انتظارك وراء الحظيرة".

ولم ينتظر حتى أن يسمع ردها، بل اتجه إلى جماعة العمال يدخن معهم سيجارة. ورجعت ألامندا إلى البيت فوضعت الزهرة في كأس على المنضدة، وتركتها في مكانها لأيام، حتى بعدما ذبلت الزهرة وتعفنت.

وفي صباح ذلك الأحد لم تكن تعرف أتخرج معه أم لا. حرب استعرت في قلبها، فنرجسية الغازية بداخلها تقول لها عليك بشيء من القسوة، والجزء الآخر منها، الجزء المحترق بنار الحب يأمرها بالذهاب

فإن لم تفعل فسينقضي اليوم بدون أن ترى الرجل على الإطلاق. مضت ساقاها في تراخ إلى الحقل القائم وراء الحظيرة، وهنالك رأت الرجل ينفخ إطار دراجة. اقتربت وسألته أين الباقون.

ردَّ كلايوون بدون أن يلتفت إليها "ليس إلا نحن الاثنين فقط".

قالت ألامندا "لن أذهب إذا لم يكن غيرنا ذاهبا".

"لو أن هذا رأيك فأنا ذاهب وحدي".

قالت ألامندا في نفسها، اللعنة، وما كاد كلايوون ينتهي من نفخ العجلة حتى كانت هي جالسة على مقعدها الخلفي، كأنما أجلستها هناك يدا الشيطان. لم يقل الرفيق كلايوون أي شيء، بل ركب ومضيا معًا إلى الشاطئ.

وتكشف ذلك اليوم لألامندا عن يوم شديد الجمال. ذكَّرها الرجل بكل ذكريات طفولتها السعيدة. جلسا في البداية مثل طفلين على الرمل يبنيان معابد عالية بقدر ما يستطيعان. فلما هدم الموج تلك المعابد تسابقا أيهما يمسك الهندباءة الطافية في الهواء تدفعها الرياح، ثم مضيا يجمعان الحلازين البحرية، وتباريا مباراة صغيرة أيهما أكثر جمعًا للحلازين، ثم ضجرا من ذلك كله فألقيا نفسيهما في الماء يسبحان في ابتهاج. مستلقية على الرمل المبلول وماء المحيط من حولها، ناظرة إلى السماء إذ تستحيل وردية، تمنَّت ألامندا لو أن اليوم لا ينتهي، وأن يبقى ذلك الغسق أبدا، فتبقى بصحبة أجمل رجال الدنيا.

حينذاك دعاها الرفيق كلايوون إلى أن تصعد إلى مركب كان راسيا في الرمل. قال "لا بأس. هذا قارب أحد الأصدقاء"، فضلا عن أن بوسعه أن يقود مركبا في أي عاصفة مهما تكن شراستها. في بطن القارب كانت رماح صيد وأسماك صغيرة تصلح طعمًا. قال الرفيق كلايوون "واضح أننا جاهزان للصيد". وانطلقا في المحيط الشاسع في ذلك الأحد المبهج بدون أن تعرف ألامندا أنهما لن يرجعا قبل حلول الليل. ابتعد الرفيق كلايوون بالقارب عن الشاطئ حتى لم يعد بوسعهما أن يريا أرضا، وصار المحيط من حولهما دائرة تامة الاستدارة. حينها قالت ألامندا في خوف "أين نحن الآن؟"

قال كلايوون "حيثما اختطف رجل فتاة يحبها منذ سنين كثيرة كثيرة".

بعد قوله الغامض، استلقى الرفيق كلايوون في هدوء على أرضية المركب، رافعا عينيه إلى بعض النوارس المحلقة في السماء الزرقاء. وبمرور الوقت بدأت ألامندا ـ التي لم تكن تألف التواجد في عرض المحيط ـ ترتعش من البرد. كانت ثيابها لم تزل مبلولة بعد السباحة. طلب منها الرفيق كلايوون أن تخلع ثيابها لتجف على سطح المركب ما دام قد بقي من الشمس بعضها، خاصة وأنهما سيبقيان في البحر لوقت طويل.

قالت ألامندا "لا تتصور أنك تقدر أن تعريني بكلمة".

قال الرفيق كلايوون "كما تشائين يا آنسة". وكانت ثيابه أيضًا مبلولة، فخلعها قطعة بعد قطعة، ونشرها على سطح المركب حتى لم

يبق ملتصقا بجسمه من القماش أي شيء. بات الرفيق كلايوون عاريا تمام العري.

"ما هذا الذي تفعله أيها الرجل الغبي؟"

"تعرفين تمامًا ما الذي أفعل".

وعاد فاستلقى حيثما كان من قبل، وقضيبه مرتخ لا أثر فيه لشهوة، فحارت في أمره ألامندا. مضت بضع دقائق وهي تفكر، ثم رأت أنه ربما يكون عليها أن تخلع ثيابها هي الأخرى وتنشرها على سطح المركب، مثلما فعل هو. ستخلع ثيابها، فإن أفقد ذلك الرجل سيطرته، وجمح بشهوته فهاجمها، فليكن ما يكون.

قال كلايوون كأنما يقرأ أفكارها "لن أتسبَّب لك في أي أذى. هذا اختطاف وحسب".

خلعت الفتاة ثيابها أخيرًا. وجلست مديرة ظهرها للرفيق كلايوون، معانقة ركبتيها، وفي عنان السماء، ربما كان الرب والملائكة يضحكون منهما: رجل وامرأة غبيان، عاريان لكنهما مكتفيان بالجلوس في صمت بعيدين أقصى البعد عن أحدهما الآخر. وظلا على حالهما ذلك حتى غربت الشمس، وإذ ذاك شعر الاثنان بالجوع. مضى الرفيق كلايوون يصطاد السمك، فظفر ببعض السمك الطائر، وتحتم أن يأكلاه نيئًا، فلم تكن لديهما نار. وكان الرفيق كلايوون قد اعتاد ذلك بسبب صداقته لصيادي السمك، فلم تعفه نفسه، أما ألامندا فرفضت،

وفضلت الجوع. ولما حلّ الليل، وغلبها الجوع، أكلت هي الآخر السمك النّيئ، حشت به فمها حشوا.

قال الرفيق كلايوون "لن تشعري بطعمه إلا وهو في فمك، بعد ذلك ينزل إلى بطنك، فيكون شعورك عاديًا".

بحدة ردت ألامندا "تمامًا كما ستبقى معي ما دمت مختطفًا إياي، وعندما نرجع ترجع أنت أيضًا ذلك الرجل البائس الذي كنته دائمًا".

"قد لا نرجع أصلًا".

واصلت ألامندا استدراجه "وهذا أشد بؤسًا، فأنت حتى لا تجد من الشجاعة ما يكفيك لتنالني في مكان آمن كهذا لا شاهد فيه عليك وأنا فيه عارية أمامك".

اكتفى الرفيق كلايوون بالضحك، وعاود أكل السمك النيئ. ولم تطق ألامندا استفزازه، فاجترأت أخيرًا وتناولت قطعة سمك وقررت أن تحاول مرة أخرى. قاومت تقززها، ومضغت ما في فمها بأقل قدر ممكن، وسارعت تبلعه: وداومت على ذلك.

واستمرّت تلك الدراما لأسبوعين وهما في عرض البحر، لا ثالث لهما. لم يصادفا قط أي صياد، إذ مضى كلايوون بالقارب إلى نقطة شديدة العمق لا يقربها الصيادون لأنهم لا يكادون يجدون فيها سمكًا. دام الجو صحوا طوال الوقت، بدون أي نذير بعاصفة، ولكن بعض التغيرات طرأت داخل القارب. إذ ألفت ألامندا أخيرًا أكل السمك النيئ، بل

وشاركته الصيد في اليوم الثاني. وفي اليوم الثالث غاص الاثنان في المحيط معًا ومضيا يعومان حول القارب، يتصايحان ويضحكان. وبعدها خلعا ثيابهما ونشراها لتجف على سطح المركب جالسين كلٌ في طرف من المركب، وصدقوني، لم يمارسا الجنس، لكن الرفيق كلايوون بالليل كان يحمي الفتاة من الريح الباردة فيغطيها بجسمه، وينامان معًا في سلام. وبدأ كل منهما يعتاد تلك الحياة الغريبة، بل ويستمتع بها، لكن كلايوون قرّر في اليوم الرابع عشر أن يجدف إلى الساحل.

وسألته ألامندا "لماذا نرجع؟ يمكننا أن نبقى هنا سعيدين".

"لم يكن في نيتي اختطافك لما بقي من حياتينا".

وبينما يجدف، كان الرفيق كلايوون جالسا بجوار الفتاة، وإن بقي كلاهما صامتًا، ففي رأس كلٍّ منهما ما يفكر فيه، وإن بقي يدور ويدور في رأسيهما فلا يسمحان له بالخروج طوال الرحلة إلى الساحل. إلى أن رسوا أخيرًا على الشاطئ ففاجأ الرفيق كلايوون الفتاة بصوته الناعم:

"اسمعي يا آنسة، أنا مهتم بك، فلو أنك لست مهتمة بي، فلا بأس".

حدثت ألامندا نفسها، **يا إلهي، هذا رجل لا يكف عن إدهاشي. ما من سبيل إلى التنبؤ بشيء يفعله، ولا حتى كتاب القدر بقادر على التنبؤ بأفعاله.** لم تقل شيئًا، وإن تاق قلبها إلى أن تقول نعم، أحبك مثلما تحبني.

بقيا صامتين على الدراجة طوال الطريق إلى البيت. فسَّرت ألامندا صمت الرجل بانفطار قلبه لأنها لم تعطه جوابًا، وفسَّر كلايوون صمت ألامندا بخجل البنت الصغيرة وتردُّدها أن تستجيب لحب رجل. ودّت ألامندا من فرط خوفها لو تطمئنه وتقول له إن قلبه لا يجب أن ينفطر وإنها تحبه، فلمّا وصلا إلى البيت همَّت أن تتكلم، وقبل أن تخرج كلمة من فمها، قاطعها كلايوون قائلا:

"لا تردّي الآن يا آنسة. فكّري أولا".

مرَّ أسبوع الأيام السعيدة ذلك. رجعا يعملان معًا بلا جدال حول أي شيء، فقط كلام في ما يسرّ كليهما. وحيثما كان كلايوون يذهب، تتبعه ألامندا، والعكس بالعكس، حتى بدأ من يرونهما من الناس يفترضون أنهما صارا حبيبين.

لم يقتصر الكلام عن علاقتهما على مزرعة عيش الغراب فقط، بل وبين مزارعي الأرز وجامعي الذرة، ثم بدأ الكلام يتسلّل عبر جدران المدينة، ولم يرُق لهما أن يكونا موضوعا للنميمة، خاصة وأنهما لم يعترفا رسميا بوجود علاقة، قالت ألامندا أخيرًا للرفيق كلايوون "ألا تعلم أنني أحبك؟" فقال لها كلايوون على الفور وبطمأنينة تامة "أعلم، والجميع يعلمون"، وكان ذلك كافيا لوضع حد لما اشتهرا به، فلم يعد الرفيق كلايوون زير نساء، ولم تعد ألامندا سافكة لدماء الرجال.

مضى ما بينهما لنحو عام، إلى أن حصل الرفيق كلايوون على منحة من الحزب للرجوع إلى الجامعة، ولكي يفعل ذلك كان لزاما عليه

أن يذهب إلى جاكرتا. فكان الانفصال أليما إلى حد أن توسلت إليه ألامندا:

"ضاجعني قبل أن تسافر".

"لا".

"ولم لا؟ نمت مع كل بنات هاليموندا تقريبًا ولا تضاجع حبيبتك".

"لا، أنت غيرهن".

ما كان الرفيق كلايوون ليحيد عن رأيه، فقد كان مصرًّا ألا يمسَّ الفتاة. وقال لها كما يليق بمؤمن ورع "ليس قبل أن نتزوج". وطوال الأسبوع السابق على رحيله لم يطق أي منهما الافتراق عن الآخر، منذ الصباح وحتى الليل. ثم حان اليوم الموعود. فاصطحبت ألامندا كلايوون إلى محطة القطارات. ولمّا تأهب القطار وأطلق صافرته، لم تقو ألامندا على منع نفسها من تقبيل الرجل. وما كانا من قبل قد تبادلا قبلة، فمضيا يقبّلان أحدهما الآخر قبلات ملتهبة ويتعانقان تحت شجرة اللوز. وصحيحٌ ما رواه الناس عنهما، كان بين شفاههما لهب. كانت قبلات فراق ثبت أنه عذاب لا احتمال له.

بدأ القطار يتحرك وكلاهما لا يقوى على انتزاع شفتيه من بين شفتي الآخر والناس ينظرون إليهما وقد تجمدوا جميعًا كالتماثيل.

قال كلايوون "خمس سنوات ونلتقي هنا تحت شجرة اللوز".

ثم إنه جرى ووثب في القطار الذي كان قد بدأ يسرع، وودّعته ألامندا بتلويح يديها ودموع عينيها، وهي واقفة لم تبرح مكانها إلى أن اختفت آخر عربات القطار عن الأنظار.

***

والآن إلى اللعبة الثانية، مع أشهر رجل في هاليموندا وقد بات الغريم والضحية، رئيس المنطقة العسكرية الذي كان في يوم من الأيام شيطان الثورة على اليابانيين: شودانتشو. مثل صياد سمك هرم تقع بين يديه سمكة مرلين ضخمة في يوم صاف في البحر، اضطربت مشاعر الفتاة أشد الاضطراب لاحتمال أن تكون أوقعت رجلا عظيما كذلك الرجل، لعله أعظم رجل في حياتها، وستتذكر كل أيامها في الغزو، خطوة بعد خطوة، رجوعا حتى هجمة حلبة مصارعة الخنازير. كانت تعرف أن جمالها أسر الرجل في ليلة المصارعة تلك، فلم يكن عليها إلا أن تشد الشص فقط فتتلقاه مستويا داني القطاف.

كان عام قد مضى منذ توقفت ألامندا عن كونها الشيطانة الصغيرة المغوية محطمة قلوب الشباب، مثلما كفَّ كلايوون عيونه الزائغة. لقد أحب أحدهما الآخر، ويومًا بعد يوم كان حبهما ينغرس فيهما أعمق فأعمق إلى أن تعاهدا على ألا يخون أحدهما الآخر. لكن كلايوون ذهب إلى العاصمة ليبدأ الدراسة في الجامعة وبدأت ألامندا تضجر. لم تكن لديها نية لخيانة حبيبها، فقد كان حبها لا يزال عاليا كالجبال عميقا كالمحيط، كل ما كانت تريده هو القليل من اللهو الذي سبق أن اعتادته، شيء من العبث مع رجال لا تضطر إلى حبهم.

ولم تدرك أنها في ذلك الوقت كانت إزاء رجل هو في حد ذاته وبمفرده طبقة، رجل ظل هاربا من الجيش الياباني طوال شهور عقب ثورة في أثناء حرب، رجل قاد آلاف القوات في معركة ضد الهولنديين، رجل نال في زمن العدوان العسكري خبرة في كثير من الهجمات، رجل كان لفترة قصيرة القائد الأعلى وتلقى من الأوسمة ما لم يتلق مثله عسكري غيره، رجل عهد إليه بقيادة مدينة تشهد عمليات تهريب ضخمة بمنتهى السرية. وعاجلا أم آجلا، ستعلم ألامندا أي رجل هذا، ولكن حتى يحين أوان الندم، ستظل غافلة عن أن شودانتشو ليس بالفريسة التي يمكن التلاعب بها.

ومثلما توقعت ألامندا، لم تمض أيام قليلة على لقائهما في حفل أوركسترا ميلايو، حتى ظهر شودانتشو في بيتها. جاء وحده، يسوق بنفسه سيارته الجيب، واستقبلته والدتها بالترحاب، فبدا أشبه بطفل يسيل مخاطه في أول موعد غرامي في حياته. انهمكا في حوار حول شؤون المدينة، لكن ألامندا كانت تعلم علم اليقين أنه لم يجئ مطلقًا من أجل ذلك، فقد جاء ومعه باقة زهور أعطاها لألامندا فأخذتها إلى غرفتها ورمتها من الشباك إلى كومة قمامة في الفناء الخلفي قبل أن ترجع إلى أمها وشودانتشو راسمة على وجهها ابتسامة آسرة.

واستمر ذلك طوال أيام، يأتي شودانتشو إلى البيت بباقة زهور ترمى على الفور إلى كومة القمامة ولا يعلم بمصيرها. ولم يقتصر الأمر على الزهور، فقد جاء في اليوم الثالث بدب باندا لعبة طلبه خصيصا

من الصين، ثم جاء بمزهرية خزفية، وفي اليوم التالي جاء بمجموعة من تسجيلات البوب الأمريكية قرَّرت ألامندا ألا ترميها.

لم تكن قد لعبت لعبة كتلك منذ سنة، فملأها الفخر لاحتفاظها بقدرتها على إظهار غباء الرجال وحمقهم. كانت تدير تلك التسجيلات وترقص عليها وحيدة في غرفتها، متخيلة نفسها ترقص مع حبيبها. أسرتها فكرة الرقص مع كلايوون على التسجيلات الموسيقية التي جاء بها شودانتشو. كانت تضحك من حماقة بطل المدينة، لكنها في وقت لاحق من تلك الليلة حلمت أن كلايوون عرف كل شيء وغضب غضبا عارما وأراد أن يقتلها، فاستيقظت مقطوعة الأنفاس تحت غطاء غارق في عرقها البارد. لعنت ذلك الكابوس وطمأنت نفسها بأنها لم تخن حبيبها، لأن حبها له لم يتغير مثقال ذرة.

في اليوم التالي جاءتها رسالة من حبيبها. وتوتّرت بعض الشيء وهي لا تدري إن كانت للرسالة علاقة بكابوسها. دخلت غرفتها واستلقت على السرير وهي لا تجرؤ على فضِّها، خوفا من أن يتحقّق حلمها الكابوسي، ثم شعرت بأنها لا بد أن تعرف فحوى الرسالة.

وتبيَّن أنه ما من أساس مطلقًا لتخوّفاتها، فلم يكن في الرسالة شكوك من أي نوع. قال كلايوون إنه بدأ الدراسة، وإن دراسته ليست شديدة الصعوبة كما كان يتصور، وإن كل أموره تسير على ما يرام. كانت ألامندا تؤمن بأنه ما من شيء يصعب على حبيبها إن أصرَّ عليه، وتشعر بالفخر أن لها حبيبا بهذه البراعة. وحين أخبرها كلايوون أنه

أصبح مصورا فوتغرافيا جوّالا وأنه يعمل بعض الوقت في مغسلة، انسابت دموعها على خدّيها وهمست بأن المستقبل سيكون أفضل له ولها. قبلت الرسالة وهي لا تزال تبكي، قبل أن يغلبها النوم والرسالة لصيقة بخدها.

ولما استيقظت بعد ساعتين، بعد حلم جميل رأت فيه أنها تُزفّ إلى حبيبها، أدركت أنها لم تكمل بعد قراءة الرسالة حتى نهايتها. كانت بين صفحات الرسالة صورة لحبيبها، وتعليق منه بأنه التقطها لنفسه، ويطلب منها السماح إن بدا وجهه ملتويا، أو باعثا على السخرية.

ضحكت ألامندا لما رأت الصورة وقبلتها في وله ـثماني قبلات وثلاثا على البيعةـ وضمّتها إلى صدرها، ثم وضعتها جانبا ومضت تكمل الرسالة فلم تصادف فيها الكثير من الإثارة، إذ مضى كلايوون يتكلم عن شؤون حزبية، ولم يكن لألامندا اهتمام بمثل ذلك الكلام فسرَّها أن كلايوون لم يزد في كلامه ذلك عن فقرة واحدة قبل أن ينهي رسالته طالبا منها صورة لها. ابتسمت ألامندا من جديد، وقالت بصوت عال كما لو كان واقفا أمامها: "سأبعث لك يا أجمل رجال العالم صورة أجمل بنات العالم".

في عصر ذلك اليوم تزيَّنت ألامندا وتأهبت للذهاب إلى المصوراتي حين صادفت شودانتشو يثرثر مع أمها في الغرفة الأمامية كالمعتاد. وسرعان ما برزت في رأسها غريزة سفكها دماء الرجال فابتسمت لشودانتشو ابتسامة عذبة. وعلى الفور تحشرج صوت شودانتشو، وقد

ظن أن زينتها تلك إنما هي له هو، فردَّد في صمت أعمق تسابيح الشكر لملك السماوات وحينها قالت ألامندا إنها لن تستطيع مشاركتهم جلستهم وحديثهم لأنها ذاهبة إلى المصوراتي.

رأت الفتاة شودانتشو يهوي في خيبة (وقد أدرك أن زينتها تلك للمصوراتي لا له) لكنه سرعان ما سيطر على الموقف وعرض أن يقلَّها إلى هناك. لم تفكر ألامندا في ذلك، ولكن ما الضير في أن يقلّها إلى المصوراتي، أو في أن تستغل طيبة مغفل بائس لتحصل على صورة ترسلها إلى حبيبها؟ ابتسمت من جديد واختلست نظرة إلى أمها التي بدا عليها الاستياء من سوء سلوك ابنتها.

هكذا اصطحب شودانتشو ألامندا إلى استديو المصوراتي القائم تقريبًا منذ العصر الاستعماري، فكان في البداية ملكا لجاسوس ياباني، لكنه الآن ملك زوجين من الصين. جلس في غرفة الانتظار مواجها نافذة العرض، وطلب من زوجة المصوراتي أن تطبع نسختين من كل صورة بدون أن تخبر الفتاة التي جاءت معه. فأومأت زوجة المصوراتي في تفهم.

بينما دخلت ألامندا مع المصوراتي إلى الاستديو. التقطت لها أول الأمر صورة وهي تقف في دلال أمام لوحة عليها صورة بحيرة تعوم فيها بلاشين ومن ورائها جبال زرق، ثم وهي جالسة على صخرة صناعية، ثم ومن ورائها نهر عليه جسر مشاة وبضع أشجار، ثم على خلفية مشهد شتائي غريب من الصين. التقط لها المصوراتي عشر لقطات، فلما ذهبت

لتدفع تبيّن أن شودانتشو دفع الثمن كاملا. أثارها أن يدفع الرجل ثمن صورها لحبيبها، في حين رأى شودانتشو في قبولها هذه الهدية منه بشير خير لعلاقتهما.

جاء شودانتشو بنفسه بالصور بعد أربعة أيام مدعيا أنه كان بالصدفة مارًّا أمام الاستديو. قبّلت ألامندا الصور بسعادة، وسرعان ما اختلت بها في غرفتها، ومضت تشاهدها واحدة واحدة في استمتاع. اختارت أحب أربع من بينها، وبدأت تكتب رسالة إلى حبيبها، تحكي له فيها كل شيء عن شودانتشو وحماقته، وتعترف له بصراحة بأنه مهتم بها. طمأنت حبيبها إلى أنها ليست مهتمة بالرجل على الإطلاق، وأن مشاعرها لم تزل على حالها، وأن حبها كله له هو، وله وحده، وأنها لا تعتزم بأي حال أن تخونه. وهي إن كانت ذكرت ذلك الرجل في رسالة إليه، فليس ذلك لتثير غيرته بل لتبيّن لهأنه ليس بينهما أسرار. كانت ألامندا على يقين من ثقة كلايوون فيها فلم تر بأسا في أن تحكي له عن شودانتشو. نثرت بعض البودرة على الرسالة ليشم حبيبها الرائحة التي ألف أن يشمها في جسمها، بل ووضعت على شفتيها مسحة رقيقة من طلاء الشفاه وطبعتهما في نهاية الرسالة بجوار توقيعها، رمز قبلة شوق من بعيد. وضعت الرسالة والصور في مظروف وابتسمت وهي تتخيله يتلقاها في غضون أيام قليلة.

في تلك الأثناء كان شودانتشو قد رجع إلى بيته المجاور للمقر العسكري واستلقى وبين يديه صور ألامندا، يلقي عليها نظرة لزجة

كأنها تنفذ من سطح الورق. وضع الصور مقلوبة واحدة بعد الأخرى على صدره العاري، ثم شبك يديه تحت رأسه.

ومضى يفكر في جمال الفتاة، وفي جسمها، حتى وجد نفسه تائها في رغبة تتفجر ونفاد صبر لا يحتمل، فامتدت يده من جديد إلى الصور، تتحسس أوراقها كأنها جسد الفتاة، وتتبع بالأصابع منحنيات جسمها، فاشتدت عليه الشهوة، وغامت عيناه من الشوق كأنه كلب في الحر ومضت شفتاه تهمهمان باسم الفتاة. ومرَّ عليه نصف ساعة في هذا العناء إلى أن بدأت الصور التي نالها بالتآمر مع زوجة المصوراتي تتسخ من أثر أصابعه الرطبة، فقام أخيرًا ووضعها جميعًا في درج، وارتدى زيَّه الرسمي، وخرج من غرفته باتجاه الجندي المناوب في "قفص القرد" المجاور لمدخل قائد منطقة هاليموندا العسكرية.

قال الجندي "صباح الخير يا شودانتشو".

"أين توجد العاهرات في هذه المدينة؟"

ضحك العريف وقال إن في هاليموندا عاهرات كثيرات ولكن بينهن جميعًا واحدة ممتازة، ودلَّه على ماخور ماما كالونج. "يمكن أن أصطحبك إلى هناك الليلة إن شئت".

اكتفى شودانتشو بالضحك غير مندهش من معرفة مرؤوسيه بالمواخير، ووافق بسرعة: "الليلة إذن".

"كما ترغب يا شودانتشو، نذهب بالطبع".

وتلك هي الليلة التي زار فيها ماخور ماما كالونج ونام مع ديوي آيو، فجاء مامان جيندنج في غدها إلى مكتبه غاضبًا ومهدّدًا.

بعد زيارة ذلك المجرم، أدرك شودانتشو أن له عدوًا في هاليموندا. وفي الأيام التالية خرج رجاله يجمعون المعلومات، فبلغته سمعة الرجل واسمه: مامان جيندنج. ولم يبد له سبب للرجوع إلى الماخور وممارسة الجنس مع ديوي آيو مرة أخرى، فما من سبب وجيه للتورط مع ذلك الرجل. ثم إن التردد على ماخور تصرف غبي من رجل راغب في إثارة إعجاب زوجته المستقبلية المحتملة.

كان عازمًا كلّ العزم على نيل ألامندا، المرأة التي آمن بأنها خلقت من أجله: امرأة ساخنة في الفراش، مشرّفة في الحفلات، فاتنة في المحافل العامة، ولديها من البأس ما يجعلها تقف بجواره في المراسم العسكرية. لكنه لم يستطع أن يخفي انزعاجه عندما جاءه الرجال الذين جمعوا له المعلومات عن مامان جيندنج بمعلومات أخرى عن ألامندا: فتاة تستطيب دماء الرجال، وأن تراهم مفطوري القلوب، يعانون حبا من طرف واحد، يعانون من طاعون صورتها، والوحيد الذي ظفر بقلبها شاب شيوعي يدعى الرفيق كلايوون.

"لكن ذلك الشاب ذهب إلى العاصمة ليدرس في الجامعة، وبالتالي يبدو أن علاقتهما انتهت".

كشفت المعلومات على الأقل أن الفتاة انهزمت ولو مرة، ووقعت في الحب، فأشعره ذلك بشيء من الارتياح. صعب عليه أن يصدق أن

تبلغ بها الجرأة والبلادة حد أن تتلاعب برجل في يديه السلطة العليا في المدينة، ما لم يكن الأمر أنها وقعت في الحب للمرة الثانية، وبالطبع كان شودانتشو يؤثر الاحتمال الثاني.

تأكّد اعتقاد شودانتشو حين حدث في عصر أحد الأيام في أثناء زيارته أن لاحظت ألامندا خيطا مقطوعا في زيه العسكري فقالت له "في زيك خيط محلول يا شودانتشو. يمكن أن أثبّته لك لو لم يضايقك هذا".

بدا ذلك في أذني شودانتشو عذبًا عذوبة ارتقت بقلبه إلى السماء السابعة. وسارع يخلع سترته مكتفيا بقميصه الزيتي، وأعطاها لألامندا فدخلت بها إلى غرفة الخياطة. أقنعته تلك الواقعة بأن ألامندا تبادله مشاعره، فلم يبق في نظره إلا أن يتكلم بمزيد من الجدية عن علاقتهما، بل إنه كان يأمل أن يكون من الممكن الكلام عن الزفاف، ولام بينه وبين نفسه البطء الذي يمر به الوقت.

وسنحت له فرصة الكشف عما في قلبه في عصر أحد الأيام وهما يسيران وحدهما في الغابة في رحلة لزيارة مسارات المحاربين أيام حرب العصابات. أراها الرجل الكوخ الذي كان يعيش فيه لسنين كثيرة، والكهوف التي كان يختبئ فيها للتأمل، وما بقي من مخابئ الأسلحة، من مدافع وبنادق وبارود. أراها كذلك الحصون الدفاعية التي أقامها اليابانيون. ثم جلس الاثنان على البحر، في الساحة المقابلة تمامًا للكوخ الحربي، على المقعد والمنضدة الحجريين اللذين كان يعقد لديهما في يوم من الأيام اجتماعاته بقواته. كان الجو دافئا والريح الشرقية تهب ناعمة.

سألها شودانتشو "هل تحبين أن تشربي بعض عصير الفواكه هنا على شاطئ البحر؟" فقالت ألامندا "نعم، سيكون هذا لذيذا بحق". كانت قد رسمت في مخيّلتها مخابئ المحاربين ورأت أنها ينبغي أن تكون مخيفة. رجع شودانتشو إلى الشاحنة التي جاءا بها إلى الموقع وعاد بتُرْمُس.

كانت قوارب الصيد التي قصدت البحر في نهاية عصر ذلك اليوم تتهادى في نعومة على سطح المحيط طافية كزهور اللوتس في بحيرة، وفي تلك القوارب صيادان أو ثلاثة جالسون في مواجهة بعضهم بعضا. لم يلوّحوا أو يصيحوا، بل اكتفوا بالجلوس تسرح أنظارهم في ما حولها ويثرثرون مع بعضهم بعضا.

كان الصيادون يرتدون ملابس ثقيلة طويلة الأكمام وقفازات ويعقدون على أكتافهم أطراف الساري ويعتمرون قبعات مخروطية، ويضعون أقدامهم في أحذية رياضية، احتماء من هواء المحيط ضاري البرودة الذي يوهنهم تدريجيا بالروماتيزم في شيخوختهم. قال شودانتشو إن صيادي السمك الأفراد سوف ينقرضون رويدا رويدا في المستقبل أمام سفن الصيد العملاقة التي تصطاد الواحدة منها قدر ما يصطاد خمسون من أولئك الصيادين وتحل محل تلك القواربالصغيرة الضعيفة أمام الرياح، وإن قباطنتها لن يخشوا يومًا الإصابة بالروماتيزم. قالت ألامندا إن الصيادين أصدقاء البحر منذ القدم فلا يخافون العواصف أو الروماتيزم، ولعلهم لا يطمعون في صيد يتجاوز ما يحتاجونه في يومهم من السمك، وذلك ما كانت سمعته يومًا من كلايوون.

ضحك شودانتشو وبدآ يتكلمان عن أطيب أنواع السمك مذاقا. قالت ألامندا إن الجروبر ألذّها وقال شودانتشو إنه يحب الحبّار فاحتجّت ألامندا لأن الحبار ليس سمكا حقيقيا ذا قشور وزعانف. وضحك شودانتشو مرة أخرى لقولها ذلك. ثم صمت الاثنان لوهلة، وصبّ شودانتشو بعض عصير الفاكهة البارد من الترمس في كأس ألامندا الفارغة. وإذ ذاك قال شودانتشو ما كان يود أن يقوله، أو طرح بالأحرى سؤاله:

"ألامندا، هل تعتقدين أنك قد تحبين أن تكوني زوجة لي؟"

لم تندهش ألامندا على الإطلاق. فقد طرح عليها ذلك السؤال رجال كثيرون، بتنويعات كثيرة للغاية، حتى لم تعد له بمرور الوقت أي قدرة على إدهاشها، بل لقد كان بوسعها أن تخمّن بطريقة أو بأخرى متى يوشك رجل أن يطرح هذا السؤال. كان ترى من واقع تجاربها إشارات على أن الرجل يوشك أن يعترف بحبه لامرأة، وإن اختلفت تلك العلامات من رجل إلى آخر. كانت تشعر بأن المرأة تحدس تلك الإشارات، لا سيما المرأة التي تكون ـشأن ألامنداـ قد رفضت ثلاثة وعشرين رجلا قبل أن تقبل الرابع والعشرين. وفي تلك اللحظة كانت تدبر كيف توحل الخامس والعشرين في مستنقع حمى الحب المرفوض.

وقفت وسارت إلى حافة الجرف، مشاهدة الصيادين وهما يحركان مجدافيهما متقدمين بالقارب في بطء ثم قالت بدون أن تلتفت إلى شودانتشو "لا بد أن يتحاب الرجل والمرأة لكي يتزوجا يا شودانتشو".

"طيب، ألا تحبينني؟"

"لي حبيب بالفعل".

فلماذا إذن تتجملين كلما التقينا؟ هكذا حدث شودانتشو نفسه بشيء من الغضب. ولماذا قبلت أن أصطحبك إلى استديو المصوراتي وتركتني أنظر إلى صور جسمك، ولماذا أصلحت لي الزي العسكري، ما لم يكن ذلك كله لتبيّني لي أنك مهتمة بأمري؟

استعاد شودانتشو كل ما كان من أمرهما، فازداد غضبا على غضب بإدراكه أن الفتاة كانت تتلاعب به طوال الوقت. لعن نفسه ولعن حماقته، لعن تناسيه أن تلك الفتاة هي الفتاة التي استولت على قلوب كثير من الرجال قبل أن ترميها رمي القمامة التافهة. كان أحمق حين لم يتصور أن تجرؤ الفتاة على عمل شيء كذلك في شودانتشو الذي قاد ثورة وصار بطل المدينة، لكنها بالفعل جرؤت، والظاهر أنها في الحقيقة استمتعت بما جرؤت عليه.

وازداد غضبه لما رآها جالسة في هدوء إلى المنضدة، مضطجعة تشرب العصير. ولما ابتسمت له كان الغضب قد أعماه، لكنه كان لا يزال بادي الرصانة. وأخيرًا قال "الحب شيطان، يرعب ولا يرضي. فلو أنك لا تبادلينني الحب، لا بأس، على أن تمارسي معي الحب".

فكرت ألامندا أن الرجل شديد البؤس. نظرت إلى وجهه فلم تدر لماذا صار في لحظة يرتعش ويضطرب وكأنه انفلق شقين، ولماذا بدا كل

شق منهما يعلو ويهوي بمعزل عن الشق الآخر. أرادت أن تسأل شودانتشو عما يجري لوجهه، لكنها لم تقو أن تحمل فمها على النطق لا تدري لذلك سببا. وبدأ جسمها فجأة يرتعد فدعت ألا يكون هو الآخر قد انفلق كوجه شودانتشو إلى شقين. ولكن ذلك هو ما اكتشفت حدوثه بالضبط حينما نظرت إلى يدها القابضة على كأس العصير نصف الفارغ: كانت يدها قد انفلقت شقين بل ثلاثة بل أربعة.

كانت لا تزال ترى، لكن كل ما حولها بدأ يغيم بينما وقف شودانتشو وسار حول المنضدة باتجاهها، قائلا ما لم تسمعه على الإطلاق. لكنها أحسّت بكل شيء حينما وقف شودانتشو بجوارها وأخذ يتحسّس خدّيها في نعومة، متحسّسا ذقنها وأرنبة أنفها. ودَّت ألامندا لو تقف وتضرب الرجل بسبب اجترائه على جسمها، ولكن كل قوتها تبدَّدت، فلم تملك إلا أن تترنح وتسقط بين ذراعي شودانتشو.

شعرت بيدي الرجل تمسكان جسمها النحيل وتشدان عليه وشعرت فجأت بأنها تطير في الهواء فلم تعرف إن كانت ماتت وإن كانت روحها في طريقها إلى ملكوت السماوات. لكنها كانت قادرة أن ترى بعينيها الغائمتين أنها لا تطير مطلقًا بل تطفو في رقة بعدما رفعها شودانتشو على كتفيه القويتين ومضى يحملها. حاولت أن تصيح إلى أين أنت ماض بي فلم يخرج من فمها أي صوت. مضى بها شودانتشو إلى كوخه الحربي، بينما ألامندا طائرة في الهواء إلى أن طرحها فجأة على السرير.

وبينما هي مطروحة هناك بدأت تدرك ما الذي كان يجري بحق. وفي فزع مما قد يحل عليها بدأت تقاوم، ولكنها لم تكن استردت قواها. وكلما مضى الوقت كانت تزداد وهنا حتى التصق ذراعاها وساقاها تمامًا في السرير، فلم تقدر أن تحرك أيًا منها قيد أنملة.

حينما بدأ شودانتشو يفك أزرار فستانها، كانت ألامندا بلا قوة على الإطلاق، مستسلمة تمام الاستسلام، غاضبة ومنهارة. رأت الرجل ينزع فستانها ويرميه على طرف السرير. واصل شودانتشو العمل بهدوء مخيف، فلما تمّ له عريها، بدأت تشعر بأصابعه، بأناملها المتقرحة من فرط ما حملت من أسلحة أيام الحرب، المليئة بالندوب من أثر جروح الحرب القديمة، وبدأ ينزلق على جسمها فيصيبها بالغثيان.

قال شودانتشو شيئًا لم تسمعه، ثم لم تعد أنامله فقط هي التي تتحرك بل هما راحتاه اللتان مضتا تقبضان على جسمها توشكان على تمزيقه. أخذ شودانتشو يعتصر ثدييها في جنون، دافعا في ألامندا الرغبة في الصراخ، ومضى يعيث في جسمها كله، مندفعا بين وركيها، وبدأ يقبل ألامندا، تاركًا على جسمها أثرا من بصاقه. فلم تعد ألامندا تود أن تصرخ وحسب، بل وأن تنحر عنقها فتموت قبل أن يفعل الرجل أكثر مما فعل. لم تدر كم طال الوقت عليها في هذا الوضع، ربما نصف ساعة، أو ساعة، أو يومًا، أو سبع سنين، أو ثمانية قرون، كل ما تعرفه هو أن شودانتشو خلع ثيابه ووقف بجوار السرير عاريا مختالا.

لوهلة ظل الرجل يدعك ثدييها قبل أن يلقي جسمه على جسمها، ويقبل حلمتيها الصغيرتين النافرتين، وبدون أن يضيِّع مزيدا من الوقت اخترقها. كان لا يزال بوسع ألامندا أن ترى وجهه الذي بدا لها مصباحا أبيض مضاء شديد القرب من عينيها، شعرت بفرجها يتمزق تحت وحشيته. بدأت تبكي، لكنها لم تدر إن كانت لا تزال في جسمها القدرة على خلق الدموع. بدا أن الأمر سوف يستمر إلى ما لا نهاية، ماضيًا لثمانية قرون أخرى. لم تعد لديها القدرة على فتح عينيها، شعرت فقط بأن جسمها يمتهن بأقذر ما يمكن. ثم غابت عن الوعي، أو ذلك ما حسبته لمَّا فقدت الإحساس بكل ما يحدث، لكن لعلها فقط لم تكن راغبة في الإحساس بأي شيء. وأخيرًا تركها شودانتشو وانقلب بجوار جسمها الذي لم يتزحزح منذ البداية عن موضعه: عار، مطروح على ظهره، ملتصق بالسرير.

استلقى شودانتشو بجوارها، يتنفس بعمق، حتى ظنت ألامندا أن النوم قد غلبه. أقسمت إنها لو كانت في تلك اللحظة تسيطر على قوتها لما تردَّدت عن استلال سكين وطعنه وهو نائم. أو فجَّرت في فمه قنبلة. أو أطلقته من مدفع إلى عرض المحيط. ولكنها أخطأت الظن بأن النوم غلب الرجل، إذ قام شودانتشو في تلك اللحظة وقال ـفسمعته في تلك المرةـ "لو أنك لا تجدين متعتك إلا في غزو الرجال ثم إلقائهم إلقاء النفايات، فمن سوء حظك أنك قابلتني يا ألامندا. لأنني أنتصر في كل حرب أخوضها، حتى حربي ضدك".

سمعت كلماته الساخرة المستهزئة فنفذت فيها نفاذ الشوك، لكنها لم تقو أن ترد بشيء، فقط نظرت إلى شودانتشو بعين لم تزل غائمة وهو يلتقط ثيابه.

لبس شودانتشو ثيابه بعد ذلك وألبس الفتاة ثيابها قطعة بعد قطعة قائلا إن الوقت قد حان للخروج من الأدغال والرجوع إلى البيت. باتت ألامندا مرتدية ثيابها وكأن شيئًا لم يكن، ولكنها لم تكن منتبهة على الإطلاق، فلم يزل ذلك السم السري يخدرها. كل ما تتذكره هو أن ذلك كله قد حدث بعد أن شربت العصير.

شعرت مرة أخرى بأنها تطير حينما حملها شودانتشو عن السرير. هذه المرة لم يحملها على كتفه، بل أبقاها على خصره بذراعيه القويتين اللتين كانتا في الأيام الخوالي تحملان المدفع بل وحملتا ذات مرة رجلا من رجاله أصيب في معركة مع الهولنديين حتى وصلتا به إلى الأمان. كانت ألامندا محمولة على ذراعيه وهو يبتعد عن كوخه الحربي باتجاه العربة. أجلسها بجواره ثم أدار العربة على الطريق الترابي عبر الأدغال الكثيفة.

أرجع الفتاة إلى البيت. ولم تتذكر ألامندا من الرحلة إلا نفقا معتما. ولما وصلا إلى البيت خرج شودانتشو من العربة حاملا جسد ألامندا واستقبلته ديوي آيو وساعدته على إدخال الفتاة غرفتها. وضعت بعرض سريرها بينما ديوي آيو تسأل عما جرى. قال شودانتشو إنه لا داعي للقلق.

"أصابتها السيارة بالغثيان".

"بل لأنك اغتصبت جسمها عنوة يا شودانتشو"، كذلك قالت له ديوي آيو التي حنَّكتها التجارب ففهمت كل ما جرى بدون أن يحكي لها أحد شيئًا. "لكن إياك أن تتصور أنك رجل محظوظ لأنك انتصرت في هذه المعركة".

تركت ألامندا وحدها في الغرفة، وللمرة الأولى شعرت بالدمع يبلل خديها، وبدأ السواد يغزو كل شيء، وأخيرًا، وبحق، وللمرة الأولى، فقدت الوعي.

٩

عندما استردَّت ألامندا وعيها في اليوم التالي، كان أول ما فكرت فيه هو كلايوون، وسرعان ما أدركت أن كلَّ ما بينها وبين حبيبها قد انتهى.

في ذلك الوقت، شعرت ألامندا بأنها امرأة ملعونة، ربما لم تندم على ما فعلت، وربما رضيت بما جرى لها بسببه، ولكنها مع ذلك شعرت بأن اللعنة قد حلَّت عليها. ودَّت لو تكتب رسالة إلى حبيبها تصله مباشرة بعد رسالة الصور الفوتغرافية تحكي له فيها ما جرى، باستثناء الجزء الذي فقدت فيه السيطرة على نفسها فتلاعبت برجل ما كان لها أن تتلاعب به، وكذلك الجزء المتعلق باغتصاب شودانتشو لها. ودَّت أن تقول له فقط إنها نامت مع شودانتشو. كانت خجلانة من نفسها، لكن الشيء الوحيد الذي كانت نادمة عليه بحق هو أنها سوف تفقد حبيبها، وبرغم أنها كانت على يقين من أن كلايوون سوف ينالها في أي ظرف، لم تشأ مطلقًا أن تراه. كانت لم تزل تحبه، ولكنها علمت أنها سوف تكذب وتقول إنها وقعت في غرام شودانتشو. ستقول إنها هاجرة حبها القديم لتتزوج بولعها الجديد. وإنها تطلب منه الغفران.

وكتبت الرسالة في عصر ذلك اليوم، ووضعتها في صندوق البريد بمجرد أن أغلقت عليها المظروف.

وبات عليها أن تفرغ لشودانتشو، وتثأر منه، وتفكر في ما يمكن أن تفعله تهدئة لغضبها بعيدا عن طعنه بسكين حاد. فلم تكد تضع رسالة كلايوون في البريد، حتى مضت إلى المقر العسكري، فتلقّت تحية فاترة من الجندي المناوب في قفص القرد المجاور للبوابة، ومثلما سبق أن فعل ماما جيندنج لدى وصوله، توجهت مباشرة إلى مكتب شودانتشو دون أن تطرق بابه. كان شودانتشو جالسا وراء مكتبه شاخصا إلى صورتين لألامندا يمسكهما بكلتا يديه، بينما بقية الصور الثماني الأخرى منثورة على المكتب. حينما اقتحمت ألامندا الغرفة، فوجئ بها شودانتشو وحاول أن يخفي الصور فأشارت إليه ألامندا أن لا يبالي. ثم وقفت الفتاة أمامه وقد وضعت يدا على المكتب والأخرى على فخذها.

قالت "عرفت الآن ما كنتم تسعون إليه من حربكم تلك" بينما شودانتشو ناظر إليها نظرة عاشق آثم. "والآن عليك أن تتزوجني، برغم أنني لن أمنحك حبي أبدا. فإن لم تفعل، فسوف أقتل نفسي بعد أن أخبر المدينة كلها بما فعلته بي".

"بل أتزوجك يا ألامندا".

"تمام. سيكون عليك أن ترتب الزفاف وحدك"، ثم خرجت بدون أن تزيد كلمة.

في غضون أسبوع واحد كان زواجهما موضع نقاش ساخن بين الناس كلما التقوا أو تكلموا، فيتكهنون حوله، ويتمعنون فيه باحترام، ويسخرون منه أيضًا. كان مواطنو هاليموندا قد اعتادوا كل شيء، وما عادوا يندهشون من شيء، فاستقبلوا الخبر ببساطة. بل لقد قال بعضهم في إعجاب بالسلطة إن ألامندا وشودانتشو أليق اثنين يمكن أن يتخيلهما إنسان على وجه الأرض: فالفتاة جميلة، وابنة عاهرة محترمة، والرجل ثائر سابق كان في وقت من الأوقات القائد الأعلى للجيش، فما أليق أحدهما بالآخر. وقال آخرون إن شودانتشو أنسب للفتاة من الخطيب الجعجاع كلايوون، وإن ألامندا الناصحة أدركت ذلك.

وكان لكلايوون في المدينة أصدقاء كثر من صيادي السمك، إذ كان في أثناء عيشه في المدينة يذهب معهم إلى البحر ويساعدهم في جذب شباكهم إلى الشاطئ، ويأخذ منهم ملء كيس بلاستيكي سمكا مما اصطادوه أجرا له، وكان يساعدهم في إصلاح التسريبات في القوارب والمحركات الصاخبة حين كان يعمل في محل القوارب، وكان له أصدقاء من عمال المزارع، إذ كان كثير من المزارعين على أطراف المدينة يعملون أجراء في أرض غيرهم، وكذلك كان يفعل كلايوون، وكانوا يصطفون بينما يسليهم كلايوون بالحديث في شتى المواضيع التي تخطر على عقله العبقري، مواضيع كانوا لا يعرفون عنها أي شيء وليس بوسعهم أن يفهموا منها شيئًا، وكان من أصدقائه بنات وقعن في غرامه، أو لا يزلن واقعات في غرامه، وبرغم أن كلايوون كان يهجرهن واحدة بعد واحدة إلى فتيات جديدات، لم يحملن تجاهه ضغينة وبقين على حبهن له مثلما

كن من قبل، وكان له أصدقاء من أقران طفولته الذين صاحبوه في السباحة وصيد الطيور ورحلات البحث عن الحطب والأعشاب التي كانوا يبيعونها للأثرياء، قديمًا حينما كانوا جميعًا صغارا، وقد غضب هؤلاء الأصدقاء جميعًا حينما هجرت ألامندا صديقهم لتتزوج شودانتشو. لكنهم ما كانوا ليتدخلوا في شؤون ألامندا، ثم إن قضية انكسار قلب كلايوون كانت مسألة شخصية لا علاقة لغيره بها.

وهكذا ذاع خبر حفل الزفاف الذي قيل إنه سيكون أكبر حفل عرفته المدينة في ماضيها أو ستعرفه في مستقبلها، وانتشر الخبر بسرعة من أقرب الناس إلى أبعدهم، حتى بلغ شتى أرجاء القرى المبعثرة حول هاليموندا. تأكّد أن الحفل سوف تحييه سبع فرق من مسرح العرائس، وأن كبار محركي العرائس سوف يعرضون المهابهاراتا كاملة طوال سبع ليال، وأن كلّ واحد من سكان المدينة سوف يدعى للحضور، وقال الناس إن الطعام الذي سيقدَّم في أيام الزفاف يمكن أن يطعم المدينة كلها على مدار سبعة أجيال. وتأكد أيضًا أن الزفاف سيشهد عروضا لرقصات السينترين الصوفية النشوانة ورقصة الحصان المنبسط[41]، وعروض أفلام على شاشات، وطبعا سيشهد مصارعة خنازير.

وأخيرًا وصل الخبر إلى كلايوون، مع الرسالة التي بعثتها إليه ألامندا. قبل يوم من الزفاف، بعدما نصبت الخيام بالفعل أمام بيت

41 Kuda Lumping (أو الحصان المنبسط) رقصة جاوية تراثية تصور جماعة من الفرسان يمتطون خيولا من البامبو مرتدين ثيابا مبهرجة، وتبدو الرقصة فى حركاتها مستلهمة القوات الحربية

ديوي آيو، وبينما كان جسم ألامندا يتزيَّن ويتهندم ويتهيأ بمساعدة عدد من خبيرات الزفاف، رجع كلايوون إلى هاليموندا بالقطار والغضب يضطرم في جسمه كله، وليس ذلك فقط لأنها المرة الأولى التي تؤذيه فيها امرأة أو تهجره، بل لأنه أيضًا أحب ألامندا بحق من كل قلبه.

أمام المحطة، في المكان الذي شهد آخر لقاء بينهما وآخر قبلة، مضى كلايوون يجتث شجرة اللوز بينما جمع من الناس ناظرون إليه، لم يجرؤ منهم أحد على اعتراض طريقه، وقد رأوا عينيه تقدحان بشرر الغضب في محجريهما، ولأنه أيضًا كان يحمل منجلا، فحتى أفراد الشرطة الذين تصادف وجودهم في المنطقة لم يجرؤوا على منعه من اجتثاث الشجرة التي ما غرست في مكانها إلا ليحتمي بظلها الناس ويستريحوا فيه، ولما انهارت الشجرة، تراجع الجمع خطوات حماية لأنفسهم أن تصيبهم الغصون والفروع الساقطة، وهم لا يعرفون سببا يجعل هذا الرجل يفرغ غله وغضبه في شجرة لوز مسكينة لم تقترف أي ذنب.

في الوقت نفسه لم يستأ كلايوون من ازدحام الناس أمام المحطة وفرجتهم عليه، فبدأ يهوي على الغصون والفروع ممزقا ورق الشجر إلى أن امتلأ بنثارها الطريق المفضي إلى الرصيف، فلما هبَّت الريح إذا بورق الشجرة يثور كأنه إعصار زاحف، ولكن حتى الكناسين في الشوارع لم يجرؤوا على اعتراض طريقه مكتفين بالنظر محاولين أن يقرروا إن كان قد فقد عقله تمامًا.

رجل واحد فقط، كان صديقا لكلايوون منذ الطفولة، هو الذي اجترأ وسأله ما الذي يفعله بالشجرة. فأجابه كلايوون في تهذيب "أقطعها"، ثم لم يجرؤ أحد بعدها على طرح أي سؤال عليه فواصل عمله.

بعدما فقدت الشجرة غصونها وأوراقها، بدأ يقطعها محيلا إياها إلى وقود. كان يشق أكبر الغصون أنصافا وأرباعا فسرعان ما بدأ الخشب يتراكم على جانب الطريق. مضى كلايوون إلى نضد الأمتعة فتناول قطعة طويلة من حبل خشن دونما استئذان (وبالطبع لم يعترضه أحد) وربط الخشب به. ولما انتهى ذلك كله، وبدون أن يكلم أحدًا من الناس الذين كانوا لا يزالون يحتشدون حوله ويتفرجون عليه في إخلاص، أعاد منجله داخل الساري الذي يرتديه، وتناول كومة الخشب، ومضى مبتعدا عن المحطة.

في البداية أراد الناس أن يتبعوه، ولكن الصديق الذي سبق أن كلمه فهم فجأة ما يوشك على الحدوث فقال لهم "اتركوه وشأنه". ثم تبيَّن أن ما وقع في نفس صديقه هو بالضبط ما وقع في الحقيقة: مضى كلايوون إلى بيت ألامندا فوجد الفتاة تشرف على تجهيزات الحفل. اندهشت ألامندا من وصوله، وازدادت دهشة حينما رأت الرجل الذي أحبته حبا جما يأتي حاملا كومة خشب لا يعرف أحد الغرض منها.

لوهلة ودَّت ألامندا لو تثب إليه، وتعانقه وتقبله مثلما سبق أن فعلت في المحطة، وتقول له إن هذا الزفاف زفافهما، وإنها كذبت عليه

حين قالت إنها سوف تتزوج بشودانتشو. ولكن عقلها سرعان ما رجع إليها فحاولت أن تبدي الافتخار بزيجتها من شودانتشو، وتظهر بمظهر الفتاة الراضية المعتدة بنفسها. أسقط كلايوون الخشب عن كتفه على الأرض، فتراجعت ألامندا تقي أصابع قدميها أن تنجرح، وأخيرًا فتح فمه قائلا "ما هذا الخشب إلا شجرة اللوز اللعينة التي تواعدنا أن نلتقي عندها مرة أخرى، هي لك تضرمين فيها النار في يوم زفافك".

أشاحت ألامندا بيديها كأنها تأمره بالانصراف، فرحل كلايوون، بدون أن يقول كم جرحته الإشارة، وكيف رمت به في عاصفة من الكراهية محت في طريقها كل شيء. لعله لا يعرف أنه بمجرد أن اختفى عن بصرها، مضت ألامندا إلى غرفتها فبكت، وأحرقت ما بقي لديها من صورها، ولما حان الوقت الذي التقت فيه بشودانتشو في قاعة زفافهما في اليوم التالي كانت قد جرَّبت كل طريقة لإخفاء آثار ليلة كاملة من الدموع فلم تنجح في ذلك، ولم تنجح فيه على مدار شهور، بل وعلى مدار سنين، فبقي ذلك نميمة تسري من فم إلى فم بين أهل المدينة.

اختفى كلايوون شهورا بعد ذلك، أو أن ألامندا على الأقل لم تسمع عنه خبرا، أو لعلها لم تشأ أن تسمع عنه أي شيء. تصوَّرت أن يكون رجع إلى العاصمة ليكمل دراسته في الجامعة أو لينضم إلى الشبيبة الشيوعية، من يدري. لكن الحقيقة أن كلايوون لم يمض إلى أي مكان. فقد بقي في هاليموندا، ينتقل من بيت صديق إلى بيت صديق أو يختفي في بيت أمه. بل إنه حضر زفاف ألامندا سرًّا. وهنَّأ شودانتشو وألامندا متنكِّرا، فلم يعرفه منهما أحد، ورأى بعينيه أن ألامندا قضت ليلتها

تبكي، في دليل قاطع على أنها لم تتزوج برضاها، وفي برهان ساطع على أنها اختارت زوجا لم تكن تحبه. فتبدَّد غضب كلايوون على ألامندا ولم يبق إلا أساه على المصير المأساوي الذي حلّ بامرأة أحبها.

ولكنه بقي يتساءل عما حمل ألامندا على الزواج بشودانتشو الذي لم تكن قابلته إلا قبل أسابيع من زفافهما، إلى أن حكى له صياد سمك أنه حدث في عصر أحد الأيام أن رأى شودانتشو يقود عربة خارجا من الأدغال وألامندا فاقدة وعيها بجواره، وأقسم صياد آخر إنه رأى من عرض المحيط شودانتشو يحمل ألامندا على كتفيه إلى كوخه الحربي. قال الصياد "يؤسفني ما جرى بينك وبين ألامندا، لكن لا تتعجل ولا تتهوَّر. وإن كنت تخطّط للانتقام، فاجعلنا معك وفي عونك".

قال كلايوون "لن أسعى للانتقام. ذلك الرجل ينتصر في كل معاركه".

رجع كلايوون إلى المحيط مع أصحابه مثلما كان يفعل في السابق، وقضت ألامندا ليلة الزفاف القلقة المتوترة. خدَّرت شودانتشو بقرص منوِّم فتهاوى الرجل على الفور وعلا شخيره على حشية زفافهما الصفراء الفاقعة المزدانة بزهور يانعة صُفّت فوقها. وفي إنهاك فرشت ألامندا حشية على الأرض ونامت عليها، بدون أدنى نية للنوم بجوار زوجها مثلما تفعل أغلب العرائس. وعلى غير توقع استيقظ شودانتشو في ساعات الصباح الأولى، ونظر حوله، فارتاع حين وجد أن ليلة زفافه قد فاتته وأن عروسه الجديدة نائمة على الأرض فوق حشية نحيلة.

لعن نفسه بسبب ذلك المنظر الذي لا يغتفر، وسارع ينحني مغترفا زوجته من الأرض واضعا إياها على السرير.

استيقظت ألامندا فوجدت شودانتشو يبتسم ويكلمها عن حماقته إذ ضيَّع ليلة زفافهما بدون أن يفعل أي شيء، ولما خلع شودانتشو ثيابه كلها، ووقف عاريا بجوارها، أدارت له ظهرها وقالت "ما رأيك أن أحكي لك حكاية قبل أن نمارس الحب؟"

ضحك شودانتشو وقال إنها فكرة مثيرة، وتمدّد في السرير معانقا زوجته من الخلف، متشرِّبا عبق شعرها قائلا "بسرعة، ابدئي قصتك، لأنني فعلًا على آخري".

وبأفضل ما في وسعها بدأت ألامندا تحيك حكاية، مخترعة قصة تدور ولا تنتهي، لكي لا يتبقى أمامهما وقت لممارسة الحب، ليس قبل موتهما، أو ربما حتى نهاية العالم. كانت ألامندا تحكي حكايتها هي، بينما مضى شودانتشو يستكشف جسم ألامندا كله بيديه، نافد الصبر يريد أن تنتهي الحكاية، برغم أنه لم يكن يعرف لها وجهة تقصدها. بدأ يتحسس أزرار جيبة ألامندا، ويفتحها واحدًا تلو الآخر. وحاولت ألامندا أن تعوقه فانثنت وتكوّرت على نفسها، لكن يدي شودانتشو القويتين قلبتها بيسر وثبّتتها ليعتليها. دفعت ألامندا شودانتشو لينقلب عنها وقالت "شودانتشو، سنمارس الحب حين تنتهي القصة".

نظر إليها شودانتشو في استياء، وقد استشعر في اللعبة لفحة من العداء وقال إنه يمكن أن يستمع إلى بقية القصة في أثناء ممارسة الحب.

قالت ألامندا "ولكن الاتفاق اتفاق، ونحن اتفقنا أنني سأتزوجك ولكنني لن أمارس معك الحب".

غضب شودانتشو من ذلك الذي قالته فلم يعد يبالي بأي شيء وشد جيبة زفاف عروسه الجديدة حتى مزَّقها. أطلقت ألامندا صرخة خافتة أخرسها شودانتشو وجذب ثيابها. ولما بدا أن ألامندا لم تعد تبدي مقاومة حقيقية، وقد مزق عنها شودانتشو ثيابها، صاح في دهشة "اللعنة! ماذا فعلت بفرجك؟"، وهو يحملق في لباس معدني مغلق بقفل بدا أنه بلا ثقب لمفتاح يفتح منه.

قالت ألامندا بهدوء غامض "هذا لباس مقاوم للإرهاب يا شودانتشو، اشتريته مباشرة من حداد وساحر. لا يفتح إلا بتعويذة أنا وحدي التي أعرف كيف أتلوها، ولن أفتحه لك، ولو انطبقت السماء على الأرض".

حاول شودانتشو في تلك الليلة أن يكسر القفل باستعمال مختلف الأدوات، جرب أن يثقبه بمفك، وطرق عليه بمسمار ومطرقة، بل أطلق عليه رصاصة من مسدسه ففقدت ألامندا الوعي من فرط الخوف. وفشل ذلك كله في فتح اللباس المعدني، وأخيرًا علق بين الشهوة والغضب، فلم يبق بوسعه إلا أن يقيم مع زوجته علاقة بلا إيلاج. وفي الصباح جرح طرف إصبعه جرحا طفيفا وأسقط منه دما على ملاءة في رمز كان على حديثي الزواج في ذلك الزمن أن يقدموه للمغسلة.

بعد أسبوع من الزفاف، حين لم يبق من الاحتفالات إلا قمامتها والشائعات، انتقل الزوجان إلى البيت الذي اشتراه شودانتشو، وكان

من بقايا الحقبة الاستعمارية واشتراه بخادمتين وبستاني. كانت ديوي آيو هي التي طلبت منهما الانتقال إلى بيتهما، وأعطتهما الانطباع بأنهما لا ينبغي أن يزوراها إلا في أضيق الحدود، والأفضل ألا يزوراها مطلقًا. وقالت لألامندا "على المرأة المتزوجة ألا تختلط بالعاهرات". ودائمًا كانت أمها محقة، فرحلت ألامندا مثقلة القلب.

طوال ذلك الوقت كله، واحتراما لعهدها، لم تخلع ألامندا لباسها الحديدي. بدت وكأنها جندي من جنود العصور الوسطى، حذر لا يتبدد حذره من عدوه الكامن يتحيّن لحظة يطعن فيها بسيفه المترهل والقاتل مع ذلك. بدا أن شودانتشو نفسه قد استسلم وفقد كل أمل في فتحه، خاصة بعدما استشار عددا من السحرة. فهزَّ السحرة جميعًا أكتافهم وقالوا إنه ما من قوة، وما من روح شريرة، بقادرة على النيل من قوة امرأة أسيء إليها. دفع كثيرًا من المال مقابل تلك الاستشارات غير المجدية، لا من أجل المشورة في ذاتها، بل ليمسك السحرة ألسنهم فلا يتسرَّب ذلك العار العائلي وينتشر. وذلك العار بالذات كان يلزمه بألا يطلب النصح من أحد في مشكلات غرفة نومه.

كان قد حاول من قبل إقناع زوجته بالعدول عن عنادها اللعين، فلم تستسلم ولم تخلع لباسها الحديدي، بل قرَّرت أن تنفصل عنه في نومها، كأنهما زوجان في انتظار أن تنهي المحكمة طلاقهما. وكان ذلك يعني أن ينام شودانتشو وحيدًا معانقا مخدته متقلبًا معانيا إثارته البائسة. ومرة قالت له ألامندا -بوازع ربما من الإشفاق أو إظهارا للنبل- "لو

لزمك تمامًا أن تقذف ما في خصيتيك، فلا بأس أن تزور عاهرة، ولن أغضب، بل سأفرح لك".

لكن شودانتشو رفض أن يمتثل لنصيحة زوجته. ليس لأنه ظن في نفسه القدرة على قهر رغبته، وليس لأنه لم يكن معنيا بالعاهرات، بل لأنه أراد أن يظهر لها مدى إخلاصه، ومدى طهر حبه لها من الأنانية، راجيا أن يرق قلب زوجته بعد فترة لعذوبة طريقته وامتناعه عن اللوم.

لكن ألامندا لم تبد أي بادرة على الاستسلام، ولم تكن تخلع لباسها الحديدي إلا في اللحظات العابرة التي تدخل فيها الحمام المغلق لتبول وتغتسل، ثم تعود بعد ذلك فترتديه وتغلقه بتعويذتها السرية الخبيئة في أعماقها أينما تكُن.

كان شودانتشو يتمنى أن تفلت التعويذة من لسانها، أو يرتفع بها صوتها فيسمعها، فطال عليه الانتظار بلا جدوى، لأنها لم تغمغم بالتعويذة حتى في منامها. فلم يبق لشودانتشو من شيء إلا أن يستسلم لقدره، ويرضى بأنه لن يمارس ثانية الجنس مع امرأة، وسيبقى إلى الأبد حبيس جلسات الطوارئ مع مخدته في فراشه المهجور. وفي أوقات أخرى، كان يستعصي عليه احتمال اللعبة المجنونة فيسارع إلى الحمام ليفرغ في المرحاض ما يثقل خصيتيه.

في تلك الأيام حاول أن يلهي نفسه بالتركيز مرة أخرى على أمور التهريب التي كان يديرها منذ سنين مع صديقه بيندو. كانا قد اشتريا سفينة كبيرة لصيد السمك، فصارت نشاطهما الشرعي الوحيد. كما

عاد مرة أخرى إلى هوايته القديمة فصار يستأنس الكلاب البرية ويروِّضها. وبعدما مرَّ عام باتت الكلاب قادرة على مساعدة المزارعين في مطاردة الخنازير. ولكن سنة كاملة مضت على العروسين بدون أن يمارسا الحب، فبدأت النمائم تسري بين الناس. وبلغت بهم الجرأة أن يحلفوا، بيقين لا يرقى إليه شك، إن شودانتشو وألامندا لم يتناكحا ولو مرة واحدة، والدليل أن أعراض الحبل لم تظهر على ألامندا.

وبدأ عدد من الصبية يخمّنون أن شودانتشو إذا لم يكن عنينا فهو ربما عقيم، وتجاسر بعضهم فقالوا إن اليابانيين خصوه في الحرب. وتنقلت القصة المجنونة من فم صبي إلى أذني آخر حتى بلغت أسماع الكبار فصدقوها وازدادت القصة انتشارا.

لم يفكر أحد في تخمين آخر، كأن يقال إن الزيجة السريعة لم تكن قائمة على حب، لأن الزوجين راعيا برغم كروب غرفة نومهما أن يحافظا على صورة لائقة في العلن، فكانا يبدوان كزوج وزوجة يعتني أحدهما بالآخر أفضل العناية. كانا يحضران الحفلات العامة معًا، بل وكان الناس يرونهما إذ يتنزهان في المساء يدا في يد ويذهبان إلى السينما في ليالي السبت. وكان سهلا على الناس أن يسيئوا الفهم إذ يرون تناغما كالبادي عليهما. كانت ألامندا تبدو دائمًا مبتهجة وشودانتشو يبدو دائم الشغف بها، فلم يكن من سبب لمرور سنة بدون أن تظهر على ألامندا بوادر الحبل إلا أن يكون أحد الزوجين عقيما، أو كلاهما. وأخيرًا قال قائل "يا للعار، لقد بدت زيجتهما مثالية".

الشخص الوحيد الذي لم يستأ أقل الاستياء من كل ذلك اللغط هو ألامندا. بدا كأنها لا يمكن أن تكون أقل اكتراثا من الأمر برمته، أو كأنها تجد فيه تسلية، فكانت في غير أوقات مصاحبتها لشودانتشو في المراسم تقضي وقت فراغها في قراءة الروايات. وتلك الروايات في حقيقة الأمر هي التي علمت ألامندا كيف تؤدي دور الزوجة السعيدة أمام الناس. ولم تكن تفعل ذلك للحفاظ فقط على صورة زوجها، بل وعلى صورتها هي، إذ لم تكن تريد أن يعلم أحد أنها تزوجت برجل لا تحبه. لم تكن تريد أن يشفق عليها أحد.

والظاهر أن شودانتشو كان آخر من علم بالنمائم الكريهة التي انطلقت من أفواه الصبية المتطفلين عن عجزه أو إخصائه واستشرت حتى لم يعد الأطفال يلعبون لعبة الحرب، خوفا من افتراضهم أن الجنود جميعًا مصيرهم الإخصاء. ولما بلغت النمائم شودانتشو أخيرًا، حلَّ عليه ذهول تام، وألمَّ به مزيج من المذلة والغضب وقلة الحيلة. كان بعيدا عن علاقته بزوجته في غرفة النوم يرى أن زواجه يسير على خير ما يرام. فألامندا كانت تظهر بمظهر الزوجة الرقيقة اللائقة بها، ولم يعنه في كثير أو قليل أنها تفتعل هذه الصورة افتعالا. ولكنه لم يستطع أن يستمر في قذف أبنائهما في المرحاض إلى الأبد، فهاله في النهاية أن عامًا كاملا مرَّ عليه ولم يقو على اختراق ذلك اللباس الحديدي اللعين.

وفي إحدى الليالي، بعد شهور عديدة من النوم في سريرين منفصلين، دخل شودانتشو الغرفة التي تنام فيها ألامندا فوجدها مرتدية بجامة، أغلق الباب وأوصد رتاجه واقترب من ألامندا فتابعت اقترابه في

ارتياب وهي تتحسَّس ما بين فخذيها لتطمئن أن ترسها المعدني لم يزل في مكانه موصدا. قال شودانتشو لزوجته بائس الصوت "مارسي معي الحب يا عزيزتي".

هزّت ألامندا رأسها وأدارت ظهرها متجهة إلى السرير. جذبها شودانتشو من ظهرها ومزق البجامة. وقبل أن تتخذ ألامندا رد فعل، كان شودانتشو قد دفعها إلى السرير، وخلع عنه ثيابه وسارع يثب عليها. قاومته ألامندا، دافعة جسمه عنها بكل ما أوتيت من قوة، لكن شودانتشو كان يمسكها بشدة، ويقبلها في جنون، ويعتصر ثدييها بملء رغبته. صرخت ألامندا وهي تحاول الإفلات منه "أنت تغتصبني يا شودانتشو". ولكن شودانتشو ظل على ما يفعله، يعيث في جسمها، ويعتصر كل قطعة منه اعتصارا. وأخيرًا قالت ألامندا "شودانتشو أيها الشيطان اللعين، يا إبليس، يا وضيع، اغتصبني كما تشاء وسوف ينكسر رمحك على ترسي الحديدي" ثم لم تعد إلى مقاومته، تاركة إياه يعبث بها كيف يشاء.

صار شودانتشو يتحرك بمزيد من الحرية، موهما نفسه أنه ينكحها فعلًا، إلى أن دفع سلاحه المنيَّ على سطح اللوح المعدني الواقي لفرجها. انقلب شودانتشو على جنبه مقطوع الأنفاس، وحبات العرق على كامل جسمه. بقي صامتا لوهلة بينما ألامندا مسرورة بحماقته، سعيدة بانتصارها عليه وانتقامها منه. نظر إلى منفرج ساقيها في غضب، وقد تمكّن الألم من ساقيه من فرط احتكاكهما بالحديد. جلس على طرف السرير مقطبا وبدأ يبكي دمع رجل مهيض الجناح مثير للشفقة وقال

"مهما فعلت هذا بك، فلن تحبلي قط، يا لعينة الفرج والرحم"، ونهض فارتدى ثيابه وغادر غرفة زوجته.

وأخطأت ألامندا حين ظنّت أن شودانتشو استسلم وقبل العقاب الذي هيّأته له. فذات يوم بينما كانت في الحمام محكم الإغلاق، تامّة العري ولباسها الحديدي متروك على حافة الحوض، إذ ارتطم بباب الحمام شيء ما بقوة طاغية لينشق الباب عن شودانتشو مقتحما الحمام. وقبل أن تصل ألامندا إلى لباسها الحديدي، كان شودانتشو قد أمسك به بين قبضتيه. صاحت ألامندا صيحة نمرة جريحة، وألقى بها شودانتشو على كتفيه مثلما سبق أن حمل جسمها عديم الحيلة في الأدغال التي خاض فيها حرب العصابات. خرج بها من الحمام وهي توسع ظهره لكما وركلا. وكانت الخادمتان تتجسسان على المشهد من شق في باب المطبخ وجسداهما يرتعشان خوفا.

أخذ شودانتشو ألامندا إلى غرفته، إلى الغرفة التي كان يأمل أن تكون غرفتهما، ورماها على السرير ثم أغلق الباب. قالت ألامندا "أنت شخص لعين يا شودانتشو" ووقفت على السرير ترتعش وهي تتراجع باتجاه الجدار. "كيف تجرؤ على أن تغتصب زوجتك؟". لم يرد شودانتشو، بل أخذ يخلع ثيابه وواجه ألامندا بوجه كلب شبق. فلما رأته على تلك الحال أنبأتها غريزتها أنها في خطر، فألصقت نفسها بالجدار، لكن شودانتشو سارع يمسكها، ويرميها على السرير، ويرمي نفسه عليها.

ودقيقة بعد دقيقة بقيا في معركة، معركة رجل يريد أن يفرغ شهوته مع امرأة تخمش وتصرخ لتحمي نفسها من حب لا تريد بأي

حال أن يكتمل. شدت ألامندا بأقوى ما في استطاعتها على فخذيها، لكن شودانتشو فصل بينهما عنوة بركبته القوية قاضيا على آخر دفاعاتها، وكان ما ينبغي أن يكون. اغتصب شودانتشو زوجته، وانتهت المعركة، فقالت ألامندا باكية "عليك اللعنة، أيها الشيطان المغتصب". خرج شودانتشو بخمشتين في وجهه، وألامندا بألم مبرح في فرجها.

لم تدر كم طال عليها الوقت وهي غائبة عن الوعي، لكنها لم تفق إلا لتجد نفسها مطروحة على ظهرها عارية، وقد وثِّقت يداها وقدماها بأربعة أركان السرير. شدَّت ألامندا الحبال التي توثقها، لكنها بلغت من الإحكام أن كل مقاومة لها كانت تسفر عن مزيد من الألم في معصميها وكاحليها.

سألته في غضب "أيها المغتصب الشيطان ماذا فعلت؟" وكان أمام عينيها واقفا بجوار السرير في كامل ثيابه. "لو كنت تبحث عن خرم تغرس قضيبك به فكل بقرة وعنزة لديها خرم".

وللمرة الأولى منذ أن اختطفها من الحمام، ابتسم شودانتشو وقال "أستطيع الآن أن أنكحك وقتما أريد". فلما سمعت ألامندا ذلك انهالت عليه باللعنات والسباب وهي تقاوم الحبال بينما تركها شودانتشو وخرج.

في ذلك اليوم جاء شودانتشو برجل أصلح باب الحمام المحطم، ورمى لباس ألامندا الحديدي في قاع البئر، وبنظرة مخيفة هدَّد الخادمتين لكي لا تنطق أي منهما بشيء مما رأته. وفي تلك الأثناء كان الضعف يتمكن من ألامندا إثر محاولاتها العبثية أن تحرِّر نفسها، وهي مستمرة في

البكاء والنواح المؤسي. رجع شودانتشو مرارا إلى الغرفة التي أسر فيها ألامندا، ممارسا معها الحب كأنهما زوجان حديثا الزواج، فكان ينكحها كل ساعتين أو ساعتين ونصف الساعة بلا كلل أو ملل. كان طفلا سعيدا بلعبته الجديدة، وكلما أمعن في ذلك، فقدت أي مقاومة من ألامندا معناها.

قالت ألامندا "يا نهار أسود، حتى لو مت، فسيظل هذا الرجل ينكح مقبرتي".

طوال ذلك اليوم بقيت ألامندا مقيدة إلى السرير، تغتصب المرة تلو المرة، ثم جاء شودانتشو عند العصر بحوض ماء دافئ وفوطة مبلولة وأخذ يمسح جسم زوجته برقة وعناية كأنه ينظف مزهرية ثمينة من السيراميك الهش، وبعد ذلك مارس معها الجنس مرة أخرى، ثم حمَّمها من جديد، واستمر على ذلك النحو لفترة. لم يتأثر قلب ألامندا برقة عناية شودانتشو بها، ولما جاءها بالطعام، أحكمت إغلاق فمها، فلما فتحه شودانتشو عنوة وأقحم الرز فيه، بصقته بشدة فتناثر على وجهه. قال شودانتشو "كلي، لأنني لن أستمتع بممارسة الحب مع جثة". فردت عليه ألامندا "وأنا لا يمتعني أن أمارس الجنس مع حي مثلك".

خطر لشودانتشو وهو يواصل التودّد إليها أن هذا جنون. ظلت ألامندا ترفض الطعام مصرة أن يفك وثاقها وأن يعيد إليها لباسها الحديدي، وأبى شودانتشو أن ينفذ طلبها. وتخفيفا عن نفسه فكر شودانتشو أن إصرار ألامندا سوف يبلغ أقصى مدى له ثم تلين. وبعد

ليلة من الألم والتلوّي واحتمال بطنها الفارغ، سيأتي الصباح فتكون مستعدة على الأرجح لقبول الطعام.

لّما فكّر في هذا، أعاد شودانتشو طعام زوجته إلى المطبخ، وأكل وحده على المائدة. وعند العصر جلس في الشرفة ينعم بالهواء البارد بينما تزقزق طيور القمري التي أهديت لهما في زفافهما. كانت الطيور تتواثب في أقفاصها المعلقة في السقف. أخذ يستمتع كذلك بالمصابيح الساطعة والسيجارة التي مضى يمج دخانها في تلذذ وهو يستعيد تفاصيل يوم انتصاره. أخيرًا عرف طعم ممارسة الحب مع زوجته، فبرغم أنه سبق أن اغتصب ألامندا، فقد كان ذلك قبل زواجهما.

كان من عادته هو وألامندا أن يجلسا في الشرفة الأمامية في مثل تلك الأمسية. ولاحظ كثيرون تلك العادة، فلما مرّ به بعضهم ورأوه جالسا في الشرفة وحده ألقوا عليه التحية "مساء الخير يا شودانتشو"، ولكنهم في الوقت نفسه تساءلوا "أين ربة البيت؟"، فكان شودانتشو يرد التحية ويقول إن ألامندا متوعكة قليلا وراقدة في السرير. وافتقد لذلك السبب ألامندا، فكانت في سيجارته بقية قليلة، لكنه رماها في الفناء وذهب ليرى زوجته.

وجدها موثقة عارية مستلقية على ظهرها كما كانت طول النهار، لكن النوم فيما يبدو كان قد غلبها. والله وحده يعلم إن كان شودانتشو تحوّل في تلك اللحظة إلى زوج صالح، لأنه غطى زوجته ببطانية تقيها الهواء البارد والبعوض، ثم تبيّن أنه لم يستطع أن يكمل الليلة بدون أن

يغتصبها مرة أخرى، بل اثنتين: الأولى عند الحادية عشرة وأربعين دقيقة والأخرى في الثالثة صباحا،' قبل أول صياح للديك.

وأخيرًا طلع الصبح وظهر شودانتشو مرة أخرى في الغرفة التي تستلقي فيها زوجته تحت البطانية موثقة اليدين والقدمين في أركان السرير. جاءها في الإفطار برز مقلي عليه بيضة وشرائح طماطم وكوب كبير من اللبن بالشوكولاتة. صحت ألامندا فنظرت باتجاهه في ضيق، بخليط من الدوار والكراهية. قال شودانتشو بمودة حقيقية "هيا، دعيني أطعمك"، ولم تزل على وجهه ابتسامة الزوج الصادقة لزوجته "ممارسة الحب تفتح النفس".

بادلته ألامندا ابتسامته، لا ببسمتها العريضة الساحرة المعهودة، بل بنظرة قرف واحتقار. نظرت إلى شودانتشو كما لو كانت تنظر إلى صورة الشيطان التي تصورتها في طفولتها. لم تكن له قرون أو أنياب، وعيناه كانتا قليلتي الاحمرار بعد ليلة لم ينل فيها قسطه الكافي من النوم، ولكنها بقيت على يقين أن زوجها هذا هو الشيطان.

قالت ألامندا "اذهب إلى الجحيم أنت وإفطارك اللعين".

قال شودانتشو "وبعد يا حبيبتي، ستموتين إذا لم تأكلي".

"نعم، وأظن هذا أفضل ما يمكن أن يحدث".

وذلك ما بدأ يحدث: أصيبت ألامندا بالحمى في عصر ذلك اليوم، فشحب وجهها شحوب الموت، وارتفعت درجة حرارتها، وأصيبت برعشة. ولم يغتصبها شودانتشو ولو مرة واحدة في ذلك اليوم، ربما لأنه

كان منهكا، أو لأنه كان قد شبع منها أخيرًا، أو ربما لتحسين علاقته بزوجته عسى أن يستطيع إقناعها بتناول الطعام. وصارت ألامندا ترفض كل شيء، فلا يقتصر رفضها على الرز، بل إنها لم تشرب، فزادها ذلك مرضا، واهتياجا، وإن بقيت على طلاقتها في السباب.

بدأ شودانتشو يفزع من تدهور حال زوجته، وواصل محاولاته إقناعها بأن تأكل شيئًا، ولو مجرد طبق من العصيدة، فلا يلقى منها غير الصدود. والأدهى من ذلك، أن جسم ألامندا الذي كان يرتعش في أول الأمر صارت تنتابه نوبات تقلص حادة كما لو كانت تحتضر، ولكنها احتملت ذلك كله في هدوء استثنائي، وكأنها مستعدة تمامًا لمواجهة أشنع النهايات. حاول شودانتشو أن يخفّف عنها الحمى بأن يضع على جبهتها كمّادات باردة، فكان بخار كثيف يتصاعد من الأقمشة، ثم لا تنخفض الحرارة مطلقًا فيما بدا له.

وأخيرًا قرّر شودانتشو أن يحل وثاق زوجته، ولكن ألامندا بقيت طريحة الفراش، برغم أنها باتت حرة الحركة قادرة على الفرار. لم تقاوم زوجها وهو يلبسها ثيابها ويحملها ليخرجها من الغرفة. لم تعد ألامندا تفهم ما الذي يجري ولم تعد تسأل، ولا تتحرك وهي محمولة متدلية عن كتفي شودانتشو. قال لها شودانتشو برغم أنها كانت أبعد ما تكون عن الإنصات أو الإدراك "أنا بصدق لا أريدك أن تصيري جثة، لذلك نحن ذاهبان إلى المستشفى".

كان شودانتشو يظن أن كل ما تحتاج إليه زوجته هو حقنة فيتامين وربما بعض المنقوع، ولكن حالة ألامندا اقتضت بقاءها في المستشفى

لأسبوعين. وظلّ كلّ يوم يأتي إلى غرفتها ليعرب عن مدى أسفه على الطريقة التي عاملها بها. لم يعد العداء يبدو على ألامندا. فصارت تقبل العصيدة إذ تضعها الممرضات في فمها (وإن ظلت ترفض العصيدة من يد شودانتشو)، وتطرق كلما وعدها شودانتشو بألا يعود ثانية إلى ما فعل. لكنها لم تصدق كلمة واحدة من أسفه.

في اليوم الرابع عشر، بعد أن اتصل الطبيب وقال إنه من الممكن اصطحاب ألامندا إلى البيت، التقى شودانتشو بالطبيب في طرقة المستشفى. تبادل مع الطبيب حديثا وديا قصيرا. "صباح الخير يا شودانتشو". "صباح الخير يا دكتور". ثم دعاه الطبيب إلى الجلوس قليلا في مقصف المستشفى لمناقشة حالة ألامندا. سأل شودانتشو "هل لدى زوجتي شيء خطير يا دكتور؟". طلب الطبيب غداء بسيطا، ولما وصل الغداء هزَّ الطبيب رأسه وقال "ما من شيء يمكن أن يوصف بالمرض الخطير ما دمت تعرف كيفية التعامل معه".

ثم بدأ يأكل، كأنما يريد أن يخفّف من وقع الدراما التي يوشك أن يتكلم فيها، بينما شودانتشو ينتظر صابرا. وبينما يدخن سيجارته، إذ كان المقصف هو المكان الوحيد المسموح فيه بالتدخين داخل المستشفى، كان لا يزال قلقا على زوجته، متخوّفا أن يكون هو الملوم في كل شيء، مثلما ظل يخشى أنه الملوم منذ اليوم الأول حينما أعلن الطبيب تشخيصه لحالة ألامندا قائلا إنها مصابة بالجفاف والقرحة، وإن أعراض التيفوس ظاهرة عليها. كان الطبيب قد قال إنه ما من داع للقلق على ألامندا، وإن كل ما يلزمها هو الراحة، وأكل العصيدة، واجتناب أكل

الحمضيات، وشرب الكثير من السوائل وتناول المضادات الحيوية، ليموت الفيروس في جسمها من تلقاء نفسه في غضون أسبوعين على الأكثر. لكن برغم أن الطبيب قال إنه لا داعي للقلق، بقي شودانتشو قلقا، مدركا أنه لن يحتمل أن تموت ألامندا وتتركه، برغم أنه كان يعرف أنها لم تحبه قط، ولن تحبه أبدا.

سأله الطبيب وهو ينهي طعامه "لو قلت لك الخبر السعيد، فهل تدفع لي ثمن غدائي يا شودانتشو؟"

"قل لي يا دكتور ما خطب زوجتي؟"

"أنا رجل ذو خبرة في صياغة هذا التشخيص، فتذكّر هذا الذي أقوله لك، سترزق بطفل يا شودانتشو. زوجتك حامل".

سكت للحظة. "السؤال هو: من تسبَّب في حملها؟" وطبعا لم ينطق هذا السؤال. سأل شودانتشو ولم تبد سعادة على وجهه الشاحب ويديه المرتعشتين على المنضدة "في أي شهر؟". مرَّت في رأسه صور مقززة تخيل فيها ألامندا تمارس الجنس مع من تشاء في الخفاء، مع حبيبها القديم أو حبيب جديد، منتقمة منه ومن اضطرارها إلى الزواج برجل لا تحبه.

"ماذا يا شودانتشو؟"

"في أي شهر حمل زوجتي يا دكتور؟"

"في أسبوعين".

انهار شودانتشو على مسند كرسيه مطلقًا تنهيدة عميقة، وقد شعر أخيرًا بالارتياح. تناول منديلا ومسح حبات عرق كانت قد بدأت تلتمع على جبهته. وبعد صمت طال بضع لحظات بدأ يبتسم، ثم بدأت ترتسم على وجهه سيماء البهجة الطاغية، وأخيرًا قال "غداؤك عندي يا دكتور".

سيرزق إذن بطفل، فيثبت زيف الشائعات بأنه لم يمارس الحب مع زوجته، أو أنه عنين، أو أن اليابانيين خصوه. ذهب الاثنان إلى ألامندا، فبدا لديها من القوة ما يكفي للرجوع إلى البيت. كانت الطبيب قد أخبرها أن بوسعها أن تأكل أشياء أكثر تماسكا من عصيدة الرز، بل أن تأكل كل ما تشتهيه، وبدأ وجهها يبدو أكثر إشراقا. بل وبدأت تتحرك قليلا في فراش مرضها.

حينما غادرهما الطبيب وتركهما يجهزان لرجوع ألامندا إلى البيت قال شودانتشو لزوجته "شفيت يا حبيبتي".

ردت عليه ألامندا في برود "أظن الآن أنني شفيت بحيث أهيجك من جديد".

لم يتأثر شودانتشو بجفائها وجلس على طرف السرير واضعا يده على ساق زوجته بينما هي مستلقية شاخصة إلى السقف. "الطبيب أخبرني أننا سنرزق بطفل. أنت حامل يا حبيبتي" قال شودانتشو راجيا أن يشركها فرحته.

ففاجأته ألامندا بقولها "أعرف، وسوف أجهضه".

توسّل إليها شودانتشو "لا تفعلي يا حبيبتي. حافظي لي على الطفل وأقسم ألا أفعل مثل هذا مرة أخرى".

قالت ألامندا "ليكن يا شودانتشو، لكن إذا جرؤت أن تلمسني بيدك، فلن أتردّد في قتل هذا الطفل".

السرعة التي سحب بها شودانتشو يده عن ساقها جعلتها ترغب في الضحك من حماقته. أكد شودانتشو وعده بألا يرغم ألامندا على شيء مطلقًا، حتى لو لم تكن مرتدية لباسها الحديدي. وهذا ما كان، لم تعد ألامندا إلى ارتداء لباسها الحديدي، ليس فقط لأن شودانتشو رماه في البئر، بل لأنها وثقت أن شودانتشو لن يحنث بوعده. كان ميلاد الطفل أهم من أي شيء لدى رجل عظيم النرجسية مثل شودانتشو، وقالت ألامندا إنها لن تتردد حتى في شهر حملها الثامن أو التاسع عن إجهاض الطفل إذا أرغمها شودانتشو على إشباع شهوته الدنيئة، ولو كان الثمن أن تموت هي نفسها وهي تفعل ذلك. لذلك يجب أن يكون واضحا أن توقفها عن ارتداء اللباس الحديدي لم يكن لتغيّر طرأ على موقفها، فقد أقسمت إنها لن تحبه إلى الأبد ولن تمنحه نفسها، ووالله إنها لم تحبه فعلًا.

قوبل رجوع ألامندا إلى بيتها باحتفالات بهيجة من أصدقائهما والأسرة وسرعان ما انتشر خبر حملها السعيد إلى أقصى أرجاء المدينة، وأقام شودانتشو حفل شكر صغيرا. تحدث أهل المدينة عن الحمل في كل مقصف لهم وكأنهم كانوا ينتظرون مولد ولي العهد، وكان أغلبهم يشعر بالإثارة، إلا كلايوون وأصدقاءه الصيادين.

بل إن كلايوون قال في غلظة "يا لها من عاهرة". وصعق أصدقاؤه حينما سمعوه يقول هذا عن امرأة ملك حبها عليه فؤاده في يوم من الأيام، ولكنه واصل في هدوء "العاهرة تمارس الحب من أجل المال، فماذا يقال فيمن تتزوج من أجل المال والوضع الاجتماعي؟ هذه أكثر من عاهرة، هذه أميرة على العاهرات". ولم تكن في صوته مرارة، بل هدوء من يقرّ حقيقة معلومة بالضرورة.

ولو أن مرارة كانت في قلب كلايوون تجاه الأسرة، وبالذات تجاه شودانتشو، فلم يكن ذلك بالطبع لأن حبيبته أخذت منه أخذا وضيعا. فلقد كان كلايوون -كما يليق برجل حقيقي- مستعدا دائمًا أن تهجره حبيبته. ولكن سبب حنقه المرير الحقيقي على شودانتشو من كل ذلك هو سفينتا الصيد العملاقتان اللتان اشتراهما. فقد غيرت تانك السفينتان وجه ساحل هاليموندا. كانتا تعومان في المحيط ملقيتين شباكهما، ويتحرك العمال على متنهما جيئة وذهابا وتنتقل حمولتهما إلى السوق. كما غيَّرت السفينتان وجوه الصيادين فبات يعلوها الغم إذ ندر السمك في الماء. لم يكن بوسعهم أن ينافسوا معدات السفينتين، وحتى إن اصطادوا بعض السمك، كان يبيعونه بثمن بخس، إذ تناقصت أسعار السمك بسبب زيادة كمياته في السوق بسبب السفينتين.

وإذ ذاك قرّر كلايوون بتعليمات من الحزب الشيوعي أن ينشئ اتحاد صيادي السمك وبدأ يشرح لأصدقائه ما كان يجري من شأن السفينتين وقواربهم: "الأمر أكبر من منافسة غير شريفة، إنهم يسرقون سمكنا". كان كثير من أصدقائه يرجون القتال وحرق السفينتين، لكن

الرفيق كلايوون (كما بات معروفا بينهم) حاول أن يهدئهم، قائلا إنه ليس أسوأ عليهم من عمل أناركي، وقال لهم "أمهلوني بعض الوقت لأتكلم مع شودانتشو مالك السفينتين".

اختار الرفيق كلايوون اللحظة التي انتشر فيها خبر حمل ألامندا وصار سرًّا معلنا في المدينة. كان يرجو أن يكون شودانتشو رائق المزاج فتسهل مفاوضته في شؤون الصيد. التقى به في عصر يوم في مكتب المنطقة العسكرية، متعمدا ألا يتصل به في البيت رغبة منه في ألا يرى ألامندا أو يخرّب سعادة الزوجين بطفلهما الأول القادم.

"مساء الخير يا شودانتشو" قال الرفيق كلايوون وهما يتصافحان. قدّم له شودانتشو فنجان قهوة، وبدت عليه سعادة حقيقية فسلك سلوكا ودودا غير معهود.

"مساء الخير يا رفيق. سمعت أنك الآن رئيس اتحاد صيادي السمك وسمعت أن لدى الصيادين شكاوى من قاربيّ".

قال كلايوون "نعم، هكذا هو الأمر يا شودانتشو"، وكلّمه في شكاوى الصيادين من ندرة صيدهم وتهاوي الأسعار. فكلّمه شودانتشو عن التقدم والعصر الجديد وعن حتمية الاستعانة بالسفن الكبيرة. بهذه السفن فقط لن يعاني الصيادون من الروماتيزم في شيخوختهم. وبهذه السفن فقط تأمن زوجات الصيادين ألا يبتلع البحر العاصف أزواجهن. وبهذه السفن فقط يتوافر كمٌّ كبير من السمك يلبي احتياجات جميع الناس، لا احتياجات أهل هاليموندا وحدهم.

"على مدار سنين يا شودانتشو ونحن نصطاد من السمك قدر حاجتنا كلّ يوم وحسب، وزيادة قليلة فقط تكفينا حينما تهب عاصفة كبيرة. وعلى مدار سنين تمكنّا من البقاء، بدون أن نصبح أثرياء، ومع ذلك لم نكن فقراء. لكنك الآن تغرق الصيادين في فقر يائس، أنت وسفينتاك تسرقون السمك الذي كانوا يصطادونه، وإن رجعوا بسمك، لا يجدون له قيمة في السوق فيضطرون إلى تمليحه ليأكلوه بأنفسهم".

قال شودانتشو ضاحكا، محتسيا قهوته، مدخنا سيجارته "أظنكم نسيتم طقس إلقاء رأس البقرة، ولهذا لم تعد ملكة بحار الجنوب تشرككم في سمكها".

"صحيح يا شودانتشو، لم نؤد الطقس لأننا لم نعد نجد من المال ما يكفي لشراء بقرة! لا تغضب هؤلاء الناس يا شودانتشو، فليس بوسع أحد أن ينتصر حين يواجه غضب جائع".

قال شودانتشو ضاحكا مرة أخرى "أنت تهددني يا رفيق. تمام، سأدفع ثمن طقس المحيط ونلقي رأس بقرة للملكة البخيلة، شكرا لها على طفلي الأول. أما عن الصيادين فليس لدي إلا حلّ واحد: سأضيف سفينة أخرى وسأسمح لصياديك بالعمل على متنها، بمرتبات وضمانات بعدم إصابتهم بالروماتيزم أو الغرق في العواصف. فما رأيك يا رفيق؟"

قال كلايوون "الأفضل أن تتصرّف بحكمة يا شودانتشو". وانصرف على الفور تاركًا شودانتشو الذي لم يكن يرغب في غير اللف والدوران بلا نية في سحب سفينتيه.

ووصلت سفينة الصيد الثالثة بالفعل في الشهر السابع من حمل ألامندا، وإن لم يرغب صياد واحد في حضور طقس إلقاء رأس البقرة، فلم يحضره إلا حفنة من رجال شودانتشو. وغضب الرفيق كلايوون وقال لشودانتشو إنه لم يعد يضمن حماية سفنه من غضب الصيادين، فقال شودانتشو بهدوء إنهم يجب ألا يتصرفوا بحماقة. لم يبد أن شودانتشو يبالي كثيرًا بالموضوع، فلم يلتق بعد ذلك بأحد، مكتفيا بالبقاء في البيت منتظرا ميلاد طفله الأول، الذي سيكون له فخرا وفرحا، ومستقبلا، والذي سيخلي جدوله بمجرد أن يولد بحيث يقضي عصر كل يوم معه. بل سيصطحبه بنفسه إلى المدرسة بمجرد أن يكبر قليلا، ويوفر له كل ما يطلبه.

وبسبب هذا، لم يبال كثيرًا بإضرابات صيادي السمك العاملين على سفن الصيد، وأغلبهم من قرى الصيادين على الساحل. عانى أولئك الرجال من ضربات الشرطة وجنود المنطقة العسكرية، لكنهم بقوا على إضرابهم. وبدون استشارة شودانتشو، طرد قبطان السفينة أولئك العمال واحدًا بعد واحد، وعيَّن بدلًا منهم عمالًا جددًا مستعدين لاتباع قواعده واحترام تعاقداتهم. كان اتحاد الصيادين قد نجح في تجنيد بضعة رجال من العاملين في السفينة، ولكنهم طردوا.

أثار ذلك غضب الصيادين فبدؤوا يخططون بسبب هزيمتهم لإحراق السفن جادين غير هازلين. ومرة أخرى حاول الرفيق كلايوون كبح جموحهم ووعدهم بالذهاب والحديث مع شودانتشو. وفي هذه المرة لم يكن أمامه بديل إلا الذهاب إلى بيته، فلم يكن شودانتشو يغادر بيته تقريبًا طوال شهري انتظاره الأخيرين لمجيء طفله الأول. وهكذا، شاء أم أبى، لم يبد من سبيل أمام الرفيق كلايوون إلى عدم رؤية ألامندا.

وذلك ما كان، لأن ألامندا هي التي فتحت له الباب، ثقيلة الخطوات، بسبب حملها البارز تحت ثوب منزلي مزين بالزهور. لوهلة نظر كلٌ إلى الآخر بشوق جارف، مشتركين في رغبة مكبوتة للارتماء في أحضان أحدهما الآخر، والالتقاء على قبلة، والبكاء معًا في حزن مشترك. لم يبتسم أي منهما أو يحيٍّ الآخر، فقط وقفا صامتين شاخصين في عيني أحدهما الآخر. وعجب الرفيق كلايوون حين رأى أن ألامندا أكثر إشعاعًا في حملها، وشعر بأنه أمام حورية من حوريات البحر التي يحكي عنها الصيادون، ما لم يكن في حضرة ملكة بحار الجنوب التي قيل الكثير في فتنتها الآسرة.

أنزل عينيه إلى بطن ألامندا المنتفخ كأنما بوسعه أن ينفذ ببصره إلى الطفل. لم تطمئن ألامندا وقد خطر لها أنه يتخيل أن الطفل القابع في رحمها كان ينبغي أن يكون طفله هو. ودّت لو تطلب غفرانه كل شيء، وأن تقول إنها لم تزل تحبه لكن القدر الأعمى فرق بينهما. **ربما ذات يوم، حين أصبح أرملة، يمكن أن أتزوجك.** لكن الظاهر أن الرفيق كلايوون

لم يكن يفكر في شيء من ذلك، إذ قال لألامندا "بطنك مثل الإناء الفارغ".

سألته ألامندا "ماذا تقصد؟" وقد تلاشت رغبتها في قول كل ما كانت تفكر أن تقوله.

"ليس فيه بنت أو ولد. مليء بالهواء. كالإناء الفارغ".

استاءت ألامندا وضاقت بكلامه، معتبرة إياه إهانة من رجل مفطور القلب. وأدركت أنه كلما طال وقوفها أمامه، ازداد ما تسمعه من كلمات جارحة، فبدون أن تضيف كلمة أخرى استدارت فأوشكت أن تصطدم بشودانتشو الذي ظهر في المدخل وقد اندهش مما قاله كلايوون. اختفت ألامندا داخل البيت وبقي الرجلان جالسين على كرسيين في الشرفة دأب الزوج والزوجة على الجلوس فيهما عند الغروب.

خلافا لألامندا، تعامل شودانتشو بجدية مع ما قاله الرفيق كلايوون، وقلق منه كثيرًا، فسأله مرة أخرى عما قصده بالإناء الفارغ. وأعاد الرفيق كلايوون على شودانتشو ما سبق وقاله لألامندا، ليس هناك ولد أو بنت في رحم ألامندا، لا شيء بالداخل إلا هواء وريح.

احتج شودانتشو وقد تملك منه القلق "مستحيل، الطبيب أكد بالفعل أن زوجتي حامل. ورأيت بنفسك بطنها".

قال الرفيق كلايوون "نعم، رأيت بطنها، فلعل هذا لا يعدو همهمة رجل غيور".

١٠

يحكى أن أهل هاليموندا وقعوا في حيص بيص إذ اكتشفوا طفلا، رأوه مرميًا على كومة قمامة. كان صبيا وكان لا يزال حيا وإن تنازعته الكلاب هنا وهناك، فعلم الناس أنه سيكبر ليكون رجلا ذا بأس. حاولوا لأيام أن يعثروا على أمه فلم يعثروا عليها، فبدؤوا يخمّنون من يحتمل أن يكون أبوه.

اعتنت بالولد عانس عجوز تدعى مَكُوجَه، وهي أبغض عجائز المدينة كلها، ومع ذلك أكثر من يعتمد عليها الناس. كانت تعيش على الإقراض، إذ لم تكن تجيد شيئًا غير ذلك. لم تكن لتفلح في الزراعة إذ لم يكن أحد ليبيع لها أرضا ولم يكن لديها إلا قطعة أرض ضئيلة ورثتها وعاشت عليها، وما كان لها أن تعمل لأنه ما كان أحد ليوظفها. بل ولم تستطع أن تجد لها زوجا طوال حياتها، برغم أنها عرضت الزواج على ستة عشر رجلا. عاشت حياتها وحيدة شقية، ولكنها انتقمت لنفسها بادّعاء الإحسان إلى الناس وإقراضها أهل المدينة ممن أصابهم الفقر ثم خنقتهم بفوائد الدين المرتفعة.

وهكذا كرهها الجميع، لا سيما الغارقين في ديونهم التي لم تكن تنتهي. كان الجميع يجتنبونها، وينفرون منها، ويعدّونها أسوأ من الآثمين الشيطانيين. حتى إذا اشتد الزمان على أحدهم وأعيته الحيل، يطرق بابها، إذ كان الجميع يعلمون أن من وراء ذلك الباب عونا مؤقتا. وكانت مَكُوجَه تعلم أن في انحنائهم المهذب أمامها ادعاء، وأن من وراء قناع بسماتهم الزائفة حاجة حقيقية، ومع ذلك لم تكن تبالي، فكل ذلك كان بعضا من شروط عملها.

وكان الناس يتساءلون في بعض الأحيان إلى أين يذهب كل ما تجمعه من مال، فلم يبد عليها قط أنها تزداد ثراء. بقي بيتها دوما على حاله، باستثناء طلاء عارض أو إصلاحات هينة. لم تكن تسرف في الإنفاق، ولم يكن لها أي أقارب، ولم يروها تذهب إلى البنك لإيداع المال الذي تستعصره منهم، فبدؤوا يفكرون أن العجوز تخفي مالهم ولا شك تحت حشية سريرها. وذات ليلة اقتحم أربعة رجال بيتها خلسة ليسطوا عليه. وكان جيرانها يعلمون بالأمر فبقوا يراقبون من وراء ستائرهم. بقيت مَكوَجَه ترقب الرجال في صمت وهم يفتشون كل ركن في بيتها. وقلب اللصوص البيت فلم يعثروا على المال، لا تحت الحشية ولا في الموقد ولا في دورق الماء. لم يكن في خزانتها غير الثياب، ولم يكن في خزانة مطبخها غير طبق رز وبعض عصير الجزر. وفي يأس أوقف اللصوص بحثهم ودنوا من مَكوَجَه الواقفة في هدوء في مدخل غرفة نومها.

سألها أحدهم في ضيق "أين نقودك؟"

قالت مَكوَجَه مبتسمة "يسعدني أن أقرضها لك بفائدة أربعين في المئة على أن تردها كاملة بنهاية الأسبوع".

فغادروا البيت بدون أن يزيدوا كلمة.

ولم يحاول أحد أن يسرقها بعد ذلك، لا سيما بعدما أخذت الرضيع. اعتنت مَكوَجَه بالرضيع لأنها طالما حلمت بإنجاب طفل، وأيضًا لأن أحدًا غيرها لم يشأ أن يأخذه من كومة القمامة. فنشأ الرضيع معها، وأطلقت عليه مَكوَجَه اسمًا طيبًا هو بيما، اسم أمير قوي في المهابهاراتا، ولكن بقية الناس كان يسمونه الأحمق بسبب سلوكه المزعج المثير للغضب، ونسوا أن اسمه الحقيقي هو بيما، حتى إن مكوجه نفسها نسيت ذلك الاسم، ومثلها الصبي نفسه نسيه، فبات اسمه بالكامل هو إيدي الأحمق.

تنبّأ له الناس بمصير لعين يحل عليه، لأن العانس العجوز لم تكن تجلب غير الشقاء، فقد ماتت أمها وهي تلدها، ولما بلغت الخامسة مات أبوها بلدغة عقرب تسلّل إلى المطبخ. وجاءت لتعيش مع مكوجه عمةٌ أرملة لم يكن لها أبناء. ولما بلغت مكوجه السابعة من العمر ماتت تلك العمة أيضًا، إذ ضربتها في جبهتها جوزة هند ساقطة. وكان لدى أبيها على أي حال محل رهونات فانتهى إلى مكوجه إرث أكثر من كاف، فاستؤجرت لها خادمة تلبي احتياجاتها اليومية، وهذه الخادمة أيضًا ماتت بحمى حادة عندما كانت مكوجه في الثانية عشرة. ومنذ ذلك الحين لم يرغب أحد في الحياة معها، وقد ظن الجميع أنها شؤم.

في شبابها، كانت جميلة. أحبها كثير من الرجال وكتموا حبهم لما علموا أن كل من عاش معها كان مصيره الموت فآثروا الزواج ببنات غيرها لم يكن جميلَات المنظر لكنهم رأوا أنهم سيعيشون معهن حياة أطول بعد ليلة الزفاف، خلافا لمكوجه التي يحتمل أن يموتوا بمجرد قرانهم بها. لم يعرف أحد من أين جاءها كل ذلك الحظ التعيس، ولم يتصور أحد أن تكون كل الوفيات صدفة عارضة. الجميع آثروا التفسير الأسوأ، فلم يلمسها رجل إلى أن ماتت.

كان لمكوجه عملها في الإقراض، ولكنها بدأت تهرم وهي على يقين أنها لن تتمكن من البقاء بعيشها وحيدة. جربت أن تعرض الزواج على بعض الرجال الصالحين، فرفضوا جميعًا. وجرَّبت الأشرار، من المقامرين والسكيرين، فرفضوها بدورهم. بل لقد تقدمت لمتسولين، ففضلوا عيش الفقر على موت الرفاهية. وأخيرًا بلغت الثانية والأربعين فلم تعد تبحث عن زوج وبدأت تحاول أن تتبنى طفلا فلم تفلح في ذلك أيضًا، وظلت تعيش وحيدة إلى أن أخذت ذلك الصبي من كومة القمامة.

نشأ إيدي الأحمق في رعايتها بدون أن تظهر بوادر اللعنة. ولم يبد عليه من بوادر الحظ التعيس إلا أن الأطفال كانوا لا يرغبون في اللعب معه، بأثر من نفور الناس من الأسرة كلها. اجتنب الأطفال إيدي الأحمق مثلما اجتنب آباؤهم مكوجه، إلا حين كان يحوجهم العوز إلى مالها. فساء من جراء ذلك طبع الصبي وبات مصدر إزعاج لغيره من

الأطفال. كان ينفجر كلما اعترض طريقه أحد، ويسيء إلى الناس لأقل بادرة على إساءة، فازداد الأطفال نفورا منه وابتعادا عنه.

حاول أن يقيم صداقات بنشره الخوف من حوله بوصفه أقوى طفل في المدينة. لكنه في النهاية لم يعثر على بعض الأصدقاء الحقيقيين إلا في التلاميذ المنبوذين مثله. لاحظ أن الأولاد يسخرون من طفلين معاقين ويلقون عليهما النكات. ورأى ولدا هزيلًا جائعًا يتعرض للسخرية، وآخر يجتنبه الأولاد لأن أبويه حمال ونشالة. فكان إيدي الأحمق دائمًا في عون أولئك الأطفال، يظهر كلما تكاثر عليهم الأولاد، فيهاجم بلا رحمة كل من يسيئون إليهم. صار حاميا لهم، وتطورت الجماعة إلى صداقة وثيقة حتى انقسم تلاميذ المدرسة إلى مجموعتين: فالأولاد الطيبون في جماعة، والأولاد المشاكسون بقيادة إيدي الأحمق.

وبدؤوا يكبرون ليصبحوا أعداء المدينة. وخلافا لبقية الأولاد الذين ما كانوا يتسبّبون إلا في فوضى بسيطة وارتباكات عابرة، لم يكن إيدي الأحمق يتردد في السطو على جميع الدجاجات في عشة شخص ما ليقيم وليمة على الساحل. ولما بلغ الحادية عشرة فقط، كان قد سطا بالفعل على خان فجرح مالكه وسلبه زجاجات عرق وبيرة ثم مضى ليسكر هو ورفاقه في بستان كاكاو. بدؤوا كذلك يجربون كل عاهرات المدينة. ونالوا ميزة فريدة برؤيتهم الزنازين من الداخل قبل أن يبلغوا سن المراهقة. وفي تلك الحالات كانت مكوجه تسارع إلى إنقاذهم برشوة الشرطة، غير مستاءة بأي حال مما فعله إيدي الأحمق. بل لقد كانت العانس العجوز على العكس من ذلك في غاية الفخر به.

وقالت مكوجه ذات مرة لشرطي يخفر الولد "هذا الولد سيؤذي أهل هذه المدينة مثلما آذوني أنا طوال سنين كثيرة".

وصدق ما قالت. عندما هدّد الآباء بإخراج أبنائهم من المدرسة إذا لم تطرد المدرسة إيدي الأحمق، ما كان للناظر قليل الحيلة ضعيف الشخصية إلا أن يقبل، فطرد الصبي، ورجع في الصباح التالي إلى المدرسة فرأى شبابيك المدرسة وبابها حطاما، وجميع سيقان المكاتب والمقاعد مكسورة، والعلم ساقطا على الأرض.

وهكذا جمح إيدي الأحمق واجتاح الشوارع ولما يبلغ بعد الثانية عشرة. بات يقتحم المتاجر ليطلب المال من أصحابها، فإن امتنعوا عن إعطائه تصِرْ واجهات متاجرهم حطاما هي الأخرى. كان يتردَّد على الماخور ولا يدفع، وعلى السينما بلا تذكرة، وإن اعترض أحد على ذلك يقاتله، ودائمًا كان ينتصر.

وللتعامل مع الصبي، استعان بعض أصحاب المتاجر بيلطجي فخاض معه إيدي الأحمق شجارا حتى الموت. ودخل إيدي الأحمق السجن، وفي السجن بدأ معركة أخرى، فحطَّم جميع الزنازين وضرب الحرس، فأفرجوا عنه بسرعة. ولما عاد إلى الشوارع قتل اثنين أو ثلاثة ممن حاولوا قتاله، وكانت الشرطة قد فقدت أي رغبة في اعتقاله.

فعاد إلى موقعه المعتاد في ركن محطة الأتوبيسات، متخذا عرشا له من كرسي هزاز من خشب الماهوجني تركه أحد اليابانيين وراءه. وجمع الأتباع واحدًا بعد واحد. فضمّ بعضهم بعد معارك، لكن أغلبهم جاؤوا

إليه طائعين. كانوا يحصّلون "ضريبة" من أصحاب المحال، ومن جميع الأتوبيسات التي تدخل المحطة بل والتي لا تدخلها، ومن جميع أكشاك السوق، وجميع قوارب الصيد، وجميع المواخير وحدائق البيرة، وجميع مصانع الرز وزيت جوز الهند، بل ومن جميع الحمالين من أصحاب البيكاك أو العربات التي تجرها الخيول.

أرهب إيدي الأحمق وأتباعه المدينة. كانوا يفعلون ما يريدون، سواء أكانوا سكارى أم مفيقين: يسرقون الدجاج، يكسرون الواجهات، يضايقون البنات سواء أكن يسرن فرادى أم في رعاية أسرهن كاملة، بل ويسرقون الأحذية من المسجد. كما كانت تختفي الطيور من أقفاصها في بيوت العجائز، وديكة المصارعة، والملابس المعلقة على الحبال.

كانوا يظهرون في أي لحظة ليسلبوا وينهبوا، وباتوا مصدر ضيق حقيقي لشباب المدينة الأصحاء أيضًا، فكانوا يسلبونهم جيتاراتهم، وفي حالَات كثيرة يرغمونهم على خلع أحذيتهم حين يصادفونهم وهم يتنزهون. ولا تسألوا كم علبة سجائر كانوا يطالبون بها كل يوم. وكل اعتراض عليهم لم يكن يلقى إلا المزيد من الشجار. وبات واضحا أنه ما من سبيل إلى هزيمة العصابة، لا سيما إذا تدخل إيدي الأحمق بقبضة يده. وكان الأكثر إزعاجا بين ذلك كله هو موقف الشرطة التي لم تكن تتعامل مع كل تلك الفوضى إلا باعتبارها شقاوة أطفال.

وقال قائل محاولا التخفيف عن نفسه "مؤكد أنه سوف يموت. فمهما يكن من أمره، هو يعيش مع مكوجه".

"نعم، ولكن المشكلة هي متى سيموت".

ولسنوات ثلاث أخرى لم يمت. بل ماتت مكوجه قبله، بدون إنذار، ذات صباح وهي تتغوط في مرحاضها. واكتشفها إيدي الأحمق بنفسه. استيقظ في التاسعة فلم يجد إفطاره جاهزا بانتظاره كالمعتاد. بحث في كل مكان، فلم يجد العذراء العجوز، ثم ارتاب في باب الحمام المغلق. حاول أن يفتحه فوجده مغلقا من الداخل. كسره فوجدها لم تزل جالسة إلى المرحاض، عارية، ولم يبق فيها من قوة الحياة أي شيء.

سأل إيدي الأحمق "ماما، أنت مت؟"

لم ترد مكوجه.

لمس إيدي الأحمق جبهتها بطرف إصبعه، فتهاوى جسمها على الفور إلى الوراء.

كان موتها خبرا مبهجا لجميع أهل المدينة الذين كان أغلبهم مدينا لها. لم يشأ أحد من جيرانها أن يعتني بجثمانها، فحملها إيدي الأحمق بنفسه إلى بيت حفار القبور كامينو. وفي ذلك الوقت كان كامينو لم يزل أعزب، إذ لم تشأ أيٌّ من نساء المدينة أن تعيش معه وسط القبور، فكان على الرجلين أن يعتنيا بالجثمان بنفسيهما إلى أن أشفق عليهما الشيخ الكياي وجاء. أمر الكاياي بالغسل ثم تلا الصلوات الأخيرة بينما الحفار وإيدي الأحمق منتظران بغير ارتياح. وهكذا دفنت مكوجه، التي عرفها كل أهل المدينة وكانت على أتم الاستعداد لمد يد العون في أوقات الشدة، فلم يحضر دفنها غير ثلاثة رجال هم الذين واروا جثمانها التراب.

لم تترك مكوجه لإيدي الأحمق أي إرث إلا البيت والفناء اللذين كانا يعيشان فيهما من قبل. لم يعرف أحد أين ذهب كل المال الذي جمعته من فوائد القروض. إيدي الأحمق نفسه لم يكن يبالي مطلقًا بأمر النقود، أما أهل المدينة فكانوا مهتمين بالنقود لأنهم كانوا يعتبرونها، عن حق، نقودهم هم. فعلى مدار السنين التالية ظلّ الناس يبحثون عن النقود. فقيل إن مكوجه كان لديها قبو سري، ومن ثم حاول البعض حفر نفق من منزل جار لها. ولم يعثروا على شيء، ولكن أحد الحفارين مات إذ استنشق دخانا كبريتيا فأغلقوا النفق على الفور.

ولم يدم فرح الناس طويلًا. كانوا يتصورون أنه بعد وفاة مكوجه سيتحول إيدي الأحمق إلى ولد طيب، أو حتى أن يندر ظهوره لشهرين أو نحو ذلك حدادا على الراحلة. ولكن ذلك لم يحدث. بل صار يصطحب بنات لينَمْن معه، بينما يبحث آباؤهن عنهن في كل مكان. كان يطلب الطعام من أي مطبخ مفتوح، أو يجلس إلى مائدة فيه ويغرف مما يصادفه، قبل حتى أن تتذوق الطاهية طعامها، وهذا عدا القتل والسطو والسلب.

عندما خرج شودانتشو من موقعه الحربي في الأدغال، أمل كثير من أهل المدينة ألا يكتفي بتولي أمر الخنازير، بل وأمر جميع البلطجية في المدينة. ولكن شودانتشو أبى.

قال شودانتشو "إنهم كالغائط، كلما حركته فاح نتنه"، واكتفى بقوله ذلك لم يزده أيضًاحا، ولكن الناس سرعان ما فهموا أن إيدي الأحمق وعصابته إذا ما ووجهوا، فسوف يصبحون همًّا أكبر في المدينة.

وفي ذلك الوقت كثر من يجلسون من أهل هاليموندا في شرفات بيوتهم مغمومي الأوجه. وقد يسألهم زائر لئيم "فيم جلوسكم هكذا؟" فيقولون:

"ننتظر عبور جنازة إيدي الأحمق".

ولم يستجب لدعائهم. لا لأن إيدي الأحمق لم يمت، بل لأن موته لم يستتبع جنازة، ولأنه لم يدفن قط. غرق إيدي الأحمق، وأكلت جثته سمكتا قرش.

نعم، وصل غريب في صباح أحد الأيام، هو مامان جيندنج، وقتل إيدي الأحمق بعد معركة أسطورية استمرت سبعة أيام وسبع ليال. في البداية لم يصدق أحد أن الولد العنيد مات حقا، ثم بدا وكأنهم صحوا من كابوس، وتبيَّن أن إيدي الأحمق كان فانيا كأي شخص سواه. امتنّ أهل المدينة لذلك الغريب، وسرعان ما قبلوا مامان جيندنج بينهم واعتبروه واحدًا منهم.

أقام أهل المدينة احتفالا لا يضاهيه احتفال قبله أو بعده. حتى احتفال الثالث والعشرين من سبتمبر باستقلال هاليموندا لم يصل يومًا إلى حجم ذلك الاحتفال. أقيم معرض ليلي استمر شهرا كاملا، شارك فيه سيرك جوال بفيلته ونموره وأسوده وقردته وثعابينه وبناته البهلوانات وأقزامه المهرجين بالطبع. وبالمجان كان الناس يستمتعون في كل أرجاء المدينة برقصات السيترين النشوانة ورقصة الحصان المنبسط الآسرة. خرج الشباب والشابات معًا يستمتعون بغرامهم دونما خوف من

مضايقات عصابة إيدي الأحمق. والدجاج عاد يحوم كيف يشاء في الأفنية ولم تعد أبواب المطابخ تغلق فيحكم إغلاقها.

ولما أعلن مامان جيندنج أنه ما لأحد غيره أن ينام مع العاهرة ديوي آيو، لم يستأ الناس كثيرًا، برغم أنها كانت خسارة فادحة بلا شك. إذ رأوا أن في ذلك تكريما مستحقا للبطل الذي قتل إيدي الأحمق، ابن مكوجه الحانق.

ثم حدث في يوم من الأيام اشتد فيه القيظ الاستوائي أن قام مامان جيندنج من كرسيه الهزاز الماهوجني الذي ورثه عن إيدي الأحمق وسار من محطة الأتوبيسات إلى أقرب متجر وفي أذنيه طنين قاتل. طلب صندوق بيرة مثلجة بسبب القيظ اللعين، فلم يعطه البائع إلا زجاجة. وجن جنون مامان جيندنج فحطم واجهة المتجر، وأخذ صندوق البيرة بعدما وبّخ صاحب المتجر الذي لم يبدِ في رأي مامان جيندنج أي قدر من التهذب. وعاد إلى كرسيه الهزاز وجلس يقتل ذلك الإحساس الناري بتلك البيرة المسلوبة.

وبتلك الواقعة أدركت المدينة أنه في حدود ما يعني أهل هاليموندا لم يتغير أي شيء. مات إيدي الأحمق، ووصل وغد جديد، اسمه مامان جيندنج.

بعد زفاف ألامندا الأسطوري، أمرت ديوي آيو الزوجين الجديدين بالانتقال إلى بيتهما الجديد. كانت مستاءة أشد الاستياء من

كل الأحداث الأخيرة، ومن آثارها على كبرى بناتها. كانت قد حذرت ألامندا مرارا وتكرارا من طريقتها البشعة مع الرجال، لكن ألامندا كانت قد ورثت عنادا عمن لا يعلمه إلا الله من أفراد أسرتها، فكان عليها أن تعاني ويلاته. لم تكن ديوي آيو تتخيل أن تنجب بنات جميلًات ولكنهن جامحات يطاردن الرجال ثم يلقين بهم عرض الحائط. ولكنها علمت بسوء سلوك ابنتها منذ أن اكتشفت الفتاة الصبية للمرة الأولى، ثم بدا أن أديندا لا تختلف عن أختها في سوء مزاجها. كانت في غاية البراءة، تؤثر إنفاق وقتها في البيت على أن تهيم بالخارج، ولكن منذ زيجة ألامندا المفاجئة، باتت كثيرًا وكثيرًا ما تختفي عن الأنظار. انظروا الآن إلى الفتاة تروها حيثما يقيم الحزب الشيوعي احتفالاته الزاعقة. كانت أديندا قد بدأت تطارد الرجل الذي كان في يوم من الأيام ملْكا لألامندا: الرفيق كلايوون. لم تكن ديوي آيو تعرف بما يجول في رأس أديندا، لكنها ارتابت في أن الفتاة تود أن تثأر من أختها عبر هذا الرجل.

حدثت نفسها قائلة إن الرجال يقنصون فرجي فألد بنات يقنصن فروج الرجال.

وازدادت قلقا على صغرى بناتها مايا ديوي التي كانت آنذاك في الثانية عشرة من العمر. خشيت أن تقلد الصغيرة أختيها الكبريين المارقتين. كانت في ذلك الوقت فتاة طيبة مطيعة لا تبدي أيا من مظاهر الطيش. وكانت يدها أكثر انشغالا من أي شخص غيرها في البيت، فقد كانت طوال الوقت تعمل على أن يبدو كل شيء جميلًا ومريحا. كانت

تقطف الورد والأوركيد وتنسقها في المزهرية وتضعها على منضدة الغرفة الأمامية كل صباح. وتزيل أعشاش العناكب من السقف في جميع غرف البيت عصر كل أحد. وتشيد تقارير معلميها بحسن سلوكها، خاصة وأنها كانت تجلس لمذاكرة كتبها المدرسية كل ليلة، فتنهي جميع واجباتها قبل أن تنام. ولكن ذلك كله قد يتغير، كما حصل مع أديندا، وذلك في الحقيقة ما كانت تخشاه ديوي آيو.

كانت تقول لابنتها إن "زواج المرأة ممن لا تحب أسوأ كثيرًا من امتهانها الدعارة".

فكرت ديوي آيو أنها ينبغي أن تزوج مايا ديوي بأسرع ما تستطيع، قبل أن تكبر وتجمح. كانت على مدار سنوات تحل مشكلاتها بالتفكير السريع، فكانت أول فكرة تطرأ على رأسها هي أول ما تفعله. لم ترد أن ترى مايا ديوي وهي تكبر لتلاقي المصير المأساوي الذي حل على ألامندا وقد يحل على أديندا. ولكنها لم تدر بمن ترتب زيجة لابنتها ذات الاثنتي عشرة سنة، ولم تكن لتمنح ابنتها لأي شخص.

أرادت أن تتكلم في الأمر مع عشيقها مامان جيندنج. وذهب ثلاثتهم في يوم أحد إلى الحديقة العامة. فقضوا النهار كله هناك، يتلذذون بأكل كل ما يشتهون، ويطعمون الغزلان المستأنسة، ويركبون الأراجيح. ورأت ديوي آيو أن مامان جيندنج يذهب هنا وهناك ممسكًا يد مايا ديوي، يريها الطواويس المختبئة في الآكام ويلقي البندق لجماعات القردة. لم تهتم ديوي آيو أنهما بدوا وكأنهما نسيا وجودها.

شاهدتهما إذ يسيران حتى حافة الصدوع البحرية ويحاولان أن يعدّا النوارس في السماء.

بعدما رجعوا جميعًا إلى البيت، وودعت ديوي آيو الرفاق من جيرانها، وتكلمت أخيرًا مع ماما جيندنج.

"لم لا تتزوجان أنتما الاثنان؟"

سألها ماما جيندنج "من؟ أنا ومن؟"

"أنت ومايا ديوي".

قال ماما جيندنج "أنت مجنونة. لو أن هناك امرأة أريد أن أتزوجها فهي أنت".

أوضحت ديوي آيو مخاوفها لماما جيندنج وهما يشربان كأسي ليمونادة باردة. كانا جالسين معًا في الشرفة في هواء العصر الدافئ، ويصل إلى آذانهما هدير الموج من بعيد وضجة العصافير في أعشاشها على السطح. كان الاثنان عشيقين منذ شهور كثيرة الآن، فهي عاهرة وهو الزبون المحتكر لها. كانت ديوي آيو تصر على تزويج مايا ديوي من شخص ما، ولم يكن من شخص آخر قريبًا منها، فكان الوحيد الذي يسعها تزويجه منها هو ماما جيندنج.

"هل تحاولين أن تقولي لي إنك لا ترغبين في النوم معي ثانية؟"

"لا تسئ فهمي، سيكون بوسعك أن تزورني في ماخور ماما كالونج كزوج أي امرأة أخرى، لو لم تتحرج من هذا".

غمغم ماماں جيندنج "سأحتاج أن أفكر في الأمر لبعض الوقت، ربما لسنين كثيرة".

"حاول أن تراعي الآخرين ولو مرة! رجال هاليموندا يصيبهم الجنون. هم عمليًا أنصاف موتى بسبب حرمانهم من لمس جسمي، بسبب مجرد رجل قوي مثلك. لو أطلقت سراحي، فستكون بطلًا لهم. وفي المقابل سوف تحصل على فتاة لن تخيِّب رجاءك مطلقًا، هي صغرى بنات أجمل عاهرة في المدينة".

"عمرها اثنتا عشرة سنة فقط".

"الكلاب تتزوج وعمرها عامان، والدجاج وعمره ثمانية شهور".

"لكنها ليست كلبة أو دجاجة".

"أنت تفكر بهذه الطريقة لأنك لم تدخل مدرسة قط. الإنسان حيوان ثديي، مثل الكلب، ويسير على ساقين، مثل الدجاجة تمامًا".

كان ماماں جيندنج يعرف شخصية تلك المرأة، أو كان على الأقل يظن أنه يعرفها. كان يعرف أن ديوي آيو لن تعدل عن فكرة، مهما بلغت من الجنون. شرب كأس الليمونادة وشعر بالرعشة تسري فيه، كما لو كان يوشك على عبور جسر عرضه سبع شعرات تزفر النار من تحته.

قال معترضا "ولكنني لن أكون زوجا صالحا أبدا".

"كن زوجا شنيعا إن شئت".

"وليس مؤكدا بعد أن توافق هي".

قالت ديوي آيو "هي فتاة مطيعة، وتسمع كل ما أقوله، وأنا بصدق لا أعتقد أنها ستجد أي غضاضة في الزواج بك".

"لا يمكن أن أنام مع فتاة صغيرة هكذا".

"ستنتظر مجرد خمس سنين".

بدا وكأن كل شيء تقرَّر. وبرغم أنه كان بلطجيا قاسيا، أخذ مامان جيندنج يرتعش بعنف متخيلا النمائم التي ستحيط بزيجة كتلك الزيجة. سيقولون إنه اغتصب الفتاة فأرغم على الزواج بها.

وأخيرًا قالت ديوي آيو "تزوجها حبا فيَّ أنا إن لم تجد سببا آخر".

كان وقع ذلك على مامان جيندنج أشبه بحكم محكمة. بدا وكأن نحلة تطن داخل جمجمته ويعاسيب تحوم في بطنه. أنهى الليمونادة ولم يستطع التخلص من تلك المخلوقات الحائمة بداخله. ثم شعر وكأن أيكة برية تنمو في صدره، فتنغرس أشواكها في كل اتجاه. وشأن مهزوم، انهار في كرسيه بين المغمض والمبصر.

سألها "لماذا تفعلين هذا كله بي؟"

"كلما قلتها بدا لها وقع المفاجأة".

"أعطيني مكانًا أنام فيه، أحتاج أن أستلقي لدقيقة".

"سريري لك وقتما تشاء".

نام مامان جيندنج نوما عميقا لأربع ساعات، خافت الغطيط. تلك كانت طريقته لاحتمال طنين النحلة ووخز الأكمة وضجة

اليعاسيب. وقضت ديوي آيو العصر تجدّد نشاطها في الحمام، وجالسة في الغرفة الأمامية مع سيجارة وفنجان قهوة، في انتظار أن يستيقظ الرجل. ولما ظهرت مايا ديوي قالت إنها تريد أن تستحم فاستمهلتها أمها قليلا من الوقت وطلبت منها أن تجلس قبالتها.

قالت ديوي آيو "ستتزوجين قريبا يا طفلتي، مثل أختك الكبيرة ألامندا".

قالت مايا ديوي "سمعت أن الزواج مسألة سهلة".

"صحيح تمامًا. الصعب هو الطلاق".

ثم ظهر مامان جيندنج خارجا من غرفة النوم شاحب الوجه كمن يسير نائما، وجلس إلى كرسي، عازفا عن النظر إلى الفتاة الجالسة بجوار أمها. قال "رأيت حلما". لم ترد ديوي آيو أو مايا ديوي منتظرتين أن يكمل كلامه. "حلمت أن ثعبانا لدغني".

قالت ديوي آيو "هذا فأل خير. أنتما الاثنان سوف تتزوجان قريبا. من ناحيتي سوف أبحث عن شيخ قرية".

هكذا تزوج ماما جيندنج، وهو في الثلاثين من العمر تقريبًا، بمايا ديوي وهي في الثانية عشرة، في العام الذي تزوجت فيه ألامندا بشودانتشو. كان زفافهما الوجيز البسيط قد شهد احتفالا نمائميا بهيجا استشرى في المدينة حول ما جرى فعلًا. ولكن الزفاف أسعد رجال هاليموندا على الأقل، إذ صار بوسعهم مرة أخرى أن يترددوا على ديوي آيو في ماخور ماما كالونج.

تركت ديوي آيو بيتها وخادمتين للعروسين وانتقلت هي وأديندا إلى مجمع سكني حديث الترميم تركه اليابانيون. أحبت ديوي آيو تلك البيوت لأن اليابانيين كان لديهم أحواض استحمام واسعة، كبيرة كأنها حمامات سباحة.

وقالت لأديندا "إن كنت تريدين الزواج أنت الأخرى فكل ما عليك هو أن تقولي ذلك".

قالت أديندا "لست متعجلة. لا يزال هناك وقت على يوم القيامة".

وقبل أن يرحلا نهائيًا، أعدت ديوي آيو غرفة فاخرة للعروسين، يطفو في هوائها عبق الياسمين والأوركيد. وكان السرير الجديد الذي بعثت في طلبه، مزودا بأفضل حشايا المدينة ذات أحدث التقنيات الزنبركية، قد وصل مباشرة من المتجر في عصر ذلك اليوم محاطا بناموسية وردية أنيقة الطيات. زينت جدران الغرفة بورق حائط مرسوم عليه زهور. ولكن ذلك كله كان عديم المعنى، فالعروسان الجديدان لم يقضيا ليلتهما الأولى معًا في حقيقة الأمر.

بدلًا من ذلك، وثبت مايا ديوي مرتدية البجامة على السرير بخفة طفلة. كانت تريد أن تختبر تقنية الزنبرك، مثلما فعلت أمها قبل سنين كثيرة في ماخور اليابانيين. ولما ضجرت من اللعب بالحشية، والغرفة البديعة، استلقت محتضنة مخدة منتظرة زوجها. ظهر ماما جيندنج في حالة بلاهة لا توصف. لم يثب على السرير، معانقا جسم زوجته، مقتحما إياها بلا رحمة شأن كثير للغاية من حديثي الزواج الطائشين. بل

جذب كرسيًا إلى جوار السرير وجلس عليه ينظر إلى وجه الفتاة الصغيرة وقد ارتسم على وجهه عذاب من يشاهد حبيبته تحتضر. كان جمالها المنمنم آسرًا للغاية. فشعرها الأسود لامع، متماوج حول رأسها على المخدة. وعيناها اللتان تبادلانه النظر صافيتان بريئتان. أما أنفها وشفتاها وكل ما فيها فرائع بلا استثناء. لكن انظروا، كل شيء كان لا يزال دقيقًا وبديعًا. كانت يداها لا تزالان يدي بنت صغيرة، وكذلك ربلتا ساقيها، ومن تحت البجامة كان نهداها لا يزالان برعمين لم يكتمل نموهما بعد. لم يكن من الممكن قط أن ينام مع بنت صغيرة كتلك.

سألته مايا ديوي "لماذا أنت جالس بهذا الهدوء؟"

ردَّ مامان جيندنج بنبرة شكوى "وماذا عليَّ أن أفعل؟"

"يمكن على الأقل أن تحكي لي قصة".

لم يكن مامان جيندنج بارعًا في تأليف القصص، فلم يكن بيده إلا أن يحكي لها القصة الوحيدة التي يعرفها، قصة الأميرة رينجانيس.

قالت مايا ديوي "لو رزقنا بابنة فلنسمها رينجانيس".

"ذلك ما كنت أفكر فيه".

وهكذا كانت تنقضي كل ليلة: تستلقي مايا ديوي قبله بالبجامة، ثم يظهر مامان جيندنج بمثل ارتباك أول ليلة، فيجذب كرسيا ويجلس بجوار عروسه بوجهه القديم الحزين، وتطلب منه مايا ديوي أن يحكي لها قصة. فكانت القصة التي يحكيها كل ليلة هي القصة نفسها، بكلماتها تقريبًا تتكرر كلمة بعد كلمة، عن الأميرة رينجانيس التي تزوجت

الكلب. ولكن الزوجين استمتعا بتلك الليالي كما يستمتع كل حديثي الزواج بلياليهم، ولم تبد بوادر السأم على وجهيهما. وكان النوم يغلب مايا ديوي في العادة بسرعة قبل أن تكتمل الحدوتة. فيغطيها مامان جيندنج بالبطانية، ويسدل عليها الناموسية، ويطفئ المصباح، ويضيء الوناسة. وبعدما ينظر إلى وجهها النائم الوديع، يغادر الغرفة مغلقا الباب برقة، ويصعد إلى الطابق الثاني فينام في غرفة خاوية حتى الصباح حينما تأتي زوجته لتوقظه حاملة فنجان قهوة ساخنة. وحين كانت ديوي آيو وأديندا تعيشان معهما في البيت كانتا تضحكان من هذه الحماقة.

بدأ مامان جيندنج روتينًا جديدًا. كان يستيقظ في الصباح فيشرب قهوة أعدتها له زوجته. وبعد نصف ساعة من ذلك تعد ميرا الإفطار، فيجلس الاثنان إلى المائدة شأن أي أسرة سعيدة. في البداية كان ذلك مصدر ضيق شديد لمامان جيندنج الذي كان معتادًا على طول النوم. ولكن زوجته كانت تتركه بعد الإفطار يكمل نومه فتبيَّن له أن النوم ببطن ممتلئ يلذ له. ويستيقظ مامان جيندنج مجددًا في العاشرة، ليجد ثيابه مكوية بعناية، ومتروكة له بحرص بجوار السرير. يستحم، وذلك أمر كان نادرا ما يفعله من قبل، ويرتدي تلك الثياب. كان منظره في المرآة يبدو له غريبًا إذ يلبس قميصًا معقود الأزرار وبنطالًا مكويًا في مقدمته سن مستقيم من أعلاه إلى أسفله. لم يكن يفعل ذلك كله إلا من أجل مايا ديوي، يرتدي الثياب، ويقبل زوجته في جبينها في الطرقة، ويذهب إلى موقعه الأثير في محطة الأتوبيسات.

بعد فترة، لم يعد شيء من ذلك يثير ضيقه، برغم أن رفاقه كانوا ينظرون شزرًا إلى سلوكه الجديد الغريب. كان يشعر طول الوقت بحنين إلى البيت، وشوق دائم إلى زوجته، فلم يكن يبقى في المحطة مطلقًا حتى حلول المساء، وما كان يحين العصر إلا ويسارع بالرجوع إلى البيت.

وفي ليلة، بعد مرور شهر على زواجهما، سألته مايا ديوي "هل يمكنني الرجوع إلى المدرسة؟"

كان السؤال مفاجئا. فهي لم تزل بالطبع في عمر الدراسة، وكل فتاة في الثانية عشرة كانت تذهب إلى المدرسة من الصباح إلى العصر. ولكنها أيضًا زوجة، ولم يكن قد سمع قط بزوجة تجلس إلى مقعد الدراسة. ففكر لوهلة، إلى أن أدرك أن زواجهما لم يكن بعد زواجا حقيقيا من النوع الذي يعرفه الناس. فلم يكن قد نام مع زوجته بعد، ولم تكن لديه رغبة في ذلك. فلعل الأفضل أن ترجع إلى المدرسة.

ولكن هناك مشكلة. لم تكن المدرسة لتسمح بالتحاق امرأة متزوجة خشية أن يكون لذلك تأثير على بقية التلميذات. فكان على مامان جيندنج أن يزور ناظر المدرسة ويفاوضه بحيث يسمح لزوجته باستئناف دراستها. وانتهت المفاوضات نهاية سيئة، بأن ألصق الناظر في الجدار وضرب مدرسين حاولا أن ينجدا الرجل. وهو ما سوف يفعله بالحرف بعد سنين كثيرة حينما ترفض المدرسة القبول بابنته رينجانيس الجميلة.

وبذلك الإكراه العاتي قبلت المدرسة وألحقت مايا ديوي.

دام زواجهما هادئا مثلما كان من قبل. ففي الصباح كعادتها توقظ مايا ديوي زوجها بفنجان من قهوة لامبونج الطازجة، ولم يختلف فيها لا أنها كانت في ذلك الوقت تظهر مرتدية زي المدرسة. وعلى المائدة كانا يتناولان الإفطار وحولهما الخدم كأنهما أب بلا زوجة وابنة بلا أم. وفي السابعة والربع تكون مايا ديوي متأهبة بحقيبتها المدرسية، فتخرج بعدما يقبل مامان جيندنج جبينها وتتجه إلى المدرسة بينما يعاود مامان جيندنج النوم.

وفي العصر ترجع من المدرسة فلا تجد مامان جيندنج في البيت، وتشرع في ترتيب كل شيء على أحسن ما تستطيع. وفي المساء بعدما يلتقيان مرة أخرى على العشاء، تجلس مايا ديوي إلى مكتبها لتحل الواجبات التي يكلفها بها المدرسون. ولم يكن بوسع مامان جيندنج أن يساعدها فيها، فلم يكن يزيد عن الجلوس برفقتها متحليا بصبر خاص لا يتوافر إلا لعاشق متفان. وينتهي ذلك الروتين قرابة التاسعة مساء. ويحين ميعاد النوم، بغيرالمزيد من حكاية رينجانيس التي تزوجت الكلب، بل ترتدي مايا ديوي البجامة وتستلقي في السرير فيأتي مامان جيندنج ليغطيها بالبطانية، ويسدل الستائر، ويطفئ المصباح ويضيء الوناسة، ثم يقول لها "تصبحين على خير".

فتقول له مايا ديوي "وأنت من أهله" وتغمض عينيها.

وحتى بعد مرور عام كامل لم يمارسا الحب.

وذات ليلة ذهب مامان جيندنج ليرى ديوي آيو في ماخور ماما كالونج، مثلما كان يفعل من قبل. وكان ضيف ديوي آيو الوحيد قد ذهب بالفعل.

سألته ديوي آيو "لماذا أتيت إلى هنا؟"

"لا أقوى على كبت رغبتي".

"لديك زوجة".

"هي أحب من أن أوذيها. أطهر من أن أمسها. أريد أن أنام مع حماتي".

"أنت وغد حقيقي يا زوج ابنتي".

ومارسا الحب حتى الصباح.

بدأت الصداقة الغريبة بين مامان جيندنج وشودانتشو على مائدة القمار في وسط السوق. كانت الصداقة غريبة لأنه منذ أن نام شودانتشو مع ديوي آيو وذهب مامان جيندنج إلى مقر المنطقة العسكرية، نشأت بين الاثنين عداوة أبدية، وتفاقمت بسبب المشاكل الدائمة بين رجال مامان جيندنج وجنود شودانتشو.

لم يكن الجنود يحبون أن يدفعوا في الماخور، ولكنهم كان يجدون البلطجي هناك يتولى أمر أي شخص ينام مع العاهرات بدون أن يدفع. ولم يكن الجنود أيضًا يحبون أن يدفعوا في حدائق البيرة والحانات، والحق أن أصحاب تلك الأماكن ما كانوا يبالون بذلك كثيرًا لأن الجنود عموما

كانوا لا يفرطون في الشرب، ولكن رجال البلطجي كانوا يقيمون عمليا في حدائق البيرة تلك ويشعرون بأن عدم دفع الجنود صفعة على وجوههم. وفوق ذلك كله كان رجال البلطجي يتعرضون للاعتقال من العسكر لأشياء سخيفة من قبيل السكر وإلقاء الحجارة على واجهات المتاجر، فكان الجنود يصطحبون من يفعل ذلك ويأخذونه وراء مقرهم فلا يتركونه إلا معدوم العافية. وأثار ذلك كله مشاحنات صغيرة بين جنود شودانتشو وعصابة ماما جيندنج.

ولكن حتى ذلك الحين، كان لا يزال يسهل حل تلك المشكلات. فكلما كان يعتقل بلطجي ويضرب في المقر العسكري حتى تعدم عافيته، كانت العصابة تصطاد جنديًا عابرا وتضربه في حقل كاكاو. وإن اعتقل بلطجي وحبس، كان ماما جيندنج يذهب لتحريره بفدية تافهة تغلق أفواه الجنود. ووسط ذلك كله كان جنود الشرطة حاضرين، لكنهم كانوا يؤثرون البقاء في موقعهم وكف أيديهم عن الأمر كله.

كان كثير من الناس يأملون أن يهب شودانتشو ليصد هؤلاء الأعداء، فلم يكن أملهم ذلك -كما في حالة إيدي الأحمق- إلا إفراطا في التفاؤل، إذ كان شودانتشو مشغولا بشؤونه الأسرية وبمطالب اتحاد صيادي السمك فلم يبق لديه وقت للتفكير في ماما جيندنج وأصدقائه. وهكذا تهاوت شعبية شودانتشو بوصفه بطل المدينة، بل إن الناس فقدوا ثقتهم فيه وباتوا يشكون أن الجيش يتآمر مع البلطجية ليحدثوا كل تلك الفوضى، خاصة بعدما تذكروا أن الاثنين، شودانتشو وماما جيندنج، صهرا ديوي آيو.

هكذا نحت الأمور إلى الفوضى حينما تشاجر ذات يوم جندي من المنطقة العسكرية مع أحد الحرس في ماخور ماما كالونج. بدأ الشجار على فتاة ريفية أرادها كل من الرجلين لنفسه. تشاجرا في الشارع، ثم ظهر أصدقاؤهما. وتحول شجارهما الخاص إلى معركة حامية بين جماعة من الجنود وعصبة من البلطجية.

لا يعرف أحد كيف بدأ الأمر، لكن في النهاية، بعد ساعة من الشجار الضاري، كان نحو عشرين شجرة ظليلة قد وقعت على جانب الطريق وتبعثرت محتويات واجهات المحلات، وتناثرت الصخور على أرض الشارع وإطارات العربات القديمة، وانقلبت سيارتان، وأحرق قسم الشرطة.

اختبأ الناس مذعورين في بيوتهم، وخيّم الهدوء على شارع جالان ميرديكا الصاخب. وعلى جانب منه وقفت عصابة البلطجية تشاهد بمناجل وسيوف ساموراي ورماح وهراوات معدنية وصخور وقنابل مولوتوف. بل كانت بحوزتهم قنابل يدوية وأسلحة متبقية من جيش حرب العصابات. وفي الجانب الآخر من الشارع وقف الجنود، لا من رجال شودانتشو وحدهم، بل من جميع المواقع العسكرية في المدينة، يشاهدون بأسلحة محشوة.

في ذلك اليوم عمّ الهدوء المدينة كما لو كانت مدينة مهجورة منذ سنين. خيَّم صمت مشحون بالتوتر على جميع الأنحاء، واستشرى الخوف من احتمال اندلاع حرب أهلية في المدينة التي لم تعرف السلام منذ حرب الاستقلال. كان الكثيرون قد ضجروا من البلطجية ففكروا

في أنفسهم أن يكونوا في صف الجنود إذا ما اندلعت الحرب. ولكن كثيرين أيضًا كانوا ضجرين من الجنود الذين بدوا منتفخين بأنفسهم ففكروا إذا ما اندلعت الحرب أن يكونوا قطعا في عون البلطجية.

ولكنهم في النهاية سوف يقتلون بعضهم بعضا لا يبقون على أحد منهم.

طوال عصر ذلك اليوم تعالت أصوات انفجارات القنابل اليدوية والمولوتوف وطلقات الرصاص بين المتاجر والبيوت. ولم يعرف أحد إن كان ذلك أسفر عن قتلى. ووسط انشغاله الدائم بمشكلاته المنزلية، لم يعرف شودانتشو إلا متأخرا للغاية بكل تلك الأوضاع المزرية فما كاد يعرف بها حتى استاء أشد الاستياء أن تؤدي فتاة ريفية إلى دمار وسط المدينة. وقرّر أن يضع ذلك الجندي رهن الحبس الانفرادي سبعة أيام وسبع ليال بدون طعام أو ماء غير مبال بموته إن مات. ولكن كان عليه أولا أن يحول دون انتشار الدمار. فسارع يبعث أخلص جنوده، تينو صديق، ليتكلم مع ماماն جيندنج طالبًا منه الهدنة وتوقيع معاهدة سلام.

مامان جيندنج كان لا يزال ينعم بشهر العسل الغريب في زيجته الغريبة، فلم يسمع بما جرى من شجار في شارع جالان ميرديكا، ولكنه أيضًا لم يبال بالأمر كثيرًا. ساءه فقط أن يعترض الناس طريقه إلى تأسيس حياة سعيدة تعوِّضه عن كل سنوات التيه التي عاشها وحيدا

يطبق في الآفاق. وكان على يقين من أن الشجار لا بد أن يكون قد بدأ بسبب وقاحة عسكري.

ولكن زوجته ذات الاثنتي عشرة سنة أقنعته بأن يهتم بالفوضى، فخرج مامان جيندنج أخيرًا، بعدما اتفق هو وتينو صديق على مقابلة شودانتشو في موقع محايد يقع عند منتصف المسافة بين محطة الأتوبيسات ومقر المنطقة العسكرية. وكان ذلك الموقع في السوق.

طردوا أربعة رجال: بائع سمك مملح وسائق ريكاشة[٤٢]، وحمّالا، وزوج إحدى بائعات القماش. كانوا جالسين إلى منضدة القمار في وسط السوق يتراهنون على عملات مكدسة في أربعة أركان المنضدة. انسحب لاعبو الورق ووقفوا يشاهدون من كشك بائع الدجاج مجيء شودانتشو في نهاية المطاف. توقف البيع والشراء في السوق إذ تجمد الباعة والمشترون في أماكنهم، في انتظار أن يقرر الرجلان هل ستندلع حرب أهلية طاحنة في عصر ذلك اليوم أم أنها سوف تتأجل لسنين، أو حتى لقرون تالية.

قال شودانتشو إن على رجال البلطجي أن ينسحبوا فورا ويسلموا أسلحتهم، فلا حق إلا للجيش في حمل السلاح. فلم يبد منطقيا لمامان جيندنج أن تكون للجنود حصانة في استعمال أسلحتهم. فقال شودانتشو:

---

42 الريكاشة rickshaw معكوس البيكاك، فالمقعد المظلل وراء سائق الدراجة

"يا صديقي العزيز، لا يمكن أن نحل هذه المشكلة بمشاجرة كالأطفال" ثم قال "ليكن، لا نزع للسلاح في الوقت الراهن، لكن مر رجالك بأن ينسحبوا من الشوارع ومرهم بألا يكون بعد اليوم مزيد من الشغب أو تحطيم لواجهات المحال".

قال مامان جيندنج "يا عزيزي شودانتشو، هذا معناه طبعا أنك توافق ألا يكون مزيد من المشاجرات بين جنود مسلحين على فتيات ريفيات مهما يكن الأمر. ومثل أي رجل آخر في المدينة، على الجنود أن يدفعوا في مقابل كل زيارة منهم للماخور، وأن يدفعوا في حدائق البيرة كلما شربوا فيها، وأن يدفعوا لسائقي الأتوبيسات كلما ركبوها. فما من صبية ذهبيين هنا يا شودانتشو".

سحب شودانتشو نفسا عميقا، واشتكى من أن الجنود لا يحصلون على رواتب كافية من الحكومة الوطنية، وإن أغلب أرباح تجارته مع الجيش والمدينة تصب في جيوب لواءات العاصمة. "فيا صديقي العزيز، سأقدم لك عرضا قد لا يبدو في أول الأمر مغريا لكنه سوف يساعدنا على حل هذه المشكلة المعقدة".

"قله أرجوك".

قال شودانتشو "قد نتفق يا صديقي على أن يسلم بلطجيتك ورجالك جزءاً مما يكسبونه للجنود، وبه يدفعون للعاهرات ويسكرون براحتهم".

فكر مامان جيندنج لحظات ولم ير مشكلة في التنازل عن جانب طفيف مما يحصل عليه رجاله، إذا تعهد شودانتشو بألا يضايق الجنود رجاله مهما فعلوا، وأن يوافق على أن يعيش الجميع في سلام ورخاء.

وهكذا توصل الاثنان أخيرًا إلى اتفاق هامس لم يسمعه أحد في السوق ممن كانوا واقفين، ناظرين، ممتلئين بالفضول. بعث مامان جيندنج وشودانتشو أخلص رجالهما لنشر خبر بداية الهدنة من الرابعة في عصر ذلك اليوم، فرجع الجنود إلى مواقعهم، والبلطجية إلى حيث يذهبون، ولم يبق من أحد إلا مامان جيندنج وشودانتشو، جالسين في وسط السوق، وكل منهما يتنهد ارتياحا كمن تحرر من أنياب نمر، مضطجعين في كرسييهما، إلى أن سأل شودانتشو:

"هل تعرف لعبة الترامب؟"

قال مامان جيندنج "كثيرًا ما ألعب الترامب مع أصدقائي في محطة الأتوبيسات".

فناديا على بائع السمك المملح والحمال لكي يرجعا إلى المنضدة بورق اللعب، وكانت تلك بداية صداقتهما الغريبة، على منضدة اللعب. هنالك بُحث الكثير من شؤون الجنود والبلطجية وعولجت بين الرجلين. وبدأ روتين جديد، حيث صارا يلتقيان على منضدة اللعب ثلاث مرات في الأسبوع. ولم يكن سرا أن كلا منهما كان يغش الآخر ويحاول أن يفوز عليه دائمًا، ولكن التكلفة لم تكن باهظة قط، فإن هو إلا فارق طفيف في العملات بين الخاسر والرابح. كانا في بعض الأحيان

يلعبان مع زوج بائعة القماش، وأحيانا مع باعة الأدوية، أو الحمالين، أو سائقي البيكاك أو الجزارين، أو بائعي السمك المملح، أو أي شخص يجدونه في السوق ويجيد لعب الترامب.

لكن إذا كان شودانتشو موجودا عند منضدة اللعب كان ماماn جيندنج يأتي، والعكس بالعكس. صداقة غريبة، نكرّر، ففي قلبيهما، كان كلٌ غير معجب بالآخر. مامان جيندنج كان لا يزال يشعر بضغينة تجاه شودانتشو لوقاحاته ونومه مع العاهرة التي أحبها، وشودانتشو كان لا يزال يشعر بضغينة تجاه مامان جيندنج الوقح الجالس أمامه إلى المنضدة نفسها لتجاسره على تهديده في مكتبه غير مكترث مطلقًا بأنه رئيس المنطقة العسكرية المحلية وأنه كان في يوم من الأيام القائد الأعلى بقرار من رئيس الجمهورية.

صداقة دارت لها رؤوس الناس في المدينة. كانوا سعداء لأن بالإمكان حل جميع مشكلات المدينة على منضدة القمار بكل سهولة، ولكنهم شعروا بضيق حقيقي أيضًا بمجرد أن اكتشفوا أن الجنود والبلطجية تآمروا على الاستمتاع بما يسلب من نقود أهل المدينة. أدركوا كذلك أنه بموجب تلك الأوضاع لم يعد لديهم من يشكون إليه. ولا تتصوروا أن بوسعهم أن يطلبوا عونا من الشرطة، فكل ما كانت تفعله الشرطة هو أن أفرادها كانوا ينفخون صافراتهم في التقاطعات المزدحمة.

في ذلك الوقت لم يعد لهم مكان يلجؤون إليه إلا الحزب الشيوعي، وكان أكثر من يقصدونه هو الرفيق كلايوون. وفي ذلك

الوقت كان الاثنان ـأي الرفيق كلايوون والحزب الشيوعي- يحظيان بأفضل سمعة في هاليموندا.

وفي ثنايا ذلك استمرت الصداقة بين شودانتشو ومامان جيندنج. وبمضي الوقت لم تعد منضدة الترامب تستعمل فقط في مناقشة المشاجرات بين الجنود والبلطجية، أو أعدل طرق اقتسام الأرباح، بل بدأ شودانتشو يسرّ بمشاكله كأنما يتخفف من أعباء قلبه لصديق قديم. ذلك ما كانا يتكلمان فيه عادة، بعدما ينتهيان من لعب الورق ويبدأ تجار السوق في إغلاق محلاتهم وأكشاكهم ويتجهون إلى بيوتهم. كانا يتكلمان أحيانا عما يفعله الرفيق كلايوون. كان شودانتشو لا يزال يعتقد أن الرجل ليس شيوعيا حقيقيا، وأن غاية ما يفعله هو الثأر لحبيبته ألامندا. ضحك مامان جيندنج حينما سمع بأمر هذه الدراما (وإن كان في واقع الأمر يعرف مسبقا كل تفاصيلها) وأعرب عن رأيه قائلا إنه لا يليق برجل أن يسرق حبيبة غيره. ولذلك استاء أشد الاستياء حينما علم أن شودانتشو نام مع ديوي آيو. بينما احمرَّ وجه شودانتشو وجحظت عيناه شأن طفل توبخه أمه.

قال "أنا أكثر الملاعين وحدة في هذا العالم العنيف. التحقت بالجيش الياباني أتدرب في قوات الإمبراطور وأنا لم أزل صبيا مراهقا، ثم رُقيت إلى شودانتشو. ثرت عليهم وخضت حرب عصابات استمرت أربعة أشهر بعد استسلامهم. حياتي كلها كانت حربا إثر حرب، منها حرب ضد الخنازير. وتعبت من كل ذلك". أعطى مامان جيندنج لشودانتشو

منديلا دأبت مايا ديوي على دسّه في جيب بنطاله، فجفف به شودانتشو دموعه. "أريد أن أعيش كغيري من الناس. أريد أن أحب وأن أحَب".

قال مامان جيندنج "رجالك يحبونك حبا كبيرًا".

"ولكنك تعلم تمامًا أنني لا أستطيع أن أتزوجهم".

"طيب، كل منا لديه زوجة جميلة الآن".

"نعم، لكن من سوء حظي أني تزوجت امرأة أحبت رجلا آخر قبلي، أحبته حبا قد لا ينتهي".

قال مامان جيندنج "قد يكون هذا صحيحا. لقد رأيت الرفيق كلايوون أمام مجموعة من الصيادين. شخص لا تملك إلا التعاطف معه إذ تراه يجتهد لكي يخفّف عن الآخرين تعاستهم. أحسده في بعض الأحيان. بل أظن أحيانا أنه الوحيد الذي ينظر إلى المستقبل في هذه المدينة بشيء من الأمل".

قال شودانتشو "هكذا هم الشيوعيون. قوم مثيرون للشفقة لا يدركون أن هذا العالم مكتوب له أن يكون أنتن مكان يمكن تخيله. وهذا هو السبب الوحيد الذي جعل الله يعد بالجنة، راحة من هذه الفوضى اللعينة".

وهكذا كان يأخذهما الكلام فلا يلاحظان زوال النهار وحلول الليل. ولا يكادان يدركان الوقت حتى يسارعا بالنهوض، فيعانق كل

منهما الآخر، وإلى اللقاء إلى اللقاء، ويسير كل منهما نحو بيته في اتجاه غير الذي يسلكه الآخر. كل منهما إلى بيته وزوجته. وذات يوم ساء الحظ: توقف ميرا وصبري عن العمل في بيت مامان جيندنج إذ اكتشفا فجأة أنهما يحبان أحدهما الآخر ويريدان الزواج والعيش مزارعين في قرية. وحار مامان جيندنج في أمر العثور على خادم جديد، وكانت زوجته لم تزل طفلة يسيل مخاطها. ولكن الأمر تكشف عن غير ما كان متوقعا. في أول يوم بلا خدم، رجع إلى البيت بعدما لعب الترامب مع شودانتشو وكان الظلام قد حل، فوجد العشاء جاهزا.

سأل في حيرة "من طبخ كل هذا الطعام؟"

"أنا".

وإذ ذاك اكتشف موهبة زوجته الاستثنائية في شؤون البيت. لم تكن تكوي ثيابه ببراعة وتعطرها وحسب، بل وتطهو الطعام أيضًا، ووجد كل شيء لذيذ الطعم مناسبا لذوقه تمامًا. أوضحت له مايا ديوي أن ديوي آيو قد دربتها فأحسنت تدريبها منذ أن كانت بنتا صغيرة. بل كانت خبازة ممتازة، تجرب دائمًا وصفات جديدة للبسكويت والكعك وتهدي للجيران. وأصبحت مايا ديوي سفيرة البيت التي تقيم علاقات مودة مع جميع الجيران لعجز مامان جيندنج عن تحسين صورته السيئة. ذلك البسكويت والكعك جلب على الأسرة الكثير من الحظ الحسن، إذ بدأ الجيران يطلبونه لحفلات ختان أبنائهم، وتوالت الطلبات، فكانت مايا ديوي تلبيها بعدما ترجع من المدرسة، فمهما حدث، ما كانت الأسرة لتقلق على وضعها الاقتصادي.

بدأ مامان جيندنج يأسف على ذهابه إلى ماخور ماما كالونج للنوم مع حماته بينما لديه هذه الزوجة الرائعة. وذات مساء ذهب إلى الماخور والتقى بديوي آيو فسألته وهي تضحك: "دعني أخمن، لم تلمس زوجتك بعد وتريد أن تنام مع حماتك".

"بل جئت أخبرك أنني لن ألمسك مرة أخرى".

فاندهشت ديوي آيو وسألته "لماذا؟"

"بزوجة رائعة مثل ابنتك الصغرى، لا أريد أي امرأة أخرى".

وسارع مامان جيندنج يترك ديوي آيو، مشتاقا إلى زوجته المنتظرة في البيت.

١١

بعدما أخذ حطب شجرة اللوز إلى زفاف ألامندا، جمع الرفيق كلايوون أصدقاءه على الشاطئ. كان به ولع بالمحيط منذ طفولته. فكان يعيش وسط الصيادين وكثيرًا ما يخرج إلى البحر مثلما يفعل الصيادون. وذاق الغرق مرارا مثلما يذوق ابن المزارع جروح المناجل. لم يشأ أن يرجع إلى مزرعة الفطر التي كانت تذكره بألامندا أكثر مما يريد ولم تكن به رغبة إلى اجترار ذكرياته المريرة.

أقام مع صديقين له كوخا على الشاطئ خلف بعض آكام البندان. وكان يذهب بالليل مع كارمين وسميرمان وينطلقون إلى عرض البحر بقارب يستعيرونه من أي شخص. وبعد قيلولة خاطفة في منتصف النهار، كان يعكف على كتب الماركسية ويعلّم صديقيه كل ما سبق أن تعلمه. وكثيرًا ما كان يذهب إلى مقر الحزب في شارع جالان بيلاندا، ويتواصل مع كثير من الشيوعيين في العاصمة. وكان خلال الفترة القصيرة التي قضاها في جاكرتا قد انضم إلى مدرسة الحزب وصار له كثير من المعارف هناك.

كان أصدقاؤه بالمراسلة يبعثون له الدوريات والمجلات، وحزبه يبعث جريدته إلى كوخه الصغير. بدأت الكتب تتراكم في ركن الكوخ،

فصار معنى ذلك أنه بات قادرا على أن يدرس بالضبط ما قاله ماركس وإنجلز ولينين وتروتسكي والرئيس ماو، كما كان بوسعه أن يقرأ مناشير يكتبها أبناء بلده من أمثال سايمون وتان مَلَكَه. وبعض أولئك الكتاب من أمثال تروتسكي وتان مَلَكَه كانوا في واقع الأمر أقرب إلى المحظورين، لكن كلايوون بصفة خاصة كان يجد في الحزب من يجمع كتبهم له.

لم يكن قد أصبح عضوا فعليا في الحزب، بل منتسبا إليه. درس بنفسه كل ما لديه من مواد، ودأب على حضور النقاشات السياسية التي كانت تجري في الحزب، ويقف إلى المنصة كلما سنحت الفرصة. ويعمل على تنظيم الصيادين وعمال المزارع. وبعد ستة أشهر من زواج ألامندا، رأى رئيس الحزب في المدينة أنه أفضل كادر في منطقته فقبله عضوا عاملا في الحزب الشيوعي. وكلّفه بأولى مهامه، وهي عبارة عن جمع من بقي من محاربي الجيش الثوري في حرب العصابات، وأغلبهم شيوعيون خاضوا الحرب مع جنود شودانتشو، ثم تشتتوا كلّ تلك السنين بعد فشل الثورة. ثم باتوا ينضمون إلى الحزب بحنين رومانتيكي إلى الثورة. ذلك هو الوقت الذي تأسّس فيه اتحاد الصيادين، فكان أول أعضائه هما كارمين وسميرمان والرفيق كلايوون رئيسه. وفي غضون أسبوعين انضم إليه ثلاثة وخمسون عضوا، وسرعان ما انضم إليه جميع صيادي السمك تقريبًا. وصار الصيادون يلتقون كلّ أحد في فناء سوق السمك الملاصق للميناء إذا لم يكن لديهم شيء مهم يفعلونه. فيوزع

عليهم الرفيق كلايوون أوراق الدعاية ويشرح لهم خطر سفن الصيد الكبيرة على حياتهم.

صار الاتحاد يتولى شؤون جميع احتفالات الصيادين. وكان الرفيق كلايوون يلقي خطبة قصيرة يستشهد فيها بجمل قليلة من المانيفستو قبل أن يُرمى رأس بقرة في المحيط قربانا لملكة بحار الجنوب. كما كان يفعل مثل ذلك في جنازات الصيادين الذين يبلعهم الموج الهائج وحينما يقيم الصيادون طقوس المباركة شاكرين الجو المواتي برقصة السيتترين.

حلّ النشيد الأممي محل الأغنيات الشعبية جميعًا، وصارت جميع الصلوات تستهل بـ"يا عمال العالم اتحدوا".

كان الرفيق كلايوون يقول ضاحكا لأصدقائه في مقر الحزب "أنا أشبه بمبعوث تبشيري ينشر دينا جديدا كتابه المقدس هو المانيفستو. وهذه هي أهم مهام الشيوعية والدين: جمع الأتباع".

كان الرفيق كلايوون مشغولا للغاية في تلك الأوقات. فبالإضافة إلى تنظيم دعايته، بدأ كذلك التدريس في مدرسة الحزب، باسطا المناهج السياسية للكوادر الجديدة. وبقيت لديه رغبته في الذهاب إلى البحر ومراعاة شؤون اتحاد الصيادين، إذ بدا أنه يستمتع بذلك، فلمّا عرض عليه الحزب أن يستكمل دراسته في موسكو رفض وآثر البقاء في هاليموندا.

ولم يكن له من وقت للراحة إلا في الصباح حينما يرجع من البحر إلى كوخه، فيجلس أمامه قارئا ثلاث جرائد تتباهى بوصولها إلى

هاليموندا قبل الإفطار. كان يقرأ جريدة "بيبول ديلي" «الشعب اليومية»، وهي جريدة الحزب الشيوعي، وجريدة إيسترن ستار «نجم الشرق» الخاصة بحزب آخر يعد "حليفا"، وجريدة محلية تصدر في باندونج. كان يقرأ ويشرب قهوته قبل أن يذهب ليستحم تحت صنبور وراء الكوخ في الهواء الطلق، ويتناول إفطاره، ثم ينام حتى منتصف النهار.

وذات يوم رأى في أثناء روتينه الصباحي سبع تلميذات يتجهن شرقا على الرمل. نظر إليهن، وكان طبيعيا أن يرى جماعات من التلاميذ وقد ضجروا من المدرسة فذهبوا إلى الشاطئ يلعبون الهوكي، ولذلك لم يبال كثيرًا بوجودهن فعاد إلى قهوته وجرائده. لم يكن انتهى من قراءة المادة الرئيسية في الصفحة الأولى ـ وتستكمل في الثامنة ـ حينما سمع ضجة من أولئك البنات (ولم يكن محتملا أن تكون صادرة من غيرهن فالشاطئ في التاسعة صباحا كان يسوده الهدوء كأنه شاطئ مهجور). سمعهن يصرخن زاعقات، فعرف في صياحهن أنه ليس صياح بنات شقيات، بل صراخ خوف.

ترك الرفيق كلايوون جريدته وسار نحو البنات البعيدات فرآهن مبعثرات يجرين في كل اتجاه، وفجأة انشقّت عنهن بنت يطاردها كلب. فكّر الرفيق كلايوون أن في هاليموندا الكثير من الكلاب البرية منذ بدأ شودانتشو تربيتها.

أراد أن يساعد البنت، لكنها كانت بعيدة عنه للغاية والكلب كان على مسافة عشرة أقدام وراءها. حينما رأته البنت أدركت أنه كان

يشاهد رعبها، فجرت باتجاهه والكلب من ورائها، ينبح نباحا ضاريا. وأخيرًا جرى الرفيق كلايوون باتجاههما بينما البنت تصرخ في فزع "الحقني" وصديقاتها يصرخن في فزع وهن بعيدات خلفها.

أسرع الرفيق كلايوون في جريه لكن الأمر الفارق الذي لم يدركه إلا فيما بعد هو السرعة الشديدة التي كانت البنت تجري بها. وسط الصراخ والنباح أمكنها أن تحافظ على مسافة من خطم الكلب المسعور، وبينما كان الرفيق يقترب أمكنه أن يرى بنفسه أن المسافة التي قطعتها البنت كانت ضعف المسافة التي قطعها هو ليصل إليها. كان يرى الرعب على وجه الفتاة وهي تثب إليه من بعد خمسة أقدام مثلما قفز الكلب أيضًا ظانًا أن ذلك هو الوقت الأمثل ليعضها. لكن الرفيق كلايوون تحرَّك أسرع وفي اللحظة الحاسمة ضرب الكلب بأقوى ما لديه في فكّه مطيحا به إلى الوراء وهو يعوي للحظة قبل أن ينبطح دونما حراك، والزبد يطفر من فمه. كان الكلب مصابا بالسعار، وكانت الضربة قاتلة.

احتضنت التلميذة الرفيق كلايوون بشدة، فكانت تلك أول لمسة له من امرأة منذ قبلات ألامندا الجامحة أمام محطة القطار. وبرغم أن عددا من البنات والأمهات الشابَّات كن يضعن أعينهن عليه، فقد ضحى بسمعته كقاتل للنساء وكرَّس أغلب وقته للحزب والعمل، فلم يبق لديه وقت للغزل والغواية. ولكن ها هي تلك البنت تتشبث به، فبغير أن يدرك -ولمجرد أن يحميها من الكلب المسعور- بادلها عناقًا بعناق.

كانا متعانقين بقوة حتى أحسَّ الرفيق كلايوون بنهدي البنت، شديدي الليونة والدفء، وبخصلات شعرها الهفاف في نسيم الصباح يداعب وجهه. لما وصلت صديقاتها مطمئنات أبعد الرفيق كلايوون الفتاة عنه برقة، وإذ ذاك رأى جمالها الفريد، جمالها الطبيعي الرقيق قديم العهد بعض الشيء، وضفيرتيها، وعينيها المغمضتين تنسدل عليهما رموش طوال حادة الأطراف، وأنفها الدقيق وأذنيها المنحوتتين، وشفتيها المزمومتين في غضبة صغيرة، وخديها المكتملين، ثم أدرك أن الفتاة فقدت وعيها وأنها ربما كانت غائبة عن الوعي منذ أن وثبت بين ذراعيه.

بعون من صديقاتها، أجلس الفتاة فاقدة الوعي في كرسي. بعد محاولاته إنعاشها، أوقف بيكاك كانت تتقدم ببطء عبر العشب المحاذي لصنابير الاستحمام قرب كوخه وطلب الرفيق من سائقها أن يصحب البنت إلى بيتها ثم تزاحمت البنات جميعًا على البيكاك.

لكن حتى بعدما اختفين عند المنعطف ولم تعد أصوات حوافر الحصان مسموعة، بقي الرفيق كلايوون يجد في أنفه رائحة شعر الفتاة، ويشعر بملمس نهديها الناعم، وأثر جمالها الآسر. حاول أن يصرف عنه تلك المشاعر فقال لنفسه إن لديه عملا شاقا من أجل مستقبل حزبه، فلم ينصرف عنه ذلك الدفء، حتى بعدما شغل نفسه بدفن الكلب المسعور في أكمة، بل وبعد أن أيقظ صديقيه عندما استوى الرز.

شعر وهو يتأهب للنوم بمزيد من المعاناة. كانت أحداث الصباح لم تزل تستولي عليه، وأدرك أن وجه الفتاة مألوف له بطريقة غامضة للغاية، بل شعر كأنه يعرف اسمها. مستشعرًا ملمس جسمها، حاول أن يتذكر كيف له أن يعرفها. كانت الفتاة في الخامسة عشرة تقريبًا، فمن المؤكد أنه لم يواعدها من قبل. ثم إنه لما تذكّر من تكون الفتاة ازدادت معاناته، لقد سبق بالفعل أن رأى وجهها، بل وعرف اسمها، وعرفها هي نفسها منذ أن كانت في السادسة. بل إنه طوال السنة السابقة على سفره إلى جاكرتا كان يراها كل يوم تقريبًا. حاول على الفور أن يبدد كل ذكريات دفء الفتاة عن جسده، ويمحو ملمس نهديها الناعم، ولكن دون جدوى.

قال في إشفاق "ياه، اسمها أديندا، هي أخت ألامندا الصغرى".

قرّر أخيرًا أن ينهض. كان الصيادون قد خرجوا من بيوتهم وبعضهم كانوا يفحصون شباكهم، فيصلحون ما انقطع منها بسبب ضربات السمك، وبعضهم من كانوا يسيرون إلى المدينة طلبا للمتعة. وبعدما اطمأن الرفيق كلايوون إلى أن شباكه في حالة جيدة وأنها مفرودة لتجف بجوار الكوخ، مضى ليستحم تحت الصنابير. ولم يكن موضع الاستحمام إلا صنابير في الهواء الطلق لا يحيط بها غير آكام البندان. لم يكن هناك غير برميل ضخم ذي فتحة صغيرة مسدودة بصندل مطاطي قديم. ولكن كلايوون لم يكن يحب الاستحمام أسفل صنبور مرتفع ينساب الماء منه انسياب البول، ويؤثر على ذلك أن يغترف الماء ويصبه على جسمه مباشرة مثلما كان يفعل.

ظهر أنه لا مفر له من تلك الفتاة، كأنما قدره أن تقبض أسرتها عليه ما بقي حيا. قبل أن ينتهي من الاستحمام، صاح عليه كارمين قائلا إن فتاتين تبحثان عنه. بعدما لبس ثيابه، وشعره لم يزل مبلولا، وجد فتاتين أمام غرفته تنظران إلى صورتي ماركس ولينين المعلقتين على الجدار.

قالت أديندا وهي منحنية في خجل "شكرا لك أن أنقذتني". لم يكن فيها شيء من ألامندا، بل كانت هادئة الوجه، بريئة، حيية.

قال الرفيق كلايوون "كنت أسرع من الكلب، كان بوسعك أن تجعليه يجري حتى الموت من فرط السرعة".

قالت أديندا "بل كان يمكن أن يعقرني، فقد فقدت الوعي".

في ذلك الوقت، كان يمكن الانصراف عن الفتاة وما تسبَّبت له فيه من إزعاج إلى أعمال الحزب. فمضى يدرس شكاوى اتحاد الصيادين المتعلقة بتشغيل شودانتشو سفن الصيد. وذات صباح حاول الرفيق كلايوون أن يقود جماعة من الصيادين للقيام بتظاهرة. فبينما كانت السفن الكبيرة مصطفّة في سوق الميناء لإنزال صيدها، وقف الرفيق كلايوون وجماعته أمامها، وقال لقبطان إحدى السفن إنهم سيظلون واقفين في أماكنهم إلى أن يحصلوا على ضمان بأن هذه السفن الضخمة سوف توقف نشاطها في مناطق الصيد التقليدية.

بدأ كلامه قائلا "لا يهمني أن يتعفّن سمككم كله"، وطبعا أنهى كلامه بقوله "يا عمال العالم اتحدوا".

وقف عمال السفن مسترخين متكئين إلى حواجز السفن، بلا أدنى نية في الاصطدام بأهل قراهم، وبلا أدنى مبالاة باحتمال أن يتعفّن السمك، فهُم في نهاية المطاف لا يحصلون على أجرهم سمكا. في حين وقف المشترون في السوق ـ وكان ينبغي أن يشعروا بأنهم مخدوعون ـ هادئين يرون كم من الصيادين حولهم، أقوياء الأجسام كأنهم أبناء حيتان. الساخطون حقا والناقمون أشد النقمة كانوا بطبيعة الحال هم القباطنة والمسؤولين في سفن شودانتشو، ولكن حتى هؤلاء لم يتحركوا لمواجهة رجال اتحاد الصيادين. وانقضت ساعة في توتر، شغلها كورس بالنشيد الأممي، بينما الصيادون متشابكو الأذرع في صف واحد مواجهين كل ما قد يأتي من السفن، سواء أهو سمك أم رجال.

كان الرفيق كلايوون شبه واثق من النصر. فسرعان ما سيبدأ السمك في التعفن، وإذا لم تنصع السفن، ففي الأيام التالية سوف تصطاد سمكا متعفنا. لكن قبل أن تذوب كتل الثلج في السفن ويبدأ السمك فعليا في التعفن، وصل بعض رجال الشرطة وفرقة عسكرية. وبعد لحظة قلق، قرّر الصيادون أن يتعاركوا، وبدأ الجنود حينذاك يطلقون بنادقهم في الهواء فهرب الصيادون مذعورين. واضطر الرفيق كلايوون لأن يأمر بالانسحاب.

كان ينبغي لذلك كله أن يلهي الرفيق كلايوون عن أديندا وينسيه إياها، لكن ذلك لم يحدث. فتلك الفتاة ظهرت وسط حشد الصيادين، ووقعت عليها عيناه.

كان الكوخ الذي يعيش فيه مع كارمين وسميران هو مقر اتحاد الصيادين، ومن ثم فقد كان مفتوحا للجميع، ففيه يعقدون اجتماعاتهم، ويتكلمون بلا نهاية في أي شيء وكل شيء، ولم يكن يملك أن يطلب من الفتاة الرحيل إذا ما قرّرت المرور بالكوخ هي وبعض زميلاتها في طريق رجوعهن من المدرسة.

كانت أديندا تجيد الحديث بالإنجليزية، ولم يكن ذلك نادرا في هاليموندا التي كان يتردد عليها كثير من الأجانب. وكانت لدى كلايوون مكتبة تبهج عشاق الكتب، أغلب كتبها في الفلسفة والسياسة، لكن فيها كذلك بعض الكتب المدرسية باللغة الإنجليزية فكانت تلك تروق لأديندا. وكثيرًا ما كان الرفيق كلايوون يستيقظ من قيلولة العصر ليجد الفتاة جالسة إلى المنضدة الكبيرة، أسفل صورة لينين بالضبط، تقرأ في هدوء. فتنظر إليه للحظة وتبتسم كأنما تقول **آسفة أن جئت بدون استئذان** ليقدّم لها كلايوون فنجان شاي في توتر، وتقول الفتاة شكرا، **يمكن أن أعدّه بنفسي**، ويعود الرفيق كلايوون إلى غرفته مسرعا وهو يرتعش.

قرأت أديندا كتبا كثيرة هناك. قرأت كل ما لديه من أعمال جوركي ودوستويفسكي وتولستوي، وكلها صادرة عن دار نشر اللغات الأجنبية في موسكو، وكلها مبعوثة من الحزب. قرأت روايات محلية أيضًا، وروايات مترجمة صادرة عن دار نشر ياياسان بيمباروان التابعة للحزب، وكتب دار بالاي بوستاكا التابعة للحكومة.

لم يحدث قط أن طلب الرفيق كلايوون منها الرحيل، لكنه كان يتجنّبها ما استطاع إلى تجنبها سبيلا. وكان يعاني من شيئين حين تكون بجواره، أولهما أن أديندا كانت تبعث في نفسه حنينا مؤلما إلى ألامندا، والثاني أن رؤيتها كانت ترده بلا رحمة إلى عناقهما الذي تسمّم بدفئه. فكان يزيد نفسه انشغالا بشؤون اتحاد الصيادين ومناقشة فشل حملتهم الأولى على سفن شودانتشو. نظّم كوادر لاختراق السفن بالعمل فيها بحيث يسيطرون على من فيها من عمال. وكان من شأن ذلك أن يستغرق بعض الوقت، لكنه كان يؤمن بأن الشيوعيين أكثر أهل الأرض صبرا.

بصعوبة تمكّن من زرع رجلين له في كل سفينة، ولم يكن ذلك كافيا على الإطلاق، لكنه أحسن من عدمه. نفد صبر أغلب الصيادين في انتظار تحريك عمال السفن، فحرَّضوا الرفيق كلايوون على حرق السفن، وهو من جانبه كان يطالبهم بالهدوء قائلا "أمهلوني بعض الوقت حتى أتكلم مع شودانتشو".

فشلت أولى مفاوضات الرفيق كلايوون مع شودانتشو ولم تفض إلى أي نتيجة إلا أن أضاف شودانتشو سفينة أخرى إلى سفينتيه. فعاد الصيادون يحرّضونه على سلوك الطريق القصير وحرق السفن. ومرة ثانية طلب الرفيق كلايوون مهلة ليتكلم مع شودانتشو، وتلك هي المرة التي ذهب فيها إلى البيت فرأى بطن ألامندا، منتفخا وخاويا. ولم يكن شودانتشو وحده هو الذي رأى في كلامه في ذلك اليوم لعنة رجل تأكل الغيرة كبده، بل شعرت بمثل ذلك أديندا أيضًا.

جاءت إليه ذات يوم متضرعة بالدموع. "لا تؤذ أختي الكبرى، لقد عانت بما فيه الكفاية باضطرارها إلى الزواج بشودانتشو".

"أنا لم أفعل أي شيء".

"بل استنزلت عليها اللعنة لتفقد طفلها".

قال الرفيق كلايوون مدافعا عن نفسه "هذا غير صحيح. كل ما في الأمر أني رأيت بطن أختك وقلت ما رأيته".

لم تصدق الفتاة حرفا من كلامه. جلست في موضعها المعتاد الذي تقرأ فيه الكتب، ومشاعرها مزيج من الغضب والحيرة. كان الرفيق كلايوون في العادة يتركها وشأنها، لكنه في تلك المرة سارع إلى جذب كرسي وجلس. لم يكن في المكان غيرهما في عصر ذلك اليوم، وسحالٍ على الجدار وعناكب معلقة في السقف تنسج أعشاشها.

"أتوسَّل إليك يا رفيق أن تنسى ألامندا".

"أنا نسيت أصلًا أن هذا هو اسمها".

تجاهلت أديندا دعابته. "لو أنك غاضب منها، فأنزل غضبك كله عليَّ أنا".

قال الرفيق كلايوون "إذن أعصرك كالطماطم".

قالت أديندا غير منساقة إلى دعاباته "بل اقتلني أو اغتصبني كلما شئت، ولن أقاومك أدنى مقاومة. اجعلني عبدة لك إن شئت"،

وتناولت من جيب جيبتها منديلا كفكفت به دموعا تنهمر على خديها. "يمكنك حتى أن تتزوجني إذا شئت".

صاحت أنثى البرص سبع صيحات في البعيد، في علامة على أنها تبحث عن وليف.

لو كان لذلك الطفل أن يختفي حقًا من بطن زوجته، فسيكون السبب هو الرفيق كلايوون ولعنته، لعنة العاشق الغيور، أو ذلك ما اطمأنّ إليه قلب شودانتشو. ما لمشكلة كهذه أن تحلّ بالسلاحِ، ولا بحرب تدوم سبعة أجيال، فإنقاذ ابنه الأول كان بحاجة إلى حلٍّ سلمي. قال أخيرًا للرفيق كلايوون إنه سوف يطلب من قباطنته أن ينقلوا عملياتهم بعيدا عن الشاطئ والمياه التي درج الصيادون على الصيد فيها.

"ولكن" قال شودانتشو "أرجوك ارفع لعنتك عن بطن زوجتي". كان يتلهف على طفل يثبت به للدنيا أنه وزوجته يتحابان، وأن زواجًا سعيدًا يجمع بينهما. سمع الرفيق كلايوون طلبه فابتسم، لا لأنه كان يعرف أن ألامندا تحبه هو، ولا تحب شودانتشو على الإطلاق، بل "لأنه ما من علاقة بين إناء فارغ وتلك السفن يا شودانتشو".

وكما لو أنه لم يسمع ما قاله الرفيق كلايوون، أبعد شودانتشو سفنه إلى مياه المحيط العميقة.

ابتهج الصيادون بانتصارهم، فلم تعد السفن الكبيرة تصطاد في مياههم ولم تعد تبيع السمك في السوق المحلية، بل ترسو في مدن أكبر تحتاج كميات أكبر من السمك.

حاول الرفيق كلايوون أن يخبرهم بما حدث بأكبر قدر ممكن من الصراحة ـمثلما علّمه أساتذته الماركسيونـ وأن يناقش معهم جهودهم الجديدة بعدما ابتعدت السفن الكبيرة إلى البعيد وعاد السمك من جديد. غير أنه ما كاد يجري شيء من المال في أيدي الصيادين حتى سارعوا إلى شراء رأس بقرة، وبعد احتفالهم على الشاطئ بقليل من زجاجات الخمير، رموا الرأس في البحر قربانًا لملكة البحار السبعة، متشبثين بخرافاتهم. لم يستطع الرفيق كلايوون أن يفعل شيئًا حيال ذلك، شاعرًا بأنه من الصعب أن يعلمهم أبسط أشكال المنطق، فضلًا عن أن يغرس في عقولهم الديالكتيك الماركسي الذي لم يفهم منه هو شخصيًا إلا فتاته في أثناء إقامته العابرة في العاصمة. كان يكفيه ابتهاجًا أنهم تحلّوا بقدر من الشجاعة جعلهم يقاتلون الخطر الذي تعرّض له اتحادهم وأكل عيشهم، ولكنه ظل مرة تلو الأخرى يقول لأصدقائه إن الحياة ليست بهذه السهولة، وإنهم لا ينبغي أن يركنوا إلى هذا النصر الصغير، وإنه لا بد من توثيق روابط صداقتهم، لأن أخطارًا أكبر في الطريق بلا أدنى شك.

لم يكن الصيادون وحدهم هم الذين أدوا طقوس سوايوكوران الشاكرة[٤٣] في ابتهاج. شودانتشو أيضًا فرح وظل يقيم احتفالات الشكر،

---

43 التشابه الصوتي بين مفردة الشكر العربية وsyukuran واضح

وربما لأنه كان قلقا من لعنة الرفيق كلايوون، أقام طقسا تقليديًا طلبًا لسلامة ألامندا وسلامة ابنه الذي كان يكبر في بطنها. ومن أجل ذلك الطقس، اغتسلت ألامندا في ماء مليء بشتى أنواع الزهور عند منتصف الليل بينما تقرأ قابلة تقليدية التسابيح. طمأنت القابلة شودانتشو إلى أن بطن زوجته ملآن، وأن الطفل بخير فيها، وأنه فتاة ستكون في مثل جمال أمها.

لم يكترث شودانتشو بنوع الجنين، فقد كان مجرد ميلاد طفل مهما يكن نوعه كافيًا له. لكنه لم يكد يسمع نبوءة القابلة بأن الطفل فتاة حتى وثب مبتهجًا مطمئنًا إلى أن اللعنة لم تكن إلا زفرة ساخنة من رجل أكلته الغيرة. فبدأ على الفور يفكر في اسم للفتاة حتى قرَّر أن يكون نور العين لا لأنه كان يعني له أي شيء، بل لأنه خطر في ذهنه فجأة، ولذلك السبب وحده ظن أن اسم الطفلة وحي إلهي عليه أن يتبعه. في الوقت نفسه كانت القابلة تغرق زوجته بصبيب تلو صبيب من ماء الورد فترتعش ألامندا في هواء الليل البارد موقنة أنها سوف تستيقظ في صباح اليوم التالي مصابة بالإنفلونزا. وفي مكان آخر، في عرض البحر، كان الرفيق كلايوون يرجو أن يكون قد أخطأ، ويرجو للزوجين أن يرزقا بطفل حقيقي.

لكن ألامندا لم تلد نور العين مطلقًا، فقد اختفى الطفل، بهذه البساطة، من بطنها بعد أيام قليلة من نبوءة ميلاده.

لم تدر ألامندا نفسها ما الذي جرى. فبمجرد أن استيقظت، تجشأت بعنف، دافعة قدرًا هائلًا من الهواء، وشعرت فجأة بأنها

أصبحت في نحول عذراء لا تستشعر أدنى ثقل في رحمها. تذكرت بوضوح ما قاله الرفيق كلايوون عن بطنها الذي يبدو له كالإناء الخاوي، المليء فقط بالهواء والريح، ومع ذلك صدمت، وصرخت في هواء الصباح الجديد الناعم، فسارع شودانتشو الذي كان نائمًا في غرفة أخرى يجري إليها مرتديًا سروالًا له زنار وقميصًا داخليًا، وفي خده خطوط من أثر المخدة وذراعاه ممتلئتان بقرصات البعوض. سارع إلى غرفة زوجته وهاله أن يراها نحيلة ممشوقة القوام كما كانت من قبل.

خطر له أولًا أن زوجته وضعت حملها، فبحث بعينيه عن آثار الدماء وعن الطفلة، فوق السرير ثم تحت السرير، لكنه لم ير الطفلة أو يسمع بكاءها. حملق في زوجته فبادلته النظر ممتقعة الوجه. حاولت أن تتكلم ولكنها فغرت فمها وحسب، مرتعشة الشفتين كمن يشعر بالبرد القارس، ولم تفه بحرف.

تذكر شودانتشو كلمات الرفيق كلايوون وبغضب متصاعد أخذ يهز ألامندا بعنف، آمرًا إياها بأن تقول له ما جرى. فلم تنطق ألامندا بكلمة، وانهارت في وهن في سريرها في اللحظة التي وصلت فيها القابلة. قالت القابلة ـ الخبيرة بأغرب الأمور ـ وهي تساعد ألامندا على اتخاذ وضع مريح "هذا يحدث أحيانًا يا شودانتشو، ما من طفل بالداخل، فقط هواء وريح".

صاح شودانتشو رافضًا كلامها "لكنك قلت بنفسك إنها سوف تلد فتاة". كان صوته عاليًا مليئًا بالغضب، فلما رأى القابلة هادئة، جلس على

طرف السرير وبدأ يبكي غير قادر على تمالك نفسه، غير مبال بكونه رجلًا راشدًا، كانت نور العين، بنت أحلامه الصغيرة، قد ضاعت منه. فكر شودانتشو على الفور في الرفيق كلايوون، بدون أن ينخسه القلق هذه المرة من اللعنة التي قد تصدق، بل بغضب عارم لأن اللعنة حلت بالفعل. لقد سرق الرفيق كلايوون طفلته وسوف ينتقم منه شودانتشو.

حاول الزوجان أن يخفيا ما حدث ويعلنا أن طفلهما مات. فلم يعرف غير الرفيق كلايوون حقيقة ما جرى. وانتقامًا من الرفيق كلايوون، وبعد أسبوع واحد من الحزن، أمر شودانتشو سفنه بالرجوع إلى الصيد حيث كانت تصطاد، وإلى بيع السمك في السوق القديمة. احتج العمال قائلين إن الصيادين سوف يحرقون السفن بدون تفكير لثانية واحدة. فلم يبال بهم شودانتشو وطرد كل من لم يلتزم بأوامره.

حاول الرفيق كلايوون أن يتكلم مع شودانتشو قائلا إنه حنث بوعده، فقال شودانتشو إن الرفيق كلايوون أيضًا حنث بوعده. قال الرفيق كلايوون إنه لم يعد بشيء قط إلا أن يحمي السفن من غضب الصيادين، لكن شودانتشو ظل يرجع إلى كلامه عن اللعنة، وإن من حق كل امرأة في الدنيا أن تختار الرجل الذي تتزوجه.

وفي استياء شديد من اتهامه باستنزال اللعنة على طفل لم يولد، حاول الرفيق كلايوون أن يلزم الهدوء وقال "هناك تفسير واحد لما جرى يا شودانتشو، وهو أنك مارست الجنس مع زوجتك بغير حب، ومثل ذلك الجنس لا يأتي بطفل إلا طفل لا يولد، أو يولد مجنونًا وفي مؤخرته

ذيل فأر". سدَّد شودانتشو قبضته إلى وجه الرفيق كلايوون فتفاداها بسرعة وقال "أبعد هذه السفن فورًا يا شودانتشو قبل أن ينفد صبرنا".

ولكن شودانتشو أمر السفن بأن تصطاد كالمعتاد، وصارت منذ ذلك الحين محروسة بجنود على متنها يثبتون عيونهم على الصيادين الناظرين إليهم في غضب. وبابتسامة خبيثة كان شودانتشو يرقب عند الغسق اقتراب كلايوون وثلاثة رجال آخرين من السفن في قوارب بخارية ومن ورائهم الصيادون في مراكبهم الشراعية الصغيرة، باحثين في المحيط الشاسع عن بقعة لا يزال فيها سمك، ولو ما يكفي مطابخهم وحسب.

وشأن شودانتشو، صدمت ألامندا صدمة كبيرة بفقدانها الطفل، فمهما تكن الطريقة التي جاء بها الطفل أو الرجل الذي تسبَّب في مجيئه، بقي الطفل طفلها. ولما مرَّ أسبوع الحداد وعاد شودانتشو إلى عمله، بقيت ألامندا حبيسة غرفتها في حزن جليل، تردد بين الحين والآخر اسم نور العين.

حاول شودانتشو أن يقنعها بأن كل شيء هو قضاء الله، وأن أمامهما فرصة ثانية وثالثة ورابعة بل عددا لا نهائيًا من الفرص لإنجاب طفل. قال لها "تعالي يا حبيبتي، بوسعنا أن نمارس الحب من جديد، وننجب ما نشاء من الأطفال". فهزّت ألامندا رأسها في حسم، وذكّرت شودانتشو بوعدها الذي قطعته على نفسها، وعدها بأن تتزوجه على ألا تحبه إلى الأبد. حاول شودانتشو أن يتودّد إليها، قائلا إن بوسعهما

أن ينجبا نور العين أخرى، فتاة صغيرة تكون حقيقية هذه المرة، لكن ألامندا قالت بعنف "فقدان طفل أبشع من لقاء شيطان، لكن ممارسة الحب معك أبشع من فقدان عشرين طفلًا".

وإذ ذاك فقط تذكر شودانتشو أن زوجته لم تكن ترتدي السروال الحديدي، فبدأت فكرة دنسة تتراقص في رأسه على الفور، وقبل أن تدرك ألامندا ما كان يفكر فيه، استدار شودانتشو وأغلق الباب وأوصد رتاجه. وعلى الفور علمت ألامندا التي لم تكن غادرت سريرها منذ فقدانها نور العين، ما الذي كان الرجل ينتوي عمله. قفزت ونظرت إلى شودانتشو واقفة وقفة امرأة متأهبة للقتل وقالت بمرارة "هائج يا شودانتشو؟ ثقب أذني لطيف وضيق إن كنت تريده".

ضحك زوجها وقال "ولكني أحب فرجك يا روحي".

لم تجد ألامندا مجالًا لعمل أي شيء، إذ طرحها شودانتشو على ظهرها فوق السرير. حاولت ألامندا لمرة واحدة، بكل ما لديها من قوة، أن تحمي نفسها، ولكنها في لحظة واحدة تعرّت وتمزقت ثيابها إربًا كما لو كان قطيع من الذئاب ينهشها، ثم هوى عليها شودانتشو.

في أثناء الاحتلال لم تعد ألامندا إلى المقاومة وقد علمت أنه لا جدوى منها، لكن لو كان شودانتشو اقترب من فمها لكانت عضته بكل ما لديها من طاقة. وأخيرًا أخذ شودانتشو يطعنها المرة تلو المرة في وحدة نكدة من اللذة والحزن. تحطمت روح ألامندا تمامًا ـ وقد شعرت بالذل والندم ـ بعدما عجزت مرة أخرى عن الدفاع عن نفسها. حينما

انتهى شودانتشو ركلته ألامندا فألقته عن السرير قائلة "أيها المغتصب النتن القذر، تغتصب زوجتك، ولعلك اغتصبت أمك نفسها"، ورمته بمخدة وهي تقول "لو كان طول قضيبك كافيًا لاغتصبت مؤخرتك".

في هذه المرة على الأقل لم يقيدها زوجها، ففي اليوم التالي بعد أن خرج اختفت هي من البيت. وغضب شودانتشو، وأرسل من يسألون عنها في بيت ديوي آيو فلم يجدوها هناك. ومحترقًا بنار الغيرة بعث آخرين إلى بيت كلايوون فلم يجدوا دليلًا على وجودها هناك أيضًا. فبدأ يبعث من يبحثون عنها في أقاصي المدينة، وفي محطة الأتوبيسات ليروا إن كانت غادرت المدينة، فلم يتبيّن أن أحدًا رآها في أي مكان. وفي يأس، انهار شودانتشو على كرسي في شرفته، مستسلما لقدره المزري الذي جعله يتزوج امرأة يحبها أشد الحب ولا تحبه أبدًا، وكان الناس يحيّونه فلا يرد تحية أي منهم.

ملأه الغروب بمزيد من الخواء والهجران، وبدأ يدرك كم هو مزري الحال، وحتى لو رجعت ألامندا ما كان ليفرح بمواصلة الحياة معها وهي لا تبدي بادرة على مبادلته الحب، ولو قليلًا. ربما كان يجدر به أن يعود إلى التفكير كمحارب، كرجل حقيقي، كجندي مخلص لله، فيطلق ألامندا، وهكذا ربما تسعد من جديد. لكن مجرد التفكير في الطلاق دفعه إلى مزيد من البكاء، فعاهد نفسه إن عثر على زوجته ألا يؤذيها أبدًا وأن يكون عبدًا لها عسى أن تبقى معه. وربما يتبنّيان بعض أطفال المدينة.

تقدم الغروب ولم تضأ بعد مصابيح الشرفة. ولّما سقط ظل ألامندا على البوابة رآه شودانتشو على الفور، فدعا ألا تكون عيناه مخدوعتين، واقترب الظل فسارع شودانتشو يجثو على ركبتيه أمام ألامندا طالبًا منها الغفران.

عبست ألامندا أمام هذا التصرف، وقالت "ليس عليك أن تعتذر يا شودانتشو. أنا الآن ألبس حماية جديدة، لها مزيد من التعاويذ المعقدة. فحتى وأنا عارية تمامًا لن تستطيع أن تخترقني".

في دهشة حقيقية نظر شودانتشو إلى زوجته، مبهوتًا من أنها لا تبدي له أي عداوة.

"هواء الليل بارد يا شودانتشو، هيا ندخل".

طُرد مزيد من عمال السفن بسبب إضرابهم. لم يكن أولئك العمال قد انضموا إلى الاتحاد، لكنهم كانوا يخشون أن تحرق السفن فلم يجرؤوا على العمل. ورجعت السفن الكبيرة مرة أخرى تسرق السمك من المياه الضحلة وتبيعه في سوق المدينة. وقال الصيادون "ما من طريقة أخرى يا رفيق، لا بد أن نحرق سفن شودانتشو".

في همّ وغمّ، بقي الرفيق كلايوون أبعد ما يكون عن الشر وعن اتخاذ قرار يسير بإحراق بعض السفن. والحق أن أصدقاءه كانوا يرون عينيه إذ تفيضان دمعًا أمام مجرد فيلم رخيص يشاهده.

حاول في السرّ أن يتكلم مع شودانتشو مرة أخرى، فتحطّم حديثهما على صخرة ألامندا حتى وصل الرفيق كلايوون أخيرًا إلى ما وصل إليه الصيادون: لا خيار فعلًا إلا إحراق السفن اللعينة. وفي نهاية المطاف ما كان للثورة الروسية نفسها أن تقوم لو لم يأمر لينين ستالين بالسطو على بنك.

حشد شودانتشو جمعًا غفيرًا من الجنود على متون السفن لكي لا يسهل على الصيادين أن ينفّذوا خطتهم. ومرَّت ستة شهور عجاف، لم تصل فيها جميع اجتماعات الصيادين إلا إلى طريق مسدود إذ لا يجدون من سبيل أمامهم إلى التنفيذ، فكانوا في كل يوم يزدادون فقرًا وغضبًا.

في الماضي، كان الرفيق كلايوون يلوذ بالنساء حينما يواجه مشكلات يوشك رأسه أن يتفجر من تعقيدها. ولم يكن له من رفيقة في ذلك الوقت إلا أخت ألامندا الصغيرة أديندا التي كان يعرفها منذ سنة. فما كان منه إلا أن ترك الكوخ ـكأن لم يكن له من خيار آخرـ وترك الرجال يتناقشون في مصاعبهم، واتجه من فوره إلى بيت ديوي آيو كلاجئ قليل الحيلة أنهكه النضال الثوري الذي لم تكن تلوح له من نهاية. كان يريد أن يبوح بمشاعره ورغباته، ولكن الحزب كان قد أكّد على أنه لا ينبغي عرض الموضوع على أحد، فقضى ساعة ضجرة مع أديندا في شرفة البيت، يثرثران في ما لم يخفف عن روحه المنهكة شيئًا، ولما رجع إلى البيت تهاوى إلى كرسي خارج الكوخ، ناظرًا إلى سماء المغيب فوق المحيط.

كانت أديندا قد قالت له قبل أن يتركها "لا بد أن يضع أحد مسدسًا على جبهتك فيرغمك على التفكير في نفسك للحظة".

هي هي سماء المغيب التي كان يراها دائمًا، لكنه شعر بها في ذلك اليوم مختلفة. كانت من قبل تذكره بالمساء الجميل الذي قضاه بجوار ألامندا على الرمل، لكن السماء الباردة في ذلك المساء بدت صامتة حزينة، كأنها مرآة لقلبه القاحل المحترق. تساءل وهو يدخن سيجاره الرفيع، إن كان يمكن أن تقوم الثورة حقًا، وإن كان يمكن ألا يقهر البشر بعضهم بعضًا.

لقد سمع قبل زمان بعيد في المسجد حديثًا عن السماء، عن أنهار اللبن إذ تفيض تحت الأقدام، وعن الحوريات العذارى الجميلات، وعن كل شيء إذ يتاح لكل راغب بلا محظورات أو محاذير. بدا له ذلك كله جميلًا، أجمل من أن يكون حقيقيًا. لم يكن بحاجة إلى شيء في جلال ذلك، كان يكفيه تمامًا أن يحصل كل واحد على مثل ما يحصل عليه غيره من الرز. لكن لعل تلك الأمنية هي في الحقيقة أجلّ الأمنيات.

وبقي ذلك التفكير يشعره بحنين إلى ماضيه، حين لم يكن يعرف كم هو بحاجة إلى الثورة. لطالما كان رجلًا فقيرًا، لكنه كان يتعامل مع الأثرياء تعاملا أبسط بكثير: يسرق ما في حدائقهم، ويغوي نساءهم، ويجعلهم يدفعون ثمن ما يأكل من طعام وما يشاهد من أفلام، أو يقبل دعواتهم إلى حفلاتهم فيشرب من بيرتهم بلا مقابل، ولم يكن شيء من ذلك بحاجة إلى الدعاية الحربية أو المانيفستو الشيوعي. أنهكه طول النظر

إلى الفسق الأحمر ولم تهدأ أفكاره، وغاص أكثر فأكثر في كرسيه فلم يدرك أن النوم غلبه. وكذلك كان حاله طوال الشهور الستة السابقة على إحراق السفن، إلى أن أيقظه بعض الصيادين يومًا من نومه في كرسيه.

كان أسبوعان قد مضيا والجنود لا يحرسون السفن، إذ يبدو أنهم ضجروا، وأن قباطنة السفن قرّروا ـلّما ظنوا أن تهديدات الصيادين لا تعدو جعجعة فارغةـ أن يصرفوا الجنود فلا يضطروا إلى إطعامهم وإمدادهم بالسجائر والبيرة. وبدأ القباطنة يقصدون البحر بلا حماية، ولا يحرس سفنهم وصيدهم في المرسى غير حفنة جنود مسلحين. وكانت خطة الاتحاد أن يهاجم السفن عند منتصف ليلة مقمرة، هي الليلة التي أيقظوا فيها الرفيق كلايوون، الليلة التي كانوا ينتظرونها جميعًا، ليلة الانتقام.

قال أحد أصدقائه "اصح يا رفيق. الثورة لن تقوم وأنت نائم".

وبقيادة الرفيق كلايوون شخصيًا، وقد نفض عنه كسله واشتد على نفسه، تحرك ثلاثون قاربًا شراعيًا تحت سماء صافية مبرقشة بالنجوم. تلك الليلة كانت نقطة تحول في حياة كلايوون، هي الليلة التي بدأ فيها الإيمان بأن الثوري لا بد أن يكون ذا قلب بارد لا يهتز، وجرأة عنيدة هي ابنة الإيمان. كانت الأضواء الشاحبة من كوّات السفن واضحة في العتمة، لكن القوارب لم تكن مزودة بمصابيح، فكان الصيادون يقودونها بغريزتهم، ومعرفتهم بالمحيط معرفتهم بقراهم التي

ولدوا فيها. حدَّث القائد نفسه قائلًا "فكِّر في هذا كما لو كان اقتحام الباستيل" محاولا بثّ الشجاعة في نفسه. "فكِّر في أنه لا يحدث إلا من أجل الشعب الملعون المقهور".

كانت السفن الكبيرة تعمل على بعد قليل من بعضها بعضًا. وكان في كل قارب ما بين ثلاثة صيادين وخمسة، وكل عشرة قوارب كانت تقصد إحدى السفن الثلاث. تحركوا ببطء، كأنهم ثلاثون ثعبانًا ساعيًا يقصدون ثلاثة فئران سمان غافلة. في ضوء مصابيح السفن المهتزة كانوا يرون العمال يجذبون الشباك ويفرغون صيدها على متن السفينة.

ما كاد يصل بالقوارب إلى السفينة الوسطى، ويتأكد أن السفينتين الأخريين محاصرتان أيضًا، حتى أطلق الرفيق كلايوون صافرته بحدة، فتوقفت أطقم السفن عن عملها في دهشة. وقبل أن تخبو تلك الدهشة أدركوا أن ثلاثين قاربًا ممتلئة برجال يضرمون المشاعل، وسرعان ما أحاطت بقع الضوء بالسفن طافية طفو الألعاب النارية.

وصاح الرفيق كلايوون في عمال السفن "اقفزوا يا أصدقاء واسبحوا إلى قواربنا، هذه السفن سوف تحترق".

وبرغم أن القبطان صاح في رجاله يأمرهم بالمقاومة والقتال، كان هو أول من قفز مذعورًا إلى أقرب قارب. أخذ يعنف الصيادين، قبل أن يلطمه أحدهم فيقع مغشيًا عليه. في تلك الأثناء كان رجال السفن يتبارون أيهم يقفز إلى الماء ويسبح إلى القوارب أسرع من غيره، وبدأ

الصيادون يهللون فرحين، بل وبدأ أحدهم يتغنى بالنشيد الأممي، فكان ذلك أروع حفل لهم.

طارت في الهواء أكياس بلاستيكية معبأة بالجازولين لتحط على متون السفن الخاوية، وسرعان ما بدأت المشاعل تطير هي الأخرى لتلتقي بالجازولين. وسطعت في مهابة ثلاثة حرائق في عرض المحيط بينما انسحبت القوارب مسرعة، فلما انفجرت السفن الثلاث انفجارات هائلة هتف الصيادون صائحين "يحيا اتحاد الصيادين. يحيا الحزب الشيوعي. يا عمال العالم اتحدوا".

بلغ شودانتشو أن الرفيق كلايوون كان قائد الشغب، وأن الحدث انتهى بغير خسائر في الأرواح، وأن السفن الثلاث تحطمت.

سمع شودانتشو الخبر، فزفر في بساطة، وفكّر أن بوسعه شراء سفن جديدة وتزويدها بحراسة أكبر. لم يبد عليه الغضب، وهو ما لا يمكن تفسيره إلا في ضوء أن ألامندا كانت في شهر حملها السادس. كان سعيدا بأن لقاءهما الجنسي الوحيد قد أثمر. لم يرد أن يكلف نفسه بشيء عدا الاستعداد لميلاد بديلة نور العين. اصطحب زوجته إلى مستشفى كبير في عاصمة المقاطعة مرتين ليتأكد مرتين من أن في بطنها طفلا، ودفع الكثير لسحرة كي يحموا الطفل من أي لعنة.

لكن حينما بلغت ألامندا الشهر التاسع من حملها، اختفى الطفل الثاني من بطنها فجأة، تمامًا كالطفل الأول. وانفجر شودانتشو في غضب لا رادع له، فاستلّ مسدسه، واندفع خارجا، يهيم هنا وهناك في

توحش. جرى الناس فزعين من طريقه، ظانين أنه قد جن جنونه وهو يصيح بأن لعنة الرفيق كلايوون سرقت منه طفليه، وجعلتهما يختفيان قبل أن يولدا. ولما اكتفى شودانتشو في نهاية المطاف من إطلاق النار على كل ما صادفه، جرى باتجاه الشاطئ وليس في نيته إلا شيء واحد: أن يعثر على الرفيق كلايوون ويقتله، وما كان لأحد أن يعترض طريقه.

١٢

حمل الرفيق كلايوون فنجان قهوته واتجه إلى الشرفة فجلس ينتظر وصول الجرائد. كان قبل يوم واحد من الذي حاول شودانتشو قتله فيه قد انتقل من الكوخ الذي كان أيضًا مقرا لاتحاد الصيادين إلى مقر الحزب الشيوعي في نهاية شارع جالان بيلندا. لم يعثر شودانتشو على أحد في الكوخ المهجور فاستعر غضبه وأطلق الرصاص على الكوخ قبل أن يضرم فيه النار. وأخيرًا، وسط إرهاقه وبكائه، خرَّ على وجهه فوق الرمل، وبقي طريحه حتى عثر عليه بعض المارة مغشيا عليه. ومن حظ الرفيق كلايوون الطيب أن عُيِّن رئيسا للحزب الشيوعي في هاليموندا بعد سنين من التفاني في خدمته.

كان ذلك في الأول من أكتوبر، وكان يشعر بالضيق من تأخر وصول الجرائد، حتى إنه كان يرتعش نافد الصبر حينما تناول جريدة اليوم السابق وأخذ يقرأ الإعلانات، إذ كان قد قرأ كل ما عداها. لم يجد فيها شيئًا مهما، إلا إعلانين، أحدهما عن منشط لنمو الشوارب، والآخر عن بيع سيارات ألمانية بالتقسيط. ألقى الجريدة أسفل المنضدة واحتسى بعض قهوته، ونظر إلى الشارع راجيا أن يكون بائع الجرائد قد وصل على دراجته، وبدلًا منه رأى شابة آتية في الشارع. هي أديندا.

سألته "كيف حالك يا رفيق؟"

"بشع. لم تصل الجرائد حتى الآن".

قطبت الفتاة جبينها. "ألم تعرف بأحداث جاكرتا الدموية؟"

"وكيف أعرف بها بدون الجرائد؟"

جلست أديندا بجوار الرفيق كلايوون، ودونما استئذان شربت قليلا من قهوته، وقالت "الإذاعة لا تتكلم إلا عن الحزب الشيوعي، يقولون إنه قام بانقلاب وقتل أحد اللواءات".

"سأنتظر الجرائد إذن حتى أعرف".

بدأ الناس يظهرون، شبابًا وشيوخًا، كوادر ومخضرمين، وكثير من أهم شخصيات الحزب. كان أول من ظهر هو الرفيق يونو الذي كان العضو الأول في الحزب قبل الرفيق كلايوون، وتبعه آخرون. وكلهم قالوا الكلام نفسه: أحداث دموية تقع في جاكرتا.

قال كارمين "يبدو أن الأمور سوف تسوء".

قال الرفيق كلايوون "عندك حق. لقد دفعنا اشتراكاتنا كاملة، ومع ذلك لم تصل الجرائد بعد. لا بد أن ألطم بائع الجرائد هذا على أذنه".

سأل الرفيق يونو "ما خطبك يا رفيق كلايوون؟ ألا تفكر إلا في الجرائد؟"

نظر إليه الرفيق كلايوون نظرة غريبة وقال "هذه الجرائد لم تصل قط. وماذا الآن؟"

قالت أديندا "اسمعني يا رفيق، الجرائد لم تصدر اليوم أصلًا".

"ولم لا؟ لسنا في العيد، ولا في الكريسماس، ولا في رأس السنة".

قال كارمين "الجيش يحتل صالات التحرير، وبناء عليه يؤسفني يا رفيق أننا لن نقرأ الجرائد اليوم".

قال الرفيق كلايوون شاكيا وهو يشرب ما بقي من قهوته دفعة واحدة "هذا أسوأ من انقلاب".

على أي حال، عقد كثير من رجال الحزب المهمين اجتماعًا طارئًا. كانت الأخبار تتوالى من مدن عديدة، لكن أهمها كان يأتي من جاكرتا: قيل إن قادة الحزب الشيوعي المركزيين قد اعتقلوا جميعًا، ووقعت بعض أعمال القتل، وإن بعض الكوادر ماتوا بالفعل. فقرَّروا حشد الجماهير في مظاهرة هائلة في هاليموندا، ولو كان قادة الحزب في جاكرتا قد اعتقلوا بالفعل، فسوف تطالب المظاهرة بالإفراج عنهم دونما قيد أو شرط. ولكن ما لديهم من أخبار لم يعُدْ متاهة من التناقضات، فبعض الأخبار يقول إن دي إن آيديت[44] قد أعدم، وبعضها يقول إنه اعتقل وحسب، بل وبعضها يقول إنه بخير حال. وكانت الأخبار

---

44 ديبا نوسانتارا آيديت Dipa Nusantara Aidit (١٩٢٣ . ١٩٦٥) كان من كبار قادة الحزب الشيوعي في إندونيسيا، ولد باسم أحمد آيديت ثم أطلق عليه اسم آيديت اختصارا

متضاربة أيضًا عما حل بـ نايوتو[45] وآخرين. ولكن مهما تكن حقيقة ما جرى، كان عليهم أن يحشدوا جميع الكوادر والمتعاطفين مع الحزب والصيادين وعمال المزارع وعمال السكك الحديدية والمزارعين والطلبة. كان ذلك اليوم وما أعقبه من أيام هو أعصف الأيام في تاريخ المدينة، حيث واجه الناس المردة في الشوارع.

وُزِّعت المهام وانطلق الرفاق بسرعة يتصلون بخلايا الحزب ويجهزون كل شيء قد يحتاجون إليه في أثناء الأزمة. أعِدَّت الملصقات ورفعت الرايات. وفي الوقت نفسه، رتَّب الرفيق كلايوون لاجتماع سري بين خمسة رجال طلب منهم تجهيز السلاح تحسبا لتردي الأوضاع. وأعدوا قائمة بما لديهم: كان لا يزال هناك بعض المتبقين من الثوريين الذين شاركوا في حرب العصابات، وكانت لعدد من رجالهم خبرة حربية من أيام حرب الاستقلال. عهد إلى كارمين بتنظيم هذا الجناح المسلح فمضى مسرعا في ذلك، وسلَّح الرفيق كلايوون نفسه بمسدس، فقد كانت له قيمة في الحزب لا تسمح له أن يخاطر بحياته.

في الساعة العاشرة، كان عدد من الصيادين وعمال المزارع قد تجمعوا بالفعل في شارع جالان بيلاندا، أما المزارعون وعمال السكك الحديدية وعمال الميناء والطلبة فكانوا لا يزالون في الطريق.

قال الرفيق يونو "لنخرج إلى الشوارع".

45نيوتو Nyoto (١٩١٧ . ١٩٦٥) من كبار الزعامات الوطنية فى الحزب الشيوعى الإندونيسى، انضم إلى الحزب بعد إعلان استقلال البلد، وقتل فى محاولة انقلاب سنة ١٩٦٥

قال الرفيق كلايوون "اخرج أنت. أنا سأنتظر جرائدي".

لم يعترض أحد. رأوا في سلوكه اكتئاب زعيم حزبي يواجه موقفا فائق الجسامة، محاولا أن يتفهمه. تركوه في شرفة مقر الحزب في نهاية شارع جالان بيلاندا ينتظر الجرائد التي لن تصل، وبرفقته أديندا.

كان ذلك المقر حديثًا نسبيًا، مقامًا في منزل كبير ذي طابقين، وعلم الحزب يرفرف في فنائه الأمامي بجانب علم إندونيسيا الأحمر والأبيض، ويتدلى من بابه المطرقة والمنجل، وجميع الجدران تقريبًا مطلية بالأحمر الساطع. في الغرفة الأمامية، كان أول ما يلاحظه الناظر لوحة زيتية ضخمة لكارل ماركس وبعض لوحات الواقعية الاشتراكية السوفييتية. وكان الرفيق كلايوون يعيش هناك هو وبعض الحرس. كان لديهم مذياع، لكن الرفيق كلايوون كان يفضل قراءة الجرائد ـ برغم أن الجيش في ذلك الوقت كان يحتل الجرائد فحلّت دماء الشيوعيين محلّ أحبار الصحف.

في ذلك الوقت كان الرفيق كلايوون يتولى منذ عامين قيادة الحزب في المدينة، فانشغل عن الذهاب إلى البحر بالليل. نجح في تنظيم عمال المزارع والصيادين في اتحادين، وأمر بأكثر من عشرة إضرابات مهيبة. كان للحزب الشيوعي في المدينة أكثر من ألف وسبعة وستين عضوا ناشطا يدفعون الاشتراكات، وآلاف من المتعاطفين شارك أكثر من نصفهم في جميع الإضرابات، وشاركوا في كل مظاهرة أقيمت في ملعب كرة القدم، وحضروا برامج الحزب التثقيفية.

يصعب القول إنه لم تحدث اشتباكات، إذ كان الرفيق كلايوون قد أعاد تنشيط قدامى المحاربين الثوريين وكانوا يحملون أسلحة ولا يفتقرون إلى الحماسة والتدريب العسكري. طبعا لم يكن عددهم يكفي لمحاربة جيش، لكنهم كانوا يدافعون عن الإضرابات أمام شركات السكك الحديدية والمزارع وملاك الأراضي وقباطنة السفن.

طرد عضوين في ذلك الوقت لهجرهما زوجتيهما وكان ذلك محظورا تمامًا في ظل قيادته، كما طرد ثلاثة آخرين تبيَّن أنهم تروتسكيون. وفي ظل تلك القيادة الحازمة بلغت سمعة الرفيق كلايوون أوجها فبقي في ذاكرة الناس صاحب الكاريزما الأقوى بين قادة الحزب الشيوعي الذين عرفتهم المدينة.

قال الرفيق كلايوون فجأة "حان موسم المطر".

وافقته أديندا، ورفعت عينيها إلى السماء الساطعة، كان الصباح صفوا، ولكن من يدري، لقد كان المعتاد أن تمطر في أكتوبر. "لكن المطر لن يكرههم على الانسحاب. أعتقد أن القوات في جاكرتا تخدعنا".

"ربما علقت شاحنات الجرائد في فيضان".

قالت أديندا "الجرائد لم تصدر اليوم يا رفيق، وأنا مستعدة أن أراهن على أنه لن تصدر أي جرائد لمدة أسبوع على الأقل. بل وقد لا تصدر جرائد مطلقًا".

"بدون جرائد نكون رجعنا إلى العصر الحجري".

"سأعد لك قهوة لعلها ترد إليك وعيك".

دخلت أديندا المطبخ فأعدت فنجاني قهوة، ولما رجعت رأت الرفيق كلايوون واقفا لدى البوابة شاخصا إلى الشارع. بدا أنه لا يزال يرجو ظهور بائع الجرائد على دراجته. وضعت أديندا الفنجانين على المنضدة وجلست في كرسيها.

قالت أديندا للرفيق كلايوون "ارجع إلى كرسيك لو كنت رجعت إلى عقلك".

"ما يذهب العقل حقا هو يوم بغير جرائد".

"انس أم الجرائد يا رفيق. حزبك في أزمة ويحتاج قائدا صافي الذهن".

مهما يكن الحال، كان من غير المعقول فعلًا أن يواجه الحزب انقلابا، وهو أقوى الفصائل في هاليموندا. في ذلك الوقت، كانت للحزب سمعة هي الأكثر نصوعا في تاريخ المدينة كله. ولو كانت أجريت انتخابات لكان الحزب الشيوعي اكتسحها بغاية السهولة. كانت المدينة كلها مزدانة بالأحمر، فترك العمدة والجيش نفسه الشيوعيين يفعلون ما يشاؤون.

أرغم الشيوعيون المدارس، بل والحضانات ومدارس المعاقين على تدريس النشيد الأممي. وبالطبع ألصقوا صور ماركس ولينين على جدران الفصول جنبًا إلى جنب صور الأبطال الوطنيين. وفي يوم الاستقلال ـ ومن فضلكم تذكّروا أن يوم الاستقلال في هاليموندا كان

الثالث والعشرين من سبتمبر- أقاموا أكبر كرنفال وموكب ملأه الشيوعيون بهتافاتهم الثورية. فكان أهل المدينة يفيضون في زحام الطريق يسمعون أشعارا من "ساما راتا ساما رأسًا" التي كتبها ماركو كارتوديكرومو[٤٦] قبل سنين كثيرة داعيا فيها إلى معاملة الجميع بالتساوي بغض النظر عن رتبهم أو وظائفهم.

كانت أديندا تفكر أن المظاهرات الشعبية التي يوشك أن يخرج فيها الشيوعيون إلى شوارع هاليموندا ستكون على هذا النحو. وبعد سنين سوف تدرك مع حظر أنشطة الحزب الشيوعي أنها لن ترى مثل هذه المواكب قط، بكل السيارات المزينة المارقة في الطرق. في العادة كان الرفيق كلايوون يجلس في منتصف سيارة مكشوفة معتمرا البيريه الذي أخذه من الرفيق سالم ملوِّحا للفتيات الصارخات في هستيريا على جوانب الطرق.

اندهش الحزبان المتنافسان من شعبيته الطاغية ورجوا ألا تقوم انتخابات شعبية في أي وقت قريب. وزعمت أحزاب أخرى أنها أحزاب ثورية رفيقة وانتظرت أن يتخفَّف الشيوعيون من تأهبهم ليطعنوهم في ظهورهم. ولكن ما كان لشيء من ذلك أن يحدث بلا جهد، بل بعد سنتين من العمل الشاق. حتى لقد قيل إن الرفيق كلايوون تعرض لمحاولتي اغتيال غامضتين. في إحداهما طعنه بسكين مهاجم ظهر فجأة

---

46 ماركو كارتوديكرومو Marco Kartodikromo (١٨٩٠-١٩٣٢) صحفي وكاتب إندونيسي يعرف أيضًا باسم شهرته ماس ماركو، كان يكتب لصحيفة الحزب الشيوعي، واعتقل بعد محاولة الانقلاب.

واختفى فجأة بدون أن يترك وراءه أثرا. وفي الثانية ألقى شخص قنبلة يدوية عبر شباك غرفة نومه. لكنه بقي سليما معافى، وقال في مسيرة شعبية إنه غفر لمن حاولا قتله بغض النظر عن هويتيهما. قال إن أمثال هذين لا يفهمان المهمة الشيوعية، وهي القضاء على استغلال الإنسان للإنسان، فازدادت شعبيته وشعبية الحزب، وعظم تقدير الناس لهما، حتى بات موضع ثناء الأطفال الصغار.

كل ذلك النشاط السياسي المستعر أثار قلق أمه مينا إلى أقصى حد. بقيت تتذكّر زوجها الذي أعدمه اليابانيون، وترى في كل أساليب الدعاية والمهرجانات سخفا وشغبا لا طائل من ورائه. وفي بعض الأحيان كانت مينا تراقب ابنها إذ يلقي خطبة أمام آلاف مؤلفة، هاتفا بشعارات من قبيل "اسحقوا ملاك الأراضي"، فيردّدها وراءه الجماهير في حماس. ولم يكن يلعن ملاك الأراضي فقط، بل ومقرضي النقود، وملاك المصانع، وقباطنة السفن، ومسؤولي المزارع، وشركة السكك الحديدية. وطبعا كان يلعن أمريكا وهولندا والاستعمار الجديد ببلاغة وبراعة كأنما الرب نفسه هو الذي كان يهمس بالكلمات في أذنيه.

كلما كان كلايوون يذهب في إجازة إلى بيت أمه، كانت مينا تنبهه إلى أنه ليس من الخير أن يعادي كل أولئك. وتقول له في قلق "صديق واحد قليل، وعدو واحد كثير. وأنت تدفع الكثيرين إلى كراهيتك". فكان الرفيق كلايوون يطمئنها بأن ما جرى لأبيه لن يجري عليه، ثم يبتسم قبل أن يشرب ما أعدته له من شاي ويخلد للنوم.

وذات يوم، بضغط من الحزب الشيوعي، ألقي ببعض الصبية في السجن الحربي. كانوا يقيمون حفلا في مدرستهم وكل جريمتهم أنهم غنوا بعض أغنيات الروك آن رول لكن شودانتشو أذعن للشيوعيين. فلما سمعت مينا ذلك استحال قلقها غضبا واتجهت إلى مقر الحزب وانفجرت في وجه ابنها صائحة وسط مكتبه المزدحم "أنا لا يمكن أن أسمح بحدوث هذا. ألم تكن تغني وتعزف تلك الأغنيات على جيتارك قديمًا؟" وقالت لمن حوله "ألم تفعلوا ذلك كلكم؟ والآن تلقون هؤلاء العيال في السجن الحربي لأنهم يغنونها؟"

لكن منهج الحزب كان قد جعل الرفيق كلايوون عنيدا فواجه أمه ببرود. استرضى المرأة وسار بها حتى الطريق العام، فأوقف لها ريكاشة وطلب من السائق أن يقلها إلى البيت.

ولم يتوقف عند ذلك الحد، بل بدأ يضغط على مجلس المدينة، والجيش، والشرطة، من أجل مصادرة تسجيلات الروك آن رول الغربية المفسدة للعقول وإلقاء كل من يستمعون إليها -ولو في غرفهم الخاصة- في السجن. وكان كثيرًا ما يصيح "اسحقوا أمريكا عسى أن تحل اللعنة على ثقافتها الزائفة". وفي مقابل ذلك بدأ الحزب يدعم بسخاء الفن الشعبي، ويقدم الوجبات التقليدية والدعاية الحزبية أيضًا، حتى صار الفن الشعبي بعد اعتباره هدّاما في العصر الإقطاعي والاستعماري يتصدر المشهد في هاليموندا. كما عرضوا رقصة السينترين في الذكرى السنوية لتأسيس الحزب، حيث اختفت فتاة جميلة في قفص دجاج ثم خرجت منه حاملة المطرقة والمنجل، وقد ازدادت جمالا بمكياج كامل

(وصفق الحاضرون). ولم يكتف راقصو رقصة الحصان المنبسط بأكل الزجاج وقشر جوز الهند، بل صاروا يبتلعون أيضًا علم أمريكا. كما شهد جزء من الحفل تحطيم تسجيلات الروك آن رول المحظورة.

بعد نجاحه في تأسيس الحزب بسرعة، ثبت أعضاء الحزب في العاصمة عيونهم على الرفيق كلايوون. وقيل إنه دعي إلى الانضمام للمكتب السياسي وكان مرشحا بقوة للجنة المركزية للحزب الشيوعي الإندونيسي. كانت مسيرته السياسية مبهرة، لكن الرفيق كلايوون رفض كل تلك التكريمات بعناد غير مفهوم، بل ورفض في جنون عرضا بضمه إلى الكومنتيرن. كان يقول إنه لا يعمل من أجل تاريخ شخصي، بل من أجل أن تزدهر الشيوعية على أرض هاليموندا، فلم تكن به رغبة إلى مغادرة المدينة.

بدأ الرجال يعودون، بأخبار عن المظاهرات في الشوارع. كان الجيش متأهبا في جميع الأركان، وقد خرجت قوات المدينة إلى الشوارع وحققت انتصارات بقيادة شودانتشو الذي كان يتحرك بدافع من كراهيته الشخصية للرفيق كلايوون.

أورد أحدهم أن "دي إن آيديت لم يعتقل".

وجاء آخر فقال إن "نايوتو أعدم".

"دي إن آيديت التقى بالرئيس".

تشابكت الأخبار جميعًا ولم يعد يمكن استخلاص أي معلومات إلا من خلال الإذاعة وتلك لم تكن موضع ثقة. فقد ظلّت طوال الصباح

تكرّر الكلام نفسه مرارا وتكرارا كما لو كان مسجلا: **قام الحزب الشيوعي بمحاولة انقلاب فشلت بسبب سرعة تحرك الجيش. استولى الجيش مؤقتا على السلطة لاسترداد النظام**. وورد خبر آخر: **الرئيس رهن الاعتقال المنزلي**. كان كل شيء محيرا إلى أقصى حد.

قالت أديندا "افعل شيئًا".

فسألها الرفيق كلايوون "وماذا بوسعي أن أفعل؟ لم تأت كلمة من الاتحاد السوفييتي أو الصين".

خطّط الرفاق لاستمرار المظاهرات والاحتجاجات حتى حلول الليل، ثم إلى ما لا نهاية، وبينما كان الجميع مشغولين ببناء مطابخ عامة لتقديم الحساء، وبينما كان قدامى المحاربين في الجيش يتأهبون لخوض الحرب ضد الجنود النظاميين، بقي الرفيق كلايوون في مكانه لم يتزحزح منه إلى الشارع. تركته أديندا في مكانه من الشرفة، ينتظر الجرائد.

وفي الصباح التالي، أعدت الإفطار كالعادة لأمها التي لم تكن رجعت من ماخور ماما كالونج، ثم ذهبت لترى المظاهرة. وبعد ذلك ذهبت بصينية إفطار إلى مقر الحزب فوجدت الرفيق كلايوون جالسا في الشرفة ومعه كوب قهوة.

"كيف حالك يا رفيق؟"

"بشع".

"كلْ شيئًا، أنت لم تأكل شيئًا طوال يوم أمس" ووضعت صينية الإفطار بينهما على المنضدة.

"لا أستطيع أن آكل قبل أن تأتي الجرائد".

"يا أخي أقسم لك إنها لن تأتي. الجيش منع صدور أي شيء".

"لكن الجرائد ليست ملك الجيش".

قالت أديندا "لكن الجيش لديه أسلحة، قل لي، متى أصبحت أحمق هكذا؟"

قال الرفيق كلايوون "إذن ستصدر من تحت الأرض، هذا ما يحدث في العادة".

في ذلك الصباح تواصل الاجتماع الطارئ. كان أعداء الشيوعية قد خرجوا إلى الشوارع واحتشد الجمعان متقابلين. بدا أن الحرب التي كان الناس يخشون اندلاعها بين الجنود وبلطجية المدينة توشك أن تندلع بين جماعتين جديدتين تمامًا: الشيوعيين وأعداء الشيوعيين. حامت الشرطة والجيش حول الجماعتين، ولكنهما لم يستطيعا الحيلولة دون وقوع مصادمات وتبادل إلقاء لقنابل المولوتوف. وبدأ الناس يقذفون الحجارة، وعُقدَ المزيد من الاجتماعات الطارئة.

قال كلايوون "كل هذه الفوضى بدأت مع اختفاء جرائدي".

قال كارمين "لا تكن أبله. سبعة لواءات قتلوا قبل يومين".

لم يستطع الرفيق يونو أن يمنع نفسه عن السؤال "لماذا تهتم كل هذا الاهتمام بالجرائد؟"

"لأن الثورة الروسية ما كانت لتنجح قط لو لم يكن لدى البلاشفة جرائدهم".

بدا ذلك التفسير أكثر منطقية من كل ما عداه حتى تلك اللحظة، فتركوه منتظرا بصحبة أديندا في الشرفة.

وبينما كان النهار ينتصف، أخذت موجات مظاهرات المناهضين للشيوعية تتزايد مرددة أخبار الإذاعة في اليوم السابق بأن الشيوعيين قاموا بمحاولة انقلاب فاشل.

قال الرفيق كلايوون ولم يكن قد فقد بعد حسه الفكاهي "قاموا بانقلاب وصادروا جرائدهم".

وقع الصدام الأول أخيرًا في الساعة الواحدة. احتدم إلقاء الحجارة فصار معارك استعمل فيها الناس كل ما وقع تحت أيديهم للتشويه والقتل. وسرعان ما اكتفت المستشفيات. وأقام الحزب مستشفى ميدانيا، وانشغلت أديندا بالإسعافات الأولية، ولم يتزحزح الرفيق كلايوون من مكانه.

بدأ الجرحى يصلون إلى مقر الحزب، فاضطرب المكان أشد الاضطراب. لم يكن أحد قد مات بعد في هاليموندا، سواء من الشيوعيين أو من مناهضي الشيوعيين، ولكن خبرا وصل عن مذبحة في جاكرتا. إذ قتل هناك مئة شيوعي، واعتقل الباقون، وقتل مئات الشيوعيين في شرق جاوة، وبدأت المذابح في وسط جاوة. وبدأ ينتاب الجميع خوف من أن ذلك سوف ينتقل إلى هاليموندا.

وفي النهاية، قتل شخص في عصر أحد الأيام. كان أول من قتل من الشيوعيين في هاليموندا هو أحد قدامى محاربي الثورة ويدعى معلّمين. كان من أخلص أعضاء الحزب، وأستاذا من أساتذة الأيديولوجيا على مستويي النظرية والممارسة، ومقاتلا حقيقيا ناضل من أجل القضية منذ العصر الاستعماري وحتى العصر النيوليبرالي. ذلك ما قاله الرفيق كلايوون في تأبين قصير ألقاه في عزاء أقيم في اليوم نفسه. كان معلمين شيوعيا مسلما عاش حياته يرجو الموت من أجل القضية، فكان ذلك له هو الجهاد. وكان قد كتب في وصيته قبل سنين يوصي بدفنه دفن شهيد إذا مات في معركة. فلم يغسلوه، بل صلوا عليه ودفنوه في ثيابه الغارقة في الدم. كان قد لقي حتفه برصاصة من الجيش في صدام مسلح على الشاطئ، وهو الوحيد الذي قتل في عصر ذلك اليوم. ترك معلمين ابنة وحيدة، فتاة في الحادية والعشرين تدعى فريدة. كان الرجل وابنته قد اقتربا من أحدهما الآخر بعد أن ماتت والدة الفتاة قبل سنين كثيرة، فلما بدأ الجمع يتحرك مبتعدا عن المقبرة، بقيت فريدة بجوار مقبرة أبيها تقنعه بأن يرجع معها إلى البيت. حتى تركها الجميع وحدها ومضوا.

وها هنا قصة رومانتيكية صغيرة: قصة حب في مدينة واقعة بين براثن الحرب.

كان حفار القبور وحارس مقابر الصيادين العامة يدعى كامينو، وكان شابًا في الثانية والثلاثين. لم يبلغ السادسة عشرة إلا وصار حفار

قبور وحارس مقابر بوذية الدارما، أي منذ وفاة أبيه بالملاريا. ولمّا لم يكن له أخوة أو أخوات فقد خلف أباه في مهنته، وهي المهنة التي امتهنتها الأسرة ربما منذ جد جده وقد نفر غيرهم من امتهانها، فصارت لأسرته ألفة بعالم الموتى. نشأ كامينو على صمت ذلك المكان منذ نعومة أظافره، فلم يواجه عنتا في تعلم مهنته. كان بوسعه أن يحفر القبر بمثل سرعة قطة في إقامة حفرة تتغوط فيها. ولكن مهنته تلك أورثته صعوبة واحدة: لم تجعل فتاة ترضى بالزواج به، إذ لم يكن لفتاة أن ترضى بالعيش في المقابر.

والحق أن أغلب أهل هاليموندا كانوا مؤمنين بالخرافات. كانوا لا يزالون يؤمنون بأن الشياطين والعفاريت وكل أنواع الكائنات الخرافية تجتاح المقابر وتعيش وسط أرواح الموتى. كما كانوا يؤمنون بأن حفار القبور يتعايش عن قرب مع تلك الكائنات الخرافية جميعًا. وكان كامينو يعرف بما يعانيه من صعوبة، فلم يجرب أصلا أن يتقدم لفتاة. لم يكن يتواصل مع الناس إلا في حدود عمله. وفي العادة كان يلزم بيته، وهو بيت رطب مقام من خرسانة قديمة عفنة وتظلله أشجار الأثأب الكبيرة. ولم تكن له من تسلية في حياته الموحشة إلا لعب الـ جيلانجكونج ـأي استحضار أرواح الموتى مستعينا بدمية صغيرةـ وتلك أيضًا مهارة تنقّلت من جيل إلى جيل في عائلته، فكان قادرا على استحضار الأرواح والثرثرة معها في شتى أنواع الأحاديث.

وفجأة، وللمرة الأولى، خفق قلبه إذ رأى فتاة تأبى أن تتزحزح من موقعها بجوار قبر أبيها: فريدة. حاول إقناعها واستدراجها للرحيل

بعدما فشل في ذلك الجميع، فقال إن هواء الليل في المقابر هو أشد الهواء برودة في المدينة، فخير لها أن ترجع إلى البيت. ولم يبد على الفتاة أدنى خوف من الهواء البارد التافه. فحاول كامينو أن يخيفها بالجن والعفاريت، فرأى أن الفتاة لم تهتز على الإطلاق. وذلك ما جعل قلبه يخفق لها، فجعل يدعو في سرّه أن تكون الفتاة صلبة الدماغ بحق وألا ترجع إلى بيتها أبدا، فصارت له بعد كل تلك السنين رفقة في ذلك المكان.

كانت مساحة مقابر بوذية الدارما تبلغ نحو عشرة هكتارات مربعة، مبسوطة بمحاذاة الشاطئ، ومفصولة عن مساكن الناس بمزارع الكاكاو. كانت قد أقيمت في الحقبة الاستعمارية، ولم تزل مدافن كثيرة خاوية يكسوها العشب البري، فتمرح فيها رياح المحيط الجامحة. ولما حلّ الليل اقترب كامينو من الفتاة مرة ثانية وهو يحمل قنديلا مضاء وضعه فوق شاهدة القبر.

قال دونما نظر إلى وجه الفتاة "إذا لم تكن بك رغبة حقا في الرجوع إلى البيت، يمكنك أن تنزلي ضيفة في بيتي".

"شكرا، لكنني لن أذهب وحدي في الليل إلى بيت أحد مهما يكن".

فلمّا اشتدت برودة الليل بقيت الفتاة في مكانها، بغير بطانية أو وسادة، مكتفية بالجلوس على الأرض الرملية. ولمّا شعر كامينو بأن في

حضوره إزعاجا للفتاة، تركها أخيرًا، راجعا إلى بيته مجهزا العشاء. ثم ظهر مرة أخرى حاملا نصيبا من الطعام لفريدة.

قالت له "أنت شديد الطيبة".

"هذه من أعراض حفر القبور".

"لا أظن أن أحدًا يظل بجوار القبر إلى أن تأتيه بعشاء".

"صحيح، لكن كثيرًا من أرواح الموتى تتضور جوعا".

"تتعامل مع الموتى؟"

رأى كامينو شقا صغيرا يمكن أن ينفذ منه إلى حياة الفتاة. "نعم، وبوسعي أن أستحضر روح أبيك إن كنت تريدين". وذلك ما كان. لعب الجيلانجكونج التي تعلمها عن أسلافه، فاستحضر روح معلمين وسمح لذلك المحارب القديم أن يسكن جسده. وصار معلمين، يتكلم بصوته، وجها لوجه أمام ابنته فريدة. طارت الفتاة من الفرح بعودة صوت أبيها، كأنما في أي ليلة عادية، يثرثر معها بعد العشاء قبل أن يدخل كلٌّ منهما لينام في غرفته. والآن بعد انتهائها من العشاء الذي أعطاه لها كامينو، وجدت نفسها مرة أخرى تثرثر مع أبيها، كأنما ليس للموت وجود، إلى أن تذكّرته فقالت:

"لكنك ميت يا بابا".

قال أبوها "إياك أن تغاري مني، سيأتي عليك الدور يومًا ما".

أنهكها الحوار، خاصة وأنها كانت في المقابر منذ العصر، فغلبها النعاس بجوار المقبرة. أنهى كامينو جلسة الجيلانجكونج، ومضى يحضر بطانية. غطى الفتاة، بأرق ما يغطي به رجل فتاة شغفته حبا، ثم وقف شاخصا إلى وجهها الذي بدا له قليلا قبل أن تبتلعه العتمة، ثم عاد فظهر له في نور القنديل المرتعش إذ تهزه الريح. بعدما اطمأن أن الفتاة آمنة داخل البطانية وأن القنديل سوف يبقى مضاء حتى الصباح، رجع كامينو إلى بيته وحاول أن ينام، لكن الفتاة ظلت تشغل باله طيلة الليل، فلم ينعس إلا مع أول نور الصباح إذ تخلّل ما بين أوراق شجر الفرانجيباني.

في العاشرة والنصف أيقظته رائحة توابل. لم يكن قد أفاق تمامًا حين نهض من فراشه متعثرا وسار إلى ما وراء البيت. كانت رؤيته لم تزل غائمة بعض الشيء، لكنه رأى الفتاة تحمل إناء فيه شيء يغلي وتضعه على مائدة الطعام.

"طبخت لك".

تعرّف فيها على فريدة، فاندهش.

قالت فريدة "استحم أولا، أو اغسل وجهك، وسنأكل معًا".

مثل رجل ذاهل، سار بين الصحو والنوم إلى الحمام، ناسيا أن يصطحب منشفته، واستحم بأسرع ما استطاع. وجد الفتاة جالسة تنتظره لدى مائدة الطعام. كان الرز لا يزال ساخنا، والإناء مليئا بحساء

الكرنب والجزر والمكرونة. رأى في أحد الأطباق تيمبا مقلية، وفي طبق آخر رأى قطعا صغيرة من السمك الطائر مقلية ومقرمشة.

"وجدت ذلك كله في المطبخ".

أومأ كامينو. بدا له الأمر معجزة، فلم يكن منذ سنين قد تناول الطعام مع أحد، ليس منذ أن كان أبوه وأمه على قيد الحياة. وها هو مع فتاة شابة، هي التي وقع في غرامها سرًا منذ الليلة السابقة. تسارع نبض قلبه فلم يملك أن يسيطر عليه، وبقي لا يجرؤ على النظر في وجه الفتاة وهو يأكل. كانا يختلسان النظر إلى أحدهما الآخر بين الحين والحين، فإن التقت أعينهما يبتسمان في حياء، كآثمين بوغتا في إثمهما. أكلا وكلٌّ جالس إلى طرف من المائدة، كأنهما زوجان حديثا الزواج.

وتعكّرت قصة الحب بينهما في عصر ذلك اليوم المزدحم. كان خمسة قد قتلوا في مصادمة بين الشيوعيين وأعدائهم. أربعة منهم شيوعيون وواحد من أعداء الشيوعية، وكان على كامينو أن يدفن الجميع. وسرعان ما أدرك أن المزيد والمزيد من الجثث في الطريق إلى المقبرة، وأن هذه الأيام سوف تشهد لا محالة نهاية الحزب الشيوعي. عرف ذلك من أعداد الموتى. حفر خمس مقابر جديدة، أربعا منها في ركن للشيوعيين، وأخرى في ركن يدفن فيه الناس العاديون. خمسة موتى، كلٌّ بأقاربه يبكون على مقبرته، وكلمات قصيرة من قادة الحزب، استهلكت وقته حتى العصر. وبينما كان هو مشغولا، لم تذهب فريدة إلى أي مكان. قضت النهار كله بجوار مقبرة أبيها، مثلما فعلت في اليوم السابق.

قال كامينو لفريدة بعدما انتهى من عمله ورجع إلى البيت ليغتسل "أنا مستعد أن أراهن أن عشرة شيوعيين سوف يموتون في الغد".

قالت فريدة "لو مات كثيرون هكذا، فادفنهم جميعًا في مقبرة جماعية. ففي اليوم السابع قد يموت تسعمئة شيوعي، حينها لن يكون بوسعك أن تحفر مقابر للجميع".

قال كامينو "أرجو فقط ألا يكون أبناؤهم بلهاء مثلك، فمن أجل إطعامهم سيكون عليّ أن أقيم وليمة".

"لكن الليلة، هل بوسعي أن أكون ضيفتك؟"

أطار السؤال كامينو عن الأرض، فما كان منه إلا أن أجاب بإيماءة. أعدت فريدة عشاءهما، وبعدما تناولاه استحضرا روحا من جديد، ولم تكن غير روح معلمين بالطبع، واستطاعت فريدة مرة أخرى أن تثرثر مع أبيها. واستمرّ ذلك حتى التاسعة ليلا حينما حان وقت النوم. دخلت فريدة الغرفة التي كان يسكنها والد كامينو ووالدته، ونام هو في غرفته التي كان ينام فيها منذ أن كان طفلا.

في اليوم التالي، صدقت نبوءات كامينو وفريدة، ففي مطلع الصباح مات اثنا عشر شيوعيا. وهذه المرة لم يشهد الدفن تأبينات من قادة الحزب، إذ كان الموقف مقبضا. قيل إن دي إن آيديت وقادة الحزب الشيوعي قد أعدموا. دُفن الشيوعيون الاثنا عشر في المقبرة بلا طقوس. لم يكن يعرف أسماءهم. ومع أنه حفر مقبرة واحدة كبيرة للجثث الاثنتي

عشرة، فقد كان يومه مشحونًا حتى الظهيرة، إذ ظهرت شاحنة من الجيش فألقت ثماني جثث أخرى. ثم جاءته عند العصر سبع أخرى.

جلست فريدة عند مقبرة أبيها ولما حلّ الليل حلّت هي ضيفة على كامينو، بينما كان لا يزال مشغولا في حملة الجثث. وهكذا مضى الحال حتى اليوم السابع.

في الوقت الذي هرب فيه أغلب المتعاطفين مع الحزب الشيوعي، بقي أكثر من ألف شيوعي مرابطين أمام حشد الجنود وأعداء الشيوعية في نهاية شارع جالان ميريديكا. كان بعضهم يحملون أسلحة قديمة، وكمًّا محدودا من الذخيرة. وفي ظل حصارهم يومًا آخر وليلة أخرى، عضّهم الجوع، ولم يفكروا مع ذلك في الاستسلام. كانت المحلات في المنطقة قد تحطمت والسكان جميعًا هربوا، وأحاط الجنود بتسليحهم الثقيل الشيوعيين من جميع الجهات، وأمر القومندان الشيوعيين بالانسحاب زاعقا فيهم بأن الحزب الشيوعي قد انتهى منذ اللحظة التي فشل فيها الانقلاب، ومع ذلك بقي أكثر من ألف شيوعي صامدين.

مع اقتراب المغيب أطلق بعضهم رصاصات على الجنود، فلم تصب رصاصاتهم أحدًا. وأخيرًا فقد القومندان صبره فأمر رجاله بإطلاق الرصاص. وفي ظل ضرب من جميع الجهات انهار الشيوعيون في الشارع، فمن لم يقع منهم صريعا هرب في ذعر أعمى، فأوقع بعضهم بعضا قبل أن تقتلهم الرصاصات واحدًا بعد الآخر. وفي عصر ذلك

اليوم، في مجزرة سريعة، مات ألف شيوعي ومئة واثنان وثلاثون، لينتهي تاريخ الحزب الشيوعي في المدينة، كما في البلد كله.

حملت الجثث في شاحنات، فتراكمت وتكدست في مسيرة دموية، وتوجهت قافلة من تلك الشاحنات إلى بيت كامينو. وكان ذلك اليوم أكثر أيام الرجل انشغالا. كان عليه أن يحفر حفرة هائلة، فلما انتصف الليل لم يكن انتهى، ولم ينته من عمله إلا بمساعدة بعض الجنود مع حلول الفجر. وظل يرجو أن يستسلم الشيوعيون، فلا يأتي المزيد من الجثث ويتسنى له أخيرًا أن يستريح. وطوال ذلك كله، بقيت فريدة معه، تنتظره، وتجهز الطعام، وتجلس بجوار مقبرة أبيها.

في ذلك الصباح، بعدما انصرف الجنود وشاحناتهم ودفنت جثث ألف ومئة واثنين وثلاثين شيوعيا في مقبرة جماعية كبيرة، بدا كامينو الذي لم يغمض له جفن نشيطا للغاية، فاقترب من فريدة التي كانت في المقابر منذ أكثر من أسبوع وقال لها:

"سيدتي، هل تقبلين أن تعيشي معي وتكوني لي زوجة؟"

كانت فريدة تعرف أنه مكتوب لها أن تقبل ذلك الرجل. فذهبا في صباح ذلك اليوم بعدما اغتسلا وارتديا ثيابا لائقة إلى شيخ القرية وطلبا منه أن يزوجهما. وصارا زوجا وزوجة وذهبا لقضاء شهر العسل في بيت فريدة القديم.

كان معنى ذلك أنه ما من حفار قبور عامل في ذلك اليوم، ولم تكن تلك مشكلة، إذ كانت قوات الجيش قد أنهكت من نقل جميع جثث

الشيوعيين إلى المقابر ومساعدة الحفار في إقامة مقبرتهم الجماعية. كان بعض هؤلاء الشيوعيين في نهاية المطاف قد ماتوا على أيدي الجيش لكن أغلبهم مات صريع أعداء الشيوعية من الناس العاديين حاملي المناجل والسيوف والمدى وكل ما صادفهم وأمكنهم أن يستعملوه في القتل، أولئك الناس العاديين الذين تركوا جثث قتلاهم تتعفن على قارعة الطريق. باتت مدينة هاليموندا مليئة بالجثث الملقاة في قنوات المياه وفي ضواحي المدينة، وعند سفوح التلال وعلى ضفاف الأنهار، وعلى الجسور، ووسط الآكام، ممن قتل أغلبهم وهم يحاولون الفرار.

غير أنه لم يقتل الجميع. فقد استسلم البعض وألقي بهم في السجون المحلية والسجون الحربية قبل نقلهم إلى بلادن كامب، ذلك السجن المرعب في الدلتا. دامت التحقيقات ساعات، وانتهت على أن تستأنف في الصباح التالي. منهم من سجن ليموت، جوعا، أو ضربا. ومن بقي من الشيوعيين طلقاء، بدأ صيدهم بوحشية، حتى من لاذ منهم بأعماق الأدغال.

وبقي الرفيق كلايوون هو أهم المطلوبين على الإطلاق.

شكّل شودانتشو فرقة خاصة لاعتقاله، ميتا أو حيا.

والحقيقة أن الرفيق كلايوون كان جالسا مع أديندا في الشرفة، منتظرا الجرائد في صبر، في مقرّ الحزب الشيوعي، حينما وصلت إليه الفرقة الخاصة. وأقسم بالله إن أعضاء الفرقة لم يروا الاثنين. عاثوا في أركان المكان يمزقونه، ويقطعون لوحة كارل ماركس ثم يحرقونها على قارعة الطريق هي وعلم الحزب والمطرقة والمنجل وكل ما في المكتبة من

كتب باستثناء كتب الصلاة وكتب فنون القتال الإندونيسية التي أنقذها شودانتشو ليستمتع بها. كان قد قاد الهجوم بنفسه، ونال صندوقين من كتب الصلاة تلك فشحنها فورا في سيارته العسكرية. وكل ذلك حدث أمام أعين الرفيق كلايوون وأديندا المبهوتين لعدم رؤية أحد لهما.

مضت القوات للبحث في المقابر، إذ أفاد شخص أنه يختبئ هناك، فوجدوها مهجورة - حتى الحفار كان غائبا. فسارعوا يذهبون إلى بيت مينا، إثر وشاية أخرى، فأصرّت طوال التحقيق الطويل أنها لم تر الرفيق كلايوون منذ الأسبوع السابق.

ولما ذهبت القوات قالت لنفسها "ذلك الطفل الغبي كان لا بد أن يعلم أن الشيوعيين جميعًا ينتهون أمام فرق الإعدام".

سارع رجل إلى شودانتشو يخبره أنه رأى الرفيق كلايوون يهرب إلى البحر برفقة امرأة. ففي ضيق متزايد وبرغبة راسخة في الانتقام، أمر شودانتشو بتمشيط البحر، فطارد جنوده شودانتشو على زوارق بخارية، ثم لم يعثروا إلا على قارب شراعي خاو تتقاذفه الأمواج ولا أثر للرفيق. وعلى أمل أن يعثروا على جثته أمر شودانتشو ثلاثة جنود بالغوص فلم يرجعوا إليه بغير خيبتهم.

للتنفيس عن غضبه، أعاد شودانتشو استجواب من أمكن القبض عليهم من قادة الحزب المهمين وهم قلة. فقال كل واحد منهم إنه رأى الرفيق كلايوون للمرة الأخيرة جالسا في الشرفة ينتظر الجرائد. فاعتبر

شودانتشو حكايتهم تلك مزحة وساقهم جميعًا إلى ما وراء السجن حيث نفذ فيهم الإعدام بسلاحه الشخصي.

وانتشرت شائعات بأن لدى الرفيق كلايوون قدرات غامضة، وأنه قادر على التنكر في صورة شخص سواه، أو أن ينشق إلى أكثر من شخص فيظهر في أكثر من مكان في وقت واحد. لكنه في النهاية اعتقل. اقتفى شودانتشو آثار أقدامه، وقاد قواته راجعين إلى مقر الحزب في شارع جالان بيلاندا، وفجأة رآه، لا يزال جالسا في الشرفة ومعه أخت زوجة شودانتشو، تمامًا كما قال له الذين أعدمهم للتو. كان ذلك عند العصر والضباب عالق في هواء المدينة. خجل شودانتشو أن يسأله أين كان طوال ذلك الوقت، إذ بدا واضحا من جلسة الرفيق كلايوون أنه في واقع الأمر لم يبرح مكانه ذلك على الإطلاق.

قال شودانتشو "أنت رهن الاعتقال، ويا عزيزتي أديندا، يستحسن أن تذهبي إلى البيت".

سأل الرفيق كلايوون "وما السبب في اعتقالي؟"

قال شودانتشو بمزاح ممرور "لانتظار جرائد لن تصل".

مدَّ الرفيق كلايوون يديه فأحكم شودانتشو وثاقه.

قالت أديندا والدموع تنساب على خديها "شودانتشو، اسمح لي أن أودعه، لأنني أخشى أنك سوف تعدمه بمجرد أن يصل إلى السجن".

أومأ لها شودانتشو، وكان وداعها قبلة طويلة على شفتي الرفيق كلايوون".

انتشر خبر اعتقاله سريعا فعرفه كل من في المدينة تقريبًا، ومنهم من كانت يداه لا تزالان مخضبتين بالدم، فاحتشد الكثيرون واصطفوا في الشوارع من مقر الحزب الشيوعي وحتى السجن الحربي. كانت لكلّ منهم ذكريات ولع بالرفيق كلايوون فوقفوا جميعًا لا يطيقون الصبر إلى أن يمر.

رفض الرفيق كلايوون ركوب الجيب العسكرية، وسار بما بقي له من كرامة يخفره الجنود. ركبت أديندا الجيب مع شودانتشو، ومضت السيارة بهما بطيئة وراء الموكب الصغير، بينما ازدحم الناس عن يمين الشارع ويساره في صمت جليل. أخذوا ينظرون بمزيج من المشاعر إلى الرجل الذي بقي حتى ذلك الحين يرتدي البيريه الحبيب إلى قلبه. كثير من المشاهدين كانوا أصدقاءه منذ أيام المدرسة، فعجبوا كيف لأذكى رجل في المدينة وأكثر من فيها وسامة أن يختار حياة شيوعي ضال. ومنهم نساء خرجوا معه، أو حلموا بالخروج معه، فكن ينظرن إليه دامعات العيون كما لو أن حب حياتهن الوحيد قد سلب منهن.

تلاشى غضب الناس ما إن رأوه. كان يسير منتصب القامة طويلها، لا يزال ممتلئا بالعزيمة، ليس فيه من الرجل المهزوم أي شيء. كان يسير سير قائد موقن أنه سرعان ما سينتصر في حروب لم تأت بعد. وتذكّر من رأوه كل الخير الذي سبق أن فعله في الماضي، وتناسوا كل

مساوئه. كان شابًا مهذبا مجتهدا ذكيا وسيما، ونسوا جميعًا أنه كان أيضًا محرضا، ورفيقًا للعاهرات، وحارقا للسفن.

كان إذ ذاك يرتدي قبعة عليها نجمة حمراء، وقميصا حاكته له أمه، وبنطالا لديه منذ إقامته العابرة في العاصمة، وحذاء جلديا مستعارا.

أدار رأسه على أمل أن ينال لمحة من أديندا فلم يستطع أن يلمحها داخل الجيب. بحث في الزحام عن ألامندا أيضًا، ولكنها لم تكن هناك. ولّما لم يجد في الزحام شخصا ذا شأن، سار في هدوء إلى السجن القائم خلف المقر العسكري، حيث قال شودانتشو إنه سوف يعدم بلا محاكمة في الخامسة من صباح اليوم التالي.

ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت أديندا مرة أخرى، ولّما كانت الزيارة ممنوعة فقد تركت له ثيابا ليبدّل ثيابه، وطلبت من شودانتشو توصيلها إليه مع صينية طعام.

قالت أديندا "عدني يا شودانتشو أن تتأكد من تناوله الطعام. فهو لم يأكل شيئًا قط منذ أن لم تصله الجرائد".

سلّم شودانتشو بنفسه كل ذلك للرفيق كلايوون، ووجده مستلقيا على فراش وقد وضع يديه أسفل رأسه ومضى يحملق في السقف.

قال شودانتشو "أعتقد أنك ما زلت تحظى بسمعة طيبة بين النساء يا رفيق، إحداهن بعثت لك ثيابًا وصينية طعام".

"وأعرف أي سيدة هي، صهرتك شخصيًا".

وبعدها صمت الرفيق كلايوون، ولم يتغيّر وضع جسده. لكن شودانتشو ابتسم في ضوء الغرفة الشاحب، مستمتعا بثأره الصغير. وحدّث نفسه قائلا، إن هذا هو الرجل الذي سلبني زوجتي الجميلة، وأنزل اللعنة على طفليّ.

"غدا أراك قتيلا".

لم يخطّط أن يكون الإعدام بسيطًا أو سريعًا، ليس برصاصة على أي حال. كان يرغب أن يرى كلايوون وهو يموت ببطء، وأنامله تنقطع واحدة إثر واحدة، وجلد رأسه ينسلخ، وعيناه تقتلعان، ولسانه ينتزع. ابتسم شودانتشو ابتسامة تشفٍّ قاسية قبل الأوان.

ولم يردّ كلايوون. بل الغريب أنه لم يبد مباليًا، وذلك ما اقشعرّ له جلد شودانتشو. كانت تلك الجثة الحية المستلقية في ذلك السرير تبدو ممتلئة بالسلطة، ممتلئة بالرضا، كأن صاحبها يموت شهيدًا، ممتلئة بالإعجاب بالحياة التي اختارها ولم يأسف على اختيارها، برغم أنها جلبت عليه هذه النهاية المؤسفة. كانت بين الاثنين هوة لا تعبر، بين رجل يملك سلطة الإعدام، ورجل يعد الساعات المتبقية على موته. الأول بدا غير مرتاح إلى سلطته، والثاني بدا متقبلًا قدره بهدوء.

والحق أن الرفيق كلايوون لم يكن يفكر في شودانتشو على الإطلاق، بل جرفه الحنين إلى ذكرياته في المدينة التي يغادرها عما قريب. فكّر في نفسه، كم كانت الثورة مرهقة، وأسعده شيء واحد: **إنني تارك كل هذا ورائي غير مرغم أن أكون رجعيًا أو أنضم للثورة المضادة.**

هكذا شعر الرفيق كلايوون بأن عليه أن يشكر كل من نفّذ الانقلاب. إذ صار له في اليوم التالي أن يموت ويترك كل ذلك التعب وراء ظهره. لم يكن قلقا على أمه فقد كانت قوية قادرة على الاعتناء بنفسها، فصار بذلك أكثر استعدادا للموت، بل وسعيدا به، فعبرت بشفتيه ابتسامة رهيفة أثارت في شودانتشو المزيد من الضيق.

"سيأتون لاصطحابك في الخامسة صباحا إلا عشر دقائق، وفي الخامسة بالضبط يبدأ إعدامك، فأخبرني بطلبك الأخير".

قال الرفيق كلايوون "هذا هو طلبي الأخير، يا عمال العالم اتحدوا".

خرج شودانتشو وانصفق الباب.

١٣

في موسم الأمطار يتزوج كثير من الناس. يحضر حشود من أهل القرى العرس تلو العرس، وتبرز من الأسيجة عند كل تقاطع تقريبًا فروع جوز الهند وقد طليت باللون الذهبي مشيرة إلى البيوت التي تشهد الأعراس، فتكوّن أقواسا فوق الشارع تتدلّى منها الزينة. وفي الوقت نفسه يذهب غير المتزوجين من الرجال إلى الماخور، ويتلاقى العشاق كثيرًا في السرّ، ويبدو أن قدامى المتزوجين يجدّدون شهور عسلهم في ذلك الموسم، ويخلق الله الكثير من الأجنّة الصغيرة.

حتى في أثناء مجزرة الشيوعيين، بقي الناس يمارسون الحب كلما سنحت لهم الفرصة، لا سيما عندما يهطل المطر بغزارة. ولكن هذا الأمر لم يقم، في تلك اللحظة على الأقل، بين شودانتشو وألامندا. ولا قام بين مامان جيندنج ومايا ديوي اللذين كانا لا يزالان مستمرين في الدراما التي يمثلانها منذ زفافهما قبل قرابة خمس سنين.

غير أن شيئًا واحدًا كان يجعل مامان جيندنج في غاية السعادة: كان قد صار له ما يمكن أن يسميه بيتا، وهو شيء طالما حلم به، منذ أن وقع في غرام ناسيه ورأى حبها المتوهج لحبيبها. كان على مدار سنين قد

عاش يحلم بنظرة حب كنظرتها، وبأسرة وببيت ـ سنوات مليئة باليأس والشك في أن يقترب من حلمه ذلك، لأن الجميع كانوا يرون فيه وغدا مثيرًا للمتاعب.

صار الآن يرجع إلى بيته من محطة الأتوبيسات، بعد أن يقضي العصر في التسكع والثرثرة، أو في لعب الورق مع شودانتشو، فيجد زوجته في انتظاره على مائدة الطعام، ويسارع إلى الاغتسال. كان يقضي كلَّ لياليه تقريبًا منعَّما في بهجة لا توصف، فبات يشعر بأنه متحضر، إذ صار يرتدي ثيابا نظيفة شأنه شأن جيرانه، وينام على حشية مغطى ببطانية، شأنه شأن جيرانه.

ومثلما كانت تؤدي مهام بيتها، كانت مايا ديوي تجدُّ في الاعتناء بزوجها. ومثلما وعد ديوي آيو، لم يلمس مامان جيندنج امرأة أخرى، بل إنه لم يلمس زوجته أيضًا. ومرّ العام تلو العام، وبدأت البنت الصغيرة تكبر وتبلغ المراهقة. كانت بالفعل طويلة، فامتلأ جسمها واكتمل لها نهدان بديعان، لكنها بقيت في عيني زوجها التلميذة الصغيرة التي كانت إياها دائمًا. كان يجلس برفقتها، يدخن سيجارته، بينما تذاكر هي أو تؤدي واجباتها، ويغطيها في الليل، لكنهما لم يناما قط في سرير واحد.

كان يعيش حالة زهد جنسي مدهشة بحق. وحينما كانت شهوته تزيد بين الوقت والآخر، كان يجري بعض التجارب في الحمام محاولا تهدئة نفسه، وفي ما يتعلق بهذا الموضوع، كان شودانتشو أفضل صديق

يمكن أن يتوافر لمامان جيندنج. وبرغم اختلاف شخصية كل منهما وتاريخه، جمع بينهما القدر في صداقة عميقة ولم يعد شودانتشو يأسى فقط على احتمال أن تكون زوجته ماضية في حب الرفيق كلايوون، بل بدأ يناقش جميع مشكلاته العائلية مع صديقه الثقة.

فبعدما ينتهيان من لعب الترامب، وينصرف بقية اللاعبين، وينتهي الكلام في جميع شؤون المدينة، كانا يبدآن عادة في مناقشة مشكلاتهما الشخصية. ثم لا يعودان مجرد صديقين مقرَّبين، بل شقيقين يشكو أحدهما للآخر ويتنهد في حضوره. وذات يوم تكلم شودانتشو صراحة عن سروال ألامندا الحديدي.

"ومفتاح قفله تعويذة لا يعرفها أحد إلا زوجتي".

"لكنني سمعت أنها حبلت؟"

فانفجر شودانتشو بغتة في البكاء والنشيج "حملت مرتين، وفي المرتين سَّميت الطفلة نور العين، لكن الطفلتين تبددتا من رحمها".

"لا يمكن أن تحبل امرأة من غير أن تنكح، ما لم تكن مريم العذراء".

شهق شودانتشو ثم أوضح له "شوف، أنا اغتصبتها مرة عندما أهملت حماية فرجها".

واساه مامان جيندنج قائلا إنه أيضًا لم يلمس زوجته. "وتعهدت يا شودانتشو بألا أذهب إلى الماخور أبدا، لذلك أسرِّي عن نفسي في

الحمام. وهذا ممتاز يا شودانتشو في تهدئة الشهوة ومنع الغضب. عليك فعلًا أن تنتظم في تفريغ خصيتيك".

قال شودانتشو "لكنني أمارس ذلك بالفعل".

ثم اتفق الاثنان على أن مفتاح سعادتهما الزوجية لن يظهر إلا مع الوقت، حتى لو كان يمضي ببطء، ولن يظهر إلا في رضاهما وتحليهما بالصبر. كان على ماما جيندنج أن يعيش في انتظار أن تكبر زوجته حتى تصلح لممارسة الحب. "لا أعرف متى سيحدث ذلك يا شودانتشو. وصدقني ما تحتاج إليه أنت الآخر هو مرور الزمن، والزمن يحبو، وعاجلا أم آجلا، وبالقدر الكافي من الإلحاح، يمكن أن تتغيَّر النساء". ذلك على الأقل ما دأب على قوله العارفون بالنساء من حكماء الرجال. "فلو صبرت، فسيثمر صبرك، مثلما يمكن أن تحفر قطرات الماء حفرة في صخرة، ستتخلى زوجتك يومًا ما عن عنادها بل وربما تقع في غرامك. ولن تكون بحاجة إلى التودد أو الإقناع أو الغواية لكي تفتح لك حماية فرجها، فهي بنفسها سوف تفتحها لك ذات ليلة. صدقني هذا ما سوف يحدث يا شودانتشو، لأنه لا قدرة لامرأة على العناد حتى الموت، ولا حتى لرجل".

تلك الكلمات الغريبة الحكيمة التي قالها ماما جيندنج ـالذي كان لا يزال موضع كراهيته السريةـ كانت عزاء حقيقيا لشودانتشو فكان بوسعه أن يتوقف للحظة عن التفكير في لذة أن ينام مع زوجته (وإن لم ينس قط ذكراه السعيدة حينما اغتصبها في كوخه الحربي).

خلافا لشودانتشو، لم يفكر مامان جيندنج مطلقًا في اغتصاب زوجته. فلعل مايا ديوي تخلع ثيابها إذا طلب منها ذلك وتستلقي على السرير في انتظار أن يثب عليها عاريا. لكن لا، ما كان بوسعه أن يقسو هكذا على الصغيرة ذات العينين اللتين لم تفقدا براءتهما قط. ابنته الصغرى الجميلة، كما كان يناديها حينما كان لا يزال عشيقا لديوي آيو. كان يرى أن أهم مهمات الزوج هي أن يضمن سعادة زوجته، ويتركها تتعلم بنفسها كيف تكون شريكة صالحة. وكان يقول لأصدقائه دائمًا "انظروا كم أنا فخور بزوجتي. عندما تزوجتها وهي في الثانية عشرة فقط كانت بارعة في الطبخ والخياطة وتنسيق الزهور. والآن حينما ترجع من المدرسة تنشغل في صنع البسكويت".

نجح عمل البسكويت لدرجة أن استعانت مايا ديوي بمساعدتين، كانتا فتاتين يتيمتين كل منهما في الثانية عشرة أخذتهما، وعهدت إليهما بالعجن والفرن والتزيين.

لكن لا المدرسة ولا البسكويت جعلاها تهمل زوجها، وكان في ذلك سر السعادة الشديدة التي شعر بها ماما جيندنج، وإن بقي لا يلمسها، إذ لم يشأ أن يسلبها سعادة طفولتها، فبرغم أنها كانت من قبل تعيش في كنف أشهر عاهرة في المدينة، لعلها هي نفسها لم تفكر قط في ممارسة الجنس في أي وقت قريب. وخاصة لمّا سمع بما جرى لطفلي شودانتشو، فبات على يقين من أنه لا يجب إرغام امرأة بأي طريقة. حتى لو كانت تلك المرأة زوجة.

وبات مامان جيندنج شديد الفخر بصبره، وعدم ممارسته الحب طوال سنين إلا مع يده في الحمام. أما اتصاله الجسدي بزوجته فاقتصر على تقبيله جبينها قبل نومها، أو عند خروجها إلى المدرسة، وعلى جلستهما أحيانا متشابكي الذراعين في السينما، أو حمله إياها إلى السرير حين كان يغلبها النوم وهي على الأريكة. بل إنه لم يرها عريانة قط. تحلّى بصبر غامض لا يتوافر إلا لمحارب بدوي يرقب في وداعة تقلب الفصول.

وذات يوم وقد بلغت السابعة عشرة، فاجأته مايا ديوي بقولها "سوف أترك المدرسة". وأوضحت له السبب الحاسم قائلة إنها ترغب في مزيد من الاعتناء ببيتها وزوجها.

برغم أن مامان جيندنج كان يمكن أن يحتجّ بأنه حتى ذلك الوقت كان مكتفيا وراضيا باعتنائها به وبالبيت، وهو اعتناء ربما يتجاوز كل ما يحظى به زوج غيره في المدينة، في ضوء كثرة الأزواج الذين يفرون إلى ماخور ماما كالونج، قبل مامان جيندنج ما تقرّره زوجته مهما يكن وقد رأى في عينيها الثبات على قناعتها.

في وقت لاحق من تلك الليلة ذهب مامان جيندنج إلى غرفة زوجته ليقبّلها ويتمنّى لها ليلة سعيدة ويحكم عليها الغطاء كالعادة. فوجدها تستلقي عارية في السرير، على ملاءة وردية، تحت مصباح خافت الإضاءة، مبتسمة له، وعبق الزهور يملأ المكان من حولها. قالت مايا ديوي:

"أنا زوجتك يا حبيبي، وأنا الآن كبرت بما يكفي لأستقبلك في هذا السرير. عانقني ومارس معي الحب الليلة. ستكون هذه أجمل ليلة في حياتنا، ليلتنا الأولى معًا، الليلة التي ننتظرها منذ خمس سنين".

بديعة، ورثت عن أمها الجمال، بشعرها المفرود على المخدة، ونهديها الناهضين، وفخذيها الجميلتين المصبوبتين. انحبست أنفاس ماما جيندنج لوهلة. وأقسم بالله إنه لم يكن ليدرك أن جزاء انتظاره لخمس سنين سوف يكون هذه النعمة النادرة، كان كمن ارتحل فطال به الارتحال وفي نهاية الطريق عثر على أنفس جواهر الدنيا.

ثم إنه كمن تدفعه قوة غير مرئية اقترب منها، ومدَّ يده يتلمَّس جسد زوجته برقة ونعومة بينما تتلوى هي وتتأوه في همس. بلا عجلة، بهدوء صقلته سنوات الانتظار، اعتلى ماما جيندنج السرير وتشمَّم جبين زوجته في محبة قبل أن يغمر خديها وشفتيها بقبلات طويلة ملتهبة. خلعت مايا ديوي عن الرجل ثيابه بلطف فبهت لما أدرك أنهما الاثنين عاريان.

انصهرا في ليلة زفاف بديعة استمرّت بهما أسابيع، فلم يتركا البيت تقريبًا شأن حديثي الزواج، وبقيا يمارسان الحب من حلول الليل إلى طلوع الصباح، ثم من الصباح إلى العصر، وكانا لا يتركان فراشهما إلا لتناول الطعام والشراب والذهاب إلى الحمام وتنسم الهواء. وكانا لا يزالان في غمار شهر عسلهما الاستثنائي في أول أيام موسم المطر في

أكتوبر الدموي في هاليموندا، فلم يعرفا مطلقًا بما كان مقدًرا له أن يجري.

كانت ألامندا آخر من علم بنبأ اعتقال الرفيق كلايوون وخطط إعدامه عند الخامسة صباحا. ذلك نبأ حملته إليها الريح إذ عبرت شباكها وهي مستلقية في غرفتها تنتظر رجوع زوجها. لم تكن غادرت البيت تقريبًا منذ أن انشغل زوجها بشؤون أوائل أكتوبر المفاجئة والغريبة. ارتعدت ألامندا حينما تصوّرت أن الرجل الذي كانت لا تزال تحبه سرّا سوف يموت عند الفجر، ربما أمام فصيلة الإعدام، وربما متدليا من المشنقة، وربما غريقا، وربما فريسة تنهشها كلاب الأياك.

جلست على طرف سريرها ملفوفة ببطانية، وعيناها مثبّتتان على ساعة الحائط، مراقبة عقرب الدقائق يتحرك ببطء وثبات نحو اللحظة التي سينتهي فيها حبيبها بأمر من زوجها. ولعل شودانتشو نفسه هو الذي سوف ينفذ الإعدام. شعرت بأنها معزولة مهجورة وحيدة فانطلقت تبكي، راغبة على حين غرة في حضن رجل. كان الرجل الذي تزوجته قد هجرها إلى انشغاله بالاضطرابات الأخيرة، ولم يكن لها من حيلة تساعد بها الرجل الذي طالما آثرت أن يكون في فراشها.

لم تكن الوحيدة الرافضة لإعدام الرفيق كلايوون: بالنسبة لها ولغيرها لم يكن مهما أنه أحرق ثلاثا من سفن زوجها وزجّ بمراهقين في السجن بتهمة حب الروك آن رول ـ ذلك الرجل كان هاليموندا، وهاليموندا كانت ذلك الرجل. كان قد جعل للمدينة سمعة أخرى

وصورة إيجابية بدلًا من سمعتها كوكر للبغايا وقطاع الطرق وقدامى محاربي العصابات.

كان ذلك الرجل يتراءى لكل فتاة في هاليموندا، بمن فيهن ألامندا، كلما فكرت في هاليموندا، وها هو سيموت عند الفجر، فمضت الدعوات تتعالى في سماء المدينة، من أفواه من لا يملكون حولا ولا قوة وليس بأيديهم أن يحولوا دون عقابه. ألامندا هي الوحيدة التي كان بوسعها أن تمنع الإعدام، هي الوحيدة التي كانت تملك المفتاح.

قبل ربع ساعة من الخامسة ظهر شودانتشو أخيرًا في البيت ليستريح وهلة قبل تنفيذ الإعدام في ألدّ أعدائه، مقلّبا المسدس الذي سيطلقه على الشيوعي المجنون، مقتربا من فراشه في إنهاك، طارحا نفسه على السرير بجانب المسدس قبل أن يدرك أن ألامندا كانت هناك، جالسة في ركن الحشية، ترتعد.

سألته ألامندا في الظلام "قل لي يا شودانتشو، يفترض أن يموت في الخامسة صباحا، صح؟"

"صح".

تردَّد صوت ألامندا في ثبات "سأتلو التعويذة وأمنحك حبي، لو ضمنت لي أن يعيش الرجل".

نهض شودانتشو فجلس مواجها زوجته في الغرفة المعتمة لوهلة، في أغرب حالة يمكن أن تقع بين زوج وزوجة.

"أنا جادّة يا شودانتشو".

قال شودانتشو "وهي صفقة عادلة برغم أنها تملؤني بالغيرة".

ولم ينطق بكلمة أخرى. وقف وتناول مسدسه وخرج من الغرفة بخطى متحمسة. اتجه إلى المقر العسكري ووجد فصيلة الإعدام تجهز أسلحتها في فخر، ففي غضون نصف ساعة سيقتلون أثمن صيد ظفروا بها على مدار خدمتهم.

توجَّه شودانتشو إلى قائد الفصيلة ووجّه إليه أوامره. لم يعد مسموحا لأحد بقتل الرفيق كلايوون وليس مسموحا لأحد أن يسأل عن السبب. قال إن كل ما يقع ضمن السلطة القضائية للواءات القيادة المركزية يقع في نطاق مسؤوليته هو، وإذا تجاسر أحد على قتل الرجل فإنه لن يتردَّد في قتله بسلاحه الشخصي (وكان يلوّح بسلاحه) هو وأبنائه وزوجته وأصهاره، وأخوته الكبار، وأبناء أخوته وبناتهم، وأبناء عمومته، وأعمامه وعماته.

وكان أمره قاطعا فلم يجرؤ أحد على مجادلته، برغم أنهم جميعًا أجهدوا عقولهم محاولين تخمين ما جرى. ولكن شودانتشو اتّجه إلى البيت، ولما بلغ البوابة استدار ونظر إلى الجنود الذين لم يغمض لهم جفن طيلة الليلة في انتظار تنفيذ الإعدام، وقال:

"يمكنكم أن تعذبوه قليلا، لكنني أكرِّر، لا تقتلوه، ففي السابعة صباحا لا بد من إطلاق سراحه".

وسارع بالرجوع إلى البيت.

لدى وصوله، وجد زوجته عارية في سريرهما، تمامًا كما وجد مامان جيندنج زوجته مايا ديوي. بدا هواء الغرفة دافئا ومنعشا برغم أن موسم المطر كان قد جمّد كلّ شيء بالخارج. في نور المصباح الليلي رأى قوام الجسد الذي عرفه تمام المعرفة، رأى كل مرتفع، ومنخفض، وانحناءة. رأى المرأة التي كانت يومها في الحادية والعشرين مستوية وشهية.

ثم أدرك شودانتشو أن الغرفة زيّنت بزينة عرس. كل ما فيها كان لونه ذهبيًّا مثلما يروق لألامندا، من الملاءات إلى البطانية إلى الناموسية. وفي زهرية بركن المنضدة زهرات الأوركيد ومسك الروم تسر الأنوف. كان ذلك أشبه بعرض رائع لليلة زفاف تأخَّرت خمس سنين.

تصرف شودانتشو بحياء عريس جديد، فلم يسرع كما كان دأبه، بل خلع ثيابه ببطء. ثم كان من بعد ليلة الزفاف المتأخرة تلك شهر عسل دافئ ورومانتيكي نادر. مارسا الحب في تلك الليلة فكان لقاؤهما هائلا جامحا، انقلبا من السرير الذهبي إلى الأرض فلم يلاحظا ذلك، ومن الأرض إلى الحمام، قبل أن يكملا على الأريكة وأشعة الشمس تخترق النافذة لترتمي على جسميهما.

أغلقا أبواب البيت جميعًا، وأغلقا المطبخ على الخدم، ومارسا الحب ثانية في البهو الأمامي بينما يقرأ كل للآخر من رواية إباحية. ثم رجعا إلى الحمام، كل ذلك وسط دهشة الخدم في المطبخ وإنصات

الجيران لصرخات ألامندا وأنّات شودانتشو. قذف ثلاث مرات في ذلك المساء، لكنه لم يشبع إلا بعد إحدى عشرة مرة في اليوم التالي، كانا بحق خصمين جائعين منذ خمس سنين.

وشأن مامان جيندنج ومايا ديوي، لم يخرجا من بيتهما تقريبًا لأسابيع بعد ذلك. وما عادا يباليان بشيء مما يجري خارج بيتهما.

ثم حدث بعد شهور أن سمع شودانتشو أن زوجة مامان جيندنج حبلى. فأقيم حفل صغير وسكر البلطجية في الفناء الخلفي غير مبالين بصيحات مامان جيندنج إذ يأمرهم بألا يفقد أحدهم عقله تحت سطح بيته، بل إنهم بدؤوا يتساقطون في إعياء فكان مامان جيندنج يجرُّهم جرًّا إلى الشارع واحدًا بعد الآخر.

جلس مامان جيندنج في كرسي بالشرفة ينظر إلى أصدقائه أولئك، ومنهم الراقد على قارعة الطريق ومنهم الراجعون يترنحون إلى مقاعدهم في محطة الأتوبيسات، ولكنه بات ينظر إليهم بعيني رجل متأهب لأن يعيش حياة طبيعية كالتي يعيشها أيّ ربّ أسرة سبق أن رآه، وإن يكن رجلا عاش سنين مع أصدقائه في العراء.

كان لا يزال رجلا ممتلئا بالغموض ـ رجلا آثما في العالم الخارجي، صالحا في البيت ـ حينما ولد أول أطفاله. وبرًّا بقسمه أطلق على ابنته الوليدة اسم رينجانيس. وإن انتهى الحال بأغلب الناس إلى تسميتها رينجانيس الجميلة فقد كانت ذات جمال نادر.

إذ ذاك ظهر شودانتشو قائلا بإخلاص إنه بصدق فرح أشد الفرح أن رزق صديقه بفتاة جميلة لأمها وجدتها. وبالطبع كان لا بد أن يلمزه فهنَّأه على صلاحية عدّته للعمل بعد إرغامها على الراحة خمس سنوات طوالًا، مع استبعاد حفلات الحمام السخيفة. فإذا بمامان جيندنج يقابل هذا ـوهو الوقح قليل الحياء في العادةـ بخجل وخدَّين محمرين وسؤال لشودانتشو عن حاله هو الآخر.

فابتسم شودانتشو ابتسامة ارتياح عريضة قائلا "انظر إليَّ يا صديقي العزيز. طاب الحظ لي ولك وأثمر أخيرًا طول صبرنا. زوجتي أيضًا حامل وبطنها ممتلئ ومكوّر. لا يا صديقي، لا تنظر إلي هذه النظرة، لم أفعلها كما فعلتها في الحملين السابقين. صحيح أن تينك البنتين الجميلتين ضاعتا، لكنني أرجو الآن أن يتبدّد حزني أخيرًا. أعتقد أن زوجتي سوف تلد طفلا حقيقيا، وأقسم إن طفلنا لن يكون أقل جمالا من ابنتك الصغيرة. فقد فعلتها هذه المرة مثلما ينبغي، فلم أغتصب زوجتي، بل مارسنا الجنس مثل عروسين، بحياء في البداية لكن بدفء وولع وإخلاص وحب كامل".

وواصل قائلا "لا بد أنك مندهش إذ تسمع هذا. أنا أيضًا لم أكن أقلّ منك دهشة في إحدى الليالي، قبيل الفجر، حينما وجدت زوجتي عارية تعرض عليَّ نفسها قائلة إنها مستعدة لي، وإن لي أن أنهشها فلا تثير شجارا، وعلى مدار أسابيع بعد ذلك نعمنا بليال فائقة الجمال في شهر عسلنا. قصتي لا تختلف عن قصتك يا صديقي، فلعل الكون قدَّر لنا مصيرًا واحدًا".

ضحك الرجلان.

لم يذكر شودانتشو -إذ لم يجد داعيًا لأن يعرّف مامان جيندنج- أنه نال حبَ زوجته بإنقاذه حياة الرفيق كلايوون.

في بهجة طاغية، تبادل الاثنان الأنخاب في الفناء الخلفي قرب بحيرة السمك في بيت مامان جيندنج، وثرثرا في أشياء كثيرة، منها استراتيجية لعب الترامب، وتواعدا على اللقاء ثانية على منضدة اللعب بعد الغيابات الطويلة الناجمة عن شهري عسلهما المتطاولين.

بعد ستة شهور من ميلاد رينجانيس، عندما سمع أن ألامندا جاءها المخاض، أخذ مامان جيندنج زوجته وابنته إلى بيت شودانتشو، فوصلوا مع أولى صرخات الوليد، وفي تلك اللحظة بالذات صفّق مامان جيندنج على كف شودانتشو. كان الأب الجديد في غاية النشوة برؤية وليده، من لحم ودم حقيقيين، من عظم وجلد، كامل التكوين شأن أي وليد في الدنيا. كان الوليد طفلة، تبيَّن أنها لا تقل جمالا عن ابنة صديقه العزيز وعدوه اللدود.

قال مامان جيندنج "ألف مبروك يا شودانتشو، أرجو لابنتي الخالة هاتين أن تكونا صديقتين عزيزتين. هل سمَّيتها؟"

قال شودانتشو "تمامًا كأختيها اللتين اختفتا، سوف أسميها نور العين". لكن الناس آثروا لاحقا أن يستعملوا اسم التدليل، آي.

وهذه إذن حكاية أبوين كان على كلٍّ منهما أن ينتظر سنين ليفضَّ صرَّة فرحه، رجلين أحبا ابنتيهما أشدَّ الحب، فصارا بين الحين والآخر حينما تجمع بينهما منضدة الترامب مع بائع السردين والجزّار يصطحبان معهما ابنتيهما. وهكذا كبرت الصغيرتان معًا. كان الرجلان يسمحان لهما بخلط الأوراق في أثناء اللعب ويتقاذفان عملات القمار، فقويت بين الرجلين الصداقة بحضور الابنتين.

في تلك الأثناء، وبعد اثني عشر يومًا من ميلاد نور العين، ولد ابن خالة لهما، نعم صبي، هو ابن أديندا، وأبوه سمّاه كريسان. لكن تلك قصة أخرى، وأسرة أخرى، ومصير آخر بدأ في اليوم المقرّر لإعدام الرفيق كلايوون عند الفجر وإعادة ألامندا إياه للحياة باستسلامها لشودانتشو. في ذلك الوقت، لم يكن أحد يعلم أن ميلاد أبناء الخالة الثلاثة أولئك، أحفاد ديوي آيو، سوف يفضي إلى مأساة لن تطاولها مأساة على مدار سنين آتية.

في تلك الأثناء، في المقابر، مرّت الحياة على كامينو وفريدة ممتلئة بالفرح والهدوء. كامينو الذي فرح أخيرًا بعثوره على فتاة ترضى أن تكون زوجة لحفّار قبور لم يبال بقولها له مرارا وتكرارا إن السبب الوحيد لزواجها منه هو أن تعيش على مقربة من قبر أبيها.

قال كامينو "لا معنى للغيرة من رجل ميت".

بقيا يلعبان الجيلانجكونج مستحضرين روح معلمين الذي بدا سعيدا بزواج فريدة من حفّار القبور.

قال الرجل الميت "ليس أطيب قلبا من حفّاري القبور، إنهم خدم من لم يعودوا بحاجة إلى خدم".

وازداد زواجهما سعادة حينما حملت فريدة. قالت فريدة "لو جاء ولدا فقد وصل الجيل التالي من حفّاري القبور، أما إذا جاء بنتا فقد لا تجد هذه المدينة من يدفن موتاها".

وكذلك كانت حياتهما معًا، يقضيان الوقت في الحديث إلى أحدهما الآخر، وإلى أرواح الموتى، وفي الحديث أحيانا مع المعزّين المصاحبين للجثث، كما كانا يستمتعان في حالات نادرة بزيارة الجيران وراء مزارع الكاكاو وجوز الهند.

كان يمكن اعتبار حياتهما مرفهة، فقد كان لديهما بيت أعطته لهما المدينة، ولم ينقص المال أسرتهما قط إذ لم يكن ينقضي يوم تقريبًا بدون أن يأتي معزون يدسون في يد كامينو ورقة نقدية أو اثنتين. كان الناس يحجون إلى مقبرة كل ميت في اليوم السابع لموته، ثم يحجون إليها في اليوم الأربعين، ثم في اليوم المئة، ثم مرة أخرى في اليوم الألف. ويحجون في مطلع شهر رمضان، وقد يحج بعض الناس بعد العيد أيضًا. ولما كان في المقابر موتى كثيرون، لم يكن غريبا أن يحج شخص ما كل يوم، فكان كامينو وفريدة ينعمان بما يمثله أولئك الزوار من تسلية.

وما كانا يترعجان انزعاجا طفيفا إلا من الأشباح. لم تكن أشباحا شريرة، لكنها كانت مشاكسة. وكانت غالبًا ما تشاكس من يمرّون بالمقابر فيصدرون أصواتا مرعبة أو يظهرون كباعة بطاطا مقطوعي الرؤوس. فكان الجميع يجتنبون المقابر بالليل، لكن كامينو وفريدة اعتادا على الأشباح، وكانا يطاردانها مثلما يطارد الناس الدجاج إذا تسلل إلى المطبخ. بل لقد كانا بين الحين والآخر يبادلان الأشباح مشاكسة بمشاكسة.

وفي منتصف النهار إذا لم يكن لديها ما تفعله، كانت فريدة كثيرًا ما تجلس بمفردها بجوار قبر أبيها، وقد وضعت هناك كرسيا، ولكن بمجرد أن كبر الطفل في أحشائها، وبات يشقّ عليها طول الجلوس، أتت بحصيرة وكانت تفردها في ظل شجرة الفرانجيباني، ولكن هواء البحر كان يهيل عليها الرمل. فأعد لها كامينو أرجوحة شبكية ربطها في شجرة الفرانجيباني فصار لزوجته أن تستلقي فيها يهدهدها الهواء، مغمضة، تاركة جسدها يتمايل في هدوء.

لكن ذلك أفضى في يوم من الأيام إلى كارثة. ففي الشهر السادس من حملها، غلبها النوم في الأرجوحة وانتابها كابوس رهيب، فاستيقظت فزعة وقفزت وهي تجفل من الأرجوحة واقعة على الأرض. ونزفت، وقبل أن يصل إليها كامينو الذي انتبه لصوت الارتطام، كانت قد ماتت.

كم حزن الرجل لفقده زوجته وطفله الذي لم يولد. بات عليه أن يعود إلى وحشته الأولى التي عاشها سنين طوالا، لولا أن وحشته الآن ستكون أشد حزنا، بعدما عرف مذاق السعادة.

تولى بنفسه دفن زوجته، ولم يخبر بوفاتها إلا جارا أو اثنين، وقد شقّ على نفسه أن يخبر غيرهما. غسل جسم زوجته بمحبة، غارقا في الحزن، ملقيا على نفسه اللوم فهو الذي أقام لها الأرجوحة. وصلّى عليها بنفسه، ولما كان في بيته مخزون من الأكفان فقد كفّن جثمان زوجته بنفسه، وبدأ عند العصر حفر مقبرة زوجته ملاصقة لمقبرة معلمين، فقد كان يعلم أن ذلك بالضبط ما قد ترغب فيه فريدة. ولما حلّ الليل كان الحفر قد انتهى، فحمل جثمان زوجته والدمع يبلل وجهه ووضعها في مستراحها الصغير في قاع الحفرة. وغطّاها بألواح خشب صغيرة، ثم أخذ يهيل التراب وقد تحوّل نشيجه إلى تشنّجات عنيفة.

لم ينم في ليلته تلك، ومثلما فعلت فريدة في حزنها على وفاة أبيها، جلس كامينو بجانب مقبرة زوجته بدون أن تتحرك منه عضلة. وأخيرًا سمع أنّات رهيفة. كانت صرخات طفل، لا، إنه وليد. نظر هنا وهناك فلم ير أحدًا. ظن أنه قد يكون شبحًا في مقبرة ما يشاكسه، لكن الصرخات أخذت ترتفع وتتضح حتى أدرك أنها صادرة عن مقبرة زوجته.

مضى في جنون يحفر مدفن زوجته، نزع الألواح الخشبية الواقية، كانت الجثة لم تزل مستلقية متيبسة في كفنها، لكن على مقربة من الفرج كان شيء ما يتحرك. فضّ كامينو الكفن بسرعة، فرأى وليدا خرج نصفه، محصورا بين فخذي الجثة. جذب الوليد الذي كان حيًّا إلى حدّ ما ويبكي زاعقا، وعضّ الحبل السُرّي فقطعه.

كان ابنه. ولد في مقبرة، قبل أوانه، لكنه بدا صحيح الجسد إلى حد كبير. فرَّج ذلك الصغير على كامينو في حزنه، كأنه تذكار غرامي مبعوث إليه من حبيبته. حمل الولد بين يديه، مفتونًا به، وأطلق عليه اسم كينكين.

في صباح اليوم الذي كان ينبغي أن يشهد موته، عثرت أديندا على الرفيق كلايوون مضروبًا مليئًا بالكدمات في حقل وراء المقرّ العسكري، وكانت أديندا قد ذهبت إلى هناك لترى إن كانوا أعدموه. ومثلما أرادت أديندا، كان يرتدي الثياب النظيفة اللائقة التي بعثتها إليه (وإن كانت رأتها عليه مبقعة بالدم)، ففي الرابعة والنصف من صباح ذلك اليوم كان قد اغتسل، ثم وقف أمام مرآة راجيا أن يسرَّ ملاك الموت بمنظره حين يأتي إليه.

سأله جندي قبل لحظة من موعد إعدامه "خائف يا رفيق؟"

فقال الرفيق كلايوون "الجنود فقط هم الذين يمتلئون بالخوف، وإذا كانوا لا يخافون ما كانوا ليحتاجوا إلى الأسلحة".

دقّت الساعة الخامسة فجاءت إليه جماعة من الجنود لتقتاده، وكانوا في أشد حالَات الاستياء وقد ألغيت مهمة إعدامه بأوامر من شودانتشو. وازدادوا غضبا على غضب حينما رأوا الرجل هادئا في مواجهة الموت.

قال الرفيق كلايوون "بوسعي أن أذهب إلى مقبرتي بنفسي".

فقالوا وهم يشدّونه على الأرض وساقاه تتبعانه "بعد إذنك اسمح لنا نحن أن نتجشّم عناء أخذك إلى هناك" وأخذ الجنود يركلونه وهم يشدونه عبر الطرقة بدون أن يمهلوه فرصة لنطق كلمة اعتراض، ثم رموا به وسط حقل صغير كان يفترض أن يشهد إعدامه في بقعة ضوء على العشب أعمت عيني الرفيق كلايوون وهو يحاول أن ينهض. كان جسمه يتألم من كثرة ما ضرب طول الطريق. وحتى في مواجهة الموت كان يرجو ألا تكون عظمة من عظامه قد انكسرت.

وقف وهو يشعر بالدم يسيل في ظهره في أثناء سيره، وترنح قليلا في سيره إلى الجدار الذي كان ينبغي أن يقف لديه ليتلقى الرصاص. ولكن الجنود واصلوا تسديد ضرباتهم المستعرة الخبيرة إليه، واستمروا يركلونه بأحذيتهم الثقيلة، وينهالون عليه بكعوب بنادقهم.

قال الرفيق كلايوون "بهذه الطريقة لن تقتلوني أبدا".

وبعد ركلة أخرى فقد الوعي. وتوقف العذاب كله حينذاك. دفعه الجنود بأطراف أحذيتهم. لم يجرؤ أحد على ضربه وهو فاقد الوعي خشية أن يموت. كان شودانتشو قد سمح لهم بتعذيبه، على ألا يقتلوه، فسحبوه فاقدا الوعي إلى ساحة خارج المقر. فإن كان مات هناك بنهش الكلاب فما كانت تلك المسؤولية لتلقى على عاتقهم.

أفاق الرفيق كلايوون فوجد نفسه في سرير بمستشفى، وجسمه المتيبس ملفوف بالضمادات في كل موضع. وبجواره كانت أديندا جالسة

تنتظر، وعلى وجهها الجميل ابتسامة حب، وفرحة طاغية برؤيته حيا يسترد وعيه.

قال الطبيب الواقف بجواره "هذه الشابة سحبتك عبر الشارع الرئيسي قبل أن تأتي بك إلى هنا في بيكاك. ظللت فاقدا الوعي يومين وليلتين وطوال ذلك الوقت وهي منتظرة هنا".

غمغم الرفيق كلايوون بكلمات شكر غير مسموعة، فحتى فمه كان ملفوفا بالضمادات، لكن أديندا كانت ترى من نظرة عينيه ما كان يقوله، فأومأت قائلة إنها ترجو له سرعة الشفاء.

هذا هو الرجل الذي قاد كثيرًا من الإضرابات، وقاد أكثر من ألف شيوعي في هاليموندا، وخسر كل شيء: أصدقاءه، ومدينته التي انتقلت إلى عالم جديد، عالم لا مكان فيه للشيوعيين.

بقي معزولا في المستشفى لمدة أسبوع، وأديندا بجواره ومينا تأتي لتطمئن عليه كلَّ صباح. وفي بعض الأحيان وهو يتهادى ما بين أمواج الصحو والإفاقة، كان ينادي أصدقاءه بأسمائهم واضحة، لكن أغلبهم بالطبع كانوا قد ماتوا، ولعلهم ذهبوا جميعًا إلى الجحيم. وفي أوقات أخرى كان يسأل عن جرائده، ولم يزل مقتنعًا بأن كل تلك الفوضى ما بدأت إلا لأن الجرائد لم تصل. وكلما كان ذلك الاضطراب يشتد، كانت أديندا تضع كمّادات باردة على جبهته المستعرة بالحمى، فيرجع بعدها إلى النوم.

سأل الطبيب أديندا "هل أوصي بنقله إلى مستشفى عقلي؟"

قالت أديندا "لن تستدعي الضرورة ذلك، هو عاقل تمامًا، المجنون فعلًا هو العالم الذي يواجهه".

بعد خروجه من المستشفى، معافى الجسم على الأقل، ذهب الرفيق كلايوون إلى بيت مينا. صار عازفا عن الناس، يتولى عمل أمه في حياكة الثياب ويتفادى الاحتكاك بالناس. فقد الاتصال بواقع مدينته، ولم تعد عيناه الغائرتان شاخصتين إلا إلى حركة الإبرة. وحتى حينما كان ينعدم الزبائن، كان ينهمك في حياكة أي شيء، من المناديل إلى أكياس المخدات، وحين يعزّ عليه العثور على قطعة كبيرة من القماش كان يتناول القصاقيص ويحيلها إلى مرقّعات.

ورغبةً عن الحديث مع أي شخص، صار لا يغادر البيت، فبدأ الناس يعتبرونه غير موجود فيتجاهلونه بل قد يدمدم أحدهم قائلا "كان خيرا لو كان أعدم فعلًا".

قالت له أديندا "أنت هكذا كأنك أعدمت بحق"، وحاولت مرّات أن تردّه إلى الحياة. "ربما ينبغي إدخالك مستشفى للأمراض العقلية". فلم يكن يرد، حتى كفّت الفتاة عن الرجاء في استعادته مرة أخرى.

لكنه خرج من البيت ذات صباح مهندم الثياب، مفاجئا أمه بسيره في الطرقة متجها إلى الشارع. ولما سمع الناس أن الرفيق كلايوون ظهر مرة أخرى بوجهه في المدينة فاضوا بسرعة على الشوارع كالطوفان. رأوه يجتاز شوارع جالان براموكا وجالان رينجانيس وجالان كيدانج وجالان بيلندا وجالان ميديكا وشوارع أخرى كثيرة، مثلما سبق أن رأوه منقادا

إلى السجن محاطا بالجنود. ومثل سيره في تلك المرة كان في هذه أيضًا يسير في لامبالاة استثنائية. فكر في ذلك العدد المتزايد من الناظرين المزدحمين حوله كأنهم مهرجان يعبر به.

قال أحدهم "هل لي أن أسألك إلى أين أنت ذاهب؟"

"إلى نهاية الطريق".

تلك كانت أول جملة نطقها منذ أن غادر المستشفى، فكانت بالنسبة لمن سمعوها حدثا لا يقل إثارة عن نطق قرد. فكّر كثير منهم أنه متجه إلى مقر الحزب القديم الذي صار ركاما وحطاما ليعلن عودة الحزب الشيوعي. وخمّن آخرون أنه سوف ينتحر بإلقاء نفسه في البحر، ولكن لا هؤلاء ولا أولئك كانوا متيقنين فتبعوه كأنهم سيرك متنقل حقيقي.

وذهل الناس حينما رأوه يعبر ميدان المدينة، ويقطف فجأة وردة وينهل من عبقها في هدوء، فأغشي عمليا على البنات. كان يبدو بعد حبسه نفسه شهرا في المنزل أكثر امتلاء مما كان عليه وهو يقود الحزب الشيوعي، فلما رأينه يشم الوردة، رأين في عينيه وميضا أعاد نساء كثيرات إلى الذي مضى. وبدأت كل امرأة ترجو أن يتجه إلى بيتها بروح التصالح أو الحنين أو أي شيء مهما يكن اسمه، فيجدّد حبا قديمًا كان يانعا في ماضي الزمان، أو لم تسنح له الفرصة ليينع.

سألته فتاة بشفتين ترتعشان "هل لي أن أسألك لمن هذه الوردة يا رفيق؟"

"لكلب".

ورمى الوردة لكلب ضال تصادف مروره. انكسر قلب الكثيرات حينما تبيَّن أنه ذاهب لرؤية أديندا، التي كانت إذ ذاك في العشرين وارثة جمال أمها ديوي آيو، التي اندهشت من ظهور الرفيق كلايوون، فدعته للدخول، بينما توافد مئات الفضوليين إلى فنائها الأمامي مزاحمين برؤوسهم بعضهم بعضا على الشبابيك ليسترقوا السمع ويعرفوا ما الذي يجري بالداخل. حتى شودانتشو وألامندا اللذان كانا لم يريا ديوي آيو منذ خمس سنين، جاءا وزاحمًا الآخرين، وقد نسيا لوهلة شهر عسلهما الملتهب. لم يدر الناس إن كان جاء لأديندا أم لديوي آيو، إذ بدا أنه لا يزال الرجل الذي طالما اشتهر بكونه إياه، فانتظر الجميع الدراما التي سوف يكون بطلها حالًا. لقد سبق أن لعب دور أحب الرجال إلى المدينة، كما لعب دور الأكثر تعرضا للاحتقار.

قال الرفيق كلايوون "مساء الخير يا سيدتي".

قالت ديوي آيو "مساء الخير. كنت أتساءل لماذا لم يعدموك".

"لأنهم عرفوا أن لي في الموت راحة وسعادة".

ضحكت ديوي آيو من سخريته.

"هل تحب أن تعدّ لك ابنتي فنجان قهوة يا رفيق؟ سمعت أنكما تقاربتما في السنين الأخيرة".

"أيّ من بناتك يا سيدتي؟"

"المتبقية، أديندا".

"نعم، شكرا لك يا سيدتي. لقد جئت أطلب يدها".

علت من المحتشدين جلبة كالرعد، وقد صدمهم العرض، وبالطبع ازدادت قلوب الفتيات ساعتها انكسارا. حتى ألامندا فاضت دموعها مما سمعته، وتأثرت كما لو كانت هي المطلوبة يدها، وغارت أيضًا من حصول أختها الصغيرة على تلك النعمة. أما أديندا التي كانت تسترق السمع من وراء الجدار، فاندهشت من طلب الرفيق كلايوون أكثر من كل من سمعوه. كانت تحمل فنجاني قهوة على صينية، فأوقفها ما سمعته وراء الجدار، ومن حسن حظها أن الفنجانين لم يقعا ويتهشما على الأرض.

بقيت في مكانها حيرانة من الدهشة والفرح. أما ديوي آيو التي درّبتها حياتها على التحكم في مشاعرها، فابتسمت في هدوء عذب.

"طيب، لا بد أن أسأل ابنتي عن رأيها".

وتركته ديوي آيو وخرجت. خجلت أديندا أن تكشف عن وجهها، خاصة وأن حشدا من الناس كان يحيط بالبيت. لكنها أومأت لأمها، ممتلئة باليقين. رجعت ديوي آيو إلى الرفيق كلايوون وجلست قبالته، حاملة الصينية.

قالت للرفيق كلايوون إنها "أومأت" وأتبعت ما قالته بضحكة "وهكذا ستكون صهرا لي، الصهر الوحيد الذي لم ينم معي".

قال في شيء من الحياء "الحقيقة، لقد أردت ذلك في لحظة ما يا سيدتي".

"خمّنت هذا".

وأخيرًا تزوج الرفيق كلايوون بأديندا في نهاية شهر نوفمبر من تلك السنة في حفل زفاف كبير تكفّلت بجميع نفقاته ديوي آيو. ذُبحت فيه بقرتان سمينتان، وأربعة تيوس، ومئات الدجاجات، وكان هناك ما لا يعلم أحد قدره من الرز والبطاطس والبازلاء والمكرونة والبيض. كان الرفيق كلايوون في أول الأمر قد طلب أبسط زفاف ممكن لأنه لم يكن يمتلك المال الكافي، بل مجرد مدخرات بسيطة دسَّها منذ أيام عمله في الصيد. لكن ديوي آيو أرادت الزفاف كبيرًا لأن أديندا كانت آخر بناتها.

وقدم الرفيق كلايوون لأديندا خاتمًا كان قد اشتراه في أيام إقامته في جاكرتا، ودفع ثمنه من مدخراته أيام عمله كمصوراتي متجول، وبكل أمانة كان قد اشتراه لألامندا. كانت أديندا تعرف خلفية الخاتم، ولكنها لم تكن تغار من أختها مثلما كانت ألامندا تتهمها. بل لقد كانت تعرض الخاتم في افتخار. قضى الاثنان شهر العسل في فندق على الخليج حجزت لهما فيه ديوي آيو.

بل لقد اشترت ديوي آيو للزوجين منزلا في المجمع الذي كان يقيم فيه شودانتشو، ويقع على بعد منزل واحد من منزله. وفي الوقت نفسه اشترى الرفيق كلايوون قطعة أرض وبدأ يحرثها بنفسه. أقام بركة عند طرف الحقل، ونشر فيها فراخ الضفادع، وصار يلقي لها القشّ والمنيهوت وورق البابايا كل صباح. وفي الحقل صار يزرع الرز شأن غيره من المزارعين. وكان على أديندا أن تتعلم الكثير من حياة زوجة

المزارع فلم تكن من قبل قد لمست وحل حقوق الرز، ولكنها بالطبع كانت راضية تمام الرضا.

كان الرفيق كلايوون يخرج من البيت مبكرا للغاية منطلقا إلى حقله شأن أي مزارع، فيعتني بصرف المياه، ونزع الحشائش، وإطعام السمك، وزرع الجوز والبازلاء. وكانت أديندا تتولى شؤون البيت، وبعد الانتهاء منها جميعًا بحلول الضحى كانت تتبعه إلى الحقل حاملة إفطارهما في سلة، فيفطران معًا في كوخ أقامه الرفيق كلايوون على طرف حقل الرز، وحين يرجعان إلى البيت تكون السلة مليئة بالبطاطا وورق المنيهوت النابت.

في يناير مضت أديندا إلى المستشفى لتتأكد أنها حامل بالفعل. وفرح بذلك كل من كانوا يعرفونهما، ولكن ألامندا كانت أول من هنأهما. كانت هي نفسها حبلى في ذلك الوقت، ولم تكن نور العين قد ولدت بعد. جاءت بينما يسترخي الزوجان في شرفتهما، ناظرين إلى الزهور اليانعة التي زرعتها أديندا. اندهش الاثنان قليلا من مجيئها، فألامندا لم تزرهما قط برغم كونهم جيرانا، ولا هما زاراها.

شعر الرفيق كلايوون بشيء من الحرج، ولكن أديندا سارعت تعانق أختها الكبرى، وقبّلت كل منهما وجنتي الأخرى.

سألت ألامندا "ماذا قال الطبيب؟"

"قال لو ولدت فتاة أرجو ألا تكون عاهرة كجدتها، ولو ولد صبيا أرجو ألا يكون شيوعيا كأبيه".

ضحكت ألامندا.

سألت أديندا "وأنت ماذا قال الطبيب عن بطنك؟"

"تعرفين أن بطني استغفلنا مرتين، لذلك لست متأكدة".

"ألامندا" قال الرفيق كلايوون بغتة جاعلا كلتا المرأتين تنظران في الجاهه. رأتا أنه يحملق في بطن ألامندا، فامتقع وجهها، وقد تذكرت أن الرفيق كلايوون سبق وقال إن بطنها مليء بالهواء والريح، مثل إناء فارغ. قال "أقسم إن هذا ليس إناء فارغا كالسابق".

نظرت إليه ألامندا راغبة أن يكرّر كلماته، فأومأ الرفيق كلايوون مطمئنا إياها. "هي بنت جميلة صغيرة، ربما أجمل من أمها، وكاملة، سوداء الشعر، نافذة العينين مثل أبيها. وسوف تولد قبل طفلنا باثني عشر يومًا. ويمكنك أن تسميها نور العين مثل أختيها السابقتين، ولكن صدقيني حين أقول لك إنها سوف تكبر لتكون شابة".

قال شودانتشو في مساء ذلك اليوم "والله يا رب لو تحقّق ما قال الرفيق كلايوون لأسمينها نور العين" وفهم هو وألامندا أن طفلتيهما السابقتين ضاعتا لا بسبب لعنة، بل لأنهما لم تكونا ابنتي حب. ولكنها برّت بوعدها حينما تضرّعت من أجل إنقاذ حياة الرفيق كلايوون ومنحت زوجها شودانتشو حبًا مخلصًا حقيقيًا وبدا أن ذلك الحب في طريقه إلى أن يمنحهما ما أراداه دائمًا.

في الوقت نفسه أدرك الرفيق كلايوون أن مسؤولياته تتزايد بوصول ذلك الجنين فبدأ يفكر في عمل غير العمل في الحقل وزرع الرز. كان قد

جمع في فترة قيادته للحزب الشيوعي كتبا للأطفال في مدرسة الأحد ليقرؤوها بجانب أدب الحزب، وأحرق رجال شودانتشو وأعداء الشيوعية أغلب تلك الكتب مع المقر، لكن شودانتشو كان قد أنقذ بعض كتب الفنون القتالية والروايات وقصص الإثارة الخالية جميعًا من الأيديولوجيا الشيوعية وأخذها إلى المقر العسكري لاطلاعه هو وجنوده. وفي يوم غير بعيد من زيارة ألامندا، أعاد شودانتشو صندوقين ورقيين مليئين بتلك الكتب. وبدأ الرفيق كلايوون أول أنشطته الصغيرة بافتتاح مكتبة صغيرة أمام منزله. وكان أغلب زبائنه من تلاميذ المدارس، ولكن تلك المكتبة وفرت لأديندا عملا وسعد بها كلاهما.

وأخيرًا ولدت نور العين. فرح شودانتشو وقال مامان جيندنج "ألف مبروك يا شودانتشو، أرجو لابنتي الخالة أن تكونا صديقتين مقربتين".

وكانت فكرة أصيلة ومخلصة أن تنشأ البنتان على صداقة تخفّف العداوة المكتومة التي بدأت بين أبويهما قبل زمن بعيد. وافق شودانتشو وقال إنهما يجب أن يلحقا الفتاتين رينجانيس الجميلة ونور العين بالحضانة نفسها حينما يحين الوقت.

وإذ ذاك، وبأثر من تلك الفكرة، حينما أنجبت أديندا ابنها بعد اثني عشر يومًا من ميلاد نور العين مصداقا لنبوءة الرفيق كلايوون، كرر شودانتشو بكلماته ما سبق وقاله مامان جيندنج: "ألف مبروك يا رفيق.

أرجو خلافا لي ولك، أن يكون ابنك وابنتي صديقين مقربين، بل وحبيبين".

سمَّاه أبوه كريسان. وربما كانت نور العين مقدورة له حقا، ولكن للحياة دائمًا قولها المختلف: لقد حالت بينهما رينجانيس الجميلة.

١٤

في عام ١٩٧٦ امتلأت هاليموندا بالأحقاد، ورغبات الانتقام المضطرمة لدى أشباح حبيسة في يمبوس، تطلب الراحة فتمتنع عليها. كان بوسع جميع أهل المدينة أن يستشعروا ذلك، مثلما استشعره السائحان الهولنديان اللذان كانا قد نزلا للتو من قطارهما. تبيَّن أنهما زوج وزوجة في السبعينيات من العمر. وحتى في تلك السن كان الرجل لا يزال قادرا أن يحمل على ظهره حقيبة ثقيلة مليئة بالأغراض، بينما حملت زوجته حقيبة صغيرة ومظلة. بمجرد أن نزل الاثنان من القطار صدمهما الهواء الرطب، اللافح بالعطن، الممتلئ بالظلال المرتعشة بوهج محمر.

قالت الزوجة وهي تهزُّ رأسها "هذا كدخول بيت مسكون بالأشباح".

قال الزوج "لا، بل كأنما شهدت المدينة مجزرة".

حكى لهما سائق عربة ريكاشة الذي أقلهما إلى الفندق عن الأشباح. قال إنها شديدة القوة، وشديدة الوهن أيضًا فلا تقلب هذه

البيكاك في عرض الشارع. سأل الزوج "أكثيرًا ما تحدث أشياء من هذا النوع؟" فقال السائق "نادرًا للغاية، لدرجة أنها لا تحدث". وحكى لهما عن سيارة اصطدمت في حاجز بين اتجاهي الشارع فطارت حتى سقطت في المحيط، ومات كل من فيها وصدق كل أهل المدينة أن ذلك من عمل الأشباح التي تستعصي عليها الراحة. وحكى لهما أيضًا عن حريق هائل شبّ في السوق قبل سنتين وكان الجميع على يقين من أن الأشباح هي التي أضرمته.

سألت الزوجة "كم شبحا هنا؟"

"كما تعلمين يا سيدتي، لم يتوافر من الحمق لأحد ما يجعله يحاول إحصاءها".

ثم عرفا أنه قبل عدد من السنين مات في تلك المدينة أكثر من ألف شيوعي في مذبحة رهيبة. وبرغم أن الناس كانوا يكرهون أولئك الشيوعيين فهم يقولون إن مدينتهم لم تشهد مذبحة رهيبة كتلك ويرجى ألا تشهد مثلها أبدًا. نعم، مات أكثر من ألف شخص. ودفن أغلبهم بلا طقوس في مقبرة جماعية بالمقابر العامة لبوذية الدراما، وترك غيرهم يتعفنون على قارعة الطريق، إلى أن دفنهم في النهاية من لم يعودوا قادرين على احتمالهم، فلم يكن ذلك الدفن المتأخر إلا كدفن غائط بعد التغوط في بستان موز.

حصل ذانك السائحان الهولنديان على فندق ممتاز مطل على الخليج. همست الزوجة لزوجها "نمنا معًا هنا من قبل واكتشف بابا

أمرنا، وتلك آخر مرة رأيناه فيها". أومأ زوجها. سارا إلى مكتب الاستقبال فوجه التحية إليهما شاب في زي فندقي أبيض وبابيون تام الانضباط لدرجة أن بدا الشاب متخشبا ومتصنعا. ابتسم لهما ودفع إليهما دفتر النزلاء. كتب الرجل اسميهما فيه، بخط ملتو أنيق وعتيق أيضًا: هنري وآنيو ستاملر.

قضيا ذلك النهار كله يستريحان في غرفتهما التي لاحظت آنيو ستاملر أنها تغيَّرت كثيرًا منذ العصر الاستعماري: "بل إنني أراهن أن المالك الحالي هو من أبناء البلد". كانا يخطّطان لرحلة صغيرة في اليوم التالي ولكن لم يبد أنهما في عجلة من أمرهما على الإطلاق، وكأنهما خطّطا للإقامة في المدينة لفترة غير قليلة، لعلها شهور، أو ربما سنوات. وكان كثير من السائحين الهولنديين يفعلون مثل ذلك، فيستعيدون كلّ حنين إلى الماضي حين كانوا يعيشون هنا، قبل أن تطردهم الحرب.

جاءهما خادم جالبا خدمة الغرفة وحاملا رسالة أيضًا: "سيدي وسيدتي، يرجى أن تحذرا في أثناء إقامتكما هنا من أشباح الشيوعيين".

قال هنري ستاملر ضاحكا "سبق أن حذرنا كارل ماركس من ذلك في الفقرة الأولى من المانيفستو"، ثم تناولا العشاء الذي أعاد إليهما المذاق الاستوائي بعدما نسياه.

لكن قبل الأكل، وقبل أن ينصرف الخادم، سأل هنري:

"هل تعرف امرأة تدعى ديوي آيو؟ لعلها في الثانية والخمسين من العمر".

قال الولد "طبعا، ما من شخص واحد في هاليموندا لا يعرفها".

وثب هنري وزوجته من فرحة مكتومة. لقد قطعا نصف العالم تقريبًا ليصلا إلى هذه المدينة لا يريدان من ذلك إلا أن يريا ابنتهما التي تركاها قديمًا على عتبة بيت جدها. حدّق كلاهما في الولد مشدوهين كأنما كانا لا يصدقان أن يعثرا عليها بتلك السهولة.

"أهي نصف بيضاء؟"

"نعم، وليس في هذه المدينة غير ديوي آيو واحدة".

سألت آنيو ستاملر بعينين تفيضان بالدمع "إذن هي حية؟"

قال الولد "لا يا سيدتي، بل ماتت قبل زمن غير بعيد".

"لماذا ماتت؟"

"لأن هذا ما أرادته" واستعد الولد للخروج، لكنه قال قبل أن يختفي في الطرقة "ولكن هناك عاهرات كثيرًات، لو أنكما تبحثان عن عاهرة".

هكذا عرفا أن ديوي آيو عاشت عاهرة. قال الولد إن ديوي آيو كانت أسطورة في المدينة، كانت أحب العاهرات في المدينة وأحظاهن بالثناء، وإن لم يرض هذا هنري أو آنيو ستاملر كثيرًا. "كل الرجال كانوا يرغبون في النوم معها، حتى إن اثنين من أزواج بناتها ناما معها. كانت عاهرة لا تبارى".

سألت آنيو ستاملر "لديها إذن ثلاث بنات؟"

"بل أربع. الرابعة ولدت قبل اثني عشر يومًا من وفاة ديوي آيو".

وأخبرهما الولد بالعنوان الذي يجدان فيه صغرى حفيداتهما التي تعيش مع خادمة خرساء تعتني بها وتدعى روسينا، وأخبرهما أن ديوي آيو سمَّتها جمال.

وقال الولد محذرا "لكنها قبيحة كالمسخ".

ورأيا ذلك بعينيهما حينما زارا البيت في اليوم التالي، إذ أوشك أن يغشى على كليهما، وهما لا يصدقان أن تكون لهما حفيدة كتلك، "أشبه بالكعكة المحروقة" كما قالت آنيو ستاملر وهي تغوص في كرسي.

وضعت روسينا الطفلة في مهد قماشي كان معلقا في الطرقة، وقدمت للضيفين كأس ليمونادة باردة. وقالت بلغة الإشارة إن "ديوي آيو كانت قد ضجرت من إنجاب البنات الجميلَات، فتمنَّت طفلة قبيحة، وتلك كانت النتيجة".

لم يفهمها هنري وآنيو ستاملر على الإطلاق، ولم يكن شيء يعكّر مزاج روسينا أكثر من اضطرارها إلى التواصل مع من لا يفهمون لغة الإشارة. لكنها كانت امرأة طيبة، فمضت وأحضرت دفترا، وكتبت لهما ما قالته للتو.

سأل هنري "فماذا عن أخواتها الأخريات؟"

كتبت روسينا مكرِّرة ما سبق أن قالته ديوي آيو "لم تضع إحداهن قدمًا في هذا البيت منذ عرفن قضبان الرجال".

تجوّل الزوجان قليلا في البيت، ناظرين إلى الصور المعلقة على الجدران. كان بينها صور لتيد وماريتجي ستاملر جعلتهما ينفجران باكيين فهزت روسينا رأسها مرة أخرى من هذين العجوزين العاطفيين. ومن بكاء إلى ضحك وهما ينظران إلى صورة لهما في مراهقتهما في الغرفة الأمامية. قالت روسينا بلغة الإشارة للصبية في مهدها "أراهن أنهما خارجان للتو من مستشفى للأمراض العقلية". وافتتن هنري وآنيو ستاملر حينما رأيا صور ديوي آيو. كانت بينها صورة لها وهي لا تزال صغيرة، وأخرى وهي في العاشرة. ولم تكن لها صورة وهي في العشرينيات بسبب الحرب، ولكن صورها كثرت بمجرد أن كبرت، وصورة لها حينما شارفت على الخمسين. أذهلهما أن ابنتهما بقيت بغض النظر عن السن ذات جمال آسر. فلا عجب أنها كانت عاهرة، ومعبودة كثير من الرجال.

وكان بين الصور كثير لشابات جميلات أيضًا. أوضحت روسينا لاعبةً دور المرشدة السياحية أن "ذات الوجه الأبيض والعينين الضيقتين كاليابانيين اسمها ألامندا. تزوجت بشودانتشو، جندي، وأنجبت بنتا اسمها نور العين". وكتبت روسينا في الدفتر أن "الفتاة التي تشبه ديوي آيو هي أديندا، ابنتها الثانية، وهي متزوجة بشيوعي قديم يدعى الرفيق كلايوون ولها ابن اسمه كريسان. والبنت الثالثة التي تبدو هندية أكثر مما تبدو من بنات البلد، وهي الأجمل على الإطلاق، فهي مايا ديوي. تزوجت وهي في الثانية عشرة من أشنع مجرم في المدينة، مامان جيندنج، والآن بعد خمس سنين من العذرية في زواجها، أنجبت أخيرًا ابنة اسمها

رينجانيس الجميلة" لم تكن روسينا قد التقت بأيٍّ من الأحفاد الثلاثة، لكن ديوي آيو حكت لها كل هذا.

وبغتة لطمتهم قوة خفية، كأنما امتُص الهواء بغتة من الغرفة، أو تخثر على أجسامهم، فانتصب شعر ظهورهم.

قال هنري "يا إلهي، أي قوة شيطانية هي هذه؟"

"لا أعرف، لكن هذا البيت مسكون. ليس شبحا شريرا، لكنه حانق بلا شك".

سألت آنيو ستاملر وهي تختبئ في زوجها "أهو شبح شيوعي؟"

"الأشباح الشيوعية بالخارج، ليست في هذا البيت".

بدأت الصور تتمايل على الجدران كما لو كان الهواء يحركها. وانفتح الدفتر بين يدي روسينا وانغلق. تمايلت الصغيرة جمال في مهدها برقة. ثم سمع صوت انكسار طبق في المطبخ ووقوع طاسة على الأرضية.

سألت آنيو "أهو شبح ديوي آيو؟"

كتبت روسينا "لا أعرف. ديوي آيو قالت مرة إن شبح ما جيديك ظلّ يتبعها أينما ذهبت، وإنها كانت تخافه، ولكنه حتى الآن لم يؤذنا في شيء".

سأل هنري "ومن يكون ما جيديك؟"

"ديوي آيو قالت إنه زوجها السابق".

لم تكد تنتهي تلك الإزعاجات غير الطبيعية وتعود الصور ثابتة معتدلة من جديد على مساميرها على الجدران حتى قال هنري ستاملر "هذه المدينة فيها أشباح أكثر مما ينبغي". ثم تجرّع كأس الليمونادة محاولا أن يهدئ من روع نفسه "لا أرى صورة رجل قد يكون ما جيديك".

قالت روسينا "ولا أنا رأيته".

قبل أن تولد جمال، كانت كلتاهما، روسينا وديوي آيو، كثيرًا ما تجلسان على أريكة صغيرة قرب موقد المطبخ تتبادلان الحكايات. وفي إحدى المرات حكت لها ديوي آيو حكاية ما جيديك. كانت قد تزوجته، أرغمته على أن يكون زوجا لها، بعدما أحبته حبا كبيرًا. لم تحب رجلا آخر مثلما أحبت ذلك الشيخ. وقالت ديوي آيو إن ذلك "على الرغم من أنه كان واضحا تمامًا أنه حب غير متبادل. ففي الحقيقة كان يظن أنني ساحرة شريرة". أحبته حتى قبل أن تراه. لأن أم أمها كانت تحبه أشد الحب. قالت ديوي آيو مرة "حبيبان بائسان، ما جيديك وجدتي ما إيانج. تحطّم حبهما، مثلما تحطّمت حياتهما بسبب شهوة رجل هولندي وجشعه وجموحه. "والأدهى من ذلك كله والأشد مأساوية أن ذلك الهولندي الشهواني الجشع هو جدي". أحبت ديوي آيو الرجل ما جيديك منذ أن سمعت حكايته. ربما حكاها لها عمال البيت أو الجيران. كانت تقول إنها لو لم تستطع الزواج به لقتلت نفسها، لذلك أمرت باختطافه، ثم تزوجته برغم رفضه، برغم أن زيجتهما في الحقيقة لم تكتمل. "فقد هرب إلى قمة تل ورمى نفسه من أعلاه"، ومنذ ذلك الحين صار شبحه يتبعها أينما مضت.

كان الزوجان ستاملر يعرفان بالطبع قصة ما إيانج وما جيديك، لكنهما ما كانا يعرفان أن ديوي آيو تزوجت ذلك الما جيديك.

كتبت روسينا تقول "وهكذا عاشت ديوي آيو، برفقة شبحه، إلى أن بلغت الثانية والخمسين".

سألت آنيو "ولكن لماذا أصبحت عاهرة؟"

حكت لهما روسينا ما جرى لديوي آيو في أثناء الحرب وكيف أنها حكت ذات مرة لروسينا أنها أقامت بعدما انتهت الحرب لدى عاهرة لا لتسدّد ديونها لماما كالونج فقط، بل لأنها لم تشأ أن يحدث لأي اثنين متحابين ما سبق وحدث لما إيانج وما جيديك، وأوضحت ديوي آيو قائلة إن "الرجل الذي يذهب إلى عاهرة، لا يضطر أن يتخذ لنفسه محظية. فكل رجل يتخذ محظية، يحتمل أنه يكسر قلب هذه المحظية. ويتحطم حب، ويعيش ممزقا. أما حينما يزور عاهرة، فهو يؤذي زوجته فقط، وهي متزوجة بالفعل، كما أنها تكون قد اقترفت خطأً جعل زوجها يذهب إلى ماخور في المقام الأول".

كتبت روسينا "وهذا هو السبب في أنها أصبحت عاهرة" وضحكت قائلة "إنني أشعر كما لو أنني سيرة سيدتي".

سألت آنيو زوجها "كيف أمكن أن تكون لابنتنا هذه الطريقة الوضيعة في التفكير؟"

قال هنري "لا تسيئي الظن بالبنت، فلسنا خيرا منها، نحن أخ وأخت قرّرا أن يتزوجا. لا يجب أن تنسي هذا".

ولم يكن أحد قد نسي ذلك، حتى روسينا التي لم تسمع بحكايتهما إلا من ديوي آيو.

ثم رجع الشبح، ليقلب هذه المرة المائدة بكؤوس الليمونادة.

***

لم يعان أحد من الأشباح مثلما عانى منها شودانتشو. لسنوات بعد الجزرة ظل يعاني أرقا رهيبا، ثم غلبه النوم أخيرًا، فبات يعاني من المشي نائما. كانت أشباح الشيوعيين حاضرة له طول الوقت، لتنال منه حتى على مائدة الترامب فيخسر المرة تلو المرة. كانت مضايقاتها له تثير جنونه، فكان كثيرًا ما يرتدي ثيابه بالمقلوب، أو يخرج من البيت بثيابه الداخلية، أو يرجع إلى البيت فيدخل بيتا آخر، أو يتصوّر أنه يضاجع زوجته ليتبيّن أنه لم يضاجع غير فتحة المرحاض. كان الماء ينساب من صنبوره متحولا إلى بحيرة لزجة من الدماء، وبالفحص والبحث يتبيّن أن كل ماء البيت حتى الماء في برّاد الشاي والترمس، قد تحوّل بغتة إلى دم أحمر قان.

كان كلّ من في المدينة يشعرون بالأشباح ويخشونها، لكن أخشاهم منها كان شودانتشو.

كانت الأشباح تظهر في بعض الأحيان لدى شباك غرفة نومه، والدم ينساب غزيرا وبلا نهاية من ثقوب في جباهها، والأنين يتعالى من أفواهها كمن تريد أن تبوح بشيء ولكنها لا تجد طاقة للكلام. وكان

شودانتشو إذ يراها يصرخ ويجبن ويمتقع وجهه وتأتي إليه ألامندا لتحاول أن تهدئ روعه.

تقول ألامندا "هوِّن عليك، ما هو إلا شبح شيوعي ما"، ولا يملك شودانتشو سبيلا إلى الهدوء، فيكون عليها أن تطرد تلك الأشباح، فتأبى في بعض الأحيان الرحيل، وتظل تئن كما لو أنها تطلب شيئًا فتمنحها ألامندا ما تأكله أو تشربه، فتشرب الأشباح بنهم من اجتاز صحراء شاسعة، وتأكل بشره من لم يأكل منذ ثلاث سنين، ثم تختفي ويتسنَّى لشودانتشو الهدوء.

في أول الأمر لم يكن خائفا كلَّ هذا الخوف، فكان إن ظهر له شبح شيوعي بآثار طلقات الرصاص وينطق ببعض أبيات النشيد الأممي يستلّ مسدسه ويطلق عليه الرصاص. وفي البداية كانت طلقة واحدة كافية لإخفاء الأشباح، لكنها بعد حين لم تعد تبالي بالطلقات، بعدما أطلق شودانتشو رصاصا كثيرًا على الأشباح في كثير من أركان المدينة حتى باتت مقاومة للرصاص، فلم تعد تختفي، لكن الطلقات كانت تخلّف في أجسادها مزيدا من الثقوب فيندفع منها المزيد من الدماء. كانت تكتفي بالوقوف، ثم تحاول بعد قليل الاقتراب، إلى أن يهرب منها شودانتشو في نهاية المطاف، فتلك كانت بداية الخوف الذي استولى عليه.

في ظل كل ذلك الذي يعانيه، بدا على شودانتشو الجنون، وإن لم تَنْتَبْه الهلاوس. كان بوسع غيره من الناس أن يروا ما يراه، وكان غيره يخاف مثلما يخاف. ولم يكن من فارق إلا أنه كان أشد روعا ممن عداه،

لا سيما عند المقارنة بزوجته التي اعتادت الأشباح بعد فترة وظنت أنها مسألة وقت قبل أن تتعب من مضايقتهم.

كان على شودانتشو أن يعترف بأنه قتل الكثير من الشيوعيين، فما كان ليندهش من تآمرها على الانتقام منه. وكان عليه أن يحذرها، لكن حتى حينما لم تكن الأشباح تظهر له ظلّ الخوف يترصّده طول الوقت محيلا حياته إلى فوضى لا ترحم.

والأسوأ من ذلك كله أن ابنته ـ وكانت قد بلغت العاشرة آنذاك ـ بدت مضطربة هي الأخرى. كانت آي أو نور العين تشكو من بذرة أمباريلا عالقة في حلقها. فكانت تتبع أباها طالبة منه أن يعينها على التخلص منها، فيخبرها شودانتشو أن الأشباح هي السبب. ولم تفهم غير أمها أن الفتاة تطلب اهتمام أبيها الذي ازداد بعدا عن الناس، عالقا في شراك خوفه.

وساق الخوف شودانتشو أيضًا إلى أشد التصرفات شذوذا. فرأى ذات يوم متشردا يهاجم كلبا، والجميع كانوا يعرفون ولع شودانتشو بالكلاب، فقد كان يربيها، وفي سنوات خوضه حرب العصابات استأنس الأياك، فلما رأى ذلك المتشرد يضرب الكلب جن جنونه، وانهال عليه ضربا ثم ألقى به في السجن. وكان حبس متشرد مجنون في السجن العسكري بلا محاكمة لمجرد ضربه كلبا سببا في حيرة الجميع. حتى ألامندا اندهشت وسألت زوجها:

"ماذا جرى فعلًا؟"

"ذلك المتشرد ملبوس بشبح شيوعي".

وحدث أن كان صياد سمك سكران يغني عالي الصوت في جنح الليل، موقظا الجميع، بمن فيهم شودانتشو الذي كان قد نام بعد عنت طويل متغلبا للحظة على أرقه القاتل، فخرج على الفور حاملا مسدسه وأطلق رصاصة على ساق الصياد ثم جرّه جرًا إلى السجن.

سألته ألامندا "هل جننت فتسجن شخصا لمجرد أنه سكران؟"

"كان ملبوسا بشبح شيوعي".

مرارا وتكرارا كان يتهم كل من يفعل ما لا يرضيه بأنه ملبوس، فلم تبق فيه حتى ثمالة من شودانتشو الهادئ الحكيم النزّاع إلى التأمل.

وأخيرًا في عام ١٩٧٦، أخذته ألامندا إلى جاكرتا إذ لم يكن في هاليموندا مستشفى عقلي، ورجعت بعد أسبوع، وقد عهدت بشودانتشو إلى رعاية الممرضات، إذ كانت لديها في نهاية المطاف، وبرغم كل ذلك الذي يجري، فتاة عليها أن تربّيها.

غاب شودانتشو عن هاليموندا لفترة. لم تختف الأشباح بعد رحيل شودانتشو لكنها لم تعد تستعرض أجسادها التالفة أو تطلق العنان لصرخات ألمها. وشودانتشو الذي كان بوسعه أن يتهم كل من لا يروق له بأنه ملبوس بالأشباح وكان له من الحصانة ما جعله يعذب أولئك أو يزج بهم في السجن، بدا بغتة أشد ترويعا لأهل المدينة من الأشباح نفسها، فارتاح لغيابه الجميع.

لكن شودانتشو رجع.

"اللعنة". كان ذلك أول ما قاله. "لقد تصوّر الأطباء أنني مجنون، فأطلقت الرصاص على أحدهم ورجعت".

قالت ألامندا "طبعا لست مجنونا، أنت فقط غير عاقل قليلا".

قالت آي "في حلقي بذرة أمباريلا يا بابا".

"افتحي فمك وسأضرب ذلك الشبح الصغير بالرصاص".

هدّدته ألامندا "افعلها وسأقتلك".

لم يطلق شودانتشو الرصاص قط على بذرة الأمباريلا برغم أن آي فتحت فمها على آخره.

كان رجوعه إلى البيت يعني أن يرجع إلى هاليموندا مصدر خوفها. حاول أن يربّي المزيد من الكلاب لتطرد الأشباح إذا ما اقتربت، وبدا ذلك ناجعا في تقليل هجماتها، ولكن بعض الأشباح كان يفوق الكلاب حيلة فكانوا يطيرون فوق الأسطح ويظهرون من الأسقف. فيصرخ شودانتشو في فراشه وتقدم ألامندا للأشباح الطعام والشراب، وبدا أن ذلك هو كل ما تطلبه الأشباح.

قال شودانتشو "الرفيق كلايوون وحده هو القادر على تنظيمهم".

فوبّخته ألامندا قائلة "في هذه الحالة، من المؤسف أنك بعثته إلى جزيرة بورو بعد ميلاد كريسان".

وكان هذا صحيحا، وهو أمر ندم عليه شودانتشو أشدّ الندم. ولم يكن ندمه لأن زوجته غضبت عليه فاستعر غضبها لحنثه بوعده، إذ الحق أنه من هذه الناحية لم يحنث بوعده، فقد وعد بأن يترك الرفيق كلايوون يعيش، ونجا الرجل بحياته فعلًا، ولم يكن لشودانتشو سلطة أو نفوذ على اللواءات الذين رأوا أن الرفيق كلايوون من الشيوعيين الخلّص الذين قرّروا نفيهم جميعًا إلى جزيرة بورو. كان شودانتشو نادما لأن الرفيق كلايوون غير حاضر ليسيطر على أشباح الشيوعيين. كان بحاجة إلى ذلك الرجل ويرى أن عليه أن يعيده بطريقة أو بأخرى إلى هاليموندا، أو يضطر هو شخصيا إلى حياة المنفى.

واختار الحلّ الثاني.

كانت الأخبار تتوالى عن وقوع انقلاب عسكري في تيمور الشرقية، وعن المحاربين في حرب العصابات وكيف أنهم يتسبّبون في شيء من الاضطراب للقوات المسلحة الوطنية، فتطوّع شودانتشو. ودّع الأشباح واتجه إلى تيمور الشرقية، ولو كان ثمن ذلك هو الرحيل عن زوجته وابنته. كان جميع اللواءات يعرفونه ويعرفون أن درايته بحرب العصابات هي المطلوبة تحديدا في المناطق المحتلة.

ولم يعد من حديث لأهل المدينة إلا عن عزم شودانتشو الرحيل. فعزفت الموسيقات العسكرية في حفل وداع أقيم في ميدان الاستقلال يوم رحيله، ثم جاب شودانتشو المدينة في سيارته الجيب المفتوحة، مرتديًا

زيّه العسكري الكامل، ملوّحا لأهل المدينة مبتسما في سخرية للأشباح المعذبة القلقة. ثم عبر هو وحاشيته حدود المدينة واختفى عن الأنظار.

كان قد نسي أن يودع زوجته وابنته.

وقالت آي "ولم يخلّصني من بذرة الأمباريلا".

فقالت لها ألامندا مواسية "صدقيني لن يطول بقاؤه هناك، لقد كان محارب عصابات بارعًا في هاليموندا، وتيمور الشرقية ليست هاليموندا".

وكانت على حق. ففي غضون ستة أشهر أعيد شودانتشو إلى الوطن وقد رشقت في قصبة رجله رصاصة. وبدا أنه ما من خلاص لأهل المدينة منه.

اشتكى لزوجته من صعوبة خوض حرب في ذلك المكان الخرائي محاولا أن يعزّي نفسه بعد رجوعه السريع. "لا أعرف ما الذي يحاولون أن يفعلوه في تلك الأرض القاحلة". وحاولت أن تصطحبه إلى المستشفى لاستخراج الرصاصة، لكنه أبى. قال إنها لم تعد تؤلمه، فقط تتسبّب له في عرج بسيط. أراد أن يبقيها في مكانها تذكارا مريرا. "فالرجل الذي صوّب بندقيته عليّ كان ينشد النشيد الأممي، يبدو أن هؤلاء الأوغاد الشيوعيين في كل مكان".

بعد فترة، تحتّم إغلاق مكتبة الرفيق كلايوون. إذ راجت شائعة بأنه يفسد عقول التلاميذ بتشجيعهم على قراءة تفاهات غير دراسية،

وربطوا ذلك بأنشطته القديمة كشيوعي أسطوري. وغضب الرفيق كلايوون من ذلك اللغو، لكن أديندا هدَّأت غضبه. فأغلق المكتبة أخيرًا، وخزَّن الكتب، وتعهَّد بأن يوجِّه ابنه حينما يكبر أو ابنته إلى قراءتها جميعًا، ليرى الناس إن كانت قراءتها تفسد عقل الطفل أم تنفعه.

قال "ليست المسألة أنني لا أريد أن أقدم للتلاميذ كتبا تافهة غير كتب المدرسة، المشكلة أنهم حرقوا بالفعل كل ما كان عندي من كتب تافهة".

كان شودانتشو قد افتتح مصنع ثلج، برأس مال مشترك مع شريك خفي. ولما كان يعرف أن الرفيق كلايوون يواجه بعض المصاعب إثر إغلاق مكتبته، اقترح على الرجل أن يساعده في إدارة المصنع، كشريك كامل عمليا. وكان ذلك بالطبع نشاطا واعدا للغاية. فقد كان هناك صيادو السمك، لكن أرجو أن تلاحظوا أنه منذ انهيار الحزب الشيوعي (وما تبعه من تفكيك اتحاد صيادي السمك) كانت سفن كبيرة أيضًا تعمل في مياه هاليموندا، وكل أولئك كانوا بحاجة إلى الثلج. لم يبد الرفيق كلايوون أدنى اهتمام بذلك العرض. ولم يبد أسبابا، فلعلها لم تكن قط أسبابا أيديولوجية أو لعله لم يكن يرتاح إلى تلقّي مزيد من المساعدة من شودانتشو وزوجته من صباح يوم إعدامه المفترض، واختار بدلًا من ذلك أن يكون صياد أعشاش طيور. وكانت أعشاش الطيور تباع بأثمان مرتفعة للتجار الصينيين فيبيعونها في المدن الكبرى بالخارج. لم يكن الرفيق كلايوون يبالي بمن سيأكل أعشاش الطيور، فلم يكن يرى مذاقها مختلفا عن مذاق المكرونة السادة أو يجدها ألذّ منها، كان يقال إن هذه الأعشاش القابلة للأكل تصنع من لعاب الطيور، ولكن الرفيق

كلايوون لم يكن ليحتقرها أكثر مما كان يحتقرها لو كانت مصنوعة من روثها، فقد كان كل ما يعنيه هو أن يحصل عليها ويبيعها للوسطاء الصينيين، فانضمّ إلى فريق لصيدها مؤلف من أربعة أصدقاء.

كان ثمة جدران من صدوع منحدرة بمحاذاة الغابة عند الرأس البحري، وكان في تلك الصدوع كهوف، منها الكبير ومنها الصغير، والعالي والمنخفض، فأدناها لم يكن يرى إلا عند انحسار المد، وفي تلك الكهوف كانت طيور سوداء جميلة تقيم أعشاشها، فتخرج من هذه الكهوف وتدخل إليها، منقضّة على زبد الموج.

كان الفريق عادة ما يخرج في الليل، وقد تسلّح أفراده بالأقفاص، وبقليل من الطعام، والكشافات، والأدوية المضادة للسموم لحالات الطوارئ إذ كانت الطيور تقتسم الكهوف مع الأفاعي. كان الرجال الأربعة يقتربون صامتين من الصدوع، في قارب بغير محرك. وكان عليهم أن يتحلوا بالصبر وهم يبحرون وسط الموج المتقلب الذي قد يتعاون أحيانا وقد يوصد مداخل الكهوف في أحيان أخرى، وكان عليهم أن يتحسَّبوا دائمًا لتغيّر المدّ الذي قد يحدث بسرعة ودونما إنذار، فيحصرهم في أحد الكهوف، وأحيانا كانوا يرمون مرساتهم عند الحيد الناتئ، ويستعينون بحبال الأمان على ارتقاء صدع، مخاطرين بحياتهم وصولا إلى كهف مرتفع. كان العمل مضنيا، وفي بعض الأحيان كان يتحتَّم عليهم الانتظار طوال أيام من الطقس القاسي. ولكن عائدات الصيد جعلت الرجال الأربعة أقرب إلى الرخاء. فقد كانت النقود أفضل مما يحصل عليه الرفيق كلايوون من حقول الأرز أو من المكتبة.

وعاش الرفيق كلايوون حياة صياد الأعشاش لنحو شهر بينما أديندا تنتظر في قلق عارم في البيت، هي والوليد كريسان، إلى أن انزلق رجل ذات يوم وسقط عن صدع مرتطما بالأعشاب المرجانية، فمات على الفور، بدون أن يحتاج إلى إسعاف أو حتى إلى مستشفى. كانوا في تلك الليلة قد جمعوا كثيرًا من الأعشاش، فبدت عديمة القيمة وهم راجعون إلى البيوت ومعهم جثة صاحبهم. وكل ما حصلوا عليه لقاء تلك الأعشاش أعطوه لعائلة المتوفى، ثم لم يعد الرفيق كلايوون وصديقاه بعدها إلى الصيد. وبالطبع كان هناك صيادون آخرون، وموتى آخرون، إذ ظلت الطيور تقيم أعشاشها، ولكن الرفيق كلايوون كان قد قرَّر الامتناع عن تلك المهنة المرعبة، إذ أدرك أنه سيترك وراءه في حال موته زوجة وطفلا وليدا. ولم يكن يريد أن يفعل ذلك.

أجهد ذهنه بحثا عن مهنة أخرى. وبحلول ذلك الوقت كانت هاليموندا قد تحولت إلى منتجع ساحلي. بل إنها في حقيقة الأمر كانت مقصدا أثيرا منذ الحقبة الاستعمارية بسبب الخليجين الجميلين اللذين تكونا على جانبي الرأس البحري الدغلي، لكن في السنوات الأولى للحكومة الجديدة بدأت المدينة تروِّج لنفسها كمنتجع ساحلي. أقيمت فنادق جديدة تزاحمت على جانب الطريق، وأكشاك لبيع التذكارات، وتحولت المطاعم البسيطة إلى مطاعم للمأكولات البحرية، وحفر الطريق سُوِّيت بأسفلت جديد. وجاء السائحون من أقصى الأماكن، في الداخل وفي الخارج، وكلهم جاؤوا يريدون السباحة قرب الشاطئ الجميل. وكان الخليج الغربي موقعهم الأثير، أما الشرقي فكان للميناء

وسوق السمك. فكّر الرفيق كلايوون في أكثر ما يحتاج إليه السائحون الوافدون للسباحة، وحاول أن يجمع بين ذلك وبين ما يستطيع هو تقديمه، ووجد الإجابة.

قال لأديندا "سأحيك ثياب سباحة".

بدت الفكرة سخيفة حتى لأديندا. لكنه لم يكترث. واشترى الرفيق كلايوون مكنة خياطة سنجر. كان يريد أن يبيع ثيابه بأرخص سعر ممكن، لأن السياح على الأرجح لن يستعملوها إلا في السباحة لأيام قليلة ثم سيرمونها. ولذلك كان عليه أن يعثر على أرخص أنواع القماش. ومن أجل ذلك ذهب ليسأل أمه.

قالت مينا "أكياس الدقيق والرز، غالبًا ما أستعملها في خياطة جيوب السراويل".

درس الرفيق كلايوون أولا طرق التبييض، بحيث يتسنى له محو أختام التجار عن الأكياس، فصار لديه قماش جاهز للقص على هيئة سراويل سباحة قصيرة. والحقيقة أن سراويله لم تكن تختلف عن السراويل التي يرتديها المزارعون في الحقول، لكنه أضاف إليها صورا منسوجة من الحرير قبل أن يخيطها سراويل. وهو الذي صمّم تلك الصور بنفسه، بمهارة رسّام متواضع الموهبة، فكان يرسم أسماكا ساطعة الألوان هو نفسه لم يكن يعرف أسماءها، وأشجار جوز هند ورقها منحن بعشوائية على خلفية شمس برتقالية غاربة، وفي أسفل كل صورة

كان يكتب كلمة هاليموندا بحروف كبيرة. فكان بوسع السائحين إن شاؤوا أن يأخذوا هذه السراويل معهم تذكارات من المدينة.

ووزّع السراويل على أكشاك الترامب والبامبو البسيطة المصفوفة على الشاطئ وحدث أن أحب السائحون هذه السراويل، ربما لرخص أسعارها، أو لتصميماتها الجميلة، ولكن المؤكد أنهم كانوا يحتاجونها في السباحة. طلبت الأكشاك المزيد من السراويل، فكان على الرفيق كلايوون أن يبذل مزيدا من الجهد في العمل. كانت أديندا تجيد قليلا من الخياطة، ولكنها كانت تنشغل عادة في الحسابات، لأنها كانت ملزمة برعاية كريسان الصغير. فكلما كانت الطلبات تزداد كان الرفيق كلايوون يحوّل بعض العمل إلى أمه. وفي غضون شهر صارت مينا نفسها غارقة في العمل، فاشترى الرفيق ثلاث مكنات جديدة واستعان بثلاث خياطات ورسام بالحرير وظلّ هو الذي يصمّم جميع السراويل بنفسه. وحقّق العمل نجاحا عظيما، وتبيّن أن الرفيق لا يبالي بأن يكون رأسماليا لفسحة من الزمن.

لعله في ذلك الوقت كان ينسى ماضيه، ولكن الرفيق كلايوون على أي حال كان مستمتعا بأيامه، بعمله الرائج، وزوجته الجميلة، وولده سليم البدن. وبدأ منافسون يظهرون بالطبع، لا سيما من الصين ومن غرب سومطرة، ولكن سراويل الرفيق كلايوون بقيت الأثيرة في هاليموندا، وظل هو الأنجح.

ولكن تلك الحياة السعيدة سرعان ما تحطّمت بخطة العمدة. وعاد الرفيق كلايوون ذلك الرفيق كلايوون، الرفيق كلايوون القديم.

كانت هاليموندا تزدهر منتجعا ساحليا نشيطا، فأراد العمدة الجشع أن يبيع الأراضي المحاذية للساحل للمقاولين ليقيموا عليها فنادق كبيرة ومطاعم وحانات وديسكوهات وكازينوهات وربما مواخير أفضل من ماخور ماما كالونج. وكان أغلب تلك الأراضي يخصّ صيادي السمك. وبطول الشاطئ المحاذي للشارع كان مزيد من الأراضي غير المملوكة رسميًا لأحد، ولكنها كانت مليئة بأكشاك التذكارات البسيطة. في أول الأمر تقدّمت الحكومة إلى الصيادين سائلة بأدب إن كان بوسعها أن تبيع الأرض، وحاولت برقة أن تقنع ملاك الأكشاك بنقل أكشاكهم إلى السوق الجديدة التي ستقام عما قريب. لكن أغلب الصيادين رفضوا الانتقال من أرض آبائهم التي عاشت فيها عائلاتهم على مدى أجيال. وما كانوا لينتقلوا إلى الداخل، فما كانوا يقدرون على العيش بعيدا عن هواء البحر المالح. ولم يشأ ملاك الأكشاك الانتقال هم أيضًا، لأن السوق الموعودة كانت لتقام بعيدا جدا عن الشاطئ المزدحم بالسائحين.

وهكذا جاء الجنود، وفي ظهرهم البلطجية، لإرهاب الناس. لكن لا تتصوروا أن الصيادين خافوا بسهولة -فقد كانوا يواجهون الموت كل ليلة في عرض المحيط- ولمّا رأى ملاك الأكشاك عزيمة الصيادين، تشبّثوا هم أيضًا. ولما فشل الإرهاب، حان دور القوة والإرغام. والأرض القائمة بين المحيط والشارع لم تكن أرضا مملوكة لأحد، فكانت في الواقع

ملكا للدولة، بحسب ما قال العمدة عندما جاء إلى الشاطئ وألقى خطبته، فبدأت البلدوزرات عملها في إزالة الأكشاك.

وما كان الرفيق كلايوون ليقوى على أن يترك شيئًا كذلك يقع أمام عينيه بدون أن يرجع إلى الرفيق كلايوون القديم، برغم أن أحدًا لم يعرف إن كان تحرّك بوازع من التضامن، أم لتعرّض عمله هو للخطر. نظّم مظاهرة حاشدة من الصيادين وأصحاب الأكشاك والمتعاطفين معهم، فكانت أضخم مظاهرة منذ انهيار الحزب الشيوعي. أعاقت المظاهرة طريق البلدوزرات المبعوثة لهدم الأكشاك إلى أن تدخل الجيش في النهاية. وبقي الرفيق كلايوون واقفا، يتصدّر المظاهرة.

كانت عناصر المخابرات قد بعثت لتشمشم وسط المتظاهرين عن شيوعيين فسرعان ما تعرّفوا على الرفيق كلايوون. وتعدّدت التقارير، وسرعان ما تأكّد أن الرجل شيوعي أصلي حقا. وبتحريض من اللواءات كان على شودانتشو أن يعتقل الرفيق كلايوون، ويحمل عليه، سائلا إياه لماذا يفعل مثل هذه الفعلة الحمقاء.

قال الرفيق كلايوون "أنا شيوعي، وأي شيوعي مكاني كان ليفعل ما فعلت".

وأخيرًا أرسلوه إلى بلادن كامب فوجد بعض أصدقائه هناك محتجزين إلى الأبد. اندهشوا أن كلايوون لم يمت، واندهشوا أكثر بمجيئه إلى بلادن كامب بعد كل ذلك الوقت. ارتاح حينما رأى هناك كثيرًا ممن عرفهم، برغم أنهم كانوا جميعًا يعيشون في أوضاع تنفطر لها القلوب،

فهم جياع عراة لا يزورهم أحد، وتمتلئ أيامهم بالتحقيق والتعذيب على أيدي جنود وحرس. ونظرا لسمعة الرفيق كلايوون، فقد عانى هناك مثلما عانوا، واختص علاوة عليه بمزيد من القسوة والسادية.

قال شودانتشو مطمئنا زوجته الغاضبة "صدقيني سينجو، وحتى إذا مات، الشيوعيون يرجعون إلى الحياة أشباحا كما تعرفين وأعرف جيدا".

قالت ألامندا "قل هذا لأديندا وابنها".

ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى نقلت جماعة الشيوعيين من بلادن كامب إلى جزيرة بورو. كلهم بدون استثناء. ولم يكن أحد يعلم ما الذي سيجري لهم هناك. لعله كان نوعا من معسكرات اعتقال الحقبة الاستعمارية، أو لعله نوع من معسكرات الاعتقال النازية. كان جميع السجناء يتوقعون أن تكون بانتظارهم في الجزيرة أشغال شاقة قاتلة وعقوبات أشد بشاعة من التي مرّوا بها حتى ذلك الحين. لم يتسن للرفيق كلايوون أن يودع أمه وزوجته وابنه. لم يودّع أحدًا غير شودانتشو الذي استطاع أن يزوره للحظة قبل نقل جميع السجناء إلى جزيرة تقع في أقصى الشرق من الأرخبيل الإندونيسي.

قال له شودانتشو "سأعتني بزوجتك وابنك".

ولّما رجع إلى البيت قالت له ألامندا "شوف، هو الآن في جزيرة بورو، وسيأمرونه بالاحتطاب ويتركونه يجوع حتى الموت".

"فكّري في الأمر، هو الذي جلب كل هذا على نفسه. الشيوعي يبقى شيوعيا، عنيدا وعنيفا. وأنا لست الرئيس فأعفو عن أحد، ولست رئيس الأركان. أنا مجرد شودانتشو على مقرّ قيادة عسكري صغير".

"وإلى الآن لم تذهب لتقول هذا لأديندا وابنها".

فذهب شودانتشو أخيرًا ليزور أديندا وقال إنه يأسف من قلبه لما جرى ولكن لا حيلة له لمنع سجن الرفيق كلايوون في بلادن كامب ثم في جزيرة بورو، وإن هذه قضية سياسية معقدة.

"قل لي على الأقل يا شودانتشو، إلى متى سيبقى هناك؟"

قال شودانتشو "لا أعرف. ربما إلى أن يحدث انقلاب آخر".

هكذا لم يعرف كريسان أباه قط، إذ كان لا يزال وليدا صغيرا عند سجن الرفيق كلايوون في بلادن كامب ثم في جزيرة بورو. لم يعرف عن الرفيق كلايوون إلا من حكايات أمه، أو من حكايات ألامندا وشودانتشو. وفي عام ١٩٧٩ رجع أبوه ضمن آخر مجموعة رجعت من سجناء جزيرة بورو إلى الوطن. فرحت أديندا أشدّ الفرح برجوع الرجل، لكن كريسان لم يستطع أن يشاركها سعادتها. في ذلك الوقت كان الولد قد بلغ الثالثة عشرة فشعر بأن أباه ليس إلا غريبا حلّ فجأة ليسكن بيتهما.

كان يتنبه للرجل انتباها شديدا، لا سيما في أثناء جلوسه أمامه على مائدة الطعام. كان ذلك الشخص الذي يراه أشد نحولا مما يبدو في الصور التي عرضتها عليه أمه. كان من قبل ذا وجه نظيف، لكنه رجع وقد أطلق شاربه ولحيته فباتت خصلات شعر طويل تكسو رقبته. فوجئ كريسان بأن أول ما بحث عنه والده بمجرد عودته هو قبعته الرثة التي كانت لا تزال محفوظة في الدولاب وقد حال لونها فلم يعد واضحا هل كانت سوداء أم بنية أم رمادية. ربت عليها لكنه لم يلبسها، بل أعادها إلى موضعها في الدولاب.

لم يتكلم الرفيق كلايوون كثيرًا بعد رجوعه من المنفى. وعجب كريسان كيف كان ذلك الرجل من قبل خطيبا مفوها في المسيرات الحاشدة. ربما كان يكثر كلامه مع أمه فقط حينما يحلّ الليل ويستلقيان معًا في السرير، لكنه لم يكن يكثر الكلام مع كريسان. لم يكن يزيد عن قوله "كيف حالك يا بني؟" أو "كم عمرك الآن؟" وكان يسأل ذينك السؤالين مرارا وتكرارا حتى خشي كريسان أن يكون أبوه قد فقد عقله. لعل الخرف أصابه، وإن لم يبلغ الخمسين بعد. لم يكن يعرف كم يبلغ أبوه من العمر بالضبط. ربما أربعين. لكنه كان يبدو هرما، ضعيفا، شائخا، يلبس دائمًا الرثّ من الثياب، فكان ذلك كله يثير الحزن في نفس كريسان.

ربما كان الرفيق كلايوون أيضًا يشعر بالغرابة، ففيما كان كريسان يتمعّن فيه، كان هو كثيرًا ما يشخص إلى ابنه لفترات طويلة، كأنما يريد أن يعرف فيم يفكر.

لعدد من الأيام لم يخرج الرفيق كلايوون من البيت، ولم يأت إليه من يزوره، فقد وصل سرًا ولم تكشف أديندا وكريسان السرّ لأحد، رغبة منهما في الحفاظ للرجل على سلامه، وتركه بدون أن يكتشفه الناس إلى أن يتأهب لذلك.

وذات مرة سأله كريسان على العشاء "كيف الحال هناك؟ في جزيرة بورو".

قال أبوه "أفضل طعام هناك هو الذي عادة ما تجده هنا في الحمام".

واضطرب الجو بقوله ذلك. أشارت أديندا لكريسان، فتوقف الحديث عند ذلك الحد تمامًا. لم يشأ الرفيق كلايوون أن يقول أي شيء عن جزيرة بورو، ولم تعد أديندا أو كريسان يجرؤان على طرح مزيد من الأسئلة.

بدون أي حوار، وبدون خروج من البيت لأيّ داع، بدا أن الرفيق كلايوون يزداد كآبة على كآبة. ربما شعر باغتراب عن المكان الذي تركه وراءه قبل سنين كثيرة، أو ربما كان يشعر بأشباح الشيوعيين الكثيرة في المدينة فيحزنه ذلك. وحدث مرة أن طرق شخص الباب ففتح كريسان. وجد أمامه رجلا واقفا في ثياب مهلهلة، وفي صدره جرح من رصاصة ينساب منها خيط دم. صرخ كريسان لكن سرعان ما حضر أبوه قائلا:

"كيف حالك يا كارمين؟"

"بشع يا رفيق. أنا ميت".

تراجع كريسان وقد ابيضّ وجهه حتى التصق في الجدار. وبعد أن جاء الرفيق كلايوون بسطل ماء وقماشة للغسيل اقترب الرفيق كلايوون من الشبح ومضى ينظف جرحه بعناية ومحبة واعتناء إلى أن توقف الدم عن النزيف.

قال الرفيق كلايوون "هل أقدم لك فنجان قهوة؟ ولو أنه ليست لدينا جرائد".

شربا القهوة معًا بينما ينظر إليهما كريسان متخوفا من اقتراب أبيه بهذا الشكل من شبح مخيف. تكلما عن السنين المهدرة، ضاحكين في خفوت، ولما انتهت القهوة انصرف الشبح.

سأله كلايوون "إلى أين أنت ذاهب؟"

"إلى مكان الموتى".

ولما اختفى الشبح، سقط كريسان على الأرض.

ومع كل شبح يزورهم كان الرفيق كلايوون يزداد إحساسا بالوحشة. ربما كان يحزن عليهم، أو ربما كان السبب غير ذلك. وكريسان الذي ضاعت عليه ثلاث عشرة سنة بدون أن يعرف أباه كان يغار من الأشباح، ويريد أن يتكلم أبوه معه هو لا معها، لكنه لم يجرؤ أن يوجِّه إليه سؤالا بعد واقعة المائدة.

وذات يوم سأل الرفيق كلايوون أديندا "كيف حال شودانتشو؟"

"مجنون عمليا بسبب أشباح الشيوعيين".

"أريد أن أزوره".

قالت أديندا "ضروري. قد يفيدك هذا".

وفي عصر يوم دافئ هبّت فيه ريح لطيفة من التلال، مضى الرفيق كلايوون فرآه عدد من الجيران مذهولين من رجوع الرجل. كان بيت شودانتشو يرى من بيته، فلم يستغرق غير دقيقة حتى وصل إلى بابه الأمامي. وكانت ألامندا هي التي فتحت، وهي أيضًا ذهلت شأن الجيران.

سألته ألامندا "لست شبحا، صح؟"

"يعني، أنا كائن مريع لمن يخاف الشيوعيين".

"رجعت إذن".

"أرجعوني".

"ادخل".

جلس الرفيق كلايوون على كرسي في الغرفة الأمامية بينما ذهبت ألامندا تعد له شيئًا يشربه. ولمّا رجعت، سأل الرفيق كلايوون عن شودانتشو.

قالت ألامندا "إما أنه ذهب إلى أحد أقصى أركان المدينة يطلق الرصاص على أشباح الشيوعيين، وإما إلى السوق ليلعب الورق".

وبعدها لم يقل أحدهما شيئًا. سأل الرفيق كلايوون عن نور العين، لكن ألامندا كانت تنظر إليه بمنتهى الرقة، فلعلها نظرة إشفاق أو هي

غير ذلك، ولم يكن يعرف أين أو متى، لكنه كان قد رأى تلك النظرة من قبل، فنسي بها كل ما يتعلق بالفتاة الصغيرة. ربما كانت آي قد ذهبت لتلعب هنا أو هناك، أو لعلها كانت في بيت رينجانيس الجميلة، ولكن ذلك لم يعد مهما، فقد كان كل ما يريده هو أن يبادل المرأة الجالسة أمامه النظر بالنظر في عينيها، عينيها اللتين عرفهما تمامًا قبل سنين كثيرة.

كان عقله قد تلف في منفاه الطويل فبات في ذلك الحين بطيئا في فهم أي شيء. لكنه إذ ذاك تذكر، وفهم. نعم، كان صحيحا أنه عرف تلك النظرة، هي النظرة المحبة التي ليست لعينين إلا عيني ألامندا الصغيرتين، النظرة التي كم منحتها له قبل سنوات وسنوات. النظرة الرقيقة كأنها يد امرأة تتحسس فراء قطة سوداء، المليئة بالحنان ولهيب الشوق. عرفها، وعرف أنه أحمق إذ نسيها. فبادلها النظر، المليء بالحب، وتحول على حين غرّة من كهل معتل المزاج إلى رجل اكتشف من جديد حب عمره الضائع.

وهكذا كان من أمرهما ما يلي:

وقف الاثنان، وبدون كلمة وثب أحدهما بين ذراعي الآخر في عناق ونشيج، لكن ليس لوقت طويل، إذ سرعان ما انزلقا إلى قبلات محمومة، كالتي تبادلاها ذات يوم تحت شجرة اللوز، قبلات هوت بهما إلى الأريكة، حيث سارع كل منهما يخلع عن الآخر ثيابه ليمارسا الحب في جنون وجموح.

ولما انتهيا، لم يندما، ولا أقل قدر من الندم.

لكنه حينما رجع إلى البيت، وجد زوجته في انتظاره لدى الباب. حاول أن يكتم بهجته المشعة، ويسترد وجهه السقيم، فلم تنخدع أديندا ولو لوهلة.

قالت أديندا "الأشباح أخبرتني، فعلمت بما فعلته في بيت شودانتشو. لكن لا مشكلة بالنسبة لي ما دمت سعدت".

ضاق مما قالته. لم يندم على ما فعله، لكنه خجل لوهلة، وشعر بقذارته إذ يواجه زوجة قالت لا مشكلة بالنسبة لي ما دمت سعدت. زوجة انتظرته سنوات، فلمّا وصل فجأة، خانها فجأة.

لم يقل الرفيق كلايوون شيئًا، ومضى من فوره إلى غرفة النوم المخصصة للضيوف، فحبس نفسه فيها، ولم يخرج في اليوم التالي برغم طرقات أديندا وكريسان على الباب المرة تلو المرة داعيين إياه إلى تناول العشاء. ولما طلع الصباح وأعد الإفطار، تناوبت أديندا وكريسان على طرق بابه، فلم يصدر صوت عن الرفيق كلايوون، فراحا في قلق وارتياب يطرقان الباب بمزيد من القوة، وما من جواب.

وأخيرًا ذهب كريسان إلى المطبخ وعاد ببلطة كان يشق بها الخشب ليصنع أقفاصا ليمامه وبينما أديندا ناظرة إليه أخذ يهشم الباب. انشق الباب من المنتصف وببضع ضربات أخرى، أحدث فتحة تتسع ليمد يده ويفتح قفل الباب. فرأيا الرفيق كلايوون معلقا في ملاءة فتلها

وعلقها في السقف، وقد فارقته الروح. وأمسك كريسان أمه التي فقدت وعيها.

بسرعة انتشر خبر ظهور الرفيق كلايوون بعدما رآه الجيران. ولكن الجميع جاؤوا بعد فوات الأوان. كل ما أمكنهم أن يروه هو الجمع المحتشد حول نعش الرجل في الطريق إلى المقابر. تأخروا جميعًا، شأن كريسان الذي لم تسنح له الفرصة ولن تسنح له فرصة ليعرف أباه. لم يلتقيا إلا لفترة قصيرة، لا تكاد تكمل الأسبوع، فلم تكن تلك بالفترة الكافية لأن يتعارفا كما يليق بأب وابنه. وكان كريسان بين الجميع هو الأشد حزنا لوفاة الرفيق كلايوون. طالب بأن يرث القبعة البالية التي رأى أباه يعتمرها في الصور القديمة وكان لا يكاد يخلعها عساها تواسيه وتشعره بالقرب من أبيه.

وهكذا صار في المدينة شبح شيوعي إضافي، لكنه مشكورا، لم يظهر نفسه لأحد.

١٥

ذات صباح أنجبت رينجانيس الجميلة ولدا، فخرج أهل هاليموندا عن طقوسهم الصباحية وتزاحموا على بيتها يقصدون الفرجة. كانت لدى كل منهم أسباب كثيرة للتغاضي عن مسؤوليات إطعامهم الدجاج عصيدة النخالة أو ملء أحواضهم لتنظيف الأطباق الوسخة. لأن رينجانيس الجميلة أولا كانت شهيرة في هاليموندا، خاصة بعد انتخابها أميرة الشاطئ في ذلك العام. وثانيا لأنها كانت ابنة ماماي جيندنج، وهو الآخر كان شهيرا وإن كان محط كراهية أهل المدينة. وثالثا، وهذا هو الأهم، لأنها كانت أول شابة حبلت في تاريخ المدينة المديد بعدما اغتصبها كلب.

حينما أعلنت القابلة أن من خرج من رحم رينجانيس الجميلة كان طفلا بشريا حقيقيا، انقلب الناس على النميمة القديمة التي زعمت أنها اغتصبت من كلب بُنّي أسود الخطم من الكلاب التي تراها أينما نظرت في هاليموندا، تمامًا كما ترى النجوم أينما نظرت في السماء. حدث ذلك في حمام المدرسة، قبل تسعة شهور تقريبًا، وبعدما رنّ جرس الفسحة بقليل.

بدأ الأمر كله بعادة المراهنة الذميمة التي دأبت عليها الجميلة، وارثة إياها عن أبيها. كان أصدقاؤها الأشقياء قد تحدّوها أن تشرب خمسة كؤوس من الليمونادة، قائلين إنها لن تدفع ثمن الكؤوس إذا هي شربتها جميعًا فلم تترك منها قطرة. وفعلت ذلك، لكن حينما رنّ جرس انتهاء الفسحة بدأت تدفع الثمن، إذ شعرت فجأة بأنها توشك أن تبول في سروالها. وكان ذلك أمرًا سيئا إذ أرادت تلميذات كثيرات في الوقت نفسه استعمال المرحاض ليطلن أمد الفسحة ويقتطعن من وقت الحصة، وذلك تقليد كان ينتقل من جيل إلى جيل. كان الطابور طويلًا، ولا يكاد يحين دورك، حتى يكون سروالك أو جيبتك قد تبللت بالفعل، ولكن دخول الفصل والمخاطرة بالتبول في مقعدك لم يكن طبعا بالتصرف الحكيم، فحتى رينجانيس الجميلة خفيفة العقل كانت تعلم ذلك، فجرت تاركة زملاءها الضاحكين الصاخبين في الكافيتريا وقصدت على الفور الطابور الشيطاني.

كان وراء مبنى المدرسة أربعة عشر مرحاضا، وثمة فتيات منتظرات أمام ثلاثة عشر منها، فلعلهن كن يخططن لاقتسام سيجارة بعيدا عن أعين الناظر قبل التبول أو التغوط. ولم يكن المرحاض الأخير قد استعمل منذ سنين، بسبب شائعة تقول إن فتاة قتلت نفسها فيه، أو شائعة بأن فتاة أنجبت فيه ثم خنقت ابنها من السفاح. لم يكن شيء من ذلك أكيدا، لكن الحقيقة الوحيدة الموثوق فيها هي أن المرحاض بدا أشبه بقفص للأرواح الشريرة منه بأي شيء آخر.

كانت المدرسة قد أقيمت في الحقبة الاستعمارية بجوار مزرعة لشجر الكاكاو وجوز الهند، وكانت من قبل مدرسة فرانسيسكانية.

وبعدما ذهب الهولنديون، انتقلت تبعيتها للحكومة الوطنية، وكان الأقرب للمنطق بين قصص المرحاض الرابع عشر أن غصنا من شجرة كاكاو أو شجرة جوز هند قد سقط ذات مرة من سقفه فلم تتوافر لدى المدرسة نقود لإصلاحه على الفور. وبمرور الوقت، ظل ورق الكاكاو يتساقط من فتحة في السقف إلى المرحاض فيبتل ويتعفن، ثم اتخذت السحالي أعشاشا لها هناك أسفل فتات الصخور، ونسجت العناكب أعشاشها، وملأت المياه بيوض البعوض والطحالب والأعشاب، ولعل بعض الناس كانوا يبولون هناك ثم لا ينظفون مكانهم، فصار المرحاض مليئا بالرعب ولم يعد أحد يجرؤ على الاقتراب من بابه.

لم يكن أحد قد مسّه منذ سنين حينما دخلته رينجانيس الجميلة. كانت كؤوس الليمونادة الخمسة قد بدأت تتمرد في مثانتها، ولمّا لم تر أمامها خيارا آخر، اقتربت من المرحاض اللعين، ونظرت فيه فرأت كلبا منهمكا في شمشمة ورق الكاكاو باحثا عن أثر قطة قد تكون انسلّت إلى هناك من فتحة السقف. كان كلبا من كلاب الحي مخلطا بدم أياك، ذا فراء بني وخطم أسود، ولم يكن لدى رينجانيس الجميلة وقت لطرده بعيدا، فدخلت، وأغلقت الباب، وأوصدته، ثم في شرك ذلك المكان الضيق وبحضور الكلب، لم يكن بوسعها إلا أن تقف بلا حراك بينما بدأ بولها ينساب ـوقد بدا أكثر من ملء خمس زجاجات من الليمونادةـ حتى قبل أن تسنح لها الفرصة لخلع سروالها. انساب الدفء على فخذيها وربلتيها مغرقا جوربيها وحذاءيها.

ثم إنها أثارت من بعد ذلك ضجة أخرى ـضجة من ضجات كثيرة كانت بالفعل قد أثارتها على مدار ستة عشر عامًا من وجودها الأبلهـ

حينما ظهرت في الفصل عارية كيوم ولدتها أمها. وقف جميع الطلبة، وقد وقعت كتبهم من أيديهم على الكراسي، وحتى مدرس الرياضيات الهرم الذي كان يوشك أن يوبّخ التلاميذ لعدم مسحهم السبورة، أدرك فجأة أن عنَّته التي ظل يعاني منها سنين قد شفيت بمعجزة، وأن سلاحه عاد مرة أخرى شديدا صلبا. كان الجميع يعلمون أنها أجمل بنت في المدينة، وأنها الوريثة الحقيقية للأميرة رينجانيس، إلهة الجمال في هاليموندا، ولكن رؤية جسمها، الذي لم يكن يقل جمالا عن جمال وجهها ولكنه خفي في العادة، أذهلت كل من كان في الفصل.

"اغتصبني كلب في مرحاض المدرسة".

كل ذلك صحيح، لو صدقتم ما قالته عما جرى حينما بالت في سروالها، وهي حبيسة المرحاض مع الكلب ـ طوال الدقائق الخمس الأولى وقفت ساكنة، عديمة الحيلة، شاخصة إلى جيبتها وجوربيها وحذاءيها وقد تبلّلت جميعًا وفاحت منها رائحة البول. وحتى حين لم تعد تسمع أصوات التلميذات خارج المرحاض، كانت لا تزال بالداخل تندب حظها التعس. أمرها عقلها ـ وكان لا يزال لها عقل بنت صغيرة ـ بأن تخلع كل ثيابها المبلولة، وقميصها وحمالة صدرها، ففعلت ذلك وهي أشبه بالمغيَّبة. علّقت جميع ثيابها على مسامير صدئة آملة أن تجفف أشعة الشمس العابرة من السقف المثقوب ما بلّلها من بول، ووقفت مثل المسافرين المنتظرين في المغسلة عارية أمام الكلب الذي اهتاج على الفور. وإذ ذاك، حسب حكاية الجميلة، اغتصبها الكلب.

"وأخذ جميع ثيابي معه بعد ذلك".

على أي حال، كان صحيحا أن جمالها الآسر وبراءتها أيضًا أضفيا عليها هالة من الغواية. ومؤكد أيضًا أنه لو صادفها رجل عارية معه في مرحاض المدرسة لأخذها بالقوة. كانت لها غواية ترغب الناس في إقامة علاقة معها سواء أكان ذلك بالتراضي أم بغيره. ولولا أن الجميع كانوا يعرفون أباها وشرَّه وفساده ويخشونه لما بقيت عذراء إلى اليوم الذي اغتصبها فيه الكلب.

وما كان مامان جيندنج ليتردّد عن قتل أي رجل يتجاسر على لمس ابنته برغم أن جمال الفتاة كان استفزازا مسموما أينما مضت. ففي بعض الأحيان وهي واقفة على جانب الطريق في انتظار الأتوبيس، كان طهرها الطفولي يدفعها إلى أن ترفع غافلة جيبتها لتعض على طرفها. وإن هبَّت ريح حارَّة لا ترحم فقد تفكّ بعض أزرار قميصها. كان يمكنك أن ترى البشرة الناعمة على ربلتي ساقيها وفخذيها، تلك البشرةالتي لم تؤتها غير الحوريات، وانحناءات نهديها الجميلين التي لا تتوافر إلا للبنات في السادسة عشرة. ولكن خير لك ألا تمعن في تذوق تلك الإثارة، لأنك إن فعلت فسيكتشف مامان جيندنج أمرك عاجلا أم آجلا ـوهو أشد على الناس من أي دوكون يمارس السحر الأسودـ ويعرف أنك كنت تنظر إلى ابنته في شهوة، فلا يتركك إلا كومة مرمية في المستشفى لستة أشهر.

في أوقات كتلك، كانت فتاة شابة أخرى ذات جمال آخر، هي نور العين، صديقة الجميلة منذ أن كانتا طفلتين في مهديهما، تمارس

دور حامية الجميلة الفاتنة. فكانت تسارع إلى إنزال جيبتها، أو تربط أزرار قميصها قائلة "لا تفعلي هذا، عيب".

وحينما وقفت رينجانيس الجميلة عارية أمام الفصل، بطول مائة وسبعة وثلاثين سنتيمترًا، ووزن أربعين كيلوجراما، بهدوئها الطبيعي، وجسمها الناضج المشع، وشعرها الطويل الفاحم كأنه نهر من الحبر، أجمل هندية في هاليموندا، وريثة جمال أمها وآثار آسرة من أسلافها الهولنديين، بعينين زرقاوين تلمعان وهي ناظرة إلى الفصل الصامت الحزين، لا تعرف لماذا فغر الجميع أفواههم فجأة كأنها أفواه تماسيح بقيت أسابيع تنتظر فريستها، وإذا بآي التي كانت بغريزتها مستعدة دائمًا للتعامل مع الغرائب التي تفعلها الجميلة تنهض من مقعدها وتجري في الممر بين مقاعد الفصل، وتتناول مفرش منضدة المعلم (ملقية بكأس كان عليها فيطير ويسقط حطاما على الأرض وبحقيبة المعلم الجلدية السوداء فترتطم بالسبورة لافظة محتوياتها، وبمزهرية وكتب تناثرت جميعًا). لفّت المفرش على جسم الجميلة، فبدت أشبه ببنت صغيرة ملفوفة بمنشفتها بعد الاستحمام.

ربما تكون آي قد ورثت شخصيتها الحازمة عن أبيها، شودانتشو، لكنها في ذلك الحين، نظرت إلى التلاميذ بدون أن تضطر إلى النطق بأي كلمة، فغادرواالفصل هم ومدرس الرياضيات الهرم على الفور. وفيما هم خارجون كانت كلمات الأسف وأنات الخيبة تتعالى منهم إذ يسيرون بينهما.

"اللعنة! كلب؟! ألم يكن أحد منا أولى باغتصاب رينجانيس الجميلة؟"

ذهبت بنات قليلات إلى قاعة الرياضة يبحثن عن زي كرة القدم لتستبدله رينجانيس الجميلة بمفرش المنضدة الملفوف على جسمها.

في الوقت نفسه تقريبًا، وقعت لمايا ديوي ـوالدة رينجانيس الجميلة وزوجة ماما جيندنجـ حادثة منزلية بسيطة لكنها مثيرة للقلق. كانت تنظف البيت حينما تغوّطت سحلية كانت جاثمة على غطاء مصباح السقف فوقع غائطها على كتف مايا ديوي. لم تقلقها الرائحة أو القذارة، ولكنها كانت تعلم أن غائط السحالي الساقط ينذر بوقوع كارثة ـ كانت علامة.

كانت مايا ديوي تحظى خلافا لزوجها باحترام عظيم من أهل المدينة الذين كانوا لا يبالون بكونها ابنة ديوي آيو عاهرة المدينة الشهيرة. كانت امرأة هادئة ودودا ومتديّنة، وكان الناس يرونها فيغفرون لابنتها طبيعتها الطفولية المزعجة وغرائز زوجها الآثمة. كانت مايا ديوي تحضر خِمسان الصلوات التي تقيمها النساء ليلا وآحاد الآريسان[٤٧] التي تقام عصرا، وتختلط بالجميع وتتبرّع بالمال ليانصيب النساء. كانت تضفي

47 لقاءات دورية لتنظيم ما يشبه الجمعيات، حيث يجتمع عدد من الناس في بيت أحدهم (ويختار عشوائيا) فيحصل من كل واحد منهم على قدر من المال يرده في مرات إقامة الآريسان التالية.

على أسرتها شيئًا من مظاهر التحضر، بكسبها لقمة عيشهم من عملها اليومي في خبز البسكويت هي والبنتين الجبليتين اللتين كانتا تساعدانها.

بعد لحظات من تنظيفها غائط السحلية وتوجيهها إحدى الفتاتين إلى كنس الغرفة الوسطى بدلًا منها، كان وجهها ـالذي لم يزل أصلها الهولندي حاضرا فيهـ ممتقعا كوجه جثة عمرها يومًان. جلست في الشرفة متخوفة من أن يكون خطب قد ألمّ بزوجها أو ابنتها. كانت أمور كثيرة بسيطة قد وقعت لهم بطبيعة الحال فلم يذهب تفكيرها إلى تلك الأمور، ولكنها كانت تشعر دائمًا بأن شيئًا ما كبيرًا سوف يقع آجلا أم عاجلا، وكل ما في الأمر أنها لم تكن تعلم طبيعته. لم تكن تملك من أمرها إلا القلق. اللعنة على غائط السحلية.

في مثل ذلك الوقت بالطبع يكون مامان جيندنج في محطة الأتوبيسات كالمعتاد. لقد قتل من أجل الحصول على ذلك الكرسي، وطالما تخوّفت مايا ديوي من أن يقتله شخص للحصول عليه، ومهما كان سوء ذلك الرجل، فقد كانت تحبه بقدر ما كانا يحبان ابنتهما، فلم تكن مايا ديوي ترغب في حدوث ذلك. كانت ترجو أن يكون زوجها محصّنًا بالفعل من الأسلحة مثلما زعمت شائعات هاليموندا دائمًا.

قاطع أفكارها وقوف بيكاك أمام البوابة. نزلت الفتاتان فميّزت بينهما ابنة شودانتشو، ثم ابنتها. لم تدر سببا لرجوعهما مبكرتين هكذا إلى البيت، ولماذا كانت رينجانيس الجميلة ترتدي زيّ كرة القدم بدلًا من زيّها المدرسي. نهضت في قلقِ دجاجةٍ على أفراخها، بينما تدخل

الفتاتان الفناء لتقفا أمامها. ودت لو تسألهما عما جرى، فنظرت إلى نور العين لكن وجهها بدا ممتقعا كوجه جثة في يومها الثالث. كانت آي على شفا البكاء وقبل أن تسنح لمايا ديوي فرصة السؤال عن أي شيء، تكلمت الجميلة.

قالت في هدوء وتركيز "ماما، اغتصبني كلب في مرحاض المدرسة، وربما أحمل".

انهارت مايا ديوي في كرسيها، بوجه كوجه جثة في يومها الرابع. هي من الأمّهات اللاتي لم يغضبن قط، نظرت فقط في يأس إلى الجميلة، ثم سألتها "أي نوع من الكلاب؟"

وسرعان ما انتشر خبر سيئ في المدينة بأن الشمس سوف تشهد كسوفا كاملا في السنة التالية. تنبّأ العرّافون بأنها ستكون سنة مليئة بالحظ العثر، ولو أن رينجانيس الجميلة حملت حقًّا من كلب فقد بدأت الكارثة بالفعل. انتشر الخبر كالطاعون إلى أن علم به كلٌّ أهل هاليموندا إلا والد الجميلة، المسكين مامان جيندنج. وللمرة الأولى نظر الناس إليه نظرة إشفاق وكرب.

على مدار شهر كامل، لم يجرؤ أحد على إخباره، إلى أن جاءه في يوم تلميذ ساذج أخرق أحمق سخيف المنظر يقارب ابنته في العمر، واسمه كينكين. كان يرتدي سترة ضاقت عليه كثيرًا، وبنطالا بُنّيا حائل اللون، وحذاء أبيض رثًا، ونظّارة مدوّرة جعلته أشبه بشخصية في كتاب

مصور. وقد ثارت جلبة هينة لكونه الوحيد الذي جرؤ على الاقتراب من البلطجي الناعس في كرسيه الماهوجني الهزاز المقدس بعد تجرعه كأس بيرة طعمها كروث الخيل. كان بعض الناس يعلمون أنه كينكين ابن حفار القبور الوحيد، ولكنهم تأخروا عن منعه من إزعاج البريمان.

استيقظ ماman جيندنج من غفوته، فوضع كأس البيرة كارها ونظر بشيء من الضيق إلى الولد الذي اكتفى بالوقوف متخشّبا، يدير زرَّ قميصه السفلي بلا توقف إلى أن فقد مامان جيندنج صبره.

زجر قائلا "قل لي ماذا تريد ثم انصرف من هنا".

بعدما مرت دقيقة كاملة، لم يقل الولد أي شيء فتناول البلطجي كأس البيرة ساخطا وصبّه على رأس الصبي.

"تكلم وإلا أغرقتك في روث بقرة".

قال كينكين أخيرًا "أنا عازم على الزواج بابنتك رينجانيس الجميلة".

قال مامان جيندنج سعيدا لا ضائقا "لا يمكن أن تتزوج مثلك. بوسعها أن تتزوج من تشاء، لكنني واثق أنه لن يكون إياك. ثم إنك صغير جدا على الكلام في الزواج".

كان كينكين ورينجانيس الجميلة في فصل واحد في المدرسة، وقال لأبيها إنه يحبها منذ أن رآها للمرة الأولى: كان يرتعش كلما وقعت عليها عيناه، ويظل يرتعش من الشوق حين لا يراها. ويعاني الحمَّى،

والأرق، وحبسة النفس، وكل ذلك بسبب الحب. كان يدسّ سرًّا قصائد حب في دفتر الجميلة، أورسالة مكتوبة على ورق معطر، ولم يأته ردٌّ قط، حتى صار عمليًا ميّتا من الداخل. أكد للبلطجي أنه يحب الجميلة حب روميو لجولييت وراما لشيتا.

"ستكمل دراستها وتصبح طبيبة أسنان كتلك المرأة الثرية في آخر الشارع، فحتى لو أن هناك ما يدعو لزواجكما، فما من سبب ليتمّ الزواج الآن".

قال الولد "بنتك حامل ولا بد أن يتزوجها أحد".

ارتسمت على وجه ماما جيندنج ابتسامة تكلّفها في تساهل. "لا بد أن يغتصبها أحد كي تحمل، وذلك لن يحدث إلا على جثتي".

"اغتصبها كلب في حمام المدرسة".

ازداد ماما جيندنج انبساطا وطرد الولد المزعج الذي أسكره الحب وهو يقول له إنه إذا كان يحب ابنته فعلًا فعليه ألا ييأس.

وعند العصر رجع إلى البيت، ونسي بسرعة الأمر كله. لم تكن رينجانيس الجميلة قد قالت أي شيء، ولا زوجته، فظنّ أن كل شيء على ما يرام وذهب لينام قيلولته كالمعتاد. عندما أيقظته زوجته للعشاء في السابعة وأشعلت البخور على الفحم لإبعاد الحشرات تذكر كينكين وسأل زوجته إن كان ولد جاءه وقال إن الجميلة اغتصبها كلب في مرحاض المدرسة أم أن ذلك كان حلما.

قالت مايا ديوي "هي حكت لي مثل ذلك قبل أسابيع".

"ولِمَ لمْ تحكي لي أيّ شيء؟"

"كان على الكلب أن يقتل كلينا قبل أن يجرؤ على اغتصابها".

في الأسابيع القليلة التالية ظلت تلك الشائعة تسيطر عليهما. والواقع أن أحدًا لم يصدق ما حكته، فكان الناس بين ظان أنها تستلفت إلى نفسها الانتباه أو متخيل ما شعر به ذلك الكلب المحظوظ، ولكن بسبب وضعها المثير للشفقة وضعت النسوة المتدينات أيديهن على قلوبهن ودعون لها بالسلامة.

قال البلطجي في هدوء "ما لأحد أن يمسّها، ليس ونحن على قيد الحياة".

كان قد سمَّى ابنته باسم إلهة الجمال في المدينة، ولكنه في ذلك الحين تذكّر أن الأسطورة تقول إن الأميرة رينجانيس تزوجت كلبا.

قال في يقين "ليست حبلى، لكن لو تبيَّن أن الكلام صحيح فسوف أقتل كل كلب في المدينة".

استسلمت الأسرة لروتينها متجاهلة كل الشائعات، ولم يكن غريبًا في نهاية المطاف على الجميلة أن تثير اللغط. كانت قد ألقت ذات مرَّة بهرة في إناء زيت يغلي، وخرّبت عرضًا للسيرك حينما قامت بوازع من الفضول من مقعدها وخلعت عن المهرج قناعه. عادت مايا ديوي إلى الإشراف على الفتاتين القرويتين وعاد مامان جيندنج إلى موقعه، ولعب الورق مع شودانتشو عند العصر.

لسنوات طوال كان يبدّد ملله في لعب الترامب مع شودانتشو وصحبة تناوب فيها بائعو السردين والخضراوات وحمالو السوق وسائقو الريكاشة. لم يتوقف اللعب إلا خلال الأشهر الستّة التي ذهب فيها شودانتشو إلى الحرب في تيمور الشرقية، ولكنه في أغلب الأيام كان يركب دراجة نارية بغير خوذة قرابة الثالثة عصرًا، فكان صوت دراجته كأنه محرك مضرب الرز مألوفا حتىإن البلطجي كان إذا سمعه في قيلولته استيقظ. كان شودانتشو أقصر قامة وأشد نحولا من أغلب الجنود، لكن ذلك كان يختفي وراء زيه العسكري الأنيق - الزي الأخضر الداكن المموه والحذاء العسكري المصنوع من جلد التمساح والمسدس والهراوة الخشبية المتدلية من خصره. كانت بشرته داكنة وفي شاربه بدأت تظهر شعرات رمادية. وكان أغلب الناس قد نسوا اسمه الحقيقي، وأنه كان قائد فصيلة في الثورة على اليابانيين.

في عصر يوم خميس، وعلى منضدة الورق مع صبي جزار البقر وتاجر السمك، بدأ الطقس بإلقاء شودانتشو علبة سجائر أمريكية بيضاء على المنضدة. قبل خلط الورق انقضّ الرجال الأربعة على السجائر، فصار دخان التبغ يختلط برائحة السمك المملح والخضراوات العطنة.

قال شودانتشو "آها، ها هو الجوكر، ما جديد جوكرك؟"

كانت عداوة الاثنين الهشّة قد تجمّدت بفضل صداقة ابنتيهما المزدهرة، وفي الماضي حين كانت الجميلة ونور العين لا تزالان صغيرتين تبولان في سرواليهما، كان أبواهما يعطيان كلا منهما ورقة جوكر

لتمسكها بيدها الريانة الصغيرة فتشعر بأنها جزء من اللعبة وإن لم تعطلها، لأن الجوكر لا يستعمل إطلاقا في الترامب، فباتت ورقتا الجوكر تمثلان ابنتيهما.

قال مامان جيندنج "جاءني عيل بمخاطه يطلب يدها للزواج".

كانت النمائم والأقاويل مستشرية في هاليموندا، فكان شودانتشو يعرف بالفعل هذا الأمر، مثلما كان يعلم بالضجة التي أثيرت في الفصل. ولكنه بدا مترددًا عن الكلام.

قال مامان جيندنج ناظرا إلى أصدقائه الثلاثة، موليا اهتمامًا خاصا بشودانتشو "لا أستطيع أن أتخيلها وهي تتزوج وتنجب فأصبح أنا جدا. إنها لا تزال في السادسة عشرة".

"مثل جوكري".

كان الناس قد سمعوا باعتزام شودانتشو أن يتقاعد في السنة التالية. فلم تكن الإصابة التي لحقت به في تيمور الشرقية قد شفيت قط تمام الشفاء، وكانت الرصاصة لم تزل ساكنة في ربلته. كان التقاعد على رتبة العقيد كفيلا بأن ينهي الجدل حول احتلاله موقعه لوقت طويل للغاية وإحكامه السيطرة على المنطقة العسكرية في المدينة، وهو موقع أدنى بكثير من مركزه، وهو الذي قاد ثورة كتيبة هاليموندا وحطم ثكنات اليابانيين قبل ستة أشهر من الاستقلال فصار في صدارة المرشحين لتولي منصب القائد الأعلى. لكنه لم يترك هاليموندا قط، ولم يقد الجيش الوطني. وكان قد أصبح عقيدا في أثناء مطاردته جيش الحلفاء في أثناء

العدوان العسكري، لكنه بعد ذلك لم يطمح إلى الترقي في الرتبة مطلقًا. وبعدما قضى على جميع الشيوعيين، رفض عرضا بأن يكون مساعدا لرئيس الجمهورية. ففي ظل وجود زوجة وابنة يحبهما حبا كبيرًا، لم يكن لديه من سبب للرحيل عن المدينة، ثم بات مهيأ للتقاعد.

سأل "سمعت أن رينجانيس الجميلة اغتصبها كلب؟"

غمغم مامان جيندنج "هاليموندا مليئة بالكلاب".

اندهش شودانتشو مما قاله، كانت في المدينة كلاب كثيرة، لكنه لم يسمع أحدًا اشتكى منها.

واصل البلطجي في برود "ولو صحَّ ذلك، أعني ما جرى في مرحاض المدرسة، فلديّ سمٌّ كاف للكلاب منذ أن ماتت تلك العاهرة بداء الكلب قبل سنتين. ومهما يكن الذي حدث لابنتي، هناك من الأسباب ما يكفي لإرسال كل هذه الكلاب إلى مطابخ الباتاك[48] آكلي الكلاب".

لم يبد أنه يخاطب أحدًا بعينه، لكن أصدقاءه على منضدة الورق كانوا يعلمون أن ذلك الكلام كله موجَّه لشودانتشو. فقد كانت أغلب كلاب هاليموندا كلابًا مهجنة من الأيائك التي استؤنست منذ بدء شودانتشو صيد الخنازير. ومنذ زمان بعيد، منذ أن جاءت الأميرة رينجانيس إلى الدغل الغارق في الضباب الذي تحول بمرور الزمن إلى

---

48 سكان الجزء الشمالي من سومطرة

هاليموندا، كان الجميع يعلمون أن كلبا كان برفقتها. ولكن أحدًا لم يستأنس الكلاب ويربِّها قبل شودانتشو.

أخيرًا قال شودانتشو "أرجو أن تكون محض نميمة".

وردَّ البلطجي بجفاء "أو مجرد حلقة أخرى من حماقات ابنتي". وتذكر الساحرالذي جاء ليجعل ابنته مثل بقية البنات. كان البعض يقولون إنها ملبوسة بروح شريرة، بينما قال البعض إن كل ما في الأمر أن روحها تستعصي على الكِبَر: فهي بنت في السادسة بداخل شابة في السادسة عشرة. وبغض النظر عما كان يقال، لم يتيسَّر عمل أي شيء. "وتعلمون أنني لكي ألحقها بالمدرسة كان لا بد أن أضرب ثلاثة مدرسين هناك"، وتساءل وقد فقد دافعه إلى اللعب "هل أنتم أيضًا تريدون أن تضحكوا عليها؟"

قال شودانتشو "طول عمرنا يا رجل يضحكنا الجوكران".

قام مامان جيندنج، وبينما هو سائر إلى البيت هبَّت الريح من التلال وأمكنه أن يسمع هدير موج المحيط. وطار في الريح سرب وطاويط يتخبّط كالسكارى في سماء بلون برتقالة. كان الصيادون يخرجون من بيوتهم بالمجاديف والشباك وكتل الثلج، ومن الناحية الأخرى كان عمال المزارع راجعين إلى البيوت بمناجلهم وسلالهم الخاوية. وأقلقه الطقس الغائم.

لكنه بمجرد أن رأى شجرة ثمرة النجمة، والفيربانا المزهرة، والسابوديلا الظليلة، في فناء بيتهم الأمامي حتى انتعشت روحه. كان

بيته دائمًا ما ينقذه من عواصف الكآبة، لكنه في تلك المرّة وجد زوجته جالسة تبكي أمام طبق الغسيل.

قالت المرأة المتزنة مايا ديوي بنبرة غاضبة "أخشى أن تكون حبلى.مرَّ شهر ولم أجد أيّ دم في سراويلها"، وقلبت طبق الغسيل مبعثرة ما فيه على الأرض.

قلّب البلطجي الكلام في رأسه ثم قال بيقين "لو تبيَّن أن هذا صحيح، فقد لا يكون كلبا، وعموما، لو أن لأحد أن يغتصب أحدًا، فابنتي هي التي ينبغي أن تغتصب الكلب".

فشل كينكين إذن في طلب يدها في محطة الأتوبيس، فألقى بنفسه بين ذراعي هوايته الجديدة، إذ مضى يصطاد الكلاب الضالة في المقابر ويقتلها ببندقيته الرش. كان الوحيد الذي صدَّق رينجانيس الجميلة وأن كلبا اغتصبها، وبنار من غيرته، قرَّر ألا يبقى كلب حيا في منطقة نفوذه. وحينما كانت الكلاب تندر، كان يشتري صور كلاب مما يباع في أول السوق ويعلقها على أغصان شجرة الفرانجيباني ويطلق عليها طلقاته حتى يمزقها إربا. ولم يعلم بهذا السلوك الغريب إلا أبوه، فقلق عليه.

سأله أبوه "ماذا بك يا بني؟ خطيئة الكلاب الوحيدة هي نباحها الكثير".

ردَّ في برود وبدون أن يلتفت إلى أبيه، وبدون أن يحيد ببندقيته وطلقتها الأخيرة عن الملصق المتمايل على الشجرة "الكلاب كلاب. وكلب منها اغتصب المرأة التي أحبها".

"لم أسمع عن كلب اغتصب امرأة، إلا لو كنت وقعت في غرام كلبة".

قال كينكين "كفى هراء، وارجع إلى البيت يا أبي، فالطلقة الأخيرة مخصَّصة لكلب لا لك".

كان الوقوع في الحب قد أزال عن الولد أي هالة من الغموض كانت تحيط به، أو ذلك على الأقل ما بدا لزملائه في الفصل. لم يكن أحد قبل ذلك يرغب في اللعب معه، ولا هو كان يرغب في اللعب مع أحد. كان أقرب أصدقائه مجموعة من الأولاد الذين ما لأحد أن يحبهم: هم كائنات الجيلانجكونج.لم يكن له حتى زميل في المقعد، لأن زيه المدرسي كان يفوح دائمًا برائحة الأكفان، ولم يكن المدرسون يطلبون منه أن يجيب سؤالا لأنه في بعض الأحيان كان يجيب بصوت شخص ميت. وبرغم أن الأطفال الآخرين كانوا يعلمون أنه يغش الإجابات الصحيحة في الامتحانات من كائنات الجيلانجكونج لم يكن أحد ليجرؤ على الوشاية به أو طلب مساعدة منه. كان أشبه بالسرَّة، يعرف الجميع بوجودها، ولا يلتفت إلى وجودها أحد. وذلك قبل أن يرى الجميلة.

كان قد رآها للمرة الأولى في اليوم الذي التحقت فيه بالمدرسة: بعد تسع سنوات دراسية مملة، اندلع شجار في المكتب وهرع الأطفال يرون ما يجري. ربما كان كينكين آخر شخص يرى أن رجلا طرح ثلاثة مدرسين على الأرض بعدما رفضوا قبول ابنته في المدرسة واقترحوا عليه إلحاقها بمدرسة للمتخلفين والبلهاء والمجانين، وهي فكرة رفضها الرجل قائلا إن ابنته على خير ما يرام.

وقال الرجل وهو يحملق في المدرسين الثلاثة المطروحين على الأرض والناظر المرتعش وراء مكتبه إن "الشيء الوحيد الذي يجعل ابنتي مختلفة هو أنها أجمل فتاة في هذه المدينة كلها، إن لم تكن في العالم كله".

كانت البنت واقفة وراء أبيها، ترتدي زيًّا مدرسيّا أبيض ورماديا جديدا، لا تزال تفوح منه رائحة زيت المكنة، وفي جيبتها طيَّات حادّة. وكانت قد ضفرت شعرها الطويل ضفيرتين تصلان حتى خصرها عن يمين ويسار، منتهيتين بشريطين أحمر وأبيض على سبيل الاحترام للعلم الوطني. وكانت ترتدي الحذاء الجلدي الأسود المطلوب، وجوربين قصيرين فيهما زهور صغيرة تحيط بحافّتيهما، أما ربلتها العارية فكانت أكثر فتنة من كل ما كانت ترتديه. كان واضحا تمامًا أنها ليست بلهاء، لكل ذي عينين، بل حتى لكينكين الذي كان يراقب من وراء زجاج شباك المكتب. لم تكن أقل من ملاك، ضائع في هذا العالم الشائه، ومنذ تلك النظرة الجليلة الأولى، انسحق كينكين أمام طوفان حب محموم لا لجام له. وبرغم أنه لم يكن قد تكلم من قبل مع أحد في المدرسة، فقد اقترب من الفتاة مصعوقا بسهم كيوبيد وسألها عن اسمها. بدا على الفتاة الارتباك فأشارت إلى الشارة الصغيرة المثبتة على قميصها فوق ثديها الأيمن وقالت "يمكن أن تقرأه هنا، رينجانيس".

كان جميع التلاميذ يحملون شارات بأسمائهم على صدورهم، ولكن كينكين لم يتمكّن من التركيز حينما أشارت بطرف إصبعها الرشيقة،

وبدلًا من الشارة حملق في الثدي. وبقي يرتعش طوال ما بقي من ذلك اليوم، معانيًا وحده في ركن من الفصل.

وازدادت معاناته، وهو يشعر بحملقة زملائه، وقد أذهلهم أن يسمعوا أنه نطق للمرة الأولى منذ المدرسة الابتدائية. لم يجرؤوا على السخرية منه، فقد كانوا يخشون أن يلحق الصبي الغريب بهم الأذىبشعوذة أو بسحر أسود. إلا فتاة واحدة، بدت في الفصل وكأنها حارسة رينجانيس الجميلة، وجدت الشجاعة واقتربت منه.

هدّدته قائلة "اسمعني يا ولد الجيلانجكونج، إذا ضايقت صديقتي الصغيرة هذه، فسوف أقطع قضيبك شرائح مثل الجزرة".

مضت آي بسرعة فجلست بجوار الجميلة، تاركة كينكين دامع العينين تقريبًا، متخيّلًا كل العقبات التي سيكون عليه أن يقهرها لكي ينال حب من يشتهيها كل هذا الاشتهاء. وآي كانت بالنسبة له أكثر كائنات الكوكب إزعاجًا. فلم يمرّ يوم إلا وارتجى فيه أن يرافق الجميلة في رجوعها إلى المدرسة، فقد كان المشي برفقتها بطبيعة الحال أقصى نشوة يمكن أن يصل إليها خيال تلميذ عاشق، ولكن آي كانت دائمًا ما تقهره، ففي ضيق شديد قال لها ذات مرة "لا بد أن شخصًا ما سوف يقتلك".

"ويمكن أن تكون أنت هذا الشخص لولا أنك مخنث".

لكنه لم يبال، وضاعت عليه كل فرصة للمشي بصحبة الجميلة من المدرسة إلى البيت فلم تكن له من سعادة إلا في الفصل حين كان يتسنى

له أن يلتفت إلى الجميلة، شاخصًا إلى وجهها قدر ما يشاء. صار أبلد تلاميذ المدرسة، إذ لم يعد يعير اهتمامًا للدروس جميعًا، ولم يكن له معين في الحصول على الدرجات اللازمة إلا أرواح الجيلانجكونج التي كان يغش منها في الامتحانات، كما أنه نحل بصورة مريعة لقلة أكله وقلة نومه وقد نهشه الحب.

قالت له الجميلة مرة "أنت تبدو أسوأ حالًا مني. أنت أبله حقيقي".

اصطحبوها إلى المستشفى، فقال الطبيب قاطعًا إن الفتاة حبلى منذ سبعة أسابيع. حاول مامان جيندنج ومايا ديوي ألا يصدّقاه، ولكن خمسة أطباء آخرين فحصوها وقالوا مثل ما قاله. ومثلهم قال الساحر.

في ظل هذا اليقين الجديد كان أول ما فعله أبوها هو أن حبس الفتاة في غرفتها منعًا لانتشار أي شائعات أخرى. كم حاولت مايا ديوي أن تهرب من ظل ماضيها، من أمها العاهرة التي أنجبت الكثير بدون أن تتزوج قط، ولكن ها هو مصير رينجانيس الجميلة يؤكد أن اللعنة لا تزال سارية في سلسالها. صار الناس يقولون إن هذه الأسرة الفاسدة ستظل تنجب أبناء حرام. فاتفق الزوج والزوجة على حبس الفتاة، راجيين أن ينسيا عاجلا أم آجلا أن لديهما ابنة مراهقة حبلى.

كانت غرفتها في الطابق الثاني، عالية لا يمكن القفز منها، وبابها كان موصدا بإحكام من الخارج. لم يكن لها من رفيق إلا دبدوب، وكومة من الروايات التافهة، ومذياع. كانت مايا ديوي تتولى بنفسها

جميع شؤونها، فتحضر لها الإفطار والغداء والعشاء، والنونية، ودلاء الماء للاستحمام. وبرغم أن الفتاة كانت تبكي طالبة الرجوع إلى المدرسة، فقد كانت أمها ترفض في حسم. كانت الفتاة تقول في تضرّع "أعدك بأن أحذر الكلاب" فتنفجر مايا ديوي باكية وقائلة وسط نشيجها "لا يا حبيبتي، إلا لو قلت من الذي اغتصبك في مرحاض المدرسة".

كرّرا عليها السؤال المرة تلو المرة، فلم يفض ذلك إلى شيء، إذ أصرّت الفتاة في عناد مدهش على ردّ واحد لا يتغيّر: كلب بني الفراء أسود الخطم. وكان مثل ذلك الكلب شائعا في شتّى أركان هاليموندا، وما كان من سبيل إلى السؤال عن الكلاب المماثلة كلبا كلبا. ولما فشلت في الحصول على تفسير منطقي من الجميلة، حبستها مايا ديوي وتركتها، ومضت الجميلة تصيح وتصرخ، طالبة الخروج والرجوع إلى المدرسة. وكان بكاؤها موجعا، وزاعقا بالطبع إلى حد الصمم، كأنه صراخ طفلة ابتل قماطها فمضت تزعق بلا سبيل إلى السيطرة عليها، حتى صار الجيران يخرجون من بيوتهم ويرفعون أعينهم إلى شباك الطابق الثاني، بل وصار المارة يتوقفون في الطريق أمام البيت ويتهامسون. اقترح ماман جيندنج أن يبعدوا البنت، فاعترضت مايا ديوي على الفكرة وأصرت على إبقائها في غرفتها قائلة "حياة العار خير من فقدان ابنتي".

وأخيرًا يئسا وأرجعاها إلى المدرسة. ولم يكن ذلك سهلا، إذ ليس مسموحا للبنات الحوامل بالبقاء في المدرسة. فقد كانت إدارة المدرسة ترى أن في ذلك تأثيرا سلبيا على بقية البنات. وللمرة الثانية جاء مامان جيندنج إلى المدرسة، ومرة أخرى دخل إلى مكتب الناظر بدون أن يطرق

بابه، ليضمن عدم طرد ابنته. بدا الناظر التعيس مهموما بحق. فمن ناحية كان عليه أن يتعامل مع آباء بقية التلاميذ القلقين على بناتهم بعد أن أثبت ما حدث لرينجانيس الجميلة أن المدرسة غير آمنة، وفي المقابل، كان عليه أن يتعامل مع هذا البلطجي الذي ما كان لأحد من الشجاعة ما يجعله يقاومه. جفّف الناظر عرقه البارد الذي أخذ يتفصّد عنه جبينه وعنقه.

قال "تمام يا صديقي الطيب، ما دامت لم تتخرَّج، فبوسعها أن تبقى هنا، لكن أرجو أن تساعدني وتعثر على من فعل هذا في ابنتك لكي أسترضي آباء بقية التلاميذ، ولي رجاء آخر، أحضر لها ثيابا واسعة".

تذكر مامان جيندنج إذ ذاك الولد كينكين. فانسحب من منضدة الترامب عند العصر وقصد بيت كامينو حفار القبور بحثا عن الولد. وكما في الأيام السابقة، كان كينكين مشغولا بالتصويب على صور الكلاب. في البداية أعجب مامان جيندنج ببراعة تصويبه وإن لم يدر لم اكتسب الولد تلك العادة الغريبة. بعدما أطلق كينكين عددا من الطلقات حتى تناثرت مزق الصورة على الأرض، التفت إلى البريمان واقترب منه بدون أدنى دهشة.

وسأل في تباه "ترى ما أقوم به، أليس كذلك؟". لم يفهم البلطجي شيئًا على الإطلاق لكنه أومأ إلى أن أوضح الولد "أنا أقتل جميع الكلاب بل وجميع صور الكلاب. أكرهها وأحسدها، لأن كلبا منها اغتصب ابنتك وأنت تعرف أيّ حب لا يوصف أكنُّه لها".

أخذ كامينو يرقبهما من مكانه بجوار البيت. كان غريبا أن يحضر أبشع مجرمي المدينة بحثا عن ابنه، لكنه اقترب وبأشد ما يملك من تهذيب دعا الرجل إلى فنجان قهوة. جلس مامان جيندنج وكينكين في غرفة المعيشة الأمامية المليئة بتنويعة غريبة من الأغراض المتخلفة عن الموتى. بعدما أعد كامينو القهوة ترك الاثنين وخرج، وسأل مامان جيندنج الولد "قل لي، من اغتصب رينجانيس الجميلة؟"

نظر إليه الولد حائرا وقال في يقين "أعتقد أنك تعرف بالفعل: كلب، في مرحاض المدرسة". لم تكن تلك هي الإجابة التي أتى من أجلها مامان جيندنج، بل إنها ساءته قليلا في حقيقة الأمر، وإن أدرك بوضوح أن الولد لا يعرف أي شيء غير ما قاله، وأنه لا يعلم حقيقة ما جرى في مرحاض المدرسة غير رينجانيس الجميلة والله. تجرّع قهوته لمجرد أن يهدّئ نفسه.

بدا وكأنه في مواجهة لغز لا حلّ له. كان يؤثر تمامًا لو أنه في مواجهة عدو في قتال مهلك على أن يواجه مغتصب ابنته المجهول. جلس أمام الصبي ولم ينطق كلمة أخرى وبدأ يدرك أن الوقت تأخر. وبرغم أنه تمنّى لو يرجئ الرجوع إلى البيت حتى يحصل على إجابة شافية، فقد نهض ليرحل، كاسرا الصمت بينهما بصوت حاد.

"تمام، يبدو أن هذا هو كل ما نعرفه. والآن لو أن كلبا هو الذي اغتصبها، فلن تتزوج إذن إلا كلبا".

سمع كينكين ذلك فلم يواته النوم، مستعصيا عليه أكثر مما استعصى عليه في الليالي السابقة. فأبقى أباه يقظا طول الليل، وأبقى أشباح المقابر قلقة لا تجد سبيلا إلى الراحة. ولمّا طلع الصباح، سارع يستحم ويغادر مبكرا إلى المدرسة، فجرى أولا إلى بيت رينجانيس الجميلة، ورأى أن أباها متعكر المزاج كأنما استيقظ قبل موعده.

قال لاهثا، بصوت بدا كأنه صادر عن رجل يحتضر "لا يمكن أن تتزوج كلبا. أنا سوف أتزوجها".

وكان هذا أفضل بالطبع، والبلطجي كان يعلم هذا. نظر إلى الولد وتذكّر أول لقاء بينهما في محطة الأتوبيسات. وندم لأنه لم يقبل طلب الولد حينها، قبل أن تتفاقم المشكلة. فأطرق وسأله عن السبب.

"لم يكن الذي اغتصبها كلبا، إنما هو أنا".

كان ذلك سببا كافيا لاقتياد الولد إلى الفناء الخلفي وضربه بلا رحمة، برغم أن اللكمة الأولى فقط طرحته فارتطم بالسياج دامي الوجه. لم يقاوم الولد وما كان له في الحقيقة من قوة فيقاوم حتى لو حاول. جاءت مايا ديوي مسرعة لتوقف زوجها وتمنع قسوته أن تقتل الولد. كان عليها أن تقاتل بكل ما لديها من قوة لتحول بين الولد وزوجها الذي كان لا يزال يسدّد الضربات برغم أن كينكين انهار على كومة عند حافة بركة السمك الصغيرة. لم يكن قد مات بعد، لكنه كان يعاني أشد المعاناة ويئنّ من آلام لا تحتمل.

قال مامان جيندنج بعدما نجحت زوجته في إبعاده عن الولد قليلا "بالطبع لن أقتلك. لا بد أن تبقى حيا لتتزوّج ابنتي".

عند العصر، وبعدما سمعت طول الصباح في المدرسة ثرثرة كينكين عن اعتزامه الزواج برينجانيس الجميلة بمجرد أن تلد طفلها، ذهبت آي إلى المقابر لتقابل كينكين وقد أقلتها دراجة نارية صغيرة يقودها ابن خالتها كريسان.

قالت بغضب "أعرف أنك لم تكن في المرحاض في ذلك اليوم".

ابتسم الصبي لزيارتهما، ولم ينكر ما قالته بل دعاهما إلى الدخول، وشكرهما، إذ كانت تلك هي المرة الأولى التي يزوره فيها أحد من زملاء فصله. لم يكن بيته مبهجا، بل هو بيت قديم ويفتقر إلى لمسة المرأة، فنادرا ما يكنس، ومخلفات الموتى مكدسة فيه في كومات مغبرة مرعبة كأنها حفريات من مقبرة مومياء.

بعد أن جاء إليهما بكأسي ليمونادة باردة من المطبخ، وقال معتذرا عن حالة البيت إن أمه توفيت منذ زمان بعيد، ماتت لحظة ميلاده، أو لعله قال ذلك لتغيير موضوع الحوار، لكن وجه الفتاة لم يبد أي بادرة على الارتياح، بل ظلت تتحيّن الفرصة التالية لتنهال عليه مرة أخرى.

قالت آي "شوف يا مخنث أنت، أنت لم تغتصبها".

قال كينكين في هدوء "طبعا لم أغتصبها، ولا يمكن أن أقسو هكذا معها، ومن يحب شخصا لا يمكن أن يفعل به شيئًا كهذا حتى لو سنحت له الفرصة. أنا تقدمت إليها بالطريقة اللائقة وسوف أتزوجها لأنني أحبها".

سيرث كينكين عمل أبيه وبيته في المقابر. وتلك أشياء كانت تنتقل من جيل إلى جيل لسبب واضح: هو عدم رغبة أحد آخر في هذه الوظيفة. كان جميع أهل المدينة يؤمنون بأن المقابر مليئة بالأرواح الشريرة والغيلان، ولم يكن إلا لعائلة حفار القبور احتمال الحياة هناك عامًا بعد عام. كما كانت الأسرة تتوارث عبر الأجيال معرفتها السحرية والسرية بإقامة العلاقات مع أرواح الموتى باستعمال الجيلانجكونج. وكان كينكين الوريث الوحيد الباقي، بلا أخوة له أو أخوات. ولم يكن خوف أترابه منه راجعا فقط إلى كونه ابن حفار القبور أو إلى مقدرته على اللعب بالجيلانجكونج، بل بسبب وجهه البارد والرائحة العطنة التي تنبعث من جسمه، وكأنه يحمل على كتفيه روحا شريرة أينما ذهب. كان مجرد حضوره صامتا كفيلا بأن ينتصب الشعر في أقفيتهم، لذلك جلس كريسان صامتا أغلب الوقت. لم تكن لديه أدنى رغبة في الحضور، ولولا أن ابنة خالته أرغمته لما حضر.

قالت الفتاة "لا تتصوّر أن معرفتك بالسحر الأسود تخوّل لك أن تفعل ما تشاء".

أشاح كينكين بيده اعتراضا وقال "السحر الأسود لا نفع فيه على الإطلاق. كل ما فيه أنه يمنحك شبه قوة، زائفة ومصطنعة وشريرة بالطبع. وخبرتي الشخصية علمتني أن الحب أقوى من أي شيء آخر".

كان واضحا أن الحب أورثه العناد، وكان بوسع آي أن ترى هذا واضحا. لم تكن ترغب في منعه من حب رينجانيس، بل كانت تريد حماية الجميلة لا أكثر، وكانت تستشعر خطأ ما في هذه الزيجة المعتزمة. وقفت ومدّت يدها لكريسان، وقبل أن يخرجا نظرت إلى كينكين وقالت بعفوية "فلتحب الجميلة إذن من كل قلبك"، وكأنها أم تسدي لزوج ابنتها النصح في يوم الزفاف.

أوما كينكين بثقة قائلا "بالطبع".

وحذرته آي "أمّا لو تبين أن حبك هذا لا يعدو التصفيق بيد واحدة وأن ابنة خالتي الجميلة لا تريدك، فلن أسمح لأحد أن يتزوج منكما. أنا قدري أن أحمي الجميلة، وأن أعمل على أن تكون سعيدة دائمًا".

كان صوتها القاطع يجعل الناس يتفادون النظر في عينيها، فأحنى كينكين رأسه وقال "حاضر. لكن أباها نفسه قبل الزواج".

"ولو".

لم تمهل آي الولد فرصة لقول كلمة أخرى. سحبت كريسان من يده، فسارع الولد يمشي إلى دراجته النارية الصغيرة. وانطلق والفتاة راكبة وراءه يقصدان بيت الجميلة فوجدا البيت في فوضى وصوت صراخ البنت

يتعالىمن الطابق الثاني، وفي الغرفة السفلية رأيا مايا ديوي تبكي في صمت على طرف الأريكة، والفتاتان الريفيتان واقفتان في بله أمام المطبخ في الطرقة. جلس كريسان أمام المرأة بينما جلست آي بجوارها ممسكة يدها وقد ارتسم على وجهها تعبير قلق وحيرة "ما الأمر يا خالتو؟"

مسحت مايا ديوي دموعها في طرف كمِّها، وابتسمت لابنة أختها وابن أختها كأنما تريد أن تقول إن الأمر غير خطير قبل أن تقول "جن جنونها لحظة عرفت أنها سوف تتزوج كينكين".

قالت آي "كان يثرثر بهذا الكلام فعلًا في المدرسة".

قالت مايا ديوي "مسكين الولد. يريد أن يتزوج بنتا حبلى من غيره. يحبها إلى هذه الدرجة".

قالت آي "لا يهمني إن كان يحبها أم لا. رينجانيس لن تتزوج بشخص لا تحبه".

فجأة سكت عواء الجميلة. وقلقوا لوهلة قبل أن تنزل الجميلة جريا على السلم بوجه أحمر متورم كما لو كان قد غرق في ماء مثلج غير مرتدية شيئًا إلا بجامتها. جلست بجوار أمها بدون أن تحاول حتى مسح دموعها.

قالت أمها المسكينة "لو أنك لا تحبين ابن حفّار القبور ولا تريدين الزواج به فأخبريني بالرجل الذي تهتمين به وتتمنينه زوجا لك؟"

قالت الجميلة "أنا لا أحب أحدًا. ولو كان لا بد أن أتزوج فلأتزوج من اغتصبني".

"فأخبرني من يكون".

"الكلب".

كان حملها قد بات ظاهرا، وشأن كل النساء الحوامل، كان جمالها أيضًا قد صار أوضح وأشد إشعاعا. بدا وكأن شعرها الفاحم الذي لم يقصّ منذ سنين ينبع من عتمة غامضة منسدلا حتى وركيها، وبشرتها محمرّة كأنها رغيف ساخن لا يزال بصهد الفرن. كان الناس يعلمون منذ ميلادها أنها أجمل بنات المدينة. كان والداها فخورين بها ويعدّانها نعمة، ولكنهما أيضًا طالما خشيا عليها وأشفقا من الثمن الذي تدفعه: خفة عقلها. كانا يساعدانها دائمًا على أن تظهر في أفضل حال، فيبذل جهد كبير في تضفير شعرها كل صباح قبل الذهاب إلى المدرسة، وفي مسابقة أميرة الشاطئ السنوية أشركها أبوها برغم أنه كان واضحا تمامًا أنها لا تجيد الرقص ولا تغني إذا غنت إلا بصوت تنفطر القلوب من رداءته، لكن جمالها أسكر المحكّمين فوقع عليها الاختيار أميرة للشاطئ.

سألت آي "هل تعرفين أي كلب؟".

هزت رينجانيس رأسها في أسف بالغ. "كل الكلاب تبدو لي مثل بعضها بعضا. ولكن ربما يأتي بمجرد أن يولد ابنه".

"وكيف سيعرف أن ابنه ولد؟"

"لأنه سينبح فيسمعه".

لم يعرف أحد من أين جاءت بتلك الخرافة العجيبة، لكنها بدت في غاية السعادة وهي تتخيلها، فتورّد خداها، وأسكتت الحاضرين. وبدون أن ترغمها على قول شيء آخر، عانقتها أمها وأخذت تمسّد شعرها الطويل قائلة "أتعرفين؟ أمك حملت بك في مثل سنك هذه يا جميلة".

لمّا حل الليل، حكت لزوجها كلّ ما جرى في ذلك اليوم وهي تشير إلى بقايا الفوضى التي أحدثتها الجميلة. جلس مامان جيندنج على السلم بوجه ينضح بالمأساة.

قالت "الجميع يعلمون أن كينكين لم يكن في المرحاض في ذلك اليوم، ورينجانيس لا تريد أن تتزوجه".

"في هذه الحالة علينا أن نرغم ابنتنا على أن تقول من الذي فعلها".

"ولو أصرّت على الصمت؟"

قال زوجها "لو أصرّت على الصمت أزوّجها أيّ شخص يرغب في أن يكون زوجا لها، ما دامليس كلبا".

وأصرّت على الصمت، وبالطبع كان كثير من الرجال يرغبون في الزواج بها، ولكن الذي تحلّى بالجرأة فتقدّم لطلب يدها واحد منهم فقط، هو كينكين، وبرغم رفض رينجانيس الجميلة، بدأت الاستعدادات للزفاف مع اقتراب موعد ولادتها. ولم تكن رينجانيس

الجميلة غافلة عن تلك الاستعدادات، لكنها على غير المتوقع قابلتها بهدوء قائلة إن الولد هو الذي سينتهي مستاء نادما.

ووجدت الفتاة آي نفسها غارقة في وحل ذلك الموقف. قالت "لو أرغمناها فستفعل شيئًا رهيبا" فقد كانت تعرف كيف هي رينجانيس الجميلة، وأبواها أيضًا كانا يعرفانها لكن بدا أنهما لا يباليان. كان يكفيهما أن تكون مايا ديوي طفلة غير شرعية مجهولة الأب لديوي آيو شأن أختيها الكبريين، ولم يرغبا للجميلة في مصير كذلك. حتى ماما جيندنج الذي لم يقم قط حسابا للفضيلة، حزن حزنا عميقا ـ لقد اغتصب شخص ابنته، ولم يعرف هو شيئًا عن كل ذلك، وهو الرجل الذي لا تخشى المدينة كلها أحدًا مثلما تخشاه. شعر بأنه في مواجهة أشرس عدو قابله على مدار حياته.

قال في حزن "لقد منحتها اسم رينجانيس، والأميرة رينجانيس كما يعلم الجميع تزوجت كلبا".

وفيما كان يوم الزفاف يقترب، بدأ يجري اتصالاته لاستئجار كراسي لحفل الزفاف. وتقديم عرض لأوركسترا ميلايو في الشارع أمام بيته. وكان يفعل ذلك كله لأنه لا يعرف ما الذي يمكن أن يفعله خلافا له.

قالت آي "لا ينبغي أن تفعل هذا يا عمو. رينجانيس لا تريد هذا الزفاف. لماذا ينبغي لأي فتاة حامل أن تتزوج؟"

لم تكن به رغبة في الاحتكاك بسلاطتها فواصل الاستعداد للزفاف كما لو أنه حفل زفافه هو. أكّد الطبيب موعد ولادة الطفل الآخذ في النمو في بطن الجميلة، فقرَّروا أن يتم الزواج في اليوم التالي مباشرة لذلك. ثم لمّا ولد الطفل بمساعدة قابلة، أصرَّت رينجانيس الجميلة مرة أخرى أنه ابن كلب، بينما أصرَّ والداها على جلوسها في كرسي العرس. وأمام ذلك، وقبل ليلة من زفافها، اختفت رينجانيس الجميلة هي وطفلها.

قال أبوها "لا بد أن تكون في بيت آي". بحث الناس عنها هناك، ولكن حتى آي لم تكن تعرف ما جرى. وانتشر الذعر. ورجعوا راجين أن يعثروا عليها في البيت، فلم يجدوا غير رسالة قصيرة كتبت على قصاصة ورق "سأتزوج بكلب".

١٦

اعتراف: كريسان هو الذي نبش قبر آي ودفن جثتها أسفل سريره.

في ما مضى من الأيام، كان يقف كلّ صباح في شباك غرفته ناظرا إلى شرفة بيت شودانتشو الخلفية. وبالطبع كانت آي حية أيامها، فكان يقف في شباكه منتظرا أن يراها عند خروجها، وهي لم تزل ناعسة، تقصد أن تغسل وجهها في الصنبور الذي يصب في بركة السمك. وفي المكان نفسه يقف عند العصر من كل يوم، ينظر إلى آي وهي تثرثر مع أمها بينما تقطّعان دجاجة أو تجهزان بعض السبانخ المائيةللعشاء، لكن آي في عصر هذا اليوم بالذات لم تكن موجودة، لأن آي ماتت، ودفنت جثتها تحت سرير كريسان.

كان يتخيّل أن الناس عرفوا بالفعل بأمر القبر المنتهك، ويتصوّر شودانتشو الذي بدأت تظهر عليه علامات الشيخوخة وإن لم يزل محتفظا بمنصبه رئيسا لمنطقة هاليموندا العسكرية، حين يسمع أن من نبش قبرها كلب. لن يصدق بالطبع أن كلبا هو الذي فعل ذلك بقبر ابنته الثالثة، فقد حفر ذلك القبر على عمق كبير بدعم من ألواح خشب قوية.

فلعل شودانتشو يقول "هذا أمر لا يقدر عليه إلا إنسان، ولعل الوحيد الذي قد يقدم على مثل ذلك هو مامان جيندنج".

كان كريسان يسعد حينما يتجاوز بذكائه عقول الآخرين. كان يعلم أن شودانتشو بقي يكنّ ضغينة قديمة للبلطجي مامان جيندنج الذي ما كان لينبش مطلقًا قبر آي، فكل ما كان يفكر فيه البلطجي هو أن ترجع إليه ابنته رينجانيس الجميلة مرة أخرى بعدما هربت. ولنكرِّر: كريسان هو الذي حفر القبر، والجثة الآن تستريح باعتناء أسفل سريره، ولقد أدهشه أن أحدًا لم يرْتَبْ في كونه هو الذي فعل ذلك.

والحقيقة أنه نبش القبر على النحو الذي تصور أن ينبشه به كلب، متصورا أن آي بذلك لن تغضب، بل إنها في واقع الأمر قد تسرّ. نبش كريسان مقبرة آي بيديه وقدميه، مزيلا كومة التراب التي كانت لا تزال هشة برغم مضي أسبوع على الدفن. ظلّ يحفر طيلة الليل دون أن يمنّ على نفسه باستراحة. وإسعادا لآي كان قد اصطحب معه كلبا ضالا، وإن بقي الحيوان مكتفيا بالمشاهدة، مقيّدا إلى جذع شجرة الفرانجيباني. وكانت آثار الكلب كفيلة بأن يذهب الظن بالناس إلى أن كلبا هو الذي فعلها، خاصة وأن كريسان قد أزال بحرص آثار أقدامه هو.

كان حفر شخص قبرا بيديه وقدميه أمرًا شاقا، ولكن أليس بتلك الطريقة يفعلها كلب؟ متمثّلا كلبا، كان كريسان يحرِّك لسانه دخولا وخروجا في أثناء عمله، معتقدا أن آي كانت لتسعد إن رأته من الجنة وهو على تلك الحال. ولما اشتدّ عليه العطش في منتصف مهمته المجنونة،

تحرَّك على أطرافه الأربعة إلى قناة عند حافة المقابر ولحس الماء لحسا. وظلَّ يعمل بتلك الطريقة إلى أن وصل أخيرًا إلى الألواح الخشبية عند الثالثة صباحا، وكان قد بدأ الحفر في السابعة والنصف مساء.

كانت الألواح مصفوفة ومائلة، فلم يكن على كريسان إلا أن يفكِّك القليل منها قبل أن يرفع جسم آي، في كفنه، من مرقده على الأرض. كان جسمها خفيفا، ووثب قلب كريسان بفرحة غامضة. صار أخيرًا بوسعه أن يحتضنها مثلما رغب، فلم يبال مطلقًا بكونها ميتة. كان الكفن يفوح برائحة غريبة، كأنها من حديقة زهور، وطبعا لم تكن رائحة براعم، بل هي عبق جسد الفتاة.

بعد إطلاقه الكلب الضال من قيده، رفع كريسان جثة آي على كتفه، وسارع إلى البيت بخطى محاذرة، إذ كان دأب الناس في تلك الساعة أن يستيقظوا ويتأهبوا للذهاب إلى المسجد، وفيها يقصد بعض باعة الخضراوات السوق لفتح أكشاكهم، وربما يكون بعض الناس متجهين للتغوط في بعض البرك المصفوفة على حواف المدينة غير بعيد من المقابر.

آمنا وصل إلى بيته، فلم تقع عليه عين، ولا عيون أمه أو جدته (وبعد وفاة أبيه كانت جدته قد انتقلت للعيش معهما وتولَّت أمر الخياطة كلها) وكانت الأم والجدة كلتاهما من أهل النهار. دخل من باب المطبخ، وسار على أطراف أصابعه إلى غرفته، ووضع جثة آي تحت سريره. ثم اقتفى آثار خطاه مزيلا أي وحل قد يكون تركه، فأحسن

التنظيف كأنه فرّاش مدرسة، ثم حان الوقت لتفقد الجثة. سحب جسد آي من تحت السرير وفتح الكفن.

وعلى الفور، انداحت الرائحة أقوى مما كانت وأمكن لكريسان أن يرى جسد آي، الذي بدا كأنه حي. بدا أن الفتاة مستلقية لا أكثر على أرض الغرفة، في غفوة لن تستغرق إلا لحظة. لم يندهش كريسان، إذ كان على يقين أن جسد آي لن يتحلّل ولو دفنت لسنين أو حتى لقرون. نظر إلى خدَّيها اللذين كانا لا يزالان يحملان حمرة خفيفة، تمامًا كما كانا وهي لا تزال على قيد الحياة.

وبغتة شعر بالخجل وهو ينظر إلى عريها. فسرعان ما أعاد تغطيتها مرة أخرى بالكفن، غير تارك إلا وجهها مكشوفا فيظل متأملا جمالها. ثم إنه أخذ يبكي، ذلك الولد الممتلئ، حزينا لأنها ماتت وتركته وحيدا في هذا العالم الموحش. ثم تغيَّرت نبرة بكائه، فباتت صيحة شكر وامتنان لآي التي ربما تكون ماتت لكنها لم تسمح لنفسها بالتحلل. بقيت في حالة من الجمال الأبدي، وكان على يقين أنها لم تبق عليها إلا من أجله. وقبل أن يدرك ماذا يفعل، كان يقبِّل خدَّي جثة الفتاة.

كان كريسان قد وقع في غرام آي قبل زمان بعيد، وبات على يقين من وقوع الفتاة هي الأخرى في غرامه منذ زمان بعيد، ربما منذ أن كانا ينامان في مهد واحد. كانت ابنة خالته مثلما كانت رينجانيس الجميلة ابنة خالته. ولدت آي قبل اثني عشر يومًا من كريسان، وكان وجهها هو أول وجه رآه عند ميلاده وهي مستلقية بين ذراعي أمها، إذ حضرت

ألامندا وشودانتشو ميلاده. ومن يدري لعل الحب من النظرة الأولى يمكن أن يحدث للمواليد الصغار أيضًا. فضلا عن أن شودانتشو قال يومها شيئًا من قبيل "أرجو أن يكون ابنانا حبيبين". لعل كريسان سمع هذا بمجرد أن وصل إلى الأرض فأيقن أنهما مقسومان لأحدهما الآخر. وبقيا معًا منذ ذلك الحين، يبكيان معًا، ويبولان في سرواليهما معًا، ويلتحقان بحضانة واحدة، ثم بمدرسة واحدة، إلى أن أدرك كريسان أنه كان طول الوقت واقعا في غرام آي.

ولم يكن سهلا عليه، مع ذلك، أن يعترف لها بحبه، فقد كانت آي ابنة خالته، وكانا صديقين مقرّبين. كان ذلك الاعتراف كفيلا بتخريب علاقتهما الجميلة، لكنه لو كان بقي على صمته، فربما بقيت الفتاة غير واعية بحبه لها طوال حياتها، ولكان ندم إن جاء غيره وأخذها منه. كان ذلك أخوف ما يخافه: فهو على استعداد لأن يشنق نفسه، ولكنه لا يحتمل انكسار قلبه بهذه الطريقة.

وكان كريسان يعاني من مشكلة أخرى جسيمة: فلم يكن لديه من أصدقاء يتكلم معهم غير رينجانيس الجميلة وآي. وما كان بوسعه أن يتكلم في الأمر مع جدته أو أمه، فضلا عن خالتيه وزوجيهما. ولم يكن يستطيع أن يكتب عنه في يوميات، لأن آي كانت لتعثر عليها بلا أدنى شك وتقرؤها مهما يكن الموضع الذي قد يخفيها فيه. وما كان ذلك ليمثل مشكلة لو أنه كان يعلم أن آي تحبه مثلما يحبها، لكنه كان يشك فقط في أنها ربما تحبه، وكان يخشى أن ذلك الذي يرجوه أكثر مما يستحقه. سيكون الوضع رهيبا لو اكتشفت آي أنه يحبها ثم تبيّن أنها لا

تحبه. كان الأمر برمّته مزعجا للغاية، فكان يلعن قدره ويتساءل لماذا كتب عليه أن يولد ابن خالة لها. ولمّا تقدّم صبي الجيلانجكونج طالبا يد رينجانيس الجميلة في محطة الأتوبيسات، استولى الفزع على كريسان. لقد أعلن شخص للعالم أنه يحب رينجانيس الجميلة، وسرعان ما سيظهر آخر بلا شك ويتقدم لشودانتشو طالبا يد نور العين. فاستقرَّ عزم كريسان على أن ينال الفتاة قبل غيره.

ظل طوال أسابيع يخطط للإعلان عن حبه، أسابيع حافلة بالألم القاتل.

بدأ كريسان بكتابة رسائل غرامية، فكان عليه كلَّ مرة أن يكتب كلمة آي، لذلك صار يعمد إلى ترك مساحة فارغة بدلًا من حرفي اسمها، على سبيل الاحتياط. كتب عشر رسائل غرامية طويلة، كل منها أشبه بقصة قصيرة، لكنه لم يرسل أيا منها، بل دسَّها جميعًا أسفل الغيارات في دولابه. ولم يكن ذلك نتاج وضاعة أو شذوذ، بل لأن ذلك كان أكثر الأماكن أمنا. فآي تأتي طول الوقت وتمدّ يدها في كل شيء، وتأخذ كل ما يحلو لها، وبخاصة روايات الرفيق كلايوون وكتبه القتالية. وكان بين الثلاثة -كريسان وآي ورينجانيس الجميلة- عهد غير مكتوب بأن ما يملكه أحدهم يملكه الجميع. إلا الغيارات. لم تبد آي قط رغبة في لمسها، فكان الدليل على حبه آمنا تحتها.

ثم رأى الصبي غباء كتابة الرسائل. سيقول بوضوح إنه يحبها، لا حب ابن خالة، بل حب رجل لامرأة. أهلكه الإحساس بأنهما على

الرغم من تقاربهما الشديد وصداقتهما المتينة الدافئة، وبرغم أن القدر كتب أن يتزوج أحدهما الآخر، فقد قضي أن تبقى حياته فاترة إلى أن يعلن حقيقة مشاعره.

قضى أياما يتدرب على الإعلان، واقفا أمام مرآته متخيلا الفتاة واقفة بجواره، فلعلهما ناظران إلى نورس ينقض على سطح المحيط في رحلة إلى الشاطئ، فحينئذ يقول "آي" ثم يتمهل قليلا متعمدا التمهل، مفترضا أن آي سوف تحتاج إلى لحظة حتى تنظر إليه، أو حتى لتتأهب للسمع. ثم يكمل بصوت قوي يسمع واضحا برغم جلبة الموج الهادر وحفيف ورق شجر جوز الهند وآكام البندان "هل تعرفين أنني أحبك؟"

مجرد سطر، مجرد جملة قصيرة. ظنّ كريسان أنه قادر على قولها، وصار يتخيل خدي الفتاة إذ يتورّدان، هذا ما سوف يحدث وإن علمت منذ زمن بعيد أن كريسان يكتم حبه لها. وبالطبع قد لا تنظر إليه آي، ففي آي بطبعها خجل، ولعلها تطأطئ رأسها، خشية أن تظهر عليها الفرحة العارمة. ولكنها حينئذ، وبدون أن تنظر إليه، سوف تعترف بحبها له.

كان يسهل على كريسان أن يتخيَّل ما قد يحدث بعد ذلك. سيمسك بيد الفتاة ثم لا يكون بعد ذلك إلا السعادة والزواج وإنجاب الأطفال والعيش حتى رؤية الأحفاد والموت معًا بعد عقود كثيرة. ولكن كل ذلك الجمال الفادح كان يرد كريسان على عقبيه فاقدا اليقين، متشكّكا في نفسه مرة أخرى، فيعاود التدرب، مكرِّرا تلك الجملة القصيرة المرَّة تلو الأخرى، وهو في الحمام، وهو مستلق في السرير، وفي كل موضع يمضي إليه.

بل إنه جرَّب في عصر أحد الأيام أن يجعل من جدّته فأرة تجارب. فبينما كانت مينا تعمل على المكنة في الشرفة الأمامية جلس بجوارها وقال "جدتي ..."، ومثلما تدرَّب، أمسك لسانه عند ذلك الحد.

توقفت مينا عن العمل والتفتت إليه بنظرة متسائلة من وراء نظارتها، متصورة أن الولد يريد أن يقترض منها بعض النقود ليشتري شيئًا من الأشياء السخيفة التي يحب شراءها. لكن مينا ذهلت حينما أكمل كريسان:

"جدتي، أتعرفين أنني أحبك كثيرًا؟"

فاضت عينا مينا ووضعت من يدها ما تخيطه، وأوقعت كرسيها وهي تهب لمعانقة كريسان بينما الدموع تفيض على خديها قائلة "كم أنت رقيق. حتى الرفيق المجنون، ابن بطني، لم يقل لي مثل ذلك قط".

ولكنه مع آي، حتى إن كانا منفردين بغير حضور رينجانيس الجميلة، وهو أمر كان نادر الحدوث، لم يكن يجد في ذاكرته شيئًا مما حفظه. فيعاهد نفسه حينذاك على أن ينتهز الفرصة التالية، وتحين فينعقد لسانه وتختفي من رأسه الكلمات. كانت آي دائمًا تصيبه بهذا الذهول، كأنها تثقبه في قلبه فتتركه نهبا لعاصفة من الحب المكتوم.

إلى أن حدث ذات يوم أن أنجبت رينجانيس الجميلة ولدا واختفت من البيت. فأكثر من حزن في ذلك اليوم، حتى ازداد حزنه عن حزن أبوي رينجانيس الجميلة نفسها مايا ديوي ومامان جيندنج، هو آي. كان كل من يعرف آي يعتبرها حارسة رينجانيس الجميلة، وحدث أن

حبلت الفتاة بدون أن تعرف من أحبلها (وإن اعترفت رينجانيس: كلب) ثم أنجبت ولدا، فانهارت آي. مرضت في ذلك اليوم بحمًّى شديدة، وصارت تردِّد اسم رينجانيس في نومها. كان ذلك طبيعيا، ولكن كريسان شعر بالغيرة. لقد كان يعرف أن الفتاتين شديدتا التقارب، فإحداهما أقرب إلى الأخرى من أيٍّ منهما إليه، ربما لأنهما فتاتان.

طالت عليها الحمى لأيام، ولم يعرف طبيب أي مرض ذلك الذي أصابها، خاصة وأن كل التحاليل كانت تقطع بأنها بصحة ممتازة.

قال شودانتشو "ملبوسة بروح شيوعي".

فصاحت فيه ألامندا "اكتم فمك".

في العصر، بعد رجوعها من المدرسة، كان كريسان يلازمها ولا يتركها، فيجلس بجوار سريرها ناظرا إليها في رقودها وضعفها بعين خاوية، بينما يرتعش جسمها المحموم. وبالطبع لم يكن ذلك بالوقت المناسب ليعلن لها عن حبه حب الرجل للمرأة، وإذ ذاك كانا يبلغان من العمر سبعة عشر عامًا.

كثيرًا ما كانت آي تظهر في غرفة كريسان. فتدخل من الباب أحيانا، ولكنها كثيرًا ما كانت تقفز من الشباك المفتوح، حتى قبيل إصابتها بالمرض. وذات ليلة، قرابة الساعة السابعة، ظهرت مرة أخرى، قافزة من الشباك بابتسامة لئيمة وكأن لديها خطة عابثة. بدت في

غاية الجمال والعذوبة، وفي صحة تامة. كانت ترتدي أبيض في أبيض، شديد النصوع والنقاء، كما لو كانت ترتدي طقما جديدا للعيد. كان وجهها وجسمها يشعّان، وشعرها الأسود الناعم منسدلاطليقا على ظهرها، وعيناها النافذتان تبرقان، وخدّاها الورديّان فاتنين، وابتسامتها اللاهية تكشف عن جمال شفتيها المغويتين. كان كريسان قد استلقى للتو بعد تناول العشاء، فجفل من الزيارة المفاجئة.

عجب قائلا "أنت!" ونهض جالسا على طرف السرير. "شكلك تحسّن كثيرًا؟"

قالت آي وهي تضحك "في صحة بطلة أولمبية"، وفردت ذراعيها وثنتهما كأنها بطلة كمال أجسام.

ثم، كما لو بقوة شوق جارف طليق بعد طول انحباس، تقدّم أحدهما من الآخر وتعانقا بقوة، تفوق قوة عناق أديندا والرفيق كلايوون بعدما طاردها الكلب طويلًا. وبدون أن يدري أي منهما كيف بدأ الأمر، قبّل أحدهما الآخر، قبلات أسخن من التي عرفتها ألامندا والرفيق كلايوون تحت شجرة اللوز، ثم سقط الاثنان على السرير.

"آي" قالها كريسان أخيرًا "هل تعلمين أنني أحبك؟"

ردّت آي بابتسامة آسرة أسكرت كريسان بالحب من رأسه حتى أخمص قدميه، فقبّلها من جديد. ولم يمض وقت يذكر على تخففهما من جميع ثيابهما بإلحاح شهوة مراهقة لا لجام لها، حتى انطلقا يمارسان الحب في جموح يفوق جموح ألامندا وشودانتشو في صباح ذلك اليوم الذي نجا

فيه الرفيق كلايوون من الإعدام، ويفوق جموح ماماز جيندنج ومايا ديوي بعد انتظار طال خمس سنين، فقضيا الليلة كلها في لعبة الحب التي لعباها بحماسة مشعة ودهشة استثنائية لا يتوافران إلا لمراهقين.

وبعد ذلك، ارتدت آي ثيابها البيضاء، وقفزت من الشباك ولوّحت بيدها.

قالت "لا بد أن أرجع إلى البيت .. البيت .. البيت".

ذلك الجزء الأخير كان مشوّشا عندما استيقظ كريسان على انقباضة صاعقة بين فخذيه، ولم يجد آي بجانبه. كان شباك غرفة نومه محكم الإغلاق. لقد كان ذلك كله حلما. ولم يكن أول احتلاماته. ولكنه بلا شك كان أجملها، وأولها مع آي، فكان له سببا في نشوة عارمة.

ما كادت أشعة الشمس تعبر خصاص الشباك حتى فتحه ووقف ينظر إلى الشرفة الخلفية في بيت شودانتشو، فرأى حشودا من الناس في حركة دائبة، بل إن أمه نفسها كانت بينهم. استشعر في قلبه عضة، وقفز من الشباك، وبدون حتى أن يغسل وجهه ويرتدي حذاءه، جرى إلى بيت شودانتشو مقتحما الناس، فدخل غرفة آي ورآها مستلقية، ورأى ألامندا جالسة على سريرها تبكي، ولما رأت كريسان نهضت مسرعة وعانقت الولد بدون أن تكف عن البكاء، وعن تمزيق شعرها، وقبل أن يسأل كريسان عما جرى، قالت ألامندا:

"حبيبتك راحت".

ثم إن كريسان لما نبش قبرها، وجاء بجسمها إلى بيته، بكى بجوارها وقد تذكَّر الحلم. لعله كان حزينا لأنه حتى وفاتها لم يعترف لها حقا بحبه. أو لعله كان يبكي لأن الفتاة قبل رحيلها، حرصت على أن تأتي إليه، ولو في حلم. جاءته تسمع كلمة الحب، جاءت لتمنحه عذريتها، جاءت لتمارس معه الحب، قبل أن ترجع إلى البيت إلى الأبد. ولعله كان يبكي خسارته وشوقه، وقد أماتته المعاناة إلا قليلًا، فمهما تكن جثة جميلة، تبقى جثة، لا تطاول فتاة حية.

اعتراف ثان: كريسان هو الذي قتل رينجانيس الجميلة ورمى جثتها في المحيط.

بعد أسبوع من نبش كريسان قبر آي، دقَّ شخص برقة على شيش شباك غرفة نومه، فنهض كريسان وفتح الشباك ليجد رينجانيس الجميلة واقفة، وقد علاها الوسخ. بداشعرها مشوَّشا، وثيابها مبلولة، ولكن ما كان لشيء من ذلك أن يخفي جمالها. حتى كريسان كان يعترف بأن رينجانيس الجميلة أحلى من آي، وذلك ما كانت آي نفسها تقوله.

"يا إلهي، ماذا أنت فاعلة هنا؟"

"إنني أتجمد".

"هذا واضح يا بلهاء".

انحنى كريسان على الإفريز راجيا ألا يراه أحد، وسحب رينجانيس الجميلة من يدها ليساعدها على القفز من الشباك. بدت وكأنها وقعت في مصرف موحل أو شيء من ذلك القبيل، وكان واضحا تمامًا أنها تتضوَّر جوعا.

قال كريسان وهو يتحقَّق من إغلاق باب الغرفة "غيِّري ثيابك".

فتحت رينجانيس الجميلة دولاب كريسان، فتناولت قميصا وجينزا وغيارا من غيارات كريسان. ودونما حرج خلعت أمام الصبي ثيابها قطعة بعد قطعة حتى لم يبق عليها شيء. فأوشك كريسان أن يختنق أمام جسمها المبلول الساطع تحت نور المصباح. جلس ذلك الولد على سريره، واضعا ساقا على ساق، منتصب القضيب، وبرغم رغبته الضارية في افتراس الفتاة الواقفة أمامه، شهية للمضاجعة، فريدة المنظر، لم يتحرَّك من مكانه. وكان لا يزال على سريره بينما رينجانيس الجميلة، في لامبالاة فاتنة، تجفِّف جسمها بمنشفة صغيرة رأتها معلقة على ظهر الباب.

كان نهداها كاملين كأنهما نهدا امرأة ناضجة فملأ كريسان عينيه منهما، متخيلا أنه يتحسسهما، ويقبِّلهما، ويستثير حلمتيهما بلمسات عابثة. كان منحنى جميل يمضي من نهديها إلى وركيها، كأنه مرسوم بالفرجار، وكان بينه وبين المنحنى المقابل تماثل تام، وفي منتصف ما بين فخذيها، ومن وراء أيكة عانتها الخصبة شيء متورم قليلا، كأنه جوزة هند صغيرة، لكنه أملس لا شك في ذلك. ازداد انتصاب كريسان

صلابة، وودّ لو يقفز على ابنة خالته ويجذبها إلى سريرها ويفترسها افتراسًا. ولم يفعل ذلك. ليس وجثة آي تحت سريره.

وأخيرًا انتهى عذابه. ارتدت رينجانيس الجميلة سروال كريسان الداخلي غير مبالية بأنه رجالي، ثم ارتدت الجينز، واختفى نهداها بسرعة وراء قميصه. ولم يرتخ قضيب الولد وقد بقي يتطلع إلى حلمتيها من وراء القميص.

سألته رينجانيس الجميلة "كيف أبدو يا كلب؟"

"لا تقولي لي يا كلب، اسمي كريسان".

جلست رينجانيس الجميلة بجانب الولد على طرف السرير وقالت "حاضر يا كريسان. أنا جائعة".

ذهب كريسان إلى المطبخ فجاء بطبق رز، وسبانخ مطبوخة وقطعة سمك مقلية. ذلك ما عثر عليه في خزانة المطبخ، فجاء به إلى الفتاة مع كأس ماء، والتهمت الفتاة ذلك كله في نهم، ولما انتهت منه طلبت المزيد. رجع كريسان إلى المطبخ، وأخذ مقدارا مماثلا من الطعام، وأكلته الفتاة بالنهم نفسه، وكأنها لم تتلق أي نوع من التهذيب، وارتاح كريسان حين لم تطلب المزيد بعد المرة الثانية، إذ ما كانت أمه لتصدق حين تصحو أنه أكل كل ذلك الطعام في أثناء الليل.

قال كريسان وقد بدأت رينجانيس الجميلة تجفف شعرها "والآن أين طفلك؟"

"مات، أكله أياك".

"خرا" قال كريسان "لكن الحمد لله. احكي لي ما جرى".

حكت له رينجانيس الجميلة. ليلة هروبها من البيت مع الطفل اتجهت إلى كوخ حرب العصابات الذي أقامه شودانتشو في وسط الأدغال قبل سنين. كان الكوخ قد بقي لوقت طويل ناديا سريًا لرينجانيس الجميلة وآي وكريسان، فالثلاثة سمعوا عن الكوخ، وبحثوا عنه، وعثروا عليه، وصاروا يزورونه في رحلات قصيرة لطيفة، ليلعبوا هناك. في تلك الليلة ذهبت رينجانيس الجميلة وابنها إلى هناك وقد علمت أنه أفضل مخبأ ممكن، وأن آي نفسها لن تحدس أنها ذهبت إليه. قالت إن الولد كان مزعجا للغاية وحاولت أن ترضعه ولكنه ظل يبكي. لم يكن يرتدي أي شيء، الولد، بل لفّته فقط في بطانية، فلم يكن يجد الدفء إلا في حضن أمه.

في العادة يمكن الوصول إلى الكوخ في مسيرة ثماني ساعات، ولكن رينجانيس الجميلة وصلت إليه في يوم وليلة كاملين، فقد تاهت في الطريق، وظلّت تهيم هنا وهناك، وكانت تسير ببطء شديد، حاملة الطفل، وقد نسيت بغباء أن تصطحب معها أي مؤن. فلم تصل إلى الكوخ إلا وهي تتضوّر جوعا.

قالت رينجانيس الجميلة "ولم يكن في المكان طعام".

هي ابنة مدينة، ولم تكن تعرف ما الذي يمكن أكله في الأدغال، لكنها بعد فترة اضطرت إلى أن تبحث عن أي شيء يمكن العثور عليه.

فعثرت على بضع جوزات ساقطة من شجرة، وهالتها صلابتها، فلم تستطع كسرها إلا بصخرة. ولما تبيَّن لها أنها لذيذة المذاق، جمعت الكثير من الجوز فكان ذلك أول عشاء لها. ولم يكن الشرب مشكلة كبيرة، إذ كان بالقرب من الكوخ جدول ينساب نظيفا صافيا.

المشكلة الكبرى تمثلت في الولد. فقد ظل يبكي، وكانت طوال الرحلة تسد فمه بطرف بطانيته لكي لا يكتشف أحد أمرهما. تجنبت الشوارع الرئيسية ومضت بدلًا منها متخفية في ظلال الأشجار، عابرة بساتين الموز وحقول المنيهوت. وكان عليها مع ذلك أن تتوخَّى أشدَّ الحذر لأن كثيرًا من المزارعين كانوا يتحركون في الليل للاطمئنان على أراضيهم، كما كان في الأراضي حراس، وصيادون لسمك الثعابين والجنادب. كانت البطانية كافية تمامًا لكتم بكاء الولد، لكنها أوشكت أيضًا أن تخنقه. فلما دخلت الغابة عند الرأس البحري، جرؤت أخيرًا على إخراجها من فمه، متصورة أنه ما من أحد غيرها متواجد هناك في جنح الليل، وبدأت تجري باتجاه المناطق الأكثر كثافة بينما الطفل يصرخ ويصرخ.

في الكوخ كان الولد لا يزال يبكي، برغم أن أمه أرضعته أخيرًا، لكنه في أيامه الأخيرة رفض الرضاعة. كان قد بال فابتلت البطانية حوله، ولم تكن لدى رينجانيس بطانية أخرى، فلم يكن بوسعها إلا أن تقلبها لتكون الناحية المبللة إلى الخارج، ولكن الولد واصل البكاء، بصوت أخذ يزداد وَهَنًا مع الوقت، فأدركت رينجانيس الجميلة ساعتذاك أن الطفل مريض بالحمى. كان هواء ساخن ينبعث من أنفاس

الولد، ومع ذلك كان يرتعش. لم تدر ما الذي ينبغي أن تفعله، فبقيت تراقب ابنها وهو يعاني.

قالت "ثم مات في اليوم الثالث".

وبقيت لا تعرف ماذا ينبغي أن تفعل. أخرجته من البطانية، ثم أخرجته من الكوخ، ووضعته على الصخرة التي كان يستعملها شودانتشو وجنوده قبل سنوات كثيرة مائدة طعام، وطوال يوم كامل بقيت تنظر إلى جثة الولد عاجزة عن التفكير. وعند العصر خطر لها أن تلقيه في المحيط، لولا أن جاءت ساعتها مجموعة أياك فأحاطت بها وبالولد وقد اجتذبتها رائحة الجثة. نظرت رينجانيس الجميلة إلى تلك الكلاب ورأت كم هي متلهفة على نيل جسد ذلك الطفل، فدفعت الولد ناحيتها. وسارعت الكلاب تتقاتل عليه إلى أن سحبه أحدها ومضى به إلى الغابة يتبعهاالآخرون.

قال كريسان وهو يرتعد "أنت أبشع من الشيطان".

"لكن تلك كانت طريقة أسهل من حفر قبر".

وسكت الاثنان، فلعلهما كانا يتخيلان الكلاب وكيف تناهشت جميعًا جثة الولد المسكين. لم يدر كريسان ما الذي قد يفعله مامان جيندنج لو علم أن ذلك كان مصير حفيده. لعله يجن فيحرق المدينة كلها قاتلا كلاب الأياك جميعًا وربما قاتلا الناس أيضًا. ولم يكن من جدوى للبحث في ذلك الحين عن بقايا الولد. فالأرجح أن كلاب الأياك لم تترك منه شيئًا، فحتى عظامه الصغيرة لا بد أنها كانت لينة على

أنيابها. أوشك كريسان أن يتقيأ حينما تصور رأس الولد تغيب بين فكي كلب.

نظرت رينجانيس الجميلة إلى كريسان بتعبير ممزق بين الغضب والخيبة قائلة "وأنت لم تجيء. انتظرتك حتى عصر أمس بدون أن آكل شيئًا غير الجوز".

"لم أستطع".

"أنت وضيع".

"لم أستطع"قال كريسان وهو يومئ لرينجانيس الجميلة كي لا ترفع صوتها خشية أن تضبطهما أمه أو جدته. "لأن آي مرضت، ثم ماتت".

"ماذا؟"

"آي مرضت ثم ماتت".

"هذا مستحيل".

قفز كريسان واقفا، وتحسس ما تحت السرير حتى وجد الجثة، ثم سحبها وأراها لرينجانيس الجميلة. كانت جثة آي في ذلك الحين راقدة على الأرض ملفوفة في الكفن، ولم تزل على حالها الذي كانت عليه عندما احتضنها كريسان للمرة الأولى ـ جميلة شديدة الجمال، كأن لم تمت.

"هي نائمة لا أكثر" قالت رينجانيس وهي تنزل من السرير لتفحص وجه آي. حاولت أن توقظها. "قومي" وهزَّتها، وفتحت عيني

الجثة قسرا، وقرصت أنفها، وأخيرًا جلست تبكي موت الفتاة التي كانت أقرب صديقة لها طوال حياتها، والتي لم تخذلها مرة حينما احتاجت إليها. وفجأة أسفت رينجانيس الجميلة أنها لم تشرك آي في خطتها للهرب، ولم تدعها إلى مرافقتها إلى الكوخ. وكانت لتزداد جزعا لو عرفت أن الفتاة ماتت حزنا وخوفا عليها بعد اختفائها. في تلك الأثناء بقي كريسان صامتا تمامًا، قلقا في الغالب من نشيج الجميلة أن يوقظ أمه وجدته، إلى أن سألته الفتاة أخيرًا:

"لماذا هي هنا؟"

قال كريسان "نبشت قبرها".

"ولماذا نبشت قبرها؟"

لم يدر ماذا يقول لها. نظر فقط إلى الفتاة في صمت، وفي شيء من الحرج قبل أن تخطر له فكرة رائعة في اللحظة التي كان في أمس الاحتياج إليها. "لتشهد زواجنا".

بدا التفسير مرضيا لرينجانيس الجميلة.

"ومتى ستتزوج؟"

أثار السؤال ضيق كريسان. جلس على طرف السرير ناظرا إلى رينجانيس الجميلة، مختلسا النظر إلى وجه جثة آي تحت قدميه، ثم محملقا في الثياب المعلقة وراء الباب، وإلى كومات روايات الفنون القتالية، ومتمعّنا في المخدة، ثم ناظرا إلى الفتاة التي لم تحد عنه بنظرها.

قال كريسان "الليلة".

"أين؟"

"أنا الآن أفكر في هذا".

ولما خطرت له الفكرة أخبر بها رينجانيس الجميلة على الفور. سارع الاثنان يزيلان الكفن عن جثة آي وألبساها بعض الثياب من خزانة كريسان ـ فهي ثياب رجالية كالتي ترتديها الجميلة: سروال داخلي وجينز وقميص. وما كادت الجثة تبدو مجرد فتاة ترتدي ثيابا عادية وتصادف أنها مستلقية حتى فتح كريسان باب غرفة نومه، وتحقّق من غرفتي نوم أمه وجدته ليطمئن أنهما لا تزالان نائمتين. سحب بهدوء دراجته النارية الصغيرة عبر الباب الخلفي بدون أن يصدر صوتا، ثم رجع فحمل الجثة على كتفه وخرج بها من الغرفة ووراءه رينجانيس الجميلة مغلقة باب غرفة النوم. سارا على أطراف أصابع أقدامهما إلى الفناء الخلفي. ركبت رينجانيس الجميلة وراءه وبينهما آي، فاحتضنتها بأقوى ما تستطيع. بدفعة واحدة على الدواسة انطلقت الدراجة مغادرة الفناء الخلفي مسرعة باتجاه المحيط في جنح الليل تحت أضواء المصابيح.

كانا محظوظين أن لم يرهم ناس كثيرون. وحتى لو أن شخصا كان يمرّ أو اثنين، فلم يكن ليريب في شيء أن يقل ولد في السابعة عشرة فتاتين وراءه على دراجته، إذ يخطر على البال أنهم راجعون متأخرين من حفلة.

توقف كريسان عند حد بحري من الخرسانة يعين الفاصل بين المحيط والساحل. كان الفجر قد اقترب، وكان بوسع كريسان أن يرى

بعض القوارب راسية بالفعل، بينما بدأ ضوء وردي يظهر في شرق السماء. قال في نفسه، بشرى خير.

قال كريسان "انتظريني هنا، سأذهب لأسرق قاربا".

استندت رينجانيس الجميلة إلى الخرسانة وهي لا تزال تحتضن الجثة كي لا تهوي، وبجوارهما الدراجة في انتظار كريسان.

وظهر الولد وهو يجدّف في قارب شخص ما. أو لعله قارب لم يعد يخصّ أحدًا، فقد كان متهالكا وفي حالة مزرية، وإن خلا من أي ثقوب، اقترب كريسان من الحد الخرساني الذي كانت تنتظر عنده رينجانيس الجميلة، وقال "ارمي لي الجثة". رمت رينجانيس الجميلة جثة آي في بطن القارب، فتمايل لوهلة إلى الأمام وإلى الخلف بينما الجثة مطروحة بداخله. وثبتْ رينجانيس الجميلة إلى أحد طرفي القارب وثمة جلست، بينما بدأ كريسان في الطرف الآخر يجدف مبتعدا عن الشاطئ قاصدا المحيط المشرع.

حاول كريسان ألا يتقاطع مع مسارات قوارب الصيد الراجعة إلى الشاطئ، غير قلق من السفن الكبيرة إذ كانت بعيدة. كان الصباح يطلع من وراء تلّ ما إيانج فتنفذ أشعته القوية في سطح المحيط ساطعة فسفورية. بدأت حمرة الشفق تتلاشى أمام وضح النهار والنوارس والسنونوات تطير عالية. سهَّل الضوء على كريسان أن يرى مواضع قوارب الصيد ووجهاتها، فصار بوسعه أن يبتعد إن أوشك أن يتقاطع مع مسار أحدها.

لوقت طويل ظل يجدف في مسارات دائرية متسعة، باحثا عن منطقة هادئة من المحيط يرى أن القوارب الأخرى لن تصل إليها. ثم عثر عليها، في جزء داكن الزرقة من الماء. علم يقينا أن تلك البقعة شديدة العمق، وأنها مهجورة لذلك السبب، لندرة السمك فيها. وبالطبع ما كانت رينجانيس الجميلة وكريسان يعلمان أن الرفيق كلايوون اختطف قبل سنوات كثيرة ألامندا وجاء بها إلى هذه البقعة بالذات.

اكتمل الصباح.

"متى إذن سوف نتزوج؟"

قال كريسان "لا تتعجلي، دعي الشمس تنفذ إليك للحظة أولا".

ثم استلقى حيثما هو من القارب ناظرا إلى السماء. وحاولت رينجانيس الجميلة أن تحذو حذوه في الطرف الآخر. كان كريسان عاقدا حاجبيه وقد علا الهمّ وجهه، غير مستمتع بأي حال بصفو النهار. وفي الوقت نفسه كان القلق قد بدأ ينتاب رينجانيس الجميلة في انتظار زفافها. وأخيرًا جلست، وقد نفد صبرها، وسألته:

"كيف سنتزوج؟"

"ستكون مفاجأة".

واقترب من رينجانيس الجميلة عابرا جثة آي وقال:

"استديري".

استدارت رينجانيس الجميلة ناظرة إلى الأفق، مولية ظهرها لكريسان. وانتظرت إلى أن أحاطها كريسان بذراعيه بسرعة وقبل أن

تدرك ما الذي كان يجري، وجدت نفسها مخنوقة، بمنديل حول رقبتها تشد طرفيه بقوة يدا كريسان. قاومت رينجانيس الجميلة لكي تفلت، وركلت بساقيها في كل اتجاه، وحاولت بيديها أن تنتزع المنديل أو تزحزحه، ولكن كريسان كان أقوى كثيرًا. تقاتلا لخمس دقائق، قبل أن تنهزم رينجانيس الجميلة، وتنبطح في قاع القارب ميتة بجوار جثة ابنة خالتها.

نظر إليها كريسان، وفاضت عيناه. كان يلهث ويشهق، ويداه ترتعشان بشدة بينما يرفع جسد رينجانيس الجميلة إلى المحيط ليغرقه فيه. وانهار على حافة القارب باكيا، بكاء المراهقات العاطفيات، بكاء الصغار حديثي الولادة، ساكبا دموع قلب مفطور. ووسط بكائه ونشيجه كان يقول عالي الصوت وإن لم يكن حوله من يسمعه:

"قتلتك فقط حبا في آي". وظل يبكي هناك لنصف ساعة بعد ذلك.

اعتراف ثالث: كريسان هو الذي اغتصب رينجانيس الجميلةفي مرحاض المدرسة ولم يتحمل مسؤولية ما فعل.

وهذا أصعب أجزاء القصة حكيا، لكنه الحقيقة.

ذات يوم، حينما كان هو وآي يزوران بيت رينجانيس الجميلة بعد المدرسة، جلس كريسان على الكنبة يقرأ مجلة قديمة بينما الفتاتان في

غرفة رينجانيس الجميلة في الطابق العلوي، حين سمع فجأة خطوات نازلة السلم، فوضع المجلة، ورأى رينجانيس الجميلة أمامه غير مرتدية شيئًا إلا حمالة الصدر والسروال. ربما كان قد رآها كذلك من قبل، بل وربما يكون رآها عارية تمامًا، ولكن ذلك حينما كانا لا يزالان صغيرين، أما في ذلك الحين فقد كانا في الخامسة عشرة وقد بدأ كريسان يحتلم منذ فترة.

كان كريسان شأن أغلب الرجال مفتونا بجسم الجميلة، الجميل والمثير معًا. اللذيذ، تلك هي الصفة الدقيقة. كم تخيّل قبل ذلك استدارة نهديها، وانحناءة خصرها اللين، ثم فجأة رأى بعينيه كل شيء. فالحمالة التي كانت ترتديها لم تكن تغطي نهديها فعلًا، فتذوق كريسان وميضهما، وسروالها القصير لم يكن يغطي بقدر ما يشف عن ربوتها الصغيرة اللينة. دبت الروح في قضيبه وقسا حتى صار في صلابة الحديد، فكان عليه أن يعدل بنطاله ليخفي البروز المائل اللاسع. في الوقت نفسه لم يبد أن رينجانيس الجميلة تبالي بوجود كريسان أصلا ونظره إليها، بل كانت في الحقيقة سعيدة بأنه ينظر إليها. نزلت السلم بخطوات تامّة الهدوء، واقتربت من منضدة الكي، فتناولت بعض الثياب، وارتدتها، ومرّت تلك اللحظة الشهوانية، لكن ليس من ذاكرة كريسان.

من النساء نوعان يمكن أن يقع في غرامهما الرجال: امرأة يحبها الرجل ليولع بها ويعنى بها، وامرأة يحبها الرجل لينكحها. بات كريسان يشعر بأن لديه المرأتين: فآي هي الأولى، ورينجانيس هي الثانية. كان يريد أن يتزوّج آي، لكنه في الوقت نفسه كان يحلم بيوم يمارس فيه

الجنس مع رينجانيس الجميلة، برغم أنه لم يستطع قط أن يعترف بحبه لآي ولم يكن يعرف كيف له أن يمارس الجنس مع رينجانيس الجميلة بدون أن يتسبّب ذلك في مشكلات.

في طفولتهم كان للثلاثة مخبأ لطيف، هو الحقل الذي كان الرفيق كلايوون قد اشتراه. إذ أقام لهم فيه شودانتشو بيتا على غصن شجرة بانيان قديمة عند طرف البستان. ولم يحدث يومًا أن خشيت أمهاتهم وآباؤهم عليهم من التجول هناك، فقد كان بوسع كلٍّ منهم أن ينتبه للآخرين. كانوا يلعبون معًا، تمامًا مثلما كانوا يلعبون دائمًا قبل إقامة بيت الشجرة، ومثلما بقوا يلعبون سويًا بعد ذلك دائمًا. لكن في الأيام التي كانوا يقضونها كاملةً بداخل بيت الشجرة، كانوا لا يلعبون إلا لعبة العريس والعروس. كانت رينجانيس الجميلة ترغب أن تكون العروس كل مرة، ولمّا كان كريسان هو الولد الوحيد فقد كان يلعب دائمًا العريس. وآي أيضًا كانت تلعب الدور نفسه كل مرة: الشاهدة، وشيخ القرية، والضيف المدعو. كانوا يستمتعون دائمًا بتلك اللعبة، برغم أن كريسان كان يشعر بأنه مرغم على دوره، فقد كان في الحقيقة لا يريد أن يلعب إلا عريس آي.

كانت رينجانيس الجميلة تكلّل بتاج من ورق شجر الجاكفروت، وكذلك كريسان، ويجلسان متجاورين أسفل شجرة بانيان، بينما تجثو آي على ركبتيها أمامهما وتقول:

"هل أنتما مستعدان للزواج؟"

فيقول كريسان ورينجانيس الجميلة دائمًا "نعم".

وتقول آي "أنتما إذن زوجان. تبادلا القبلة".

وتقبل رينجانيس الجميلة شفتي كريسان لثوان، وتلك كانت اللحظة الأحب لدى كريسان.

لكن بعيدا عن اللعبة، كانت رينجانيس الجميلة تعتبر كريسان دائمًا خطيبها.

وكان ذلك يثير ضيق كريسان، وإن لم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا حياله، فقد كان يعلم مثلما تعلم آي كيف هي رينجانيس: مدلّلة عنيدة طفولية هشة مضطربة وسلسلة أخرى من الكلمات لا تفضي إلى شيء إلا أنه من العبث أن يغضب عليها أحد. وكان يثير ضيقه أكثر من ذلك موقف آي نفسها. كان كريسان في الواقع يود أن يتحزَّبا ضد رينجانيس الجميلة ولو قليلا، عسى أن ترجع إلى صوابها، فما كان من آي إلا أن تدافع في إخلاص عن كل مصيبة ترتكبها الجميلة.

في ذلك الوقت لم يكن كريسان شديد الاهتياج على رينجانيس الجميلة، فقد كان مولعا بالفتيات ذوات الوجوه الجادة، الفتيات الهادئات والقادرات أيضًا على الشراسة، ومثل تلك الفتاة كانت آي. وفيما عدا اشتهاءه لها، كان كريسان كثيرًا ما يرى رينجانيس الجميلة زيادة لا لزوم لها. كما أنه كان يغار من حرص آي الدائم على حمايتها.

غير أن شيئًا آخر كان يجعله أكثر غيرة: الكلاب. فقد أصيبت ابنة شودانتشو بعدوى هوس أبيها بالكلاب. كان كريسان يرجو دائمًا ألا

تكون آي برفقة رينجانيس الجميلة ليكون هو برفقتها وحده، لكن آي لم تكن تترك ابنة خالتها، إلا لتذهب يقينا للعب مع الكلاب، وتظل تلعب معها وإن حاول كريسان أن ينفق بصحبتها بعض الوقت.

ومرّة بلغ الضيق ذروته من كريسان فسأل "هل عليّ أن أكون كلبا لتلتفتي إليّ؟"

قالت آي "ليس شرطا. كن رجلا حقيقيا، وسوف تعجبني تمامًا".

تلك الكلمات السحرية كانت عسيرة على التحليل، فاشتكى كريسان لرينجانيس الجميلة قائلا "ليتني كلب".

قالت رينجانيس الجميلة "يكون لطيفا جدا، فلطالما تخيّلت كلبا بلا ذيل".

كان من المستحيل إجراء حوار جاد مع رينجانيس الجميلة.

بدأ كريسان يتصرّف كالكلب ليلفت انتباه آي، فإن كان ثلاثتهم يسيرون معًا، راجعين من المدرسة مثلا، أو خارجين لنزهة عند العصر، ورأى كلبا عن بعد، يبدأ كريسان في النباح "هَوْ هَوْ هَوْ"، أو يتحول في بعض الأحيان إلى جرو وديع جريح فيئنّ نابحا أيضًا، وفي بعض الأحيان يكون كلبا بريا يعوي في جنح الليل "عاو أووووووووووووووووه".

فكانت رينجانيس الجميلة تقول "صوتك على الأقل يشبه الكلب، لا كذلك الأياك الذي يفزعني وينشر البثور على جلدي".

قالت آي "لكنه لن يوقع كلبة في حبه".

بدا أنها تسخر من سلوكه الطفولي، لكن كريسان لم يبال بذلك، وبقي يقلد الكلاب، فبرع بالفعل في ذلك، حتى لو لم تكن الفتاة حاضرة، فكان في الحمام يبول رافعا إحدى ساقيه، وبدأ يدلي لسانه طول الوقت.

قالت آي وقد رأت أن ما يفعله كريسان في غاية السخف "حتى لو سرت على أربعة فلن يتحول جسمك إلى جسم كلب. لكن احرص على عقلك".

ولعلها كانت على حق: كان عقله هو الذي تحوّل إلى عقل كلب. فلمّا ماتت آي، نبش قبرها نبْش كلب على عظمة اكتنزها في مخبأ. أصبح كلبا لأن آي كانت تحب الكلاب، أو كان على أقل تقدير ينبح، ويدلي لسانه، ويلعق الماء من القنوات، وينبش بيديه تراب المقابر.

وعلاوة على ذلك أيضًا، كان كلبا حينما اغتصب رينجانيس الجميلة في مرحاض المدرسة.

عندما كان جالسا على الكنبة ورأى رينجانيس الجميلة تنزل غير مرتدية إلا حمّالة الصدر والسروال، كانت المرة الأولى التي يفكّر فيها أن يمارس معها الجنس. بدأ يشتهي رينجانيس الجميلة، وينسى كل الضيق الذي يثيره في نفسه سلوكها الطفولي. كان يسكن تمامًا حينما تعانقه بغتة من ورائه وتغمي عينيه وتسأله أن يخمِّن من تكون. وكلّ مرة كان يعلم

أنه ما من أحد غيرها قد يتشبّث به هكذا ويقترب منه ذلك الاقتراب. كان يستشعر ما لا بد أنهما ثدياها على ظهره، فيبقى كذلك لبعض الوقت، متصنّعا أنه يحاول تخمين من يغمي عينيه، لمجرد أن يستمتع بملمس بشرة يديها.

وكان الثلاثة حينما يسيرون معًا، تتوسطهم رينجانيس الجميلة دائمًا. كانت آي قطعا تمسك يد الفتاة. وفي آخر الصف يكون كريسان ممسكا يد رينجانيس الجميلة الأخرى، مستشعرا مدى ليونتها في يده.

كان آي وكريسان دائمًا ما يذهبان برينجانيس الجميلة أولا إلى البيت، فقد كانت بيوتهم جميعًا متقاربة. وعلى سبيل الوداع، كانت رينجانيس الجميلة دائمًا تقبّل خدَّ آي فتقبّلها آي. وكان كريسان في البداية يتراجع متصوّرا أن ذلك أمر طفولي، لكنه بعد واقعة السلم بات يستمتع طبعا بدفء شفتي الفتاة على خده، ودفء خدها على شفتيه.

ولم يعد حينما يحلّ الليل يتصوّر نفسه في زواجه المستقبلي من آي، بل يتصوّر مضاجعة فريدة مع الجميلة.

لم يكن ينقصه إلا فرصة ليفعل فيها ذلك.

ومرّة تخلت آي عن مهامها الحراسية فبقي كريسان ورينجانيس الجميلة وحدهما جالسين في الشرفة الأمامية من بيت شودانتشو، وساعتها عانق كريسان الفتاة فعانقته. وما كان لأحد أن يستاء لرؤيتهما على ذلك، ولا آي نفسها. فالثلاثة كانوا كالإخوة، لا كأبناء الخالة.

فضلا عن أن رينجانيس الجميلة كانت تحب العناق دائمًا. ثم بدأ كريسان في غوايتها.

سألها بنبرة مازحة "هل تحبين أن تتزوجيني يومًا ما زواجا حقيقيا؟"

فردّت رينجانيس الجميلة غير هازلة "نعم. لا رجل غيرك في حياتي يا كريسان، لذلك عليك أصلا أن تتزوجني".

"والأزواج يمارسون الجنس".

"إذن سنمارسه".

"يومًا ما".

"نعم، يومًا ما".

أفلتها كريسان، لكن الجميلة لم تحلّ ذراعيها عن كتفيه حتى جاءت آي ومعها سلة جوافة وسكينة وبرطمان صلصة حارة. تنزهوا ولسع الفلفل الحار ألسنهم، وشعر كريسان باللسعة تصل حتى قلبه، متخيلا فرصة النكاح التي ستأتي يومًا ما.

وجاء اليوم. يوم فازت رينجانيس الجميلة بالرهان وشربت زجاجات الليمونادة الخمس. كان كريسان يدخن سيجارة قرب المراحيض ووقعت عيناه على الفتاة. وبينما كانت رينجانيس الجميلة متجهة إلى أبعد المراحيض الذي صار وكرا للغيلان والشياطين، أدرك كريسان بغتة أن تلك فرصته. سارع يترك أصدقاءه، ومن ركن هادئ في الفناء قفز فارتقى متري سور بستان جوز الهند. كان يعرف أن في

سطح المرحاض فتحات كثيرة، فسارع يقصد ذلك المرحاض، مرتقيا السور مرة أخرى مستعينا بغصن شجرة جوز، ونظر من فتحة في السقف، متلصصا على رينجانيس الجميلة التي كانت جالسة تبول.

صاح عليها في خفوت "هاي".

رفعت رينجانيس الجميلة عينيها مندهشة من وجود كريسان فوق السطح. سألته "ماذا تفعل عندك؟ حاسب وإلا تقع وتموت".

"أنا أنتظرك".

"تنتظر أن أصعد إليك؟"

"لا، ألن نتضاجع؟"

سألته رينجانيس الجميلة "هل تستطيع النزول؟"

"طبعا سوف أنزل".

متشبثا في عارضة متعفنة، تدلى كريسان نازلا إلى المرحاض. صار كلاهما في المكان، ولم يزل سروال رينجانيس الجميلة حول ركبتيها. كانت رائحة المرحاض عفنة، وكان واضحا أن المكان غير لطيف. لكن كريسان لم يبال، لأنه كان في ذروة الرغبة.

همس "هيا، هيا نتناكح".

همست رينجانيس الجميلة "لا أعرف كيف".

"أعلمك".

بدأ كريسان بأن أنزل سروال الفتاة ببطء عن ركبتيها، وعلّقه على مسمار صدئ مثبّت في الجدار، وبالهدوء نفسه فكّ أزرار زيّ رينجانيس الجميلة المدرسي، زرًّا بعد زرّ، ليستمتع بإحساس جسمها إذ يتكشّف أمام عينيه على مهل. علّق القميص أيضًا على المسمار الصدئ. ثم خلع عنها الجيبة، وسحره سواد شعر عانتها، فأخذت يداه ترتعشان قليلا، وسارع قليلا يخلع عن الفتاة حمّالة الصدر. لكنه لحظة أن رأى ثدييها اللذين طالما تاق إليهما، استراح مرة أخرى، ثم أخذ يخلع ثيابه. خلع القميص، ثم البنطال ثم السروال. تطاول قضيبه، وانتصب، وامتد، فأمسك به يريه لرينجانيس الجميلة، فضحكت الفتاة من منظره.

وبعد ذلك لم يعد للهدوء مجال. أمسك ثدييها يتحسّسهما ويعتصرهما ممتلئا بالرغبة، فأخذت الفتاة تلهث وتشهق. احتضنت رينجانيس الجميلة جسد الولد بقوة. ودفعها كريسان إلى جدار المرحاض، ومال على جسمها بجسمه. وجعل يقبّل شفتيها اللتين اشتهاهما طويلًا لكنه لم يذقهما منذ لعبة العريس والعروس. كانت يداه تعبثان في صدرها، ويدا الفتاة تخدشان ظهره برقة، ومضى قضيبه يندفع محاولا ولوج الفتاة لكن وقفتهما لم تتح له إلا أن يضرب فخذيها فينثني عليهما. لم يعد بوسعه إلا أن يحكه في ما بين الوركين. همس كريسان "ارفعي رجلك واسنديها على حافة هذا الحوض الصغير". فعلت رينجانيس الجميلة ذلك، فانفتح له فرجها على اتساعه، وتلقّاه كريسان هانئا، فقد كانت المنطقة كلها رطبة تمامًا، ودافئة، وكانت لحركاتهما

المضطرمة المتكررة جلبة كأنهما يعبران طريقا مليئا بالحجارة. استمتعا بذلك كثيرًا، ولكنهما شأن كل المبتدئين، انتهيا منه بسرعة.

وتلك هي حقيقة ما جرى.

***

سألته رينجانيس الجميلة بعد حبهما السريع "وماذا إذا حملت؟"

اندهش كريسان أن الفتاة تعلم أن ممارسة الجنس قد تفضي إلى الحمل. وبغتة انتابه الخوف، وخطرت له فكرة مجنونة.

"يمكن أن تقولي إن كلبا اغتصبك".

"ولكنني لم يغتصبني كلب".

سأل كريسان "يعني ألست كلبا. لقد رأيتني كثيرًا وأنا أنبح وأدلدل لساني، صح؟".

"صح".

"قولي إن كلبا اغتصبك. وإنه أسود الخطم بني الفراء".

"أسود الخطم بني الفراء".

"ولا تذكري اسمي نهائيًا في هذه المسألة، ولا حتى مرة".

"ولكنك سوف تتزوجني، صح؟"

"نعم، لو تبيّن أنك حامل، يمكن أن نبدأ في وضع الخطط".

لبس كريسان بسرعة، وتسلق عبر فتحة السقف التي دخل منها، وخطرت له فكرة أن يأخذ ثياب رينجانيس الجميلة ويتخلّص منها حيث لا يعثر عليها أحد. وفي تلك الأثناء، خرجت رينجانيس الجميلة من المرحاض عارية، لا ترتدي حتى الحذاء أو الجورب، وذهبت إلى فصلها. ولم ير كريسان كل ما حدث بعد ذلك من جلبة بسبب ظهور رينجانيس الجميلة على ذلك النحو، لأنه لم يكن في فصلها.

ولما تبيّن أنها حامل فعلًا، وضعا خططا للهرب. قرّرا الاختباء في الكوخ الحربي وإقامة عرس حقيقي فيه. لكن الأمر لم يسر على ذلك النحو. وعلى مدار تسعة شهور، كان الخوف من الناس يشلّ كريسان، لا سيّما خوفه من مامان جيندنج ومايا ديوي، وكذلك من أمه، كان يخشى أن يكتشف أحد أنه الذي مارس الجنس مع الجميلة. وخطّط كريسان لقتل الفتاة في الكوخ، ليدفن الحقيقة معها، لكنه انتهى إلى قتلها في القارب، وإلقاء جثتها في المحيط.

١٧

قام ماman جيندنج في اليوم الثالث لاختفائه في سماء موكشا الانعتاق[٤٩]. قام، بالطبع، ليقول الوداع. لماما ديوي، ومن غيرها؟

هذا على الرغم من حقيقة أن مايا ديوي قبل ثلاثة أيام من ذلك كانت قد دفنت جثته التي صعب التعرف عليها تقريبًا بعدما مزَّقها قطيع من كلاب الأياك، واقتات عليها الدود، وحطَّ عليها الذباب وهي في الطريق إلى البيت، وبقيت تلك الحشرات تتبعها كأنها أثر مذنَّب. قال مامان جيندنج يطمئنها "ذلك لم يكن أنا"، وكانت مايا ديوي في حداد طوال تلك الأيام الثلاثة، وحزن عميق، وقد فقدت مامان جيندنج بعدما فقد كلاهما ابنتهما رينجانيس الجميلة، لكن على الرغم من ارتدائها الأسود طوال تلك الأيام الثلاثة، كانت في الوقت نفسه تكذب على نفسها، فتقول إن حبيبيها لا يزالان على قيد الحياة. وحاولت أن تعزّي نفسها بأن قدرا كذلك حلّ على أختيها الكبريين، ففقدت ألامندا آي، واختفى شودانتشو ليبحث عن جثة ابنته التي سرقت من المقبرة.

49 مصطلح الموكشا (ويرد في الترجمة الإنجليزية لهذه الرواية موكسا Moksa) يشير في الهندوسية والفلسفة الهندية إلى الانعتاق والتحرر من دائرة الحياة والموت.

وفقدت أديندا الرفيق كلايوون الذي انتحر، لكن كان لا يزال لديها كريسان.

ولكنها لم تكن تجد عزاء في ذلك. فبقيت كلّ صباح تجهّز الإفطار، من أطباق الرز والخضراوات والأطباق الجانبية، لنفسها ولماما جيندنج ولرينجانيس الجميلة، بمثل ما سبق أن اعتادت عليه. ولم يكن غيرها يأكل بطبيعة الحال فما كان منها في نهاية هذا الطقس إلا أن كانت ترمي نصيبيهما من الطعام الذي لم تلمسه يد. ولثلاثة أيام كانت تفعل مثل ذلك أيضًا في العشاء.

حينما كان ماما جيندنج حيًّا، أي قبل رحيله، كانا يشتركان معًا في تلك الكذبة، فيخدعان نفسيهما بأن رينجانيس الجميلة لم تزل معهما. يلتقيان على مائدة الطعام، وقد وُضع لابنتهما كالمعتاد نصيبها من الطعام، ثم يرميانه حينما تنتهي الوجبة. ثم صار على مايا ديوي في ذلك الحين أن تفعل ذلك وحدها.

وحدها تمامًا.

لكنها في اليوم الثالث من وفاة ماما جيندنج لم تكن وحدها. كان معها من يشاركها الطعام. كانت قد جلست إلى المائدة، مثلما فعلت في الليلتين السابقتين والصباحات الثلاثة السابقة، بثيابها السوداء، وقد أضافت نصيبين آخرين من الطعام، لزوجها ولابنتها. ولم تكن ابتلعت أول قدر من الرز حين انفتح باب غرفة نومهما وظهر الرجل فجلس في مقعده المعتاد. واصلت مايا ديوي أكل الرز بيدها اليمنى وبدأ الرجل

يقلّب حساءه. وأكل الاثنان بنهمهما المعتاد بدون أن يتبادلا حديثا. ولم يبق إلا نصيب واحد من الرز بدون أن يمس، إذ كان مقعد واحد فقط هو الفارغ، ولكن مايا ديوي كانت لا تزال تتخيل أن رينجانيس الجميلة في مكانها، مثلما كانت تتخيل أن مامان جيندنج هو الآخر في كرسيه يتناول الطعام. ولم تدرك أن الرجل كان حاضرا حقا إلا حينما انتهى العشاء أخيرًا، ووجدت طبق زوجها فارغا وطبق الجميلة لا يزال مليئا بالرز. نظرت إلى مامان جيندنج في تشكك، وشخص كل منهما إلى الآخر طويلًا قبل أن تسأل المرأة في همس لا يكاد يسمع "أهذا أنت؟"

"جئت أودعك".

اقتربت مايا ديوي من زوجها ولمسته بحرص فائق كأنه مصنوع من شمع قد يذوب في أي لحظة. تلمّست أناملها جبهة الرجل ثم دنت إلى أنفه، فشفتيه، فذقنه، وبعد ذلك التلمس الحريص حدَّقت فيه بفضول طفل. ولّما استشعرت الحرارة المنبعثة من جسمه، شعرت بأنه لا يزال حيا، فاهتزت وعانقته. وعانقها مامان جيندنج، تاركًا إياها تبكي على كتفه، ممسِّدا شعرها، متشمّما في محبة تاج رأسها.

وبغتة رفعت المرأة عينيها تنظر في وجه مامان جيندنج سائلة إياه "جئت فعلًا لتودِّعني؟"

"جئت أودعك".

"وترحل مرة أخرى؟"

"لأنني مت. وقمت فعلًا في السماء".

"وهي؟"

"سأتولى أمرها. هناك".

بعدما ربَّت على أحد خدي زوجته وقبَّل الآخر، دخل مامان جيندنج الغرفة التي خرج منها، وأغلق الباب خلفه. نظرت مايا ديوي إلى الباب في حيرة، ثم نظرت إلى طبق مامان جيندنج الفارغ، ثم إلى طبق الرز الممتلئ الذي كان ينبغي أن تتناوله رينجانيس الجميلة، ثم نظرت ثانية إلى باب غرفة النوم المغلق، وفي هلع اندفعت تجري إلى الباب تفتحه فلم يكن وراءه من أحد.

ظلت تبحث عنه. تأكدت من الشباك فوجدته مغلقا كما كان منذ العصر. فتَّشت تحت السرير فلم تجد غير بقايا بخور وشبشب منزلي كانت ترتديه عادة قبل الصلاة. ولم يكن ليوجد في مكان آخر. إذ كان مستحيلا أن يختفي في الدولاب ذي المرآة الكبيرة المقسّم إلى أجزاء ممتلئة بثيابهما، ومع ذلك فتحت مايا ديوي الدولاب أيضًا ثم أغلقته على الفور. تحقّقت من السرير والتسريحة على أمل أن تجد مفتاحا، ولكنها لم تعثر على شيء. فتركت الغرفة ووقفت مرة أخرى تنظر إلى المائدة.

ثم إنها استأنفت عملها. فنظّفت المائدة ووضعت بقية الرز والخضار والأطباق الجانبية في خزانة المطبخ، لتأكله بعد ذلك الفتاتان الريفيتان اللتان تساعدانها في عمل البسكويت. حملت الأطباق الوسخة إلى الحوض، ورمت في سلة القمامة الرز الذي لم تأكله رينجانيس الجميلة. واكتفت بغسل يديها إذ لم تجد في نفسها رغبة في غسل الأطباق كعادتها،

ورجعت إلى غرفة النوم، ففتّشت الغرفة الفارغة، ثم وجّهت سؤالا لمامان جيندنج كأنه لا يزال حاضرا:

"لو أنك صعدت إلى سماء الموكشا، فمن الذي دفنته أنا قبل ثلاثة أيام؟"

تلك كانت حكاية خيانة، بدأت وقائعها قبل زمان بعيد حين كانا لا يزالان حديثي الزواج، قبل أن تحلّ ليلة زفافهما متأخرة خمس سنين، وقبل أن تولد رينجانيس الجميلة.

جاء رجل متين البنيان أصلع مقضوم إحدى الأذنين إلى محطة الأتوبيسات في عصر يوم قائظ شاقًا طريقه في زحام من الناس أغلبهم سائحون يقصدون أتوبيساتهم بعد قضاء عطلة أسبوعية في المدينة. كان يصفع كل من يعترض طريقه، مبعثرا بضاعة باعة السجائر، قاصدا الاستيلاء على مقعد الماهوجني الهزاز الذي كان يملكه مامان جيندنج، بعدما استولى عليه بدوره إثر قتله إيدي الأحمق.

كان مامان جيندنج منذ استيلائه على السلطة قد واجه رجالا كثيرين أرادوا أن يسلبوه ذلك الكرسي المتهالك، رمز حكمه، فكان يهزمهم جميعًا، ليظهر من بعدهم رجال جدد بين الحين والآخر، ثم ظهر في ذلك الحين رجل جديد. كان عدد من أصدقاء مامان جيندنج يرقبون الغريب منذ دخوله المحطة، وقد علموا ما يريده بدون أن يسألوا. وعلم مامان جيندنج أيضًا، لكنه لزم الصمت، واضعا ساقا على ساق،

محركا الكرسي إلى الأمام وإلى الخلف، مدخّنا سيجارته. لم يكن أحد يعرف ما اسم الرجل، ولا من أين جاء، ولا كيف عرف أن مامان جيندنج هو صاحب الأمر والنهي هنا، لكن كان واضحا أنه ليس من هاليموندا، فلو كان من أبناء المدينة وله طموح، لكان تحدى مامان جيندنج على الكرسي قبل زمن بعيد.

في ذلك الوقت كان مامان جيندنج لا يزال يحتفظ بنقوده محشوة في برطمانات من الطين يختزنها لدى امرأة دميمة اسمها موايانج يثق فيها ثقته في زوجته. كان يدخر نقوده ليفاجئ زوجته بهدية، وإن لم يعلم بالضبط أي هدية. كانت موايانج تحضر إلى محطة الأتوبيسات كل يوم، مثله تمامًا، لتبيع المشروبات والسجائر في أثناء النهار، ثم لينكحها في الليل من الرجال من لا يكترثون لقبح وجهها (فما الفارق بين وجه جميل ووجه قبيح وأنت في عتمة الآكام؟) ولا يرغبون في إنفاق مالهم في الماخور، ولم تكن موايانج تطلب المال من أحد قط. لم يحدث يومًا أن نكحها مامانجيندنج، ولم يكن يرغب في ذلك، لكنه كان يدخر نقوده في برطمانات لديها وتحت سرير في الكوخ الذي تعيش فيه. وكان جميع أصدقاء مامان جيندنج يعلمون أين يخفي نقوده، ولكن أحدًا لم يجرؤ على سرقتها، ولا حتى جرؤ أحد على النظر إليها. كانت محطة الأتوبيسات كثيرًا ما تشهد مشاجرات، إذ جعلها تلاميذ المدارس ساحة لذلك، أما مامان جيندنج فكان نادرا ما يتشاجر. وفي ذلك الحين، وبينما كان الأصلع يقترب من المجرم متحديا إياه، انتظر الجميع ليروا ما ستتكشف عنه المواجهة، ووقائعها. لم يكن أحد واثقا أن الغريب سوف

يحصل على مقصده، إذ انتهى الناس في محطة الأتوبيس بعد كل تلك السنين إلى أنه ما لأحد أن يهزم ماما جيندنج، إلا لو هاجمه جنود الجمهورية جميعًا في وقت واحد، وحتى في تلك الحالة لن يكون الأمر مضمونا، لو صحّ ما كان يقوله الناس عن منعته أمام الأسلحة. ومع ذلك كان الناس دائمي الانتظار لمعاركه.

في الصباح المبكّر من ذلك اليوم، وبينما كانت تجهّز له ثيابا جديدة نظيفة ومكوية على طرف السرير قبل خروجها إلى المدرسة، طلبت منه مايا ديوي ألا يرجع إلى البيت متسخ الثياب كالعادة. كان وسخ ثيابه كثيرًا ما ينجم عن الشحم والعوادم في أثناء مساعدته سائقي الأتوبيسات في إصلاح سياراتهم، أو ناجما في أحيان أخرى عن السناج الذي يعلق في جدران المحطة. لم تكن تلك الأشياء تجعل الثياب عصية على الغسيل، مثلما أوضحت مايا ديوي، بل الأمر أن زوجها لا يبدو جميل المنظر في ثياب قذرة. في ذلك اليوم كان يرتدي قميصا بلون القشدة من شأن الوسخ أن يظهر فيه على الفور، فوعدها بأنه لن يوسخ ثيابه، مهما حدث.

كان مسترخيا في كرسيه سيئالسمعة في ذلك العصر القائظ، يدخن سيجارته ببطء، حينما رأى الرجل يدخل المحطة. وعلم مثلما علم غيره أن مواجهة بينهما في الطريق. فلمّا صار الأصلع أمامه، وقبل أن يقول كلمة، وقف ماما جيندنج قائلا "إذا كنت تريد هذا الكرسي، فتفضل لو سمحت بالجلوس، أو خذه معك إن أحببت". وما كان لأحد أن

يصدق ذلك، حتى الأصلع لم يصدقه، فبقي للحظة صامتا وهو ينظر إلى الكرسي الخاوي.

قال الأصلع "ليس الأمر بهذه البساطة، أنا أريد الكرسي وكل ما للكرسي".

أومأ مامان جيندنج وهو يلقي عقب سيجارته قائلا "أفهم هذا تمامًا، لذلك تفضل وخذ كل شيء".

قال الأصلع "أهكذا يستسلم البلطجي الذي لم يهزم قط في شجار ويتنازل عن سلطته بدون اعتراض. ما من تفسير لذلك إلا أنه يريد أن يترك هذه الحياة ويصبح زوجا صالحا".

أومأ مامان جيندنج برأسه وأشار للرجل أن يجلس، فلم يضيّع الرجل وقتا واقترب من الكرسي، رمز السلطة، متجاسرا، منتصرا، لكن قبل أن يمسَّ قعره الكرسي، ضربه مامان جيندنج على قفاه بقبضته، بقوة ظن معها الناس أنهم سمعوا عظم الرجل ينكسر وهو ينهار بجوار الكرسي. ولم يوسخ مامان جيندنج ثيابه. وجاء من سحب الأصلع إلى جانب الطريق بينما جلس مامان جيندنج على كرسيه يدخن.

ومنذ ذلك اليوم، ظل الأصلع يهيم في المحطة وقد صار من خيرة رجال البلطجي. أطلق على نفسه اسم روميو، فقد يكون قرأ شكسبير وقد لا يكون، لكنه أطلق على نفسه اسم روميو، وأطلق عليه الجميع

اسم روميو، وإن شعروا بأنه اسم لا يليق برجل أصلع ضخم نصف إحدى أذنيه مقضوم والعقب الباقي منها ممزق. صار روميو جزءاً من الجماعة، يعيش وسطهم ويحترم سلطة كبيرهم ماما جيندنج، بدون أن يعرف الناس شيئًا عن تاريخه أو المكان الذي جاء منه، ولكن بقية الرجال ما كانوا صرحاء بشأن ماضيهم أيضًا. وشأن بقية الرجال، كان روميو ينكح موايانج بين الحين والآخر إلى أن جاء يوم وقال لماما جيندنج "إنني أريد أن أتزوجها".

قال المجرم "اذهب إذن واسألها بنفسك إن كانت تريد أم لا تريد أن تكون زوجة لك".

وافقت موايانج على الزواج به، وأقيم لهما بعد شهر واحد عرس صغير تكفَّل به ماما جيندنج، وعاش الاثنان في الكوخ الذي كانت تعيش فيه موايانج وحدها حتى ذلك الحين.

وقال ماما جيندنج "أقسم بالله إن روميو تزوج امرأة تحب النوم مع الرجال".

وقضيا شهر عسل أثار غيرة الكثيرين، إذ كانا يأتيان إلى المحطة متأخرين بعد ليلة يكونان قضياها كاملة في ممارسة الحب، وكان يحدث أن يختفيا في منتصف النهار وراء كشك موايانج فيمارسان الحب وراء الآكام على مقربة من مزارع الكاكاو. ثم تبيّن بعد حين أن ما قاله ماما جيندنج صحيح، ففي الليل إن لم يكن زوجها في البيت وأغلقت هي

الكشك، كانت موايانج تمارس الحب مع رجال آخرين، فمرة مع سائق بيكاك، ومرّات مع سائق أتوبيس، ومرة نكحها الاثنان في وقت واحد.

قال روميو "ما لرجل أن يمنع امرأة من عمل ما تحب عمله وإن تكن زوجته". فقال له ماما جيندنج "ينبغي أن تكون فيلسوفا، هذا إذا لم تكن مجنونا تمامًا". قال روميو "ثم إنها تعطيني نقودا" وجلس بجوار كرسي الماهوجني الهزاز الذي طالما اشتهاه وقال "لكي أجرب نساء الماخور".

كانت محطة الأتوبيس رمز عزَّتهم منذ أن كان إيدي الأحمق يسيطر على المدينة وحتى حلّ محلّه ماماجيندنج. لم تكن مكانًا كبيرًا، فلم يكن يعبرها إلا مسار واحد يتجه من المدينة إلى الشرق والشمال، أما جهة الغرب فكان طريق واحد ينتهي مسدودا عابرا قبل ذلك مدينتين صغيرتين. ولم يكن البلطجية جميعًا يلتقون في المحطة، بل الحقيقة أن الأقلية فقط هم الذين كانوا يقصدونها، ولكن حضور ماما جيندنج الدائم هناك، ومراقبته الناس في مرورهم من كرسي الماهوجني الهزاز، جعل المحطة مكانًا مهما لهم. بدا الجميع في العصابة سعداء، فبرغم أن موايانج تزوجت روميو، كان لا يزال بوسعهم أن يناموا معها بلا مقابل وقتما يريدون ما دامتراغبة في ذلك.

ولكن تلك السعادة تعكّرت في يوم هادئ كان ينبغي أن يمرّ بدون أن تميّزه حادثة. فتحت موايانج الكشك لكنها لم تبع أي شيء، بل بقيت تنتظر ماما جيندنج، الذي لم يكن قد حضر بعد. ولما وصل أخيرًا،

أنيق المظهر، في هيئته الجديدة التي ألفها أصدقاؤه منذ زفافه، اقتربت موايانج منه مباشرة وهي تبكي وتنشج، ولم يكن نشيجها ذلك إلا نشيج زوجة متروكة، فتصوّر ماما جيندنج أن روميو ترك موايانج. ولكن ماما جيندنج لم يكن مقتنعا بإخلاص موايانج أو حبها لروميو فسألها:

"ما الأمر؟"

"روميو رحل".

"كنت أتصور أنك لا تحبينه فعلًا كل هذا الحب".

بعدما جفّفت دموعها بطرف قميصها كاشفة عن بطن بدين مليء بدوائر الدهن، قالت "المشكلة أنه غادر ومعه جميع برطمانات نقودك".

لم يكن واردا أن يكون روميو قد هرب عبر محطة الأتوبيس، وفي تلك الساعة المبكرة من الصباح لم تكن القطارات تغادر محطة المدينة. فلعله كان قد هرب إلى الأدغال، أو أن أحدًا ساعده حتما على الفرار في سيارة. مهما يكن الأمر، غضب ماما جيندنج غضبا شديدا وعقد العزم على العثور عليه، حيا أو ميتا، فجمع كل رجل من رجاله، وأمرهم جميعًا بالانتشار في كل اتجاه، وصولا حتى إلى المدن المجاورة، والاتصال ببلطجيتها، ولم يسمح لأحد بالرجوع قبل القبض على روميو، ما لم يكن يريد التعرض للضرب. فغادر جميع البلطجية المدينة، وعاشت هاليموندا يومًا من السلام لم تعرفه من قبل. لم يبق إلا ماما جيندنج، وقد استولى عليه الغضب. كان يحلم منذ عهد بعيد بحياة أسرية وديعة، يتسنّى له فيها أن يعيش من مال نظيف. كان يريد أسرة

كأي أسرة، وكان يدّخر نقوده ليحقق هذا الحلم الجميل، بأن يشتري شيئًا، لعله مركب صيد، ويصبح صياد سمك. أو شاحنة ويصبح بائع خضراوات. أو هكتارات قليلة من الأرض ويصبح مزارعا. ولم يكن قد قرّر ما الذي سوف يشتريه، ثم جاء من سرق تلك النقود. لذلك كان غضبه مستعرا. ظل ثلاثة أيام ينتظر نافد الصبر، لم يشرح لزوجته شيئًا، فظلت صامتة يفترسها القلق، وفي محطة الأتوبيس ساء طبعه سوءا غير معهود، فتفاداه جميع السائقين بقدر ما استطاعوا.

وفي اليوم الرابع، جاء اثنان من رجاله بروميو بعد أن عثرا عليه في مدينة نائية، على حافة الأدغال الهائلة إلى الغرب من هاليموندا، حيث عاش في يوم من الأيام أشرس المحاربين في فترة حرب العصابات. ومن حسن الحظ أن نقود ماماn جيندنج كانت كما هي، اللهم إلا ما يكفي لشراء كأس من الخمير، وليمونادة، وعلبة سجائر. فقد عثر الرجلان على روميو قبل أن يتسنّى له شراء أي شيء آخر، لكن غضب مامان جيندنج كان منصبًّا على شيء غير ذلك تمامًا.

لم يصل روميو إلا وقد أوسعه رجلا مامان جيندنج ضربا، لكن غضب مامان جيندنج كان أكبر من ذلك، فضربه مرة أخرى بينما الناس متحلقون في دائرة كأنهم يتفرّجون على مصارعة الديكة. كان صراخ روميو يثير الشفقة، وهو يتوسل الرحمة ويتعهد بألا يعود إلى مثل ذلك الجرم البشع مرة أخرى، ولكن التجربة كانت قد علّمت مامان جيندنج ألا يولي خائنا ثقته. وتجمّع المزيد من الناس والمزيد، فكان أقربهم إلى الحدث جلوسا، وأبعدهم وقوفا، عاجزين عن عمل أي

شيء إلا مشاهدة القسوة. أما أفراد الشرطة الذين كانوا يحرسون المحطة فأغمضوا عيونهم ولزموا أماكنهم.

بدأت الطيور آكلة الجيف تتحلق مشدودة إلى رائحة الموت الوشيك إذ بدأت تنبعث وتنتشر محمولة على رياح المحيط. ولكن روميو لم يكن قد مات بعد، لا لأنه كان على ذلك القدر الهائل من القوة، بل لأن مامان جيندنج كان يعمد إلى الإبطاء، محيلا موته إلى عذاب حقيقي، ليكون عبرة لغيره ودرسا لهم بأن هذا مصير كل خائن. وشعر فعلًا بالأسف لتلك الطيور آكلات الجيف، لا لأن موت الضحية سوف ينتظر طويلًا، وهو يبطئ ما استطاع في خلع أسنانه، بعدما كسر له ضلعين، وانتزع أظافر، وخلع عنه ثيابه كلها ثم بدأ ينزع شعر عانته شعرة بعد شعرة، وبدأ يزيِّن جسمه -الذي كان قد تورم بالفعل وامتلأ بالرضوض- بإطفاء أعقاب السجائر فيه. لا، كان يأسف لتلك الطيور آكلة الجيف لأنه لم يكن يعتزم أن يترك لها نصيبا من سعادته، فلم يكن يعتزم رمي الجثة، بل لقد قرّر إحراقه حيا ليكون ذلك تعبيرا نهائيًا عن غضبه.

ولكنه لم يكد يبدأ في تجهيز الجاز والولاعة، حتى اندفعت المرأة القبيحة فجأة وسط الزحام ووقفت أمامه. توسّلت إليه موايانج أن يرحم زوجها، طالبة منه أن يتركه يعيش، ووعدت بأن تعتني به وتجعله أهلا للثقة.

قالت موايانج "أرجوك أعطني هذه الفرصة يا صديقي، فهو زوجي، مهما يكن ما فعله".

تأثّر مامان جيندنج بشدة ولان قلبه على الفور. رمى علبة الجاز على القمامة وأعلن لكل حاضر أنه يعطي الرجل فرصة ثانية، وأنه ما من فرصة ثانية لغيره ممن قد يفكر في خيانته. وكذلك لم يصبح روميو، زوج موايانج، طعامًا للنار أو آكلات الجيف، بل عاش ليصبح أخلص أصدقاء مامان جيندنج وخير أتباعه. بينما أعطى مامان جيندنج كل ماله لمايا ديوي فسرعان ما صار نواة عملها في البسكويت.

"ذلك هو الرجل الذي دفنتِه" قال مامان جيندنج. "روميو".

وبالطبع لم تكن مايا ديوي تعرف أي شيء عن ذلك كله. لم تكن قد عرفت شيئًا عن روميو، أو عن تفاصيل أيٍّ من مشكلات زوجها في المحطة، وقد بدأت المشكلات جميعًا بعد هروب رينجانيس الجميلة من البيت بطفلها الذي ولدته للتو "لتتزوج كلبا".

كان ذلك في مطلع ديسمبر، وهو شهر لا يمكن التنبؤ فيه بالجو، والمدينة كانت مليئة بسائحي إجازات نهاية العام، فكان سهلا الضياع وسط الزحام. في هذا الوقت من السنة تصبح المدينة محمومة ويتوقف الناس عن الانتباه لبعضهم بعضا، إذ يكون العمل في أوجه. كانت أكشاك التذكارات لا تزال ثابتة في تلك الفترة، منذ أن حماها الرفيق كلايوون من الإخلاء. وكان يحدث أن يتيه كثير من الأطفال، وكثير من الشيوخ، وتختفي شابّات في الزحام الصاخب، فكان العمال يعلّقون في

كل مكان تقريبًا ملصقات بصور المفقودين وتعلن مكبرات الصوت عنهم مدوية بطول الشاطئ.

لكن رينجانيس الجميلة لم تضع بتلك الطريقة. فالسائحون الذين كانوا يضيعون كانوا حالَات مؤقتة تنتهي بعد شيء من البحث والتقصّي بالعثور عليهم والرجوع إلى مجموعاتهم. أما رينجانيس الجميلة فقد هربت من البيت ومضت عائلتها كلها تبحث عنها. سأل مامان جيندنج ومايا ديوي في كل مكان، كما انتشر رجال مامان جيندنج في كل مكان مثلما فعلوا من قبل مع روميو، لكنهم لم يعثروا على الفتاة. أما شودانتشو ـالذي كان قلقا بصفة خاصة على ابنته، آي، التي طعنتها حمى قاتلة بسبب ضياع رينجانيس الجميلةـ فقد نشر فرق إنقاذ للبحث عنها، لكنه نسي أمر كوخ حرب العصابات، فلم يكن يعلم أن الأطفال يعرفون بأمره.

واستمر البحث ليلا ونهارا، وتوقفت الترتيبات التي كانت جارية للزفاف، فأزيلت الزينة، وأعيد جميع الأثاث المستأجر. وأصاب ذلك الفتى كينكين شيءٌ من الجنون، بسبب ما جرى، فمضى وحده يبحث في كل مكان، حاملا بندقيته قاتلا كل ما يصادف في طريقه من الكلاب. وسأل عنها أرواح الموتى بالجيلانجكونج، فلم يجد أيا منها يعرف أي شيء عنها.

قال لنفسه إن "قوة روح شريرة ما تحميها".

قالت مايا ديوي وهي تبكي "ستموتخلال أيام قليلة. فهي لا تعرف ما الذي ينبغي أن تأكله في رحلة كهذه، وليس معها نقود، ولا حتى قرش تعريفة".

قال مامان جيندنج محاولا أن يواسي زوجته "لا أجد أي سبب يجعل موتها حتميا. فلو قرصها الجوع حقا يمكنها أن تأكل الولد".

بدأ أعضاء فرق البحث يرجعون فردا فردا بدون أن يصادفهم النجاح. لم يعثر أي منهم على أثر لها، أي أثر. قال مامان جيندنج "لا يمكن أن تكون قد رفعت إلى السماء جسدا وروحا. ولا يمكن أن تصل إلى سماء الموكشا لأنها لم تحاول يومًا ممارسة التأمل". فعاودت فرق البحث بحثها مرة أخرى، متفقدين الآكام أكمة بعد أكمة، باحثين في أزقة المدينة وخرائبها، ولم يعثروا لها على أثر. وجرّبت مايا ديوي أن تزور زميلات ابنتها في المدرسة، ولكن لم يكن من أحد مقرب منها غير آي وكريسان. تحولت مايا ديوي إلى حطام، وندمت أنها لم تقض الليلة بجوار ابنتها.

في رأس السنة ازداد زحام السائحين في المدينة، وغرق بعض الناس مثلما أعلن العمال، فتحقق مامان جيندنج ومايا ديوي من الجثث جثة جثة. فكان أغلبها لسائحين لم يمتثلوا للافتات التي تحظر السباحة في بعض الأماكن، وعثروا عليها في النهاية. وتعرفوا عليها على الفور، فحتى مياه المحيط ما كانت لتجهز على جمالها. وبرغم أنهم لم يعرفوا منذ متى غرقت قبل أن يجرفها الموج إلى الساحل، وصل خبر

العثور عليها فورا إلى ماما جيندنج ومايا ديوي. كانت طريحة على ظهرها وقد تمزقت ثيابها تمامًا، وإن لم يزل وجهها ذلك الوجه المغوي، وشعرها طافيا على سطح الماء، تتلاعب به الأمواج. أدركوا على الفور أن بطنها لم يكن منتفخا شأن غيرها من الغرقى، وأن حول رقبتها رضوضا مسودّة. لقد قتلها شخص قبل أن يرميها في المحيط. وانفجرت مايا ديوي في البكاء.

قال ماما جيندنج وهو يمسك غضبه "مهما يكن ما جرى، لا بد من دفنها، وبعد ذلك سوف نعثر على ذلك القاتل الوغد".

قالت مايا ديوي وهي تتكئ على كتف زوجها، وقد فقدت الوعي تقريبًا "لا يمكن أن يكون كلب هو الذي خنقها".

حمل ماما جيندنج جثة رينجانيس الجميلة بنفسه، بعدما عثر عليها في آخر نقطة من شاطئ هاليموندا وقد مضى على اختفائها من بيتها شهر واحد. تبعته مايا ديوي وقد تورمت عيناها وفاض منهما دمع لم ينقطع، ومن ورائهما المتفرجون المشفقون.

في عصر ذلك اليوم، بعد إتمام جميع شعائر الجنازة، شق نعش رينجانيس الجميلة المدينة نحو مقابر بوذية الدارما. أما كينكين الذي أغشي عليه تقريبًا حينما اكتشف أن من ستدفن في ذلك اليوم هي الفتاة التي أحبها. فقد اشترك مع أبيه في حفر قبر الفتاة وقد استولى عليه حزن لا عزاء له. بل إنه ساعد ماما جيندنج وكامينو في إنزال الفتاة. ولما نثر

مامان جيندنج أول حفنة تراب فوق قبرها، اشترك معه كينكين في تغطية قبر حبيبته، واضعا بمحبة شاهدة قبرها الخشبية في التراب. •

قال كينكين بصوت طافح بالكراهية "سأعرف من الذي قتلها، وسأنتقم لموتها".

قال مامان جيندنج "افعل. وإن عثرت عليه فسأترك لك قتله".

في تلك الليلة التقى الاثنان عند قبر رينجانيس الجميلة. استحضر كينكين روحها بينما مامان جيندنج ناظر إليه. بدأت لعبة الجيلانجكونج، ولكن روح رينجانيس الجميلة لم تحضر. حاول كينكين الاتصال بروح أخرى ليسأل عمن قتل الفتاة، فلم يجب سؤاله أي من الأرواح، مثلما لم يعرفوا من قبل إلى أين هربت.

قال كينكين يائسا ومنهيا جلسة الجيلانجكونج "لن يمكننا ذلك. لعل روحا شريرا يعترض محاولاتي منذ البداية".

قال مامان جيندنج "لو لزم الأمر فسوف أتأمل حتى أبلغ عالم الأرواح وأقاتل في الحياة الأخرى، فلا أزال راغبا في معرفة قاتلها".

وفي ذلك الحين بدأ هو وزوجته يكذبان على نفسيهما فيتخيلان أن رينجانيس الجميلة لم تزل حية. كانا يجهزان لها الإفطار والعشاء، ويغرفان لها نصيبا من الطعام، وإن تحتَّم على مايا ديوي أن ترميه بعد ذلك. في الأثناء نفسها، فتحت الشرطة قبر رينجانيس الجميلة لتجري تحقيقا قبل دفنها مرة أخرى. حاول مامان جيندنج أن يصدق أن الشرطة سوف تعثر على قاتلها، لكن لمدة أسبوع، ثم لمدة شهر، لم يظهر

تفسير، أو حتى مفتاح للغز. برغم أن الشرطة استجوبت الكثير من الناس: فاستدعي الجميع إلى قسم الشرطة للتحقيق، فذهب كل من مامان جيندنج ومايا ديوي خمس مرات، وجرى مثل ذلك على آخرين، فكان يبدو أن كل شيء يبعدهم عن العثور على قاتل رينجانيس الجميلة. وبات الأمر كله مرهقا، وفقد مامان جيندنج ثقته في الشرطة. فوبّخ آخر من جاء منهم إلى بيته للتحقيق.

قال له في ضيق "لن تعثروا أبدا على القاتل في هذا البيت، وقد كنتم أغبياء حينما ظننتم أن هذا سوف يحدث".

وفي تلك اللحظة، فهم البلطجي بمنتهى الوضوح، وكأنما أوحي إليه، ما عليه أن يفعله.

فقال بيقين كامل "لو أن أحدًا لا يعرف من قتلها فلا بد أن يعني ذلك أن المدينة كلها مسؤولة عن قتلها".

وفي الاثنين التالي، ومع قرابة ثلاثين من رجاله، بدأ يتحرك. وكان تحركه قاسيا وسيتذكر فيه الناس أقسى وقت مر على هاليموندا. بدأ الرجال بقسم الشرطة، فحطمواكل ما وجدوه فيه، وتحدوا الشرطة أن تحاول إيقافهم. وأنهى مامان جيندنج الزيارة بإحراق القسم كله، للتنفيس عن بعض غضبه على كفاءتهم المحدودة.

ذهلت المدينة. تصاعد الدخان عاليا في السماء فلم تستطع فرقة الإطفاء أن تخمد لهيبه. ولم يجرؤ أحد أن يحضر لمشاهدة حريق القسم كعادتهم في مشاهدة الحرائق الأخرى، بمجرد أن سمعوا أن مامان جيندنج

والأوغاد من أتباعه غاضبون غضبا لا سبيل إلى احتوائه. لزم الناس الهدوء، وظلوا يتناقلون الخبر وهم يرتعدون إذ يتخيلون ماذا قد تكون الخطوة التالية من الرجل الرهيب.

برغم أن مامان جيندنج كان في ذلك الوقت شيخا عاش بالفعل أكثر من نصف قرن، كان الجميع يعلمون أن قوته لم تتناقص مثقال ذرة. وكان قد فقد ابنته الحبيبة بأمرِّ طريقة ممكنة، إذ قتلها شخص ورماها في المحيط، ولم يعرف هويته. ندم لأنه لم يفعل شيئًا بمجرد أن قالت البنت إن كلبا اغتصبها في مرحاض المدرسة. لماذا لم يبحث عن ذلك الكلب منذ البداية، بل لماذا لم ينحر جميع كلاب المدينة مثلما حاول الفتى كينكين بطريقة الهواة التي اتبعها؟

قال "ميجين هوند ويجلأوبن". كلبي هرب. ولم يعرف أحد ماذا يقصد.

بعدما أحرق قسم الشرطة، عثر على كلبه الأول، كان كلبا ضالا يبحث عن طعام في القمامة، فاصطاده وقتله، بأن لوى عنقه حتى انكسر وانطرح الحيوان ميتا.

قال "ما معنى أن أكون صاحب سلطة ولا أقدر على حماية ابنتي من كلب. هيا نقتل كل كلب في هذه المدينة".

بدأ رجاله ينتشرون في مجموعات كبيرة حاملين أسلحتهم القاتلة. فبعضهم تسلح ببنادق وبعضهم بمناجل وسيوف مسلولة.

وتنهد مامان جيندنج قائلا "لا بديل إلا هذا وإن لم يجلب لي الراحة".

وسأله روميو بغباء "ألا تستطيع أن تنجب طفلا آخر وخلاص؟"

"حتى لو أن لدي عشرة أولاد، فقد قتل ابنتي شخص ما، وهكذا لا سبيل إلى أن أستريح". وحدَّقت عيناه في بازلت الأزقة بحثا عن كلب آخر وقال "كان عمرها سبعة عشر عامًا فقط".

قال روميو "ابنة شودانتشو أيضًا ماتت".

"هذا لا يخفف عني".

وهكذا بدأت مذبحة الكلاب الكبيرة، تقريبًا مثل مذبحة الشيوعيين التي وقعت قبل نحو ثمانية عشر عامًا. ومن يدري ما الذي كان يمكن أن يحدث لو اكتشف شودانتشو ذلك، فتلك الكلاب كانت النسل المهجن من كلاب الأياك التي روضها وربَّاها، ولكنه كان بعيدا يبحث عن جثة الفتاة. ذبح البلطجية بسهولة الكلاب الهائمة في الشوارع، ومزقوها إربا كأنهم يجهزونها لوجبة الساتاي[50]، ثم علقت رؤوسها عند منعطفات الشوارع والدم يتقاطر من رقابها كأنها تحذير لبقية الكلاب أن تخلي المدينة. وبعد قتل الكلاب الضالة، بدأ البلطجية في قتل كلاب البيوت، فكانوا يهدمون الأسيجة ويقتلون الكلاب في أقفاصها، بلا حيلة لها أمام قاتليها. كما كانوا يقتحمون البيوت محطمين الشبابيك مهاجمين الكلاب

---

50 الـ satay وجبة إندونيسية وماليزية من قطع لحم صغيرة مشوية تقدم مع صلصة تحتوي تقليديا على فول السوداني

المدللة النائمة في براءة على أسرَّتها، ويقتلونها حيثما يجدونها ثم يرمونها في مقلايات المطابخ.

واحتج الناس فلم يبال بهم مامان جيندنج، وقال "لو صحَّ أن كلبا اغتصب بنتي فلا بد أن تكون الكلاب قد ورثت مثالب البشر". ثم أمعن فأمر أتباعه بأن يحطموا بيوت ملاك الكلاب.

قال روميو بخوف لا ينكر "ستواجه مع الجيش حتما إذا استمررتم في هذا التدمير".

"سبق أن واجهنا أولئك الجنود".

نظر روميو غير مصدق.

سأله مامان جيندنج "وما الذي يمكن أن يفعله في رأيك رجل غاضب من مقتل ابنته؟ أنا أعرف أن هؤلاء الناس جميعًا لم يرتكبوا خطيئة، لكنني غاضب".

وكان غاضبا بالفعل على كل أهل المدينة، إلا رجاله، ولكن ابنته أيضًا لم تكن أكثر من ذريعة. فقد كان يكنّ ضغينة تجاه أهل المدينة منذ زمن بعيد، مدركا أنهم جميعًا ينظرون بتعال إليه هو ورجاله باعتبارهم جميعًا مجرد بلطجية عاطلين ينفقون وقتهم بدون عمل أي شيء إلا شرب البيرة والمشاجرة. وكان يكنّ لهم ضغينة لاعتبارهم رينجانيس الجميلة مجرد فتاة بلهاء ولنظرهم إليها نظرة الحرمان والشهوة. فكانت لغضبه أسبابه.

وأوجز ماما ن جيندنج قائلا "هم يعتبروننا سلة قمامة المجتمع. وهذا صحيح، لكن أغلبنا لم يتلقوا من التعليم ما يكفي لنفعل لأنفسنا أي شيء، وهم أغلقوا الأبواب في وجوهنا. فما العمل وقد أصبحنا في نهاية المطاف لصوصا ينتظرون إلى أن ينتقموا ممن نغار منهم؟ لقد كنت أغار من الصالحين وحياتهم السعيدة، وأريد لنفسي مثل ذلك. وحصلت أخيرًا على كل ما أردت، والآن بعدما ذقت السعادة جاء من سلبني البهجة. فانشقت ضغائني جميعًا كأنها جراح مفتوحة".

وما كان يخشاه روميو حدث. انتشر الشغب في المدينة. إذ قاوم بعض ملاك الكلاب، وازداد البلطجية عنفا على عنف، فصاروا يدمرون كل ما تقع عليه أيديهم إضافة إلى الكلاب. حطمت السيارات واقتلعت الإشارات من الطرق مثلما اقتلعت الأشجار المصطفة الظليلة. وحطمت واجهات المحلات، وأحرقت مواقع للشرطة، وأصيب بعض الناس. واجتاح المدينة رعب هائل، إلى أن بعثت القيادة المركزية أمرًا من الحاكم العسكري إلى السلطة العسكرية في المدينة يرشّح شودانتشو لاستئصال البلطجية، فإن لم يتسن استئصالهم بالطرد، فبالذبح.

وقال شودانتشو لزوجته بعد رجوعه من إحدى حملاته الخائبة للبحث عن جثة ابنته آي "إنني أفكر فعليا منذ بعض الوقت في حتمية القضاء على أولئك البلطجية مثل الشيوعيين".

فقالت له زوجته (ولم تكن أخبرته قط بالعلاقة التي قامت بينها وبين الرفيق كلايوون قبل يوم من العثور عليه منتحرا): "بعد نفيك

للرفيق كلايوون تريد الآن أن تقتل مامان جيندنج، هل تريد تحويل أختيّ الصغريين كلتيهما إلى أرملتين؟"

نظر شودانتشو إلى زوجته مندهشا.

سألها شودانتشو "إذا لم يُقتل، فسوف يقتل كل من في المدينة، فماذا تريدين أن أفعل؟ وفكري في هذا، لقد فشل في حماية ابنته نفسها، فحبلت، ثم أرغمها على الزواج بعيل لم ترد الزواج به فهربت ليلة أن وضعت ابنها. وبسبب هربها، مرضت ابنتنا نحن، التي كانت صديقتها العزيزة لوقت طويل، وماتت. وبعد أن ماتت سرق أحدهم جثتها من قبرها. ألا تفهمين؟ زعيم البلطجية هو الذي قتل ابنتنا آي، نور العين الثالثة".

قالت ألامندا في تهكم "ولم لا تلوم حواء التي أغوت آدم فأكل التفاحة فاضطررنا نحن إلى العيش في هذا العالم اللعين".

وتبين أن شودانتشو لم يكن يكترث مطلقًا بزوجته. فبالإضافة إلى الفوضى التي كان يتسبّب فيها البلطجية، والأمر الصادر من القيادة العسكرية المركزية، كان شودانتشو غاضبا بسبب وفاة آي وكان لا يزال يعاني ضغينة قديمة منذ أن اقتحم مامان جيندنج مكتبه وهدّده بعد نومه مع ديوي آيو. لم يكن أحد من قبل قد هدّد شودانتشو وجها لوجه، لا ياباني ولا هولندي وجاء ذلك السفاح فاجترأ عليه. ومع أنه رأى بعيني رأسه دليلا على قوة مامان جيندنج، ظل شودانتشو على يقين من وجود طريقة ما أو طرق قليلة لقتل الرجل، وكان مستعدا لاستخدام أي وسيلة لازمة. ربما كان صديقا لمامان جيندنج، ولو في حدود منضدة

لعب الورق، لكنه ظل دائمًا يتوق إلى قتله في يوم من الأيام. وحان الوقت، فأغلق أذنيه دون أي كلام يصدر عن ألامندا.

وأخيرًا قالت ألامندا "افعل ذلك، ولا ترجع، ونصبح نحن الثلاثة أرامل ويكون هذا هو العدل".

"أديندا لا يزال لديها كريسان".

"اقتل الولد أيضًا إن كنت تشعر بالغيرة".

قاد شودانتشو بنفسه عملية القضاء على البلطجية. جمع جنوده كلهم، واستدعى قوات إضافية من أقرب المواقع العسكرية، وعقد اجتماعا طارئا حول خريطة للمواقع التي ارتكب فيها البلطجية أعمال العنف ووضع خطة لكيفية الإجهاز عليهم. كان شودانتشو نفسه قد تجاوز سن العمليات الميدانية، وبدأ في واقع الأمر ينتظر أوراق تقاعده، ولكنه أبدى طاقة كبيرة، بل وشيئًا من الحكمة. قال "لن نفعلها هذه المرة مثلما فعلناها مع الشيوعيين، هذه المرة لا بد من وضع كل قتيل في جوال".

وجاءت شاحنة محملة بالأجولة.

ونفّذت العملية بالليل، لكي لا تثير ذعر العامة. انتشر الجنود حاملين أسلحتهم، لكنهم يرتدون ثيابا مدنية، وكذلك فعل القناصة، متجهين جميعًا إلى جماعات البلطجية. وكانوا يعتبرون البلطجي هو كل شخص لديه وشم، أو يشرب الكحول، أو يثير شغبا، أو يقتل كلابا، وقتل البلطجية حيثما شوهدوا، ثم وضع كل قتيل في جوال رمي بعد

ذلك في مصرف أو ترك على قارعة الطريق، فكان من يصادفونهم يدفنونهم بأجولتهم، وذلك كان أيسر من لفهم في أكفان.

وقال شودانتشو "هم ملعونون جميعًا، لا يستحقون الأكفان، ولا أماكن في المقبرة".

ولم يطلع صباح اليوم الأول حتى كان نصف مجرمي المدينة قد اختفوا، وابتلعتهم أجولة أغلقت بأربطة بلاستيكية، شوهدت ملقاة على طول الطرق، وطافية على سطح النهر يرميها الموج إلى الضفة، وفي كومات تحت الآكام، وفي قنوات المصارف. فبعض جثثهم نهشتها الكلاب، وبعضها حطّت عليه أسراب الذباب. لم يمسس الجثث أحد قبل العصر. ابتهج الناس بهجة طاغية بالعون الذي تلقوه ممن لا يعلمون في القضاء على كل فرد من مثيري الشغب. وبالطبع كانوا جميعًا لا يزالون يتذكرون مجزرة الشيوعيين، وكيف ظلت أشباحهم تروِّعهم لسنين بعدها. ومع ذلك كان تحول أولئك البلطجية إلى أشباح خيرا من بقائهم على قيد الحياة يواصلون ترويع حياة الكثيرين. فتركوا الجثث كما هي في أجولتها، راجين أن يجهز عليها الدود والطيور آكلات الجيف فلا تبقى منها حتى عظامها. فلما بدأت رائحة التعفن تتصاعد وتهاجمهم لم يستطيعوا الاحتمال، فصار كل شخص يتعامل مع أقرب الجثث إليه بدفنها في أجولتها.

لكنه لم يكن كدفن جثة، بل كدفن البراز بعد التغوط في بستان موز.

واستمرّت المجزرة ليلة ثانية، وثالثة، ثم رابعة، وخامسة وسادسة وسابعة. نفذت العملية سريعًا، حتى انتهت تقريبًا من جميع بلطجية هاليموندا، ولكن شودانتشو لم يشعر بأدنى قدر من الرضا، لأن مامان جيندنج لم يكن بين تلك الجثث.

على مدار أسبوع كامل لم يرجع مامان جيندنج إلى البيت. وبلغ قلق مايا ديوي عليه منتهاه، لا سيما بعد أن سمعت أن بلطجية المدينة يقتلون واحدًا إثر الآخر، على مدار سبع ليال متعاقبة، بطلقات تستهدفهم في الرأس وفي الصدر. وبرغم أن أحدًا لم يكن يعلم علم اليقين، فقد كانوا جميعًا يخمّنون من الذي يفعل ذلك، فقليل من الناس فقط هم الذين لديهم السلاح. فذهبت مايا ديوي تبحث عن شودانتشو.

"هل قتلت زوجي؟"

ردَّ شودانتشو في حزن "ليس بعد. اسألي أولئك الجنود".

سألتهم واحدًا واحدًا، سألت كل جندي شخصيًا، فردوا جميعًا بمثل ما ردَّ به شودانتشو:

"ليس بعد".

ولم تصدّقهم. لقد سبق أن نفى شودانتشو الرفيق كلايوون إلى جزيرة بورو، فبوسعه ولا شك أن يقتل زوجها مامان جيندنج. تمنّت لو كان زوجها حقًا منيعًا على الرصاص، لكن رؤيتها الكثير للغاية من الجثث في الشارع منعتها من التوقف عن البحث، فلعل بين تلك الجثث جثته.

هكذا مضت تلك المرأة الجميلة، بوشاح أحمر يقيها ضوء الشمس، تنتقل من جوال إلى جوال، وتحل أربطتها واحدًا بعد واحد، لا تثنيها رائحة التعفن إذ تقتحم أنفها، ولا تبالي بأنها تنافس الذباب، وتتحقق من الجثث مقارنة وجوهها بذكرى وجه زوجها الحبيب. ولم تكن أي من الجثث جميعًا لمامان جيندنج، لكنها صادفت بينها أغلب أصدقائه المخلصين، وكانت على يقين من أن زوجها قد مات أيضًا. فلعل كل تلك الأقاويل عن منعته على الأسلحة لم تكن أكثر من لغو ونفاق. كان عليها أن تعثر عليه، وإن كان مات بالفعل فعليها أن تدفنه دفنا كريما.

أما الجثث التي دفنها الناس بالفعل بعدما لم يحتملوا رائحتها، فقد قصدت بعض حُفَّار القبور الهواة وسألتهم إن كانوا دفنوا جثة زوجها.

"من الرائحة، لا نعتقد أننا دفناه".

"وفي رأيك كيف هي رائحة زوجي؟"

"يعني، لا بد أن تكون أسوأ كثيرًا من بقية البلطجية، فقد كان كبيرهم جميعًا". ورأت مايا ديوي الحقيقة في تلك الكلمات، وواصلت بحثها. فمضت تطارد جثتين طافيتين في النهر يجرفهما التيار، ولكنها بعدما أنهكت نفسها حتى وصلت إليهما، تبين أن أيًا منهما ليست جثة زوجها. وتحقّقت كذلك من الجثث الملقاة على طول الشاطئ في منظر أفزع جميع السائحين فغادروا هاليموندا، وبعد يوم كامل من العمل الشاق، لم تصل إلى نتيجة، ورجعت إلى البيت مع حلول المساء، راجية

ألا يكون هناك المزيد من القتل في ذلك المساء، وأن يرجع زوجها. ولم يتحقق رجاؤها، فلما طلع الصباح عاودت البحث من جديد، فاتحة جميع الأجولة التي لم تفتحها من قبل.

وظلت على ذلك المنوال إلى أن عثرت أخيرًا على اثنين قالا إنهما رأيا روميو وزوجها يهربان إلى الأدغال عند الرأس البحري في اليوم السابع من المجزرة. ولكن الجنود كانوا قد سمعوا عن ذلك أيضًا، فكانت في سباق معهم، راجية ألا يكونوا قد قتلوه بعد. ذهبت وحدها إلى الأدغال، بالشبشب، والوشاح الأحمر الذي ارتدته في اليوم السابق ليحميها من ضوء الشمس، سالكة مَدَقًّا صغيرا نما عليه العشب والشوك. كانت تلك الأدغال منطقة محميَّة منذ العصر الاستعماري، ولم تكن تسكنها غير القردة والخنازير البرية، وكذلك الجاموس الوحشي والفهود، ولكن مايا ديوي لم تكن تخشى من شيء. لم تكن تريد غير العثور على زوجها، حيا أو ميتا.

وصادفت في طريقها جماعة من أربعة جنود فاستوقفتهم:

"هل قتلتم زوجي؟"

فقال قائدهم "هذه المرة، نعم يا سيدتي، ولك أحرّ تعازينا".

"فأين وضعتم جثته؟"

"حضرتك تمشين مئة متر في هذا الاتجاه فتعثرين على جثته، يحيط بها الذباب. لقد صلبناه أولا على شجرة مانجو".

"في جوال؟"

قال الجندي "في جوال، منكمشا مثل طفل وليد".

"طيب مع السلامة".

"ألف سلامة".

ومضت مايا ديوي في طريقها لنحو مئة متر مثلما قال لها الجندي وهنالك وجدت جوالا بالفعل يحيط به الذباب. كذلك كانت الطيور آكلة الجيف تنقره، وكلبان من الأياك يمزقان أركان الجوال. طردت مايا ديوي كل تلك الكائنات، وحلت الرباط البلاستيكي وتحققت أن الرجل "المنكمش كالطفل الوليد" داخله هو ذلك الرجل، زوجها، ومع أن وجهه كان مطموس المعالم تقريبًا، فقد كان هو فعلًا. لم تبك، على الإطلاق. وفي ثبات مثير للإعجاب أعادت ربط الجوال بالحبل البلاستيكي، ولأنها لم تكن لتقوى على حمله فوق ظهرها، فقد سحبت الجوال على طول الطريق من حيث عثرت عليه إلى مقابر بوذية الدارما العامة حيث طلبت دفن زوجها دفنا كريما. كان الذباب يحاصر الجوال على طول الطريق ممتدا وراءها كأنه ذنب شهاب.

ولم يتفرق الذباب إلا بعدما غسل كامينو الرجل وعطره. وباتت الجثة مسجاة ومتخشبة، وآثار الرصاص بينة في جبهتها وصدرها، فلا بد أن رصاصتين قد قتلتاه على الفور. كانت رصاصة الصدر في موضع القلب منه بالضبط، وفقط لما رأت مايا ديوي ذلك بكت، ولكي يخفّف عنها حزنها سارع كامينو يلفه في كفن. تلا صلاة الجنازة بصحبة كينكين الذي قدّم احترامه لرجل كان ينبغي أن يكون حماه. ودفنت جثة مامان جيندنج بجوار مقبرة ابنته تمامًا، وجَثَتْ مايا ديوي لنحو ساعة بين

القبرين، ثكلى، وحيدة، مغتربة، وبدأت أيام حدادها، وفي ثالث تلك الأيام رجع ماماني جيندنج من الحياة الأخرى.

مثلما ثبت من قبل، كان الرجل بحق منيعا على الرصاص. فلم يتهيّب المجزرة. لكنه لم يحتمل أن يرى أصدقاءه يطرحون موتى في الشوارع فقال لروميو الذي كان يتبعه في إخلاص:

"هيا نهرب إلى الأدغال".

ومضيافي سابع أيام المجزرة، بعدما ظلا يتنقلان من مخبأ إلى آخر. كان صحيحا أن المدينة لم تعد تبهج البلطجي. لم يعد يحتمل تذكر عزته وقوته ومنعته بينما أصدقاؤه يتساقطون موتى تحت قدميه.

"سيصبحون أشباحا عما قريب، وإن نجونا فسنعاني ونحن نرى معاناتهم" هكذا قال خلال هربهما وقد تذكّر أيام الرفيق كلايوون الأخيرة، عندما انهار ذلك الرجل أمام حزنه المتزايد وهو يرى أشباح أصدقائه تعاني أشد المعاناة. حياة كتلك حياة ألم لا يحتمل، وأراد ماماني جيندنج أن يجتنبها.

قال روميو "ما من سبيل إلى الهرب من الأشباح".

"صحيح، ما لم تقرّر الانضمام إليهم، مثلما اختار الرفيق كلايوون في النهاية أن يقتل نفسه".

قال روميو "ليست لدي الشجاعة الكافية لقتل نفسي".

قال المجرم "ولا أنا أريد ذلك أيضًا. ولا أزال أحاول التوصل إلى حلٍّ آخر".

واختار أن يهرب إلى الأدغال عند الرأس البحري إذ كان المكان شبه مهجور تمامًا. كان غابة محمية، وبسبب ذلك لم يكن فيها مزارعون يفلحون الأرض، بل مجرد ضباط كسالى يحمون الغابة. كان يرجو من هربه إلى هناك أن يكسب بعض الوقت قبل أن يعثر عليه الجنود الذين قد لا يتمكنون من قتله، لكنهم مع ذلك يمكن أن يكونوا مصدر إزعاج كبير. كان يحاول اتخاذ قرار.

قال بصوت مؤس "لا يمكن أن أبقى حيا وأنا أعرف أن جميع أصدقائي قتلوا في المجزرة".

فقال روميو ببرود "ولا يمكن أن أموت وأنا أعرف أن ناسا كثيرين لا يزالون يستمتعون بالحياة الجميلة".

"لكنني لا أزال أفكر في زوجتي. ستحزن كثيرًا، خاصة وأننا فقدنا ابنتنا".

قال روميو "أنا لا تهمني زوجتي، سيظل بوسعها أن تجد رجالا كثيرين ينكحونها غير مبالين بدمامتها، ومع ذلك لا أزال أفضل أن أحيا".

وصلا إلى تلّ صغير فيه كهف كان اليابانيون قد اتخذوا منه موقعا دفاعيا أيام الحرب. استراحا على قمة التل، حيث واصل مامان جيندنج الموازنة بين رغبته في إنهاء حياته وعزوفه عن ترك زوجته مايا ديوي وحيدة لا رفيق لها في هذه الدنيا. نظر إلى كهف اليابانيين، شديد العتمة والرطوبة، بجدرانه الخانقة، فبدا له أقرب إلى زنزانة منه إلى حصن.

ولكنه كان مكانًا لائقا تمامًا بالتأمل. وكان مامان جيندنج يريد التأمل إلى أن يتحرر ويترك الأرض إلى الموكشا، لكنه استمر يفكر في زوجته حتى قال أخيرًا:

"في كل الحالَات، وعاجلا أم آجلا، سوف يأتي الموت. وهي أقوى امرأة عرفتها".

وقرّر التأمل في كهف اليابانيين، فدخله، وأمر روميو أن يقف حارسًا على قمة التل مترصدا الجنود إن شموا رائحتهما وطاردوهما وصولا إلى ذلك الموقع. قال له "إذا وصل الجنود فتعال وخذني من هنا".

قال روميو "بل أقتلهم قبل أن تسنح لهم الفرصة للوصول".

قال مامان جيندنج "صوتك لا يبدو مطمئنا بهذا القدر. لكنني أثق فيك".

نزل مامان جيندنج إلى الكهف، وجلس على الأرض المبللة، ليبدأ التأمل. ولم يمض وقت طويل حتى حقق الموكشا: اختفى وذاب في هالات نور صغيرة. لم يقتل نفسه، لكنه رحل عن هذا العالم بأن ذرف جسده، هاجرا المادة التي تكبّل روحه، فصار نورا في النور، يشع كالكريستال صاعدا باتجاه السماء. لكنه قبل أن يصل إليها رأى أربعة جنود يصوّبون أسلحتهم إلى روميو على قمة التل. وأراد أن يساعد الرجل بأن يبهر أعين الجنود لكن قبل أن يتمكّن من ذلك، سمع روميو يقول:

"لا تقتلوني وسأخبركم أين يختبئ مامان جيندنج".

قال أحد الجنود "تمام، أخبرنا".

"إنه يتأمل في كهف اليابانيين".

نزل الجنود الأربعة وفتشوا الكهف الياباني. وما كانوا بالطبع ليعثروا على مامان جيندنج. وكان ينبغي أن ينتهز روميو الفرصة ويهرب، لكن مامان جيندنج ما كان ليسمح بحدوث ذلك فأوقفه، ووجد روميو نفسه يجري ولا يستطيع أن يبارح مكانه.

قال مامان جيندنج "الخائن خائن"، ولم يكن بوسع روميو أن يراه، لكنه سمع صوته المدوي.

ثم حوّل مامان جيندنج وجه روميو إلى وجهه في اللحظة التي رجع فيها الجنود الأربعة تمامًا.

"أخيرًا عثرنا عليك يا مامان جيندنج" وصوّبوا أسلحتهم إلى حيث يقف على قمة التل.

قال الرجل "أنا روميو، لست مامان جيندنج".

لكن طلقتين أجهزتا عليه وأنهتا حياته. طلقة في الرأس وأخرى في الصدر. وتلك هي الجثة التي عثرت عليها مايا ديوي، في حين صعد مامان جيندنج إلى السماء، وزارها في ثالث يوم بعد تحقيقه الموكشا.

١٨

بات ذلك الروح الهائل مبتهجا بهجة طاغية إذ شهد جميع انتصاراته، ورأى أنه ثأر لجميع ضغائنه، وأن عليه الانتظار، وتحتَّم أن يطول الانتظار.

قال لديوي آيو "لقد فصلتهم عمّن يحبونهم، مثلما فصلوني عمّن أحببت".

وتردَّد صدى صوته **لقد فصلتهم عمَّن يحبونهم، مثلما فصلوني عمَّن أحببت.**

قالت ديوي آيو "ولكنني أنا أحببتك، حبا نابعا من أعمق أحشائي".

"نعم، ولذلك هربت منك، يا حفيدة ستاملر".

نعم، ولذلك هربت منك، يا حفيدة ستاملر.

لم يكن بوسع ديوي آيو أن تصدق كم هو صارم ذلك الروح الشرير في توقه إلى الانتقام، وكم هي عميقة جذوره. لطالما بدا لها مجرد شبح عادي، عرفت دائمًا أن لديه خططا شريرة مؤجلة لمرحلة ما في

المستقبل، لكنها لم تتخيل للحظة أنه قادر على إلحاق كل ذلك الأذى، ولا تصوَّرت قط عمق تجذُّر المرارة في قلبه.

***

قال الروح الشرير "انظري إلى بناتك، كلهن الآن أرامل مثيرًات للشفقة، ورابعتهن عانس لم تتزوج قط".

انظري إلى بناتك، كلهن الآن أرامل مثيرًات للشفقة، ورابعتهن عانس لم تتزوج قط.

كان ذلك بعد أن قتل الشبح شودانتشو في كوخه الحربي، المكان الذي فرض منه سلطانه. عندما ظهر شودانتشو من العدم ذات صباح وأقعى أمام الموقد، كانت ديوي آيو قد نسيته بحق، صحيح أنه صهرها، لكنه كان ميتا منذ سنين، وحتى حينما كان حيا، كان قد مضى وقت طويل بدون أي اتصال بينهما. قال الرجل إنه ظل يمشط المدن والأدغال لسنين، منذ مجزرة بلطجية المدينة، منذ أن نفَّذ بنفسه مجزرة بلطجية المدينة، باحثا عن جثة ابنته الميتة. رجع إلى المدينة منهكا تمام الإنهاك، يجر أذيال الخيبة. لم يجرؤ على الرجوع إلى بيت زوجته ألامندا، فما كان منه إلا أن اتجه إلى بيت حماته ديوي آيو.

قال الروح الشرير "لم أجد شخصية مناسبة تلعب دور قاتل شودانتشو فقتلته بنفسي".

لم أجد شخصية مناسبة تلعب دور قاتل شودانتشو فقتلته بنفسي.

قالت ديوي آيو "كنت أعرف منذ وقت مبكر أنك كوميديان مبتدئ".

لا، لم ينفذ القتل بنفسه في الحقيقة، ليس بيديه. لكن الحقيقة أن شودانتشو لم تقتله يد بشرية. ففي عزلة شيخوخته القاسية، وبدون أن يجد الشجاعة لمواجهة زوجته التي طردته بعد أن أحال أختيها الصغريين إلى أرملتين، وبعد فقدانه ابنته الحبيبة، حاول شودانتشو مرارا أن يخفّف عن نفسه بالذهاب إلى كوخه الحربي في وسط الأدغال عند الرأس البحري. كان الكوخ على حاله التي كان عليها دائمًا، صحيح أنه لم يكن بمثل متانته في الماضي، لكنه كان لا يزال قويا بما يكفي لأن يحمله ويرجع به إلى الحنين المريح.

حاول كذلك أن يشغل نفسه مرة أخرى بتربية الأياك حول الكوخ الحربي. كان قد أصبح في حقيقة الأمر شيخا ضعيفا، لكنه دأب على أخذ الجراء من أوكارها، حتى جاءت كلبة ذات يوم تبحث عن جرائها.

كان مستلقيا على صخرة دأب في ماضيه على أن يأكل عندها هو ورجاله، هي الصخرة التي وضعت عليها رينجانيس الجميلة جثة ابنها قبل أن ترميه للكلاب، حين جاءت كلبة الأياك تلك ومعها زمرتها. ولم تنتظر الكلبة طويلًا وقد رأت عدوها في حالة ضعف، فاندفعت إليه ونهشت من عضلات فخذه. ونكرّر، كان شودانتشو في ذلك الحين

شيخا هرما، فكانت ردود أفعاله بطيئة، ومقاومته ضعيفة. وازداد عجزا عن المقاومة عندما تقدمت بقية الأياك، فوثب أحدها على ذراعه، ونهش آخر ربلته. وانفتحت جروح في شتى أجزاء جسمه ففاض دم شيخوخته على الصخرة. كان شودانتشو لا يزال قادرا على الشدّ والركل عساه يبعد عنه الأياك، ولكن جراحه كانت عميقة، وكان قد أنهك نفسه. فبدأ يهدأ، وينظر إلى السماء، مدركا أن موته وشيك، وأنه جاء على أيدي الأياك التي اعتنى بها طيلة حياته. مات ممزق الجسم، مات وقد أكل حيا. وأرجو أن تتذكّروا أن في الأياك كسلافهي لا تأكل عادة إلا الجيف، ولعل شودانتشو أحد قليل من الناس الذين أكلوا أحياء، فقد كان مقدَّرا أن يكون موته عادلا ومأساويا.

بدأت ديوي آيو تقلق على شودانتشو عندما مرّ أسبوع ولم يرجع إلى البيت من كوخه الحربي، فلم يكن في العادة يقضي كل ذلك الوقت هناك. وبعون من جنديين متقاعدين كانا فيما مضى من رجال شودانتشو، اقتحمت الأدغال عند الرأس البحري باحثة عنه. ووجدوه هناك جثة مريعة مثيرة للشفقة. كان وجهه قد تحطَّم تمامًا، فلم يتعرفوا عليه إلا من بقايا زيِّه الرسمي. لم تكن الأياك قد سحبته بعيدا بل افترسته في مكانه وهو دافئ الجسم لا يزال، وجاءت الطيور آكلات الجيف لتأكل فضلات الأياك، فلم يبق من العضل واللحم إلا الذي كان لا يزال متشبثا في العظم. ووصلت ديوي آيو قبل أن تبدأ البقية الباقية منه في التعفن.

أعادوه إلى ألامندا في كيس بلاستيكي أسود، من النوع الذي يحمل فيه رجال الإطفاء جثث الضحايا المحروقين إلى المشرحة، فقالت لها ديوي آيو بعدما وضعت الكيس البلاستيكي الأسود تحت قدميها:

"هذه عظام زوجك آتيك بها يا ابنتي، أكلته الأياك".

قالت ألامندا ولم يبد عليها أي حزن على الإطلاق "كنت أشعر بأن ذلك قد يحدث يا ماما منذ جاء إلى المدينة بكلابه الستة والتسعين ليصطاد الخنازير".

قالت أمها "احزني قليلا. ولو لأنه لم يترك لك أي شيء في وصيته".

دفنت ألامندا تلك العظام بما بقي فيها من نتف لحم عالق، فبدت أشبه بعظم البقر الذي يباع بعد تشفيته لإعداد المرق، ودفن شودانتشو في المقابر التذكارية لأبطال الحرب وأقيمت له مراسم دفن عسكرية. وسعدت ألامندا بذلك، فلو كان دفن في المقابر العامة، لصار عليها أن تقلق من تشاجر شبحه هناك مع شبح الرفيق كلايوون. سيرقد في سلام في المقابر العسكرية التذكارية في تابوت ملفوف عليه العلم الوطني. أطلقوا المدافع احتراما أخيرًا له، لكن ألامندا تخيّلت أن روحه هي التي تلقّت كل هذه الطلقات ليموت أشد ما يكون الموت، فكان لها من ذلك شيء من الإحساس بالسعادة.

وإذن فقد صارت أرملة بحق، مثل أختيها الصغريين تمامًا.

***

قالت ديوي آيو وقد عادت تنتبه للروح الشرير "أدركت للمرة الأولى أنك ساعٍ إلى الانتقام أيام مجزرة الشيوعيين واضطرار الرفيق كلايوون إلى مواجهة فصيلة الإعدام".

"كان ينبغي أن يموت آنذاك، بالإعدام".

كان ينبغي أن يموت آنذاك، بالإعدام.

قالت ديوي آيو "لكن الحب أظهر قوته الحقيقية إذ تدخلت ألامندا في اللحظة التي كان ينبغي أن يموت فيها".

ضحك الروح الشرير ساخرا. "ثم ضاجعته بعد عشر سنين قبل أن يقتل نفسه، يقتل نفسه، يقتل نفسه، فمات. ها ها ها".

ثم ضاجعته بعد عشر سنين قبل أن يقتل نفسه، يقتل نفسه، يقتل نفسه، فمات. ها ها ها.

"لكنني أخيرًا أدركت ما الذي يجري".

صحيح. كانت ديوي آيو قد أدركت أن الروح الشرير يخطط للانتقام. وكانت من قبل قد حدست أنه قد يحاول تدمير الحب في تلك الأسرة الباقية من نسل تيد ستاملر، مثلما حطّم تيد ستاملر حبه هو وما إيانج، وإن لم تتصور قط أن يكون الانتقام بهذه الضراوة. فحتى حينما كان ذلك الروح لا يزال على قيد الحياة، أحسّت ديوي آيو بعمق حزنه الذي لا قرار له، أحسّته عميقا في قلبها هي، حتى قبل أن تلتقي به،

فساقها ذلك إلى حب أعمى، ودفعها إلى الزواج. كانت تريد أن تمنحه الحب الذي لم يلقه قط من جدتها ما إيانج بعدما سطا عليها جدها تيد ستاملر، لكن الرجل رفض القبول بحبها، الحب الذي كان نقيا تام النقاء، نابعا من أعمق أعماقها. فأدركت ديوي آيو إذ ذاك أن حبه لجدتها ما إيانج لم يكن ليعوضه حب آخر، وعرفت كم عانى الرجل، بعدما سلب حبه الحقيقي الوحيد واقتلع من جذوره. فلما مات علمت ديوي آيو علم اليقين أنه مات مكلوما راغبا في الانتقام فبات شبحا لا يعرف طعم الراحة في عالم الموتى. وصحَّ ما حدسته. تبعها ذلك الروح أينما ذهبت. كانت تستشعر وجوده في بلادن كامب، وفي الماخور، وفي البيتين اللذين سكنتهما، لكنها لم تعرف أنه يخططلانتقامه الشرير حتى ذلك الصباح الذي سمعت فيه أن الرفيق كلايوون، الذي أحبته ألامندا وأديندا، محكوم عليه بالإعدام.

"لم يكن متزوجا آنذاك، وما كنت لأتركه يموت قبل أن يتزوج إحدى بناتك. ها ها ها".

لم يكن متزوجا آنذاك، وما كنت لأتركه يموت قبل أن يتزوج إحدى بناتك. ها ها ها.

لم يمض وقت طويل على وفاة شودانتشو، حينما استحضرت ديوي آيو ـبقناعة لا تتزعزعـ الروح الشرير بعون من الفتى كينكين خبير

الجيلانجكونج. فوقف الروح الشرير أمامها، يضحك ولا يسيطر على ضحكه، مبديا بهجته الطاغية العميقة الآثمة.

قال كينكين "هذا هو الروح الشرير الذي منعني المرة تلو المرة من العثور على قاتل رينجانيس الجميلة".

"نعم، وفرقت بينك وبين التي أحببت. ها ها ها".

نعم، وفرقت بينك وبين التي أحببت. ها ها ها.

وعندما عرفت من همس الريح وعواء الأياك في أعماق الأدغال أن الرفيق كلايوون لم يعدم بطلب من ألامندا، صدقت ديوي آيو أن الحب لا يزال قادرا أن ينتصر على لعنة شبح زوجها الانتقامية، لكنها لم تكن على يقين من ذلك. وبقيت طوال حياتها في كبرها تفكر في ذلك، تفكر في طريقة لإنقاذ بناتها وحماية سعادتهن، وإبعادهن عن لعنة الشبح الشرير الذي قدِّر أن يكون لما بقي من حياتها وما بعدها رفيقًا لها وخصما. فلما تزوجت بناتها بأزواجهن، أبعدت كل اثنين منهم طالبة منهم جميعًا ألا يرجعوا أبدا. ولئن كانت لم تبعد مامان جيندنج ومايا ديوي، فقد ابتعدت هي نفسها منتقلة إلى بيت جديد. كانتريد إبعاد بناتها عن الشبح، وإن لم تدرك في ذلك الوقت أن الشبح عازم على الانتقام مهما يكن الأمر.

وتجدَّدت مخاوف ديوي آيو مرة أخرى حينما حدث ـبعد عشر سنوات تقريبًا من زواج صغرى بناتهاـ أن حملت. إذ كانت فريسة جديدة تنمو في رحمها للروح الشرير. كان على ديوي آيو أن تنقذ الطفل بأي طريقة ممكنة. حاولت أن تجهضه بطرق مختلفة، لكي لا يولد في هذه الدنيا، فينجو من كل هذه اللعنات. لكن ذلك الطفل كان أقوى من محاولات ديوي آيو أن تقتله، فظلَّ ينمو في رحمها. ولو كان كتب لها أن تولد فتاة لولدت جميلة كأخواتها الكبيرَات، أو فتى لكتب له أن يكون أكثر رجال الدنيا وسامة. وطفل كذلك سوف يفيض عليه الحب من كل صوب، ويكون لديه من الحب الكثير ليمنحه، ولكن ديوي آيو كانت تشعر طوال الوقت بأن الروح الشرير كامن، ينتظر الحب ويترصَّده، ليدمِّره، بكل طريقة تتوافر له، مثلما دمَّر تيد ستاملر حبه لما إيانج.

لذلك قالت لروسينا "أنا ضجرت من إنجاب الجميلَات".

"لو أن هذا ما تريدين، فادعي أن يكون الطفل قبيحا".

كان عليها أن تشكر تلك المرأة الخرساء، إذ استجيبت دعواتها وولدت لها للمرة الأولى طفلة دميمة، أكثر دمامة من أي امرأة يمكن أن تصادفوها، برغم مفارقة أنها سمِّيت **جمال**. بوجه وجسم كوجهها وجسمها، ما لأحد أن يقع في غرامها، سواء أكان رجلا أم امرأة. وتكون تحرَّرت من لعنة الروح الشرير. فكان عليها أن تشكر روسينا.

صاح الروح الشرير "لكنها الآن حبلى، ألا يعني ذلك أن أحدًا أحبها؟".

لكنها الآن حبلى، ألا يعني ذلك أن أحداً أحبها؟

كان الروح الشرير على حق.

"لكنك لم تقتله بعد".

"لم أقتله بعد".

لم أقتله بعد.

ذات ليلة، حينما سمعت مرة أخرى جلبة غريبة، كأنها تأوّهات وأنين اثنين يمارسان الحب، اقتحمت ديوي آيو باب غرفة النوم باندفاعة بلطة، وإحباط، وهذا أقل ما يقال، لاكتشافها أن ثمة من يمارس الحب مع جمال. لقد كان ثمة من يحبها، وهذا بالضبط ما لم ترده ديوي آيو من قبل أن تولد البنت. تغلبت على قرفها، وأرادت أن تعرف أي نوع من الرجال الأغبياء ذلك الذي يحب بنتا كتلك. لكنها لم تر في الغرفة أحدًا غير جمال التي فزعت ولاذت عارية بركن الغرفة. قالت ديوي آيو في غضب وإحباط وذعر، "مع من كنت تمارسين الحب؟"

"لن أقول أبدًا، إنه أميري".

لكن ديوي آيو رأت شيئًا، لا يكاد يتجاوز مويجة ضوء تتحرك كأنما تنزل من السرير. ثم أمكنها وهي تسير حول السرير أن ترى مواطئ

قدمين جنب الكومودينو مبللة قليلًا كأنما من العرق، باهتة قليلًا في نور مصباح الغرفة. فتح الكائن الخفي الستارة بعجلة، وفتح الشباك، وبالطبع قفز منه بعد ذلك. وفي ذلك الحين ظنّت ديوي آيو أن الشبح جاء يمارس الحب مع جمال، وإن لم تخمن السبب.

قال الروح الشرير مستاء "لا لم يكن أنا".

لا لم يكن أنا.

"لكنك من منعني أن أراه".

"هذا صحيح ها ها ها".

هذا صحيح ها ها ها.

***

بدا وكأن انتقامه اكتمل على خير ما يرام، بلا أدنى مشقة، وأن لعنته مستمرة في تدمير من بقي من أسرتها. فألامندا فقدت شودانتشو، وبرغم أنها فعليًا لم تكن تحبه كثيرًا، بل كانت في واقع الأمر تكرهه تقريبًا، فقد مضت عليها لحظات قليلة اعتنت فيها به في إخلاص. وبعد فقدها طفلتيها الأولين، فقدت نور العين الثالثة، آي، التي ماتت في سن مبكرة. ومايا ديوي فقدت رينجانيس الجميلة بصورة أكثر مأساوية: إذ قتلها شخص ورماها في المحيط، ولم يعرف أحد من يكون. ثم اختفى زوجها في الموكشا بعدما رأى جميع أصدقائه تقريبًا يموتون. أما ابنة ديوي آيو الثانية، أديندا، فرأت زوجها الرفيق كلايوون ميتا بعدما شنق نفسه في غرفة النوم. ولكن

بقي لديها كريسان. وتبيَّن أن لجمال عشيقا. كان على ديوي آيو أن تنقذ البقية الباقية من الروح الشرير. ما كانت لتسمح لكريسان أن يؤخذ من أدينيدا، ولا لعشيق جمال أن يؤخذ منها كائنا من يكون. ستضحي ديوي آيو بأي شيء في محاربة الروح الشرير القائم أمامها.

قالت "لا بد أن أوقفك".

فسأل الروح الشرير "عن أي شيء؟"

عن أي شيء؟

"عن تدمير أسرتي".

"ها ها ها. دمار أسرتك مقدَّر منذ زمن بعيد. وما لشيء الآن أن يوقفني عن الانتقام".

ها ها ها. دمار أسرتك مقدر منذ زمن بعيد. وما لشيء الآن أن يوقفني عن الانتقام.

قالت ديوي آيو "لكنك عجزت عن التفريق بين هنري وآنيو ستاملر".

"لأن أحدهما من لحم ودم حبيبتي".

لأن أحدهما من لحم ودم حبيبتي.

"وأنا حفيدة ما إيانج".

"تلك صلة بعيدة".

تلك صلة بعيدة.

استلّت ديوي آيو ببطء خنجرا من جيب جيبتها. كان نصلا من نصال الجنود، لامعًا ومتينًا، قالت "عثرت عليه في غرفة شودانتشو". وشاهدها كينكين في فزع (فها هي امرأة غاضبة في يدها خنجر!)، أما الروح الشرير فارتسمت على وجهه ابتسامة احتقار. "سأقتلك بهذا النصل".

قال الروح الشرير "ها ها ها. ليس بوسع بشري أن يقتلني".

ها ها ها. ليس بوسع بشري أن يقتلني.

سألت ديوي آيو "هل لي أن أحاول على الأقل؟"

"تفضلي، تحت أمرك".

تفضلي، تحت أمرك.

اقتربت ديوي آيو بينما ابتسم الروح الشرير ابتسامة استخفاف وثقة في النفس مثيرة للاشمئزاز. أخفى كينكين وجهه غير راغب أن يكون شاهدا على قتل. وبعدما حملقت في الروح الشرير لثوانٍ قليلة وحملق هو فيها، طعنت ديوي آيو زوجها السابق بكل ما لديها من قوة، بكل قوة امرأة يضطرم في جوفها غضب عميق، وربما بقوة تباري قوة روح شريرة، فانفجر الدم منه، وطعنته ثانية، وانفجر الدم ثانية، وطعنته ثالثة، طعنته خمس مرات بقوة تزداد من طعنة إلى أخرى.

انهار الروح الشرير على الأرض، يئنّ ممسكا صدره.

قال "كيف تهيّأ لك أن تقدري على قتلي؟"

كيف تهيّأ لك أن تقدري على قتلي؟

قالت ديوي آيو "لقد متُّ وأنا في الثانية والخمسين، بقوة من إرادتي، على أمل أن يأتي يوم أقاوم فيه قوة روحك الشريرة، وأحتويها. وها أنا جئت اليوم. فهل تعتقد أن بوسع مجرد إنسان أن يقوم من قبره بعد موته بإحدى عشرين سنة؟ أنا لم أعد إنسانا، فبوسعي أن أقتلك".

"لعلك نجحت في قتلي، ولكن لعنتي باقية".

لعلك نجحت في قتلي، ولكن لعنتي باقية.

ثم مات الروح الشرير، مستحيلا إلى سحابة من دخان أسود سرعان ما اختفت وقد ابتلعها الفضاء. ونظرت ديوي آيو إلى الفتى كينكين.

قالت "مهمتي انتهت، والآن أرجع إلى عالم الموتى، مع السلامة يا بني، وشكرا لك على مساعدتك".

ثم اختفت هي الأخرى، بأن تحولت إلى فراشة جميلة طارت من الشباك المفتوح واختفت في الفناء.

كان الرجل كثيرًا ما يظهر من العدم، لكن بسبب تكرار ذلك لم تعد جمال تندهش من حضوره. فقد كان يظهر بتلك الطريقة منذ صغرها داعيا إياها إلى الحديث. وروسينا كانت طوال الوقت بجوارها، لكنها لم تكن تستطيع أن تراه، وإن استطاعت جمال. ولم تستطع روسينا أن تسمع صوت الرجل، وإن استطاعت جمال. تعلمت الكلام من ذلك الرجل. كان شيخا، طاعنا في السن إلى حد أن ابيضّ حاجباه جميعًا. كان ذا بشرة سفعتها الشمس، وعضلات بلا شحوم بعد سنين من العمل الشاق. عرفت كل ما

عرفته منه هو. وحينما حاولت روسينا أن تلحقها بالمدرسة فرفض الناظر قبولها، وهي نفسها لم ترغب في الالتحاق بالمدرسة، قال الرجل:

"أنا أعلمك الكتابة، وإن لم أتعلمها أنا قط".

أنا أعلمك الكتابة، وإن لم أتعلمها أنا قط.

وقال:

"وأعلمك القراءة وإن لم أتعلمها أنا قط".

وأعلمك القراءة وإن لم أتعلمها أنا قط.

***

بدا أن لديها كل ما كانت تحتاج إليه، وإن لم تحتج إلى شيء قط فقد كانت في غاية السعادة بمجرد صداقتها وإياه. ولم يكن الناس يرغبون في الاتصال بها، بسبب قبحها، فصاحبها هذا الرجل غير مبال بدمامتها. بل إن بقية الناس ما كانوا يرغبون أن يقابلوها في طريق، فكان ينفق وقته معها. وكثيرًا ما كانا يلعبان سويا، فكم من مرة جفلت روسينا وهي ترى انفجارات البهجة الطاغية على الفتاة فجأة وبدون سبب واضح.

كانت جمال الصغيرة في أقصى السعادة إذ تعلمت القراءة والكتابة. فقد عثرت على كل الكتب التي تبقت من أمها بعد وفاتها، وقرأتها جميعًا باستمتاع شديد، واستنسخت أجزاء منها في محاولة لتعلم الكتابة والعثور على متعة مماثلة. فكانت روسينا تنظر إليها في ثنايا ذلك بحيرة عميقة.

كتبت روسينا لجمال "كأن ملاكا يعلمك".

"نعم، يعلمني ملاك".

لم يكن الملاك يحضر بالضرورة في كل يوم، ولكن جمال كانت تتيقّن من مجيئه في أوقات معينة، حينما يحلو له المجيء، ليعلمها شيئًا ما. لم تكن تريد أصدقاء غيره، ولا غيره كانوا يريدونها بسبب قبحها. لم تكن بحاجة للخروج من بيتها لكي تلعب، إذ كان بوسعها أن تلعب داخل البيت. لم تكن ترغب في مضايقة أي أحد بالظهور بمنظرها المثير للغثيان، فلم يحدث أن ضايقتها رؤية أحد لها. كان البيت سبب سعادتها ورضاها، لأن ملاكا طيبا كان يعيش فيه وأصبح لها رفيقها العزيز.

"بوسعي حتى أن أعلمك الطهو، وإن لم أتعلمه أنا قط".

بوسعي حتى أن أعلمك الطهو، وإن لم أتعلمه أنا قط.

***

هكذا تعلمت الطهو وسرعان ما صارت خبيرة في خلط التوابل. ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد، بل بدأت تغزل، وتخيط، وتزخرف، ولعلها كانت لتقدر على التصليح وحرث الحقول لو أتيحت لها الفرصة. من ذلك الملاك تعلمت كل ما تعلمته، هو الذي علمها بصبر وجد.

سألته جمال "لو أنك لم تتعلم قط شيئًا من هذا، فكيف تعرف طريقة عمله، وكيف تعلمني أنا؟"

"أسرق من الذين يعرفون".

أسرق من الذين يعرفون.

"وما الذي تجيد عمله ولم تسرقه من غيرك؟"

"أن أسحب عربة".

أن أسحب عربة.

وهكذا كبرت في ذلك البيت مع روسينا التي سرعان ما اعتادت كل تلك القدرات الغريبة الخارقة للطبيعة التي تظهرها الفتاة. كانت جمال قد حصلت من ميراث أمها على نصيب كاف، فكل ما كان على روسينا أن تفعله هو أن تجد سبيلا إلى الاكتفاء به في حياتيهما. كانت تذهب إلى السوق كل صباح لتشتري احتياجاتهما اليومية، وتبقى جمال في البيت. وكان في هذا البيت شبح مثلما قالت ديوي آيو ذات يوم، لكن لم يبد أنه يزعج أحدًا. ولئن صحّ أنه علّم جمال كل ما تعلمته، فيمكنكم القول إنه كان شبحًا طيبًا. فلم يكن من داع لأن تقلق روسينا حينما تترك جمال في البيت وحدها.

حتى الصغار الذين كان يدفعهم الفضول في بعض الأحيان إلى التلصص من وراء السياج في خوف لم يكونوا مدعاة للقلق. إذ لم تكن جمال تظهر لهم مطلقًا، فقد كانت فتاة طيبة تعرف أنها سوف تفزعهم حتى

ليوشكوا على الموت. لم تكن تظهر إلا لروسينا التي عرفتها منذ يوم ميلادها. وكانت من الطيبة لدرجة أنضحَّت بنفسها ورغبتها في أن تعيش الحياة التي ينعم بها أغلب الناس. كانت حياتها محدودة بحدود البيت: غرفة نومها، غرفة الطعام، المطبخ، وأحيانا تخرج إلى الفناء في ظلام الليل. كانت من الطيبة بحيث ضحَّت بحياتها، أو عاقبت نفسها، وعاشت ذلك الوجود الرتيب الممل بصورة بشعة، لكنها بدت راضية تمامًا بذلك.

قال الملاك "الآن أعطيك أميرا".

الآن أعطيك أميرا.

كبرت، وصارت شابة، واشتهت بطبيعة الحال رجلا يقع في غرامها، وتقع في غرامه. وبدأ ذلك ينغص عليها حياتها، إذ كانت على يقين من أنه لن يرغب فيها رجل. فهي لم تخلق للحب. كانت فتاة دميمة ذات منخارين يشبهان سلكا كهربائيا، وبشرة مثل قعر الحلة. كانت فتاة مريعة تصيب الناس بالغثيان والرغبة في التقيؤ وفقدان الوعي من فرط الرعب والتبول في سراويلهم، والهرب كأنهم ممسوسون، لكنها لم تكن تصيب الناس بالوقوع في الحب.

"هذا غير صحيح. ستحصلين على أميرك".

هذا غير صحيح. ستحصلين على أميرك.

كان ذلك مستحيلا. فلم يكن أحد قد رآها، بل ولم يكن أحد قد عرفها، وما كان من سبيل إلى أن يقع في غرامها أحد إلا لو عرفها.

"هل كذبت عليك من قبل؟"

هل كذبت عليك من قبل؟

"لا".

"انتظري في الشرفة عند الغسق وسوف يأتي إليك أميرك".

انتظري في الشرفة عند الغسق وسوف يأتي إليك أميرك.

وكان من عادتها أن تجلس في الشرفة عند حلول الليل، لتتنسم الهواء الطازج غير قلقة من أن يضايق وجهها الممسوخ أحدًا. وفي الليل كانت تشعر بأنها آمنة، فكان الليل خير صديق لها. وكانت أحيانًا تقوم في الصباح المبكر، قبل أن تسطع الشمس على كل شيء، فتجلس بالخارج ناظرة إلى النجم الوردي المعروف بالزهرة، وكانت تحبه لما فيه من جمال. تمامًا كاسمها. وها هي وقد جلست في الشرفة في انتظار الأمير الذي وعدت به. لم تكن تعرف كيف سيكون وصوله. لعله يأتي ممتطيًا تنينًا قادمًا من الزهرة، أو ربما يظهر من تحت الأرض، منطلقًا من الأرض على نحو مدهش. لم تكن تعرف كيف سيكون ظهوره، ولكنها جلست تنتظره. ومرت الليلة الأولى بدون أن يسير أمير قرب بيتها. بل وبدون أن يسير قربه شحاذ.

لكنها كانت تؤمن بأن الملاك لا يكذب، فانتظرت مرة أخرى ليلة ثانية. ومرّت بها جنازة، لكن لم يمر أمير. ومر بائع شراب الباجيجور[51]، لكنه لم يتوقف ليلقي التحية بل ولم يلتفت إليها. ولم يمر أمير إلى أن غلبها النوم من فرط الإنهاك في كرسيها، وجاءت روسينا فحملتها إلى أعلى ووضعتها في سريرها.

---

51 الـ *bajigur* شراب ساخن محلى من جوز الهند والحليب والسكر ويضاف إليه تقليديا ورق البندان العطر، أو الفانيليا حاليا.

في الليلة الثالثة، لم يأت أحد أيضًا. وكانت روسينا تسألها عن سرّ جلوسها في الشرفة كل ليلة فتقول جمال "أنا في انتظار مجيء أميري"، وبدأت روسينا تفهم أن الفتاة دخلت طور المراهقة. كانت تعرف أن الفتاة بدأت تحيض، وباتت ترغب في حبيب. كانت تجلس في الشرفة راجية أن يراها أحد ويقع في غرامها. حزنت روسينا ومضت إلى غرفتها، فبكت تعاسة حظ جمال القبيحة التي لم تدرك أنه ما لأحد أن يحبها مهما طالت بها الحياة. وأنه ما من أمير لها.

ولكن جمال بقيت تنتظر في الليلة الرابعة، والخامسة، والسادسة، وفي الليلة السابعة، ظهر من وراء الآكام رجل على حافة الفناء، فجفلت. كان وسيمًا فأيقنت على الفور أنه أميرها. كان في قرابة الثلاثين، رقيق النظرة، بشعر مصفف بعناية إلى الوراء، يرتدي ثيابًا سوداء. كان يمسك وردة، ويسير باتجاهها، ثم مدَّ إليها الوردة في تردّد، كأنما يتخوّف أن ترفضها.

قال الرجل "هي لك يا جمال".

قبلتها جمال بقلب مزهر، ثم اختفى الرجل. وعاد فظهر في الليلة التالية ومعه من أجلها وردة أخرى، ثم اختفى مرة أخرى. وفي الليلة الثالثة، بعد أن أعطاها وردة أخرى، وبعد أن قبلتها جمال، قال الرجل:

"ليلة غد سوف أنقر شباك غرفتك".

طوال النهار كانت تنتظر مجيء الليل حتى يظهر أميرها عند شباك غرفتها، مثل فتاة في انتظار موعدها الغرامي الأول. لم تدر أي فستان

عليها أن ترتديه، وحارت في أمر ثيابها أمام المرآة. نسيت أمر وجهها الدميم وحاولت أن تزيِّن نفسها بكل ما كان على تسريحة أمها، بل واستعارت أشياء من حقيبة روسينا. روسينا نفسها لم تعرف بزيارات الرجل، وكلما كانت جمال تدخل بوردة كانت تتصور ببساطة أنها قطفتها بنفسها. ولكنها احتارت، أو حزنت، حينما رأت جمال تزيّن نفسها في جلبة طيلة النهار.

وحدَّثت نفسها وهي تجفّف دموعها بأنها "أشبه بضفدع يحاول أن يجمِّل نفسه فيصير أميرًا".

وودَّت جمال لو تقابل ذلك الشيخ الهرم، ذلك الملاك الطيب الذي كان يحلو له أن يظهر من العدم، لكنه لم يعاود زيارتها منذ أن بدأ الأمير في المجيء، برغم أنها كانت تودّ أن تطرح عليه الكثير من الأسئلة، من قبيل ما الذي ينبغي أن تتجهّز به الفتاة للموعد الغرامي الأول، وما الذي ينبغي أن تقوله أو تفعله إذا أغواها الأمير، وماذا عليها أن تفعل حينما يطرق شباكها وتفتحه، ولو كان عليهما أن يتكلما، ففي أي شيء ينبغي أن يكون الكلام. كانت تريد أن تناقش الملاك الطيب في كل شيء، لكن الشيخ لم يظهر قط.

وفي نهاية المطاف ارتدت فستانها اليومي المعتاد ومضت تنتظر في لهفة حلول الليل. لا في الشرفة، بل في غرفتها. جلست على طرف السرير، وقد بدا عليها التوتر، واشرأبت أذناها، كأنها متقدمة لوظيفة وتنتظر النداء على اسمها، متخوفة ألا تسمع صوت طرقاته، التي قد تكون أرقَّ من أن تبلغ أذنيها. وبين الحين والآخر كانت تقف وتطل من

وراء الستارة، فلا ترى غير الفناء بنباتاته الغارقة في سواد الليل، فتجلس مرة أخرى على طرف السرير، متوترة مثلما كانت.

ثم سمعت الطرقة، رقيقة تحملها على إرهاف السمع، ثم سمعت الطرقة مرة ثانية، فثالثة. بمشاعر مختلطة، ومشية أقرب إلى الهرولة، مضت جمال باتجاه الشباك وفتحته.

هنالك كان أميرها واقفًا، وفي يده كدأبه، وردة.

سألها الأمير "هل يمكنني الدخول؟"

أومأت جمال في حياء.

بعدما أعطى الوردة لجمال، قفز الأمير عابرًا الشباك إلى الغرفة. توقف للحظة، ناظرًا حوله، ماضيًا ببطء من أحد أركان الغرفة إلى الآخر، ذهابًا وإيابًا، ثم التفت إلى جمال التي كانت قد أغلقت الشباك بدون أن توصده. جلس الأمير على طرف السرير، وأشار إلى جمال أن تجلس بجواره. أطاعت الفتاة، ولوهلة بقي الاثنان صامتين.

قال الأمير "منذ وقت طويل وأنا أريد أن أقابلك".

طربت جمال لما قاله فلم تسأله من أين عرفها.

وأكمل الأمير "منذ وقت طويل وأنا أريد أن أعرفك، ومنذ وقت طويل وأنا أنتظر أن ألمسك".

قال ذلك فتسارع خفقان قلب جمال. لم تجرؤ على أن تنظر إلى الرجل، وأحست بجسمها كله باردًا بينما يلمس الرجل يدها، ويحتفظ بها بين يديه في رقة.

سأل الأمير "هل تسمحين لي أن أقبل ظاهر يدك؟" فلم ترد جمال، أو لعلها لم تقو على الرد، فقبّل الأمير يدها اليمنى.

سيطرت على لقائهما الأول كلمات الأمير، بينما لزمت جمال الصمت أغلب الوقت، وقد تمكّن منها الحرج والحياء، فكانت بين الحين والآخر تكتفي بالإيماء أو بهزّ رأسها، ثم يغلبها الحرج والحياء من جديد. وقضيا ساعة ونصف الساعة على تلك الحال إلى أن حان وقت رجوع الأمير إلى البيت. فترك غرفتها مثلما دخلها، قافزًا من الشباك. لكنه قبل أن يغادر اتفق معها على اللقاء التالي.

"انتظريني مثلما انتظرتني الليلة في العطلة الأسبوعية".

على أي حال، في عطلة ذلك الأسبوع تعهّدت جمال بأن تتكلّم. لن تظل مكتومة تومئ وتهز رأسها في خجل وحياء. كان عليها أن تتكلم وتفعل كل ما يلزم لكي لا يضجر منها الأمير. ولم يحضر الشيخ مرة أخرى، لكن جمال لم تعد تبالي. فقد وجدت له بديلًا أجمل منه منظرًا، وأطيب قلبًا، وتلطفًا إليها، وإغواء لها في أكثر الأحيان، ولعله يحبها. ومضى قلبها يخفق في انتظار العطلة الأسبوعية.

ومثلما وعدها، جاء الأمير، حاملًا وردة كالمعتاد. دخل من الشباك وجلس على طرف السرير مع جمال. وبادرت جمال فسألته بصوت مهزوز:

"من أين أتيت بالوردة؟"

"من فنائكم".

"فعلًا؟"

"ليس لديّ مال".

وضحكا.

ثم تناول الأمير يد جمال من جديد، وفي هذه المرة أمسكت جمال يده مثلما أمسك يدها. وبدون استئذان قبل الأمير ظاهر يدها، فأرجع جمال إلى عهدها القديم، إذ سيطر عليها الخجل والحياء. شعرت به يتحسّس برقة يدها، بلمس رقيق وهادئ خدَّرها وطفا بها كمن ينجرف في هدوء إلى النوم. وبغتة وجدت الرجل في مواجهتها، فوجهه أمام وجهها تمامًا، فاشتد خفقان قلبها أكثر وأكثر، قبل أن تدرك ما الذي يجري، وترى أن ذلك الوجه يقترب، وتشعر بشفتيها بين شفتي الأمير، ثم بشفتي الأمير تسحقان شفتيها، وتبللانهما مثلما لم تتبللا من قبل. حاولت أن تبادله قبلاته، وبدأت تشعر بأن الأمر لا يقتصر على شفتيه، إذ بدأ اللسانان يتصادمان ويتلاعبان. ظلا لوقت طويل في تلك القبل، لقرابة الساعة ونصف الساعة، إلى أن حان وقت رجوع الأمير إلى البيت.

وفي هذه المرة جمال هي التي قالت "سأنتظرك في عطلة الأسبوع" فأومأ لها الأمير ببسمته الساحرة.

تلك القبلات تركت أثرًا حبيبًا إلى نفس جمال، فتمنّت أن تحلّ العطلة الأسبوعية بسرعة ذبابة طائرة تذهب وتجيء ثم تذهب وتجيء. كانت في اليوم التالي لا تزال تستشعر سخونتها، وبقيت تستشعرها في

اليوم التالي له أيضًا. تذكّرت، خطوة بعد خطوة، كيف وصلا إلى لحظة القبلات تلك، فكان قلبها يرتعش كلما فكرت في ذلك المسار.

وذلك ما كان في لقائهما التالي، كانت القبلات أول ما قاله أحدهما للآخر. بدأت القبلات عمليًا عند حافة الشباك، وجمال واقفة في غرفتها والأمير لا يزال واقفًا بالخارج. وأخيرًا قفز الأمير من الشباك إلى الغرفة وأغلقت جمال الشيش، وبقيا طوال الوقت لا يغلقان شفاههما، إذ استمرت القبلات بينهما داخل الغرفة، وجمال مضغوطة إلى الجدار والأمير ضاغط على كامل جسمها، بجموح ورغبة طاغية.

وفي بطء وإصرار بدأت يدا الأمير العابثتان تنسلّان تحت فستان جمال، فبات الجو داخل الغرفة أشد سخونة. خلعا ثيابهما قطعة بعد قطعة، ملقيين بها على الأرض حتى تعرّيا تمامًا وحمل الأمير جمال إلى السرير.

قال الأمير "سوف أعلمك ممارسة الحب".

قالت جمال "نعم، علّمني".

وكذلك كانت البداية. كانت جمال لا تزال عذراء فتأوّهت، حبيسة بين إحساسها بالألم وباللذة، مثيرة من الجلبة ما أوقف روسينا وراء باب غرفة النوم في حيرة. وفتحت الباب (الذي نسيت جمال أن توصده) فرأت جسم جمال العاري يغوص ويعلو على السرير. فهزّت رأسها في أسى، وأغلقت الباب برقة، وابتعدت. بينما استمر الأمير

يسحق فرج جمال، جاعلًا إياها تنزف، وجاعلًا إياها في الوقت نفسه تصرخ من بهجة صافية.

كان أميرها يأتي دائمًا من الشباك لكن جمال بقيت تنتظره دائمًا في الشرفة، لأنها كانت ترغب في رؤيته لحظة وصوله، مدفوعة إلى ذلك بشوق لا تملك السيطرة عليه. وكانا يمارسان الحب كلما التقيا، ومرتين في بعض الأحيان، فشعرا بأنهما أسعد اثنين في العالم. لم تتساءل جمال عن السبب الذي يجعل روسينا عاجزة عن رؤية الأمير، أو يجعل ديوي آيو التي قامت من المقبرة ورجعت إلى البيت واقتحمت الباب عاجزة هي الأخرى عن رؤية الأمير. ولكن المعجزات كانت طعام أهل ذلك البيت اليومي، فلم تندهش. فروسينا في نهاية المطاف لم تر الملاك الشيخ قط، برغم أن جمال كانت تراه.

ثم حملت جمال.

ولكن حتى بعدما أدركت أنها حبلى، بقيت جمال تنتظر مجيء الأمير ليمارسا الحب. لم تخبر الأمير قط بحملها، خشية أن يأتي هذا على سعادتهما.

إلى أن حدث ذات ليلة، ولم يمض وقت طويل على اختفاء ديوي آيو من جديد في عالم الموتى، وبينما كانت جمال والأمير نائمين معًا في سريرها، ينالان بعض الراحة بعد ممارستهما الحب، أن اقتحم رجل الغرفة وفي يده بندقية. كان رجلًا قصير القامة، ممتلئًا، عليه سمت

الحزانى. ارتعش قليلًا في خوف حينما رأى وجه جمال، لكن نظرته تحولت بسرعة إلى الأمير، وقد طفحت بالغضب.

قال "أنت! يا قاتل رينجانيس الجميلة، جئت أنتقم منك لقتلها!".

لم يقو الأمير على حماية نفسه من البندقية إذ انطلقت رصاصتها المصوَّبة بدربة فأصابته في منتصف جبهته. خرّ ساقطًا على السرير، محتضرًا، وأعاد الرجل تعمير البندقية بطلقة جديدة أطلقها مرة أخرى على الأمير. أطلق عليه حتى خمس طلقات، طافحة بالكراهية، بينما تصرخ جمال وتصرخ.

كل ما علمه الجميع هو أنه قتل بالرصاص في أثناء زيارته بيت جدته.

حضر دفن كريسان جميع أفراد عائلته، بينما أديندا غارقة في الحزن. وإذ ذاك اكتمل كل شيء: ألامندا فقدت شودانتشو وآي، ومايا ديوي فقدت مامان جيندنج ورينجانيس الجميلة، وأديندا فقدت كريسان بعدما فقدت الرفيق كلايوون. كلهم فقدوا جميع أحبابهم.

سار الثلاث وراء نعش كريسان، متجهين إلى مقابر بوذية الدارما، وطوال الطريق كانت ألامندا ومايا ديوي تواسيان أديندا.

قالت أديندا وهي تبكي "كأننا عائلة ملعونة".

فقالت ألامندا "لا تقولي كأننا. نحن عائلة ملعونة حقا وتمامًا".

كان الشيخ كامينو يحفر مقبرة كريسان بجوار مقبرة أبيه نزولا على طلب أديندا التي كانت قد ادخرت تلك القطعة المجاورة لنفسها.

ولم تكن النساء يذهبن في العادة إلى المقابر، بل في حالات خاصة جدا، حين لا تقوى امرأة على مفارقة ميت عزيز، مثلما حدث مع فريدة قبل سنين. أما في دفن كريسان فحضرت ثلاث شقيقات، وستة من الجيران حملوا النعش، وإمام المسجد ليؤم صلاة الجنازة.

ولم يكن في المكان غير أولئك، واقفين جميعًا في ثياب داكنة أسفل مظلات تحميهم مما لا يعلمه إلا الله، فالشمس لم تكن ساطعة بشدة في عصر ذلك اليوم ولم يكن مطر ينهمر. لم يكن غير أولئك الثلاثة، إلى أن ظهرت بعد وقت طويل بقعتان داكنتان في البعيد. وظلّتا تقتربان وتقتربان إلى أن تكشّفتا عن قوامي شخصين، فلما اقتربا أكثر إذا بهما امرَاتان أخريان، عليهما أيضًا ثياب الحداد.

الأغرب أن المرأتين ما جاءتا إلا لوداع الفتى كريسان، لحظة أن كانت جثته تُسجّى وبدأ التراب يبلعه. ذهلت الشقيقات الثلاث، لا بحضورهما فقط، بل وبالوجه الدميم لإحداهما وقد حسبا في البداية أنه لا يمكن أن يكون إلا وجه شبح من أشباح المقابر. لكنهن سرعان ما تذكرن النمائم عن ابنة ديوي آيو الرابعة التي لم يلتقين بها قط، والتي كان يتردَّد أنها دميمة كالمسخ. تلك المرأة، القبيحة منهما، بدت مكلومة لموت كريسان، فهي تبكي وتنظر في يأس إلى الجسد المسجَّى في كفنه

وقد بدأ يواريه التراب، وكأنها عازمة على منعه من الذهاب. بل لقد بدت أشد حزنًا من أديندا نفسها.

ألامندا هي التي جرَّأت نفسها على السؤال "آأنت جمال؟"

أومأت جمال وقالت "وأعرف أنكن ألامندا وأديندا ومايا ديوي".

قالت ألامندا "كلنا بنات ديوي آيو"، وعانقت جمال غير مبالية بوجهها الممسوخ.

تكلمت جمال ثانية فقالت "أرجو أن تقبلن عزائي في وفاة الوحيد الذي بقي لكن".

وعندما انتهت مراسم الجنازة ذهبن جميعًا إلى بيت ديوي آيو الذي كانت جمال وروسينا تعيشان فيه. طفن بالبيت يطالعن الصور المعلَّقة على الجدران، صورهن وهنَّ صغيرات، وصور ديوي آيو، باكيات وهن يتذكرن ماضيهن العصيب. صرن عصبة من اليتيمات الوحيدات. لم يبق لأي منهن إلا الأخريات، ولم يبق لهن إلا العمل على أن تكون إحداهن للباقيات.

قالت جمال "ماما رجعت، ولكنها لم تقم طويلًا، ورحلت قبل موت كريسان".

قالت مايا ديوي "هذا حال الموتى. زوجي أيضًا رجع في ثالث يوم بعد وفاته".

وبعد ذلك عشن جميعًا كل واحدة في بيتها، مواصِلات حيواتهن الهادئة. ولكي يسرِّين عن أنفسهن كن يتزاورن. وبعد أول ظهور لها في الجنازة، اجترأت جمال على الخروج من البيت لزيارة أخواتها

الكبيرات، غير مبالية بحملقات الناس. كانت ترتدي فستانًا ساترًا ونقابًا تغطي به كامل وجهها. ووجدت النسوة في حياتهن الجديدة متعة، وحاولن أن ينسين شقاء الماضي الذي عرفنه بحب إحداهن للأخريات، ورضاهن جميعًا بذلك الحب.

وكذلك عشن إلى أن هرمن، حتى كثرت نمائم الناس حولهن فكانوا يقولون حين يرونهن معًا إنهن "عصابة الأرامل".

لكنهن كن سعيدات، محبات لبعضهن البعض.

وفي الشهر السادس من الحمل، أنجبت جمال قبل الأوان، ومات وليدها قبل أن يبكي أو يصيح. فدفنته أخواتها في حديقة وراء البيت بمساعدة روسينا الخرساء.

سألت ألامندا "ألم تسمّيه قبل أن تدفنيه؟"

"الاسم كفيل بأن يزيدني حزنًا عليه".

سألت أديندا "هل لي أن أعرف ابن من هذا الطفل في الحقيقة؟"

"ابني أنا وأميري".

طبعًا بقي الكثير مكتومًا بينهن. فلم يرغمن جمال على الكلام عن أبي الولد الذي تسمّيه الأمير. دفنَّ الطفل وتابعن هن حيواتهن، تحب إحداهن الباقيات، وتحرسهن.

عندما عثر على جثة رينجانيس الجميلة، عانى كريسان خوفًا قاتلًا من أن يكتشف الناس أنه الذي قتل الفتاة. واشتد عليه الخوف وقد زاد

على القتل أنه أخفى جثة آي تحت سريره، بينما كان شودانتشو يبحث عنها في غضب مستعر.

فكر أن يرجع الجثة إلى المقبرة، لكنه خشي أن يراه أحد وهو يفعل ذلك، فمنذ أن اكتشف شودانتشو أن أحدًا قد نبش قبر ابنته وسرق جثتها، صارت للمقابر حراستها. فلم يكن إرجاع جثة آي إلى مقبرتها بالعمل الحكيم على الإطلاق، وأوشك الفتى أن يفقد عقله من فرط التفكير في طريقة يخفي بها الجسد من تحت سريره قبل أن يكتشفه أحد.

حبس نفسه في غرفته، موصدا الباب طول الوقت، خشية أن تدخل أمه وجدته للتحقق من مصدر العبق العطر الرقيق المتصاعد من تحت السرير. حتى إنه صار يكنس غرفته بنفسه لكي لا تحاول أمه أو جدته الدخول للتنظيف.

بل وحاول كريسان تقطيع جثة الفتاة التي أحبها إلى قطع صغيرة يسهل عليه التخلص منها، فقد يجعل منها طعامًا للكلاب ويكون ذلك أكثر أمنا من إرجاعها إلى القبر، وبهذه الطريقة لا يمكن العثور عليها مطلقًا. لكن كريسان كان يرى الوجه الجميل، الوجه الذي لم يتحلَّل حتى في الموت، الوجه الذي بقي كأنه وجه نائمة ينتظر أن تصحو في أي وقت وهي تفرك عينيها، فلا يقوى على تمزيق الجثة. لقد أحب كريسان الفتاة حبا عظيما، وكان يبكيه مجرد تصور نفسه وهو يمزقها قطعا صغيرة، فلا يقوى على رفع الساطور الذي يكون قد جهَّزه، فيعيد نور العين، في كفنها الذي لا يزال عليها، إلى مكانها تحت السرير.

وأوشك أن يبلغ اليأس، ويعترف بجميع خطاياه، حينما خطرت له فكرة عبقرية. ليس عليه إلا أن ينفِّذها ويودِّع آي.

مثلما ذهب إلى المحيط هو ورينجانيس الجميلة وجثة آي، ألبس الجثة ثيابا له. وفي الليل، إذ اقترب الفجر، حمل الجثة على ظهره وركب دراجته إلى الساحل. سرق القارب الذي سبق أن سرقه. ومضى بجثة آي إلى عرض المحيط. ولم يصطحب جثتها فقط، بل أخذ حجرين كبيرين، كل منهما أكبر من مثلي حجم رأسها.

بلغ الموضع الذي قتل عنده رينجانيس الجميلة مع بداية اليوم الجديد. كان ذلك الجزء من المحيط شديد العمق، فحتى أسماك القرش لن تعثر عليها هناك. ربط جثة الفتاة بالحجرين، والدموع تنساب على وجهه، لكن كان لزاما عليه أن يفعل ذلك، وأحكم الربط بحيث لا تقوى حتى أسماك أبي سيف على قطع الحبل. وبثقل ذينك الحجرين، ألقى الجثة فسارعت بالغوص إلى أعماق المحيط غير مخلفة وراءها من أثر. ولم يعد لشودانتشو أن يعثر عليها، وإن بحث لمئة سنة.

مثقل القلب قصد كريسان البيت، لكن في سلام بعد طول خوف. ومرَّ في طريقه بصياد سمك كان وحده في قاربه، فسأله ذلك الصياد.

"ما الذي تفعله وحدك في المحيط بدون سمكة واحدة في قاربك؟"

ما الذي تفعله وحدك في المحيط بدون سمكة واحدة في قاربك؟

قال كريسان وهو يرتعش إذ سمع صدى صوت الصياد يرتد منعكسا على ما لا يعلم إلا الله: "كنت أتخلص من جثة".

"مفطور القلب على حبيبة جميلة؟ ها ها ها. فلأسدِ لك نصيحة صغيرة يا غلام، ابحث عن حبيبة قبيحة. القبيحات لن يفطرن قلبك".

مفطور القلب على حبيبة جميلة؟ ها ها ها. فلأسدِ لك نصيحة صغيرة يا غلام، ابحث عن حبيبة قبيحة. القبيحات لن يفطرن قلبك.

ثم إن الصياد انصرف عنه، قاصدا الاتجاه العكسي، وبقي كريسان يفكر في نصيحته. ولما وصل إلى الموضع الذي ترك فيه دراجته قال لنفسه "لعل هذا صحيح، عليَّ أن أبحث عن حبيبة قبيحة، هي الأقبح في العالم".

لم يكن وقت طويل قد مضى منذ أن قتلت ديوي آيو الروح الشرير، حتى لعب كينكين الجيلانجكونج عند مقبرة رينجانيس الجميلة. كان على يقين أنه في هذه المرة سوف ينجح، فالشرير الذي طالما اعترض طريقه مني أخيرًا بهزيمة. وضع تمثالا على هيئة دمية خشبية في التراب فوق المقبرة لتكون وسيط استحضار روح رينجانيس الجميلة، ثم بدأ يتلو التعاويذ. وبدأت الدمية ترتعش في دلالة على أن الروح قد حضرت، ثم إنها اهتزت اهتزازا عنيفا، في دلالة على أن الروح غاضبة أشد الغضب، وبعد ذلك تهاوت تقريبًا. حاول كينكين أن يهدئها، لكن روح رينجانيس الجميلة وبَّخته.

"ماذا أنت فاعل أيها الأحمق؟"

"أستحضر روحك".

قالت رينجانيس الجميلة "طبعا، هذا واضح، لكن اسمع هنا: مهما يكن الأمر، فلن تتمكن مطلقًا من الزواج بي".

قال كينكين وهو منهك الجسد أمام الدمية، متضرِّعا إليها في حقيقة الأمر "كل ما هناك أنني أريد أن أعرف من قتلك. أرجوك اسمحي لي أن أثأر لك، وأثأر لحبي".

قالت الدمية الخشبية، رينجانيس الجميلة:"حتى لو عشت ألف عام فلن أخبرك من الذي قتلني".

"ولم لا؟ ألا تريدين أن أثأر لوفاتك؟"

"لا، لأنني لا أزال أحبه".

"إذن أقتله فتلتقيان في عالم الموتى".

"هراء. إنما تحتال عليّ"، واختفت رينجانيس الجميلة.

لكنه أخيرًا عثر على الحقيقة، لا من روح رينجانيس الجميلة، بل من روح أخرى، روح لم يستطع أن يحدِّد صاحبها. كان يستحضر أرواحا عشوائية، موقنا أنه لم يبق من أحد يمنعها من قول الحق، وأن جميع الأرواح تعرف ما لا يعرف البشر. استحضر روحا بدت روح شيخ ضعيف لكنها كانت ذات صوت قوي.

"ها ها ها. لم أعد قويا كما كنت من قبل. لكنني رجعت يا غلام".

ها ها ها. لم أعد قويا كما كنت من قبل. لكنني رجعت يا غلام.

سأل كينكين "هل تعرف من قتل رينجانيس الجميلة؟"

"نعم. كريسان هو الذي قتل رينجانيس الجميلة. اقتله، لو أنك فعلًا تحب الفتاة، ولو أن ما بين ساقيك خصيتان. ها ها ها".

نعم. كريسان هو الذي قتل رينجانيس الجميلة. اقتله، لو أنك فعلًا تحب الفتاة، ولو أن ما بين ساقيك خصيتان. ها ها ها.

وكذلك قتل كريسان، في بيت جمال، بخمس طلقات أجاد التدرب على إطلاقها من بندقية رش.

وقضى بعد ذلك سبع سنين في السجن تحت رحمة أشراره، يلاط به مرة كل أسبوع، ويضرب مرة كل يوم، ويسلب منه نصف طعامه في كل وجبة، وافتقد كل الممتلكات التي أعطاها لكامينو طوال فترة حبسه. وبرغم كل تلك المعاناة في السجن كان سعيدا، فقد كان هناك خدمةً لحب حقيقي، وثأرًا للمرأة التي أحبها منذ أن وقعت عليها عيناه.

ونال العفو قبل سنة من قضائه الحكم لحسن السير والسلوك فخرج من السجن. بدا في العالم الخارجي هزيلا باليا، بشعر طويل أشعث ووجه لم يبق فيه إلا جلد على عظم، ناتئ الحاجبين وعظمتي الوجنتين. كان أقرب إلى هيكل عظمي حي، لكنه تنفَّس هواء حريته بإحساس كامل بالاستقلال.

وبرغم حصوله على شيء من الثياب والمال للطعام والمواصلات، فقد سار من سجن المدينة، ولم يبدِّل ثيابه، بل بقي بأسمال السجن البالية كأنه أحد المتشردين في المدينة. كانت الملابس التي منحوها لها مطوية في يده، والنقود التي أخذها منهم كما هي في جيبه. لم يشأ أن يتوقف في أي

مكان، أو يضيع أي وقت. كان يريد أن يرجع إلى البيت ليتأكد أن ذلك الرجل قد دفن.

وأخيرًا عثر على قبر كريسان بجوار قبر الرفيق كلايوون. كان اسمه مكتوبًا بوضوح على شاهدة القبر، فلم يكن من مجال للخطأ. وضع كينكين شاهدة قبر جديدة، ورمى القديمة حاملة اسم كريسان، وثبت الجديدة التي أعدَّها.

وهكذا فالمكتوب الآن هو هذا: كلب (١٩٦٦ـ١٩٩٧)

لسنين ظل كريسان يفكر في تلك الفكرة، فكرة الحبيبة الدميمة. فكان يسأل نفسه "وما عيب القبيحات؟ قابلات للمضاجعة، عادي جدا، شأن الجميلات". وتذكر ما كان يقال عن ابنة ديوي آيو الدميمة، وإنها قد تكون أبشع أهل الأرض منظرا، ومع أنه كان يعلم أن ديوي آيو جدته، بما يعني أن ذات الوجه القبيح التي يقال إنها سمِّيت جمال خالته، لم يبال. فقد ضاجع من قبل ابنة خالته، فما الضرر من أن يضاجع خالته نفسها؟

وهكذا مضى ذات ليلة إلى بيت جدته ورأى أن الفتاة جالسة في الشرفة كما لو أنها تنتظر أحدًا. لم يكن يعرف كيف سيتعرَّف إليها، فظل لعدد من الأيام يراقبها في الظلام قبل أن يرجع منهكا إلى البيت. وفي اليوم السابع فقط اجترأ على المرور من سياج الفناء الشجري، فقطف زهرة من الفناء، واقترب من جمال، فمنحها الزهرة.

قال "هي لك يا جمال".

وبعد ذلك مضت الأمور على ما يرام، إلى أن تناكحا في النهاية. وتناكحا. وتناكحا. واستمرًا في النكاح. فأي فارق إذن؟ كل شيء بدا كما هو. لم يكن من فارق بين النوم مع رينجانيس الجميلة والنوم مع جمال الدميمة. كل شيء كما هو، كل شيء ينتهي بالقذف من قضيبه. استمر يمارس الجنس مع المرأة. إلى أن اكتشف أن الفتاة حبلى، فلم يبال، واستمر ينكحها.

إلى أن جاء يوم سألته فيه جمال "ما الذي يجعلك تريدني؟"

وبدون أن يعرف أصادق هو أم كاذب قال لها "لأنني أحبك".

"تحب امرأة دميمة؟"

"نعم".

"لماذا؟"

ولأن السؤال عن لماذا صعب دائمًا، لم يجب. كان بوسعه فقط أن يجيب عن كيف، فذلك أمر يسير. ولكي يؤكد حبه، ظل يمسدها، غير مكترث بدمامتها، ومنظرها المرعب المثير للغثيان. بدا كل شيء على ما يرام، إذ كان قد اكتشف متعة غير كل متعة سبق أن عرفها في ما مضى من حياته. لكن جمال ظلت تلح عليه كلما التقيا لممارسة الحب، بسؤاله "لماذا"، فيبقى كريسان صامتًا، برغم أنه كان يعرف الجواب، لم يشأ أن يقوله. لكنه في الليلة السابقة على مقتله قالها أخيرًا.

اعترافه الرابع:

لأن الجمال جرح.

لأن الجمال جرح.

عن المؤلف

ولد إيكا كورنياوان في نوفمبر سنة ١٩٧٥ ، في تاسيكامالايا بغرب جاوة، ونشأ في بلدة ساحلية صغيرة تدعى بانجانداران. درس الفلسفة في جامعة جادجا مدى. ويعمل علاوة على الكتابة مصمم جرافيك. يكتب الرواية والقصة القصيرة والسيناريو السينمائي والمقال. ترجمت أعماله إلى أكثر من أربع وعشرين لغة. اختارت نيويورك تايمز روايته "الجمال جرح" ضمن أبرز مائة كتاب في سنة صدور ترجمتها الإنجليزية. وفي عام ٢٠١٦ كان أول كاتب إندونيسي يرشح لجائزة مانبوكر الدولية عن روايته Man Tiger.

الكتب خان للنشر والتوزيع®

١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.

تليفون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+

بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com

موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com



رواية تتحدى الواقعية السحرية لجابريل جارسيا ماركيز.
الآندبندنت

روائي عظيم لا يجب أن تفوتك فرصة قراءة "الجمال جرح".
أوبرا وينفري

ربما تكون المرة الأولى التي نُقدم فيها لقارئ العربية كاتبًا كبيرًا من إندونيسيا. ذلك الأرخبيل المهول في جنوب شرق آسيا بجُزره التي تقارب ألفي جزيرة. وكاتب هذا العمل إيكا كورنياوان قال عنه النُقاد إنه تلميذ مخلص لجونتر جراس وسلمان رشدي وجارسيا ماركيز. وعلى غرار ماكوندو القرية الشهيرة في مائة عام من العزلة يخلق كورنياوان في الجمال جرح بلدة هاليموندا ويجعل منها مسرحًا ليعرض عليه تاريخ إندونيسيا المعاصر، وما شهدته من حوادث كبيرة على مدار القرن العشرين. عبر ثلاثة أجيال من أسرة واحدة، يحكي عشرات الحكايات، مُخلصًا لكلّ حكاية منها، كأنّما هي هدفه الوحيد من الرواية كلها، ثم ينصرف إلى حكاية أخرى، حتى ليوشك كلّ فصل في هذه الرواية، أن يكون في ذاته قصة طويلة محكمة.

تجمع الرواية بين الحسّ الملحمي والتاريخ، والتراجيديا العائلية، والخرافات والكوميديا اللاذعة والرومانسية في سلاسة مذهلة، كما وصفتها الصحافة الفرنسية حين صدور ترجمتها في باريس عام ٢٠١٧.

وُلد إيكا كورنياوان بجزيرة جاوا عام ١٩٧٥، ودرس الفلسفة بجامعة جادجا مدى، وهو يكتب الرواية والقصة والمقال والسيناريو السينمائي. صدرت له أربع روايات وخمس مجموعات قصصية وكتاب واحد من المقالات. تُرجمت أعماله إلى ٢٧ لغة، وكان أول كاتب إندونيسي يصل إلى القائمة الطويلة لجائزة مان بوكر عام ٢٠١٦ بروايته "الرجل النمر". أما الرواية التي بين أيدينا الجمال جرح فقد حصلت على جائزة "وورلد ريدر" لعام ٢٠١٦ فضلًا عن ترشحها لجائزة ميدسيس الفرنسية لعام ٢٠١٧.

أحمد شافعي، شاعر وكاتب ومترجم مصري، ولد عام ١٩٧٧، درس الأدب الإنجليزي، له العديد من الكتب المترجمة، منها "قصص- أليس مونرو". ترجم إلى العربية الشاعر الأمريكي تشارلز سيميك "العالم لا ينتهي"، والشاعر الأمريكي راسل إدسن "كلنا نولد مصابين بالغثيان". صدرت له رواية "الخالق" وعدة دواوين شعرية منها "وقصائد أخرى"، و"٧٧".



